



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية أصول الدين
قسم العقيدة ومقارنة الأديان



أبو الحسن علي الحسيني الندوي

وبناء علم الكلام الجديد

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية
تخصص: عقيدة

إشراف الدكتور:

عبد المالك بن عباس

إعداد الطالب:

جمال الأشرف

| الاسم واللقب | الرتبة | الجامعة | الصفة |
|-----------------------|---------------|-----------------------------------|--------|
| أ.د. فاتح حليمي | أستاذ | جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة | رئيسا |
| د. عبد المالك بن عباس | أستاذ محاضر أ | جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة | مشرفا |
| د. أحسن برامة | أستاذ محاضر أ | جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة | مناقشا |
| أ.د. عبد الرحمن تركي | أستاذ | جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي | مناقشا |
| د. خالد حباسي | أستاذ | جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي | مناقشا |
| أ.د. مرزوق العمري | أستاذ | جامعة الحاج لخضر - باتنة 1 | مناقشا |

السنة الجامعية: 1439-1440 هـ / 2018-2019 م

جامعة الأميرة
عبد القادر للعطوم الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مكتبة
١٤٢٠

جامعة الأمير

الإسلامية

جامعة الأمير



مقدمة

القول في العلم والاسلامية

مقدمة:

يعد الندوي من كبار العلماء والمفكرين الإسلاميين في العصر الحديث الذين أسهموا بجهود مشكور في تجديد الفكر الإسلامي وإحيائه، وتحريره من الجمود الذي شلّ حركته، وذهب بروائه ونضارته.

شهدت على ذلك كتبه وبحوثه، ورسائله التي قاومت التبعية الفكرية للغرب وثقافته وتصدت للردة الفكرية، فقد نافح الرجل عن الدين الإسلامي بالحكمة والموعظة الحسنة، وأسهم بجهوده الدؤوبة في خدمة الإسلام والمسلمين، وسخر قلمه السيّال، ومواهبه الفكرية في خدمة الغرض النبيل الذي ندب نفسه له، ألا وهو التمكين لهذا الدين، وتحكيمه في كل شؤون الحياة.

تميز الرجل بتصورات خاصة للقضايا المعاصرة للإسلام، ومواقف متبصرة وناقدة للحضارة الغربية، والتصدي للفكر الغربي بمختلف صورته وأساليبه، والدعوة إلى ذاتية الإسلام، ومذهبيته في الكون والحياة والإنسان.

ويتميّز الرجل بتشخيصه الدقيق للأدواء التي تعاني منها البشرية كافة، والأمة الإسلامية بخاصة، ويظهر ذلك في إدراكه العميق لروح الحضارة الغربية، وآثارها المدمرة على الإنسانية، كما أدرك الشيخ أوضاع العالم الإسلامي في عصره، وهو يزرع تحت أنقال الاستعمار الغربي، ويتململ أو يقاوم بئسا في مناطق عديدة، فأدرك أن جوهر هذه الحنة هو "القابلية للاستعمار" والذي تعاني منه الجماهير المسلمة، مما جعلها طعمة سائغة لثقافة المستعمر وتقاليد وقيمه قبل سلطانه وحكمه، ولاغرو في ذلك إذ من المعلوم من حقائق التاريخ والواقع الإنساني كما يقول محمد أسد بحق: "إن الأمم التي هي أخصب من الناحية السياسية والاقتصادية تترك على الأمم التي هي أضعف منها في الحيوية روعة وتؤثر فيها من الناحية الثقافية والاجتماعية، من غير أن تتأثر هي نفسها، تلك هي الحال اليوم فيما يتعلق بالصلات بين الغرب وبين العالم الإسلامي".

لقد وعى الندوي هذه الحقيقة الحضارية وعيا تاما، ولاحظ - وهو الذي عاصر أسوأ فترة انتقالية من حياة المسلمين وهي بداية القرن العشرين - السرعة العجيبة التي ينحو بها المجتمع الإسلامي برومته نحو الغرب، وانتبه الشيخ إلى الغزو الفكري المنظم الذي يستهدف الكيان الإسلامي في وجوده والذي يشن من طرف أجنحة المكر العالمية، فنادى بالتجديد الفكري، وهو لون من الثورة الثقافية يستهدف بناء الإنسان الحر الذي يتطلع إليه العالم الإسلامي بل العالم كله، وكان يرى أن في قدرة الأمة المسلمة أن تقدم للعالم هذا الإنسان الجديد، ولن يتسنى ذلك إلا بالعودة إلى جوهر الثقافة الإسلامية في عقيدتها الإيجابية النقية، وفكرها المتفتح البناء، وروحها الإنسانية السمحة.

الإشكالية:

إن المتأمل في واقع حاضر العالم الإسلامي، وما يواجهه من تحديات يدرك شدة الحاجة إلى بناء علم كلام جديد بغية مواجهة بؤر الصراع الفكري المحتدم في المرحلة الراهنة. ومن أجل المساعدة في إيجاد تراكم معرفي ومنهجي في الدرس الكلامي الجديد، يمتد وجهي شطر المفكر الإسلامي الشيخ أبو الحسن الندوي قصد الكشف عن إسهامه في بناء علم الكلام الجديد.

ويمكن صياغة الإشكال الرئيسي للدراسة على النحو التالي:

هل يتضمن المشروع الفكري لأبي الحسن الندوي مساهمة في بناء علم الكلام الجديد، خاصة وأنه معدود في رجال الدعوة والإصلاح، لا في المتكلمين؟ وإذا كانت له مشاركة في ذلك؛ فما أبرز معالمها؟

أسباب اختيار الموضوع:

أولاً: إن العقيدة هي المحور الذي تدور حوله كل آراء الندوي وبمجرد السيطرة وفهم هذا الجانب يسهل الإمام بجوانب فكره كلها.

ثانياً: ما تضمنه هذا الجانب عند الندوي. من إحياء وتحديد.

ثالثاً: إن هذا الجانب على الرغم من أهميته القصوى ومساهمته بأغلب تفكيره لم تتجه له أنظار أغلب دارسيه، مما قوى عزمنا على محاولة إجراء دراسة متكاملة تجمع مختلف زواياه، وهذا ما يجعلنا نعتقد بإمكان إثراء المكتبة العربية ببحث طريف يكشف معاهد الطرافة والأصالة عند الندوي.

منهج البحث:

حاولت في هذا البحث أن استعمل مناهج مختلفة تمكن من الإجابة عن إشكاليات البحث، ومن هذه المناهج:

أولاً: المنهج التحليلي: حيث عمدت إلى جمع المتناثر من آراء أبي الحسن علي الحسيني الندوي في تجديد علم الكلام من كتبه نفسه، ثم اجتهدت في فهم تلك الأفكار بتحليل عناصرها، وتبيين حقيقتها ثم استخلاص ما يمكن استخلاصه منها.

ثانياً: المنهج المقارن: المؤسس على مقارنة آرائه وأفكاره مع طروحات المفكرين الآخرين ممن يظن أنه وقف على آرائهم كالمودودي، ومحمد إقبال، وسيد قطب (1906-1966) حتى تتوضح مدى أصالة أفكاره ومدى صوابها من خطئها.

ولما كانت الغاية من الدراسة المقارنة، هي إبراز فكره، قصرنا المقارنة على ما أنتجه الفكر الإسلامي المعاصر، ذلك لأن المقارنة الصحيحة تتم بين متجانسين أو متقاربين. والحقيقة أنني في دراستي هذه تعمدت توثيق أحكامها بأقوال الندوي، فجاءت الرسالة غنية بنصوص الندوي نفسه، في سياق تحليلي، مقارن وواع.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة.

الفصل الأول: عصر أبي الحسن علي الحسيني الندوي وحياته ومنهجه: وقد اشتمل على ثلاثة

فصول:

المبحث الأول: وقد ألقينا فيه الأضواء على عصر الندوي وحياته ملاحظين تأثيرات العصر، وما فيه من أحداث سياسية، واجتماعية، وفكرية على مكونات الندوي الثقافية والروحية.

المبحث الثاني: تحدثنا فيه عن حياته لأننا نعتقد أن حياة الإنسان قد تكشف لنا جوانب خفية من شخصيته، وقد تحل لنا بعض الإشكالات المتعلقة بمذهبه ذاته.

المبحث الثالث: وخصصناه لبحث المنهج عند الندوي وذلك لأننا رأينا أن بناءه " لعلم كلام جديد" مؤسس على قواعد منهجية محكمة لا تخضع للمصادفة أو العبثية.

الفصل الثاني: آراء الندوي في مواجهة التحديات الداخلية، وقد اشتمل على خمسة فصول:

المبحث الأول: وحاولنا فيه إبراز لمحة موجزة عن تاريخ نشأة علم الكلام وتطوره لكي يتسنى لنا إمكان الكشف خلف بنائه العقائدي عن أسباب قصور علم الكلام التقليدي

المبحث الثاني: وقد خصصناه لبيان أبعاد التوحيد عند الندوي

المبحث الثالث: وقد تحدثنا فيه عن الإنسان عند الندوي، من حيث طبيعته، مكانته في الكون، وظيفته الوجودية، ومصيره.

المبحث الرابع: وفيه حللنا آراء الندوي لعقيدة ختم النبوة، ووضحنا مفهومه الحقيقي لها، وبيننا انحراف من قال باستمرارها كالكاديانية والبهائية، والشيعية الإمامية، وقد ظهر التحريف في بعض فترات التاريخ الإسلامي نتيجة لأسباب عديدة.

المبحث الخامس: وتعرضنا فيه لإسهام الشيخ في صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف.

الفصل الثالث: آراء الندوي في مواجهة التحديات الخارجية، وقد اشتمل على فصلين:

المبحث الأول: عرضنا فيه لأزمة الحضارة الغربية عند الندوي.

المبحث الثاني: وتحدثنا فيه عن رؤية الندوي للاستشراق وموقفه من المستشرقين.

المصادر والمراجع:

و من أجل إنجاز هذا البحث، فقد رجعت إلى عدد هام من المصادر، والمراجع القديمة والحديثة التي لها صلة بموضوع بحثي، ويمكنني أن أقسمها إلى ما يلي:

أولاً: المصادر الأصلية:

وأعني بها كتب الندوي نفسه وبخاصة:

1- رجال الفكر والدعوة: وهو أهم كتب الندوي على الإطلاق وأدلها على آرائه الإصلاحية، ويؤكد الندوي في هذا الكتاب بأجزائه الأربعة أن التجديد خلال تاريخ الأمة: سلسلة من الحلقات المتصلة يشد بعضها بعضاً، ما أن يأفل نجم حتى يبدو نجم آخر، والواقع أن الندوي في هذا الكتاب بث آراءه التجديدية والإصلاحية متوارياً وراء الشخصيات المترجم لها، وهي حقيقة قل من انتبه لها من دارسيه، لذا كان اعتمادي في هذه الرسالة عليه، منه استمد، وعلى نصوصه أعول.

2- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن: وفيه يؤكد الندوي أن المعرفة الصحيحة، والطريق الوحيد للهداية، هو ما يأتي به الأنبياء -صلوات ربي وسلامه عليهم - وفي الكتاب محاولة إلى بناء علم كلام جديد يعتمد على إعادة الثقة والإيمان بالنبوة المحمدية، بالإضافة إلى هذا، تحدث المؤلف فيه عن سمات النبوة وخصائص دعوات الأنبياء، مقارنة بينها وبين دعوات القادة السياسيين والحكماء المصلحين، ثم ختم كتابه بمبحثين ماعين عن عقيدة ختم النبوة وأثرها على الإنسانية.

3- التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب -: والكتاب على صغر حجمه جليل الخطر، وهو صنو لكتاب "النبوة والأنبياء"، إذ فيه يستعرض المؤلف مركز النبوة والأنبياء ووضع رسائلهم، والأساليب المميزة لدعوة الأنبياء والأساليب الصناعية، ويؤكد الندوي في كتابه هذا أن فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته كان فهما سليماً وصحيحاً دون حاجة إلى عالمية ثانية، وأن الأمة الإسلامية - وهي صاحبة الرسالة الثابتة والخاتمة - لم تفقد صلتها الفكرية بحقائق الإسلام الأولية، ومذهبيته الأساسية، بل بقيت عاضة عليها محتفظة بها، ويؤكد الندوي أن على العلماء الذين يقدمون الإسلام بأسلوب عصري؛ الالتزام بالدقة والعمق حتى لا يتكون لدى الجيل الجديد الذي يراد تعريفه على محاسن الإسلام ذوق ديني مختلف كلياً أو جزئياً عن الذوق الديني الذي توارثته الأمة جيلاً بعد جيل.

4- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية: وفيه يبين الندوي حقيقة الحضارة الغربية ومقوماتها، وعناصر استمداها من الحضارتين الرومانية واليونانية وما فيهما من غلبة للقوة والنظر العقلي، وميل إلى الوثنية والمادية، وتمجيد للعصبية القومية، والندوي من خلال كتابه هذا مدرك لطبيعة الصراع القائم بين الفكرتين الغربية والإسلامية، وآثاره المدمرة في ميادين التعليم والتربية والثقافة والقيم والتقاليد. ويؤكد الندوي أن العالم الإسلامي قد أصيب بمركب النقص تجاه الحضارة الغربية، وقد تجلّى هذا المركب في مظهرين: القبول المطلق للوفاد الغربي أو الرفض المطلق، وكلاهما ذميم، وينوه الندوي بموقف الفريق الثالث الذي يتعامل بإيجابية مع حضارة الغرب دون مركب نقص؛ فيأخذ منها ما صفا ويدع ما كدر.

5- الأركان الأربعة: وفي هذا الكتاب يؤكد الندوي على أهمية الجانب الشعائري في حياة المسلم إذ أن للمحافظة على الصلوات بقلبها وروحها، والإكثار من النوافل تأثير لا يعرف لغيرها في صفاء النفس، والسمو الروحي والاتصال بعالم القدس، وتلقي التحليات الأخروية، وأنها سبب كبير في تقوية محبة الله تعالى وجلب رحمته واصطفائه، والكتاب يمثل في الواقع نظرة جديدة في عبادات الإسلام الكبرى، وآثارها النفسية على الفرد والمجتمع.

6- القادياني والقاديانية: وفي هذا الكتاب تحليل لشخصية غلام أحمد ودعوته، وعلاقته بالاستعمار الإنجليزي، ودعوته المسلمين لإلغاء الجهاد، والكتاب على صغره مرجع علمي موثق بالأدلة من مصادرها القاديانية ذاتها.

هذه أهم المصادر الأصلية التي اعتمدت عليها في بحثي، واستقيت منها العناصر التي تؤلف نظرتي في علم الكلام الجديد.

ثانيا- المراجع التكميلية: وأقصد بها المصادر التي رجعت إليها لمعرفة الظروف التي أحاطت بشخصية الندوي أذكر منها (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمى "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والتواظر" والثقافة الإسلامية في الهند، المسمى ب" معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف"، لعبد الحي الحسيني ت 1923م، وهو والد شخصيتنا موضوع الدراسة، ورجعت إليهما في تحقيق الأوضاع السياسية والاجتماعية، وكذلك الأوضاع الفكرية والروحية.

بالإضافة إلى الكتب التي اهتمت بمبحث التجديد عامة أو التي عالجت قضية التجديد الكلامي بخاصة أذكر منها: كتب الشاعر الحكيم محمد إقبال (ت 1938م)، وبخاصة كتابه "تجديد التفكير الديني في الإسلام"، ومنها أيضا كتاب فهمي جدعان، "أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث" وكذلك استفدت برجوعي إلى كتب وحيد الدين خان، وأخص من كتبه

"قضية البعث الإسلامي المنهج والشروط" و"تجديد علوم الدين"، و"الإسلام يتحدى"، وما كتبه شبلي النعماني، (ت 1914م)، وبخاصة في كتابه: "علم الكلام الجديد"، الذي ترجم حديثاً من طرف الدكتور جلال السعيد الحفناوي، ونشره المركز القومي للترجمة.

بالإضافة إلى الكتب الحديثة وفي مقدمتها "مدخل إلى علم الكلام" للأستاذ الدكتور "حسن محمود الشافعي" وهو من أجل ما كتب في الدراسات الكلامية في عصرنا الحديث.

ثم تأتي بعد هذه المصادر والمراجع، مراجع ثانوية كثيرة، ومتنوعة في العقائد، والملل، والنحل أفادتني كثيراً من الناحية الفنية، وفي التقسيم، والتبويب، وكيفية استثمار النصوص يجدها الباحث في مطوية هذه الرسالة.

الدراسات السابقة:

تقتضينا الأمانة العلمية أن نشير إلى الدراسات السابقة التي سبقتنا إلى تناول جانب أو أكثر من فكر الندوي، لكن والحقيقة تقال أننا لم نجد في أي منها معالجة ضافية لما نحن بصدد، صحيح أن بعض هذه الدراسات لها فضلها في التنبه إلى أهمية هذا الموضوع الذي يمثل محور الارتكاز في تصور الندوي، لكنها كانت تناولات سريعة اقتضتها موضوعات كل دراسة وطبيعتها، وحسب هذه الدراسات أنها قدمت مادة تمهيدية صالحة لأن تكون أساساً للترقية والتعميق، ولعل من أهم هذه المحاولات ما كتبه تركي عبد المجيد السلماني في كتابه "الفكر والسلوك السياسي عند أبي الحسن الندوي"، وما كتبه رياض السيد عاشور في رسالته العلمية التي تقدم إلى كلية الدعوة في الأزهر الشريف بعنوان "جهود الشيخ أبي الحسن الندوي في الدعوة الإسلامية"، وكذلك كتاب "جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي" لعبد الله بن صالح سلمان الوشمي، كما تناولت الباحثة حنان محمد فضل الله جهود أبي الحسن الندوي الدعوية في رسالة ماجستير بجامعة أم درمان الإسلامية كما استعرض الطالب العباس الطيب عبد الرؤوف عثمان، جهود الندوي الأدبية في رسالته الموسومة "الجهود الأدبية والنقدية لأبي الحسن الندوي" وهي دراسة تحليلية مقدمة في قسم اللغة جامعة أم درمان بالسودان، كما تناول محب الدين أحمد أبو صالح موضوع "التربية الإسلامية عند العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي"، وشارك الباحث نذر الحفيظ الندوي الأزهري بكتاب صغير الحجم استعرض فيه مؤلفات السيد أبي الحسن سماه "أبو الحسن الندوي كاتباً ومفكراً" وكذلك فعل السيد عبد الماجد الغوري في كتابه الموسوم بـ"أبو الحسن علي الحسيني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب". وأشهد أنني أصبت من بعضها شيئاً من الفائدة، لكن أعظم فائدة من تلك الدراسات هي أنها أكدت عندي العزم على القيام ببحث شامل مستوعب لتجديد الندوي في علم الكلام.

صعوبات البحث:

ولقد واجهتني صعوبات جمة عند إعداد هذا البحث أهمها:

أولاً: هذا الكم الهائل للتراث العلمي الذي خلفه الندوي، حيث تزيد مؤلفاته على المائة والسبعين مابين كتاب ومقالة، وقد بذلت جهداً في سبيل اقتنائها، مما حملني على ارتياد مكتبات القاهرة ودمشق وغيرهما بحثاً عنها.

ثانياً: ولأن فكر الندوي يمتاز بالشمول والاستيعاب، ولأن مؤلفاته كثيرة ومتنوعة وهي في أساسها خطب ودروس ومقالات أو حوارات، مما جعلها حافلة بالاستطراد وعدم التركيز والتنظيم أحياناً كثيرة، وهذا مما ضاعف من عنت الاستفادة منها.

ثالثاً: ومن الصعوبات التي واجهتني أيضاً حيال جمع المادة العلمية، أن الندوي كتب مقالاته في فترة ممتدة، وفي مجالات هندية متنوعة مثل "البعث الإسلامي" و"الرائد الهندية"، و"ثقافة الهند"، و"مجلة الداعي"، مما زاد من عنائنا.

ولقد حاولت الدراسة أن تتغلب على هذا كله، وتنتهج نهجاً علمياً يعتمد على مناقشة وتحليل آراء الرجل من خلال النصوص الثابتة دونما تشييع له أو حيف عليه.

ثم في الأخير كانت **الخاتمة:** حيث لخصنا فيها أهم النتائج المستخلصة من البحث.

هذا وإني لأرجو أن تكون هذه الرسالة في مستوى ما تحشمته في سبيلها من عناء ونصب، وأن تحقق الغرض الذي توحيته منها، هذا ونحسب أن النتائج التي توصلنا إليها تعين على فهم آراء الندوي وتبرز إسهامه التجديدي في علم الكلام.

وإني لأرجو أن يكون هذا البحث بداية لأعمال أخرى تتلوه إن شاء الله في خدمة الدعوة المحمدية استجلاء لحقائقها ودفعاً للشبه المثارة ضدها.

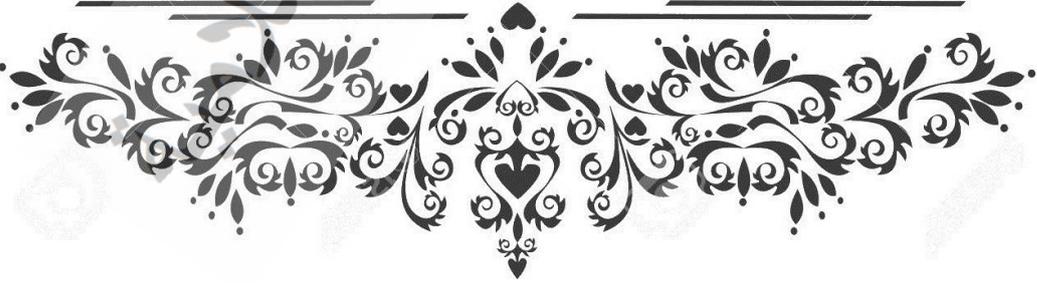
والله وحده أسأل أن يكتب لنا السداد والتوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.



الفصل الأول:

عصر أبي الحسن علي الحسيني الندوي

وحياته ومنهجه





المبحث الأول:

عصر أبي الحسن الندوي



تمهيد:

لاشك أن حياة الأفراد ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعصر الذي يعيشون فيه، كما تتلون أفكارهم وتتأثر بالبيئة الاجتماعية التي يظهرون فيها، فلا تنفصل دراسة الشخصية عن مؤثرات العصر المختلفة. لذلك يتحتم علينا ونحن ندرس شخصية أبي الحسن الندوي، وفكره، ومعالم منهجه أن نبحث أولاً عن عصره من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية، ونبين إلى أي حد أثر في أحداث عصره، وأثرت فيه.

أولاً: الأوضاع السياسية والاجتماعية في عصر الندوي:

1- الوضع السياسي:

عاش أبو الحسن الندوي في أصعب الفترات التي مرّت بها الأمة الإسلامية عامة، والهند بخاصة، إذ أحكم الاستعمار الغربي قبضته على العالم الإسلامي سياسياً واقتصادياً وثقافياً، كما نكب بسقوط الخلافة الإسلامية.

وستعرض بإيجاز في هذا التمهيد إلى أهم الأحداث التي ميّزت العالم الإسلامي عامة والهند بخاصة باعتبارها الإطار الذي عاش فيه الرجل وفكر.

1-1- الوضع السياسي في العالم الإسلامي:

تعرض العالم الإسلامي عبر تاريخه لسلسلة من الحملات العسكرية التي هدفت إلى إضعافه والسيطرة عليه، وكان الهجوم الجديد في القرن 19م على أيدي الأوربيين الذين بدأوا بوضع أيديهم على أكثر بلاد الإسلام القريبة والبعيدة.

أخذ الأوربيون يعملون يجد في تمزيق دولة الإسلام القوية الواسعة، وأخذت تضع لذلك المشروعات الكثيرة لأجل اقتسام تركة الرجل المريض، وأخذت كل دولة تنتهز الفرصة وتنتحل الأسباب الواهية وتهاجم الدولة الوادعة اللاهية، فتنقض على بعض أطرافها حتى انسلخ عن الدولة العثمانية كثير من الأقطار كشمال أفريقيا، ومصر، وبلاد الشام، وبعض أقسام البلاد الأوروبية التي كانت تحت سلطان العثمانيين كدول البلقان، واليونان، ثم كانت الحرب العالمية الأولى (1914-1918) التي انتهت بهزيمة تركيا وحلفائها، وبذلك سنحت الفرصة للإنجليز والفرنسيين والإيطاليين باستكمال ما تبقى بأسماء مختلفة من احتلال، واستعمار، ووصاية، وانتداب¹.

1- ينظر: لوثرود ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، تر: عجاج نويهض، ط4. بيروت: دار الفكر 1973م، ج3، ص319-

وكان من أخطر أحداث هذه الفترة التاريخية إلغاء الخلافة الإسلامية، رمز وحدة المسلمين، وسرّ قوتهم والتي كانت ترفع راية الإسلام، وتذود عن المقدسات، وتصدّ غارات العدو، وكان ذلك على يد الغازي "مصطفى كمال أتاتورك" في المدة الواقعة بين (1922-1924م)، وكانت النتيجة تبني قانون توحيد التعليم والذي أكد التعليم العلماني في عام (1924)، ومنع ارتداء غطاء الرأس الديني والحجاب (1925م)، والأخذ بمعالم القوانين الغربية محل القوانين الإسلامية (1926)، وتبديل الأبجدية العربية بأبجدية لاتينية (1928)، وتغيير يوم العطلة الأسبوعية من الجمعة إلى الأحد (1935)¹، كما عمل "أتاتورك" على إحياء القومية التركية مما أوجد ردة فعل قوية في الدول العربية وهبت عاصفة القومية العربية الهوجاء ووقع أكثر العرب وشبابهم تحت تأثير قادة ترى التخلص من أثر الإسلام في النفوس والعقول شرطا لبناء المجتمع الجديد، وتحل القومية العربية والاشتراكية العالمية محل العقيدة الإسلامية.

1-2- الوضع السياسي في الهند:

ظل المسلمون في الهند منذ عهدهم الأول متمتعين بالسيادة والحكم، وحضارتهم هي الغالبة، ومدارسهم ومعاهدهم في ازدهار وتطور حتى وفد الإنجليز إليها خلال العهد المغولي تجارا، وتوسع نفوذهم شيئا فشيئا حتى إذا ضعفت الدولة استولوا بالمكر والخداع على كثير من المناطق، فتغير الوضع وحلّت سياسة جديدة رسمها الإنجليز للسيطرة على مقاليد الأمور في الهند، وفقد المسلمون ما كانوا يتمتعون به من سلطة وجاه، واحتكام إلى الشرع الحنيف في أمور الحياة، وقام الملك "فتح علي خان" الشهير بالسلطان تيبو بمقاومة الإنجليز وكاد أن ينتصر عليهم، ولكنهم استمالوا بمكرهم أمراء الهند إلى معسكرهم وسقط الملك شهيدا عام (1799م)²، ثم جاء دور السيد "أحمد بن عرفان"³

1- ينظر: أحمد نوري النعيمي، الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا حاضرها ومستقبلها، ط1، عمان: دار البشير، 1993 م، ص18.

2- كان هذا السلطان من أشد الملوك المسلمين غيرة ووطنية، وعداوة للمحتل الإنجليزي ويذكر أنه فضل الموت في المعترك، على أن يظل في أسر الإنكليز وهو القائل تلك الكلمة المشهورة في التاريخ: "يوم من حياة الأسد خير من مئة سنة من حياة ابن آوى" قال عنه زعيم الهند الكبير غاندي: "لا نعرف أعظم منه في شهداء الوطن والأمة" انظر: أبا الحسن الندوي، المسلمون في الهند، ط1. دمشق: دار ابن كثير 1999م، ص176-177.

3- هو الإمام المجاهد الشهيد السعيد: أحمد بن عرفان بن نور الشريف الحسيني البريلوي ولد في صفر 1200هـ وتوفي في عام 1246هـ انظر في ترجمته: عبد الحي الحسيني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمى "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والتواظر"، ط1. بيروت: دار ابن حزم 1999م، ج7، ص ص899-902، وقد ألف أبو الحسن علي ابن مؤلف "هذا الكتاب" كتابا في سيرة السيد "أحمد بن عرفان" سماه، إذا هبت ريح الإيمان، ط11. بيروت: مؤسسة الرسالة 1999م؛ وينظر أيضا: أبو الحسن الندوي، الإمام الذي لم يأخذ حقه من الإنصاف والاعتراف، ط2. القاهرة: دار الاعتصام، 1978م.

الذي قام بالدعوة إلى الدين الخالص، وأسس حكومة شرعية على منهج الخلافة، ونفخ روح الجهاد والتضحية في الهند، ولكنه أيضا وقع شهيدا في معركة بالاكوت الشهيرة عام (1832م) وانتشر اتباعه في أرجاء الهند يقومون بالدعوة والتعليم ونفخ روح الجهاد ضد الإنجليز¹.

ثم قامت ثورة (1857م) الشهيرة ضد الإنكليز، وكانت ثورة شعبية ساهم فيها المسلمون والهندوس تحت راية الملك المغولي الأخير "سراج الدين بهادر شاه"، ولكن هذه الثورة أخفقت أيضا، فصب الإنجليز على أهل الهند جام غضبهم وبخاصة المسلمين منهم، وانتقموا منهم انتقاما شديدا وظلوا عرضة لهذه النقمة طيلة عهد الإنجليز، كما عمد المحتل إلى تغيير الطابع الإسلامي لعدد من مناطق الهند ذات الأهمية، حتى يسهل عليهم إحكام سيطرتهم على باقي المناطق الإسلامية، كمدينة دلهي، وأكره، فأخذوا يهجرون الهندوس إلى هذه المناطق، وسعوا إلى تعليمهم ليتولوا فيما بعد المراكز الإدارية العليا في البلاد².

كما أمعن الإنجليز كعادتهم في إثارة العداوة بين المسلمين والهندوس، وأوغلوا في سياسة احتضان الهندوس، وعملوا على إقرار قوانين التفرقة تحت ستار من حرية الاعتقاد، وساعدوهم في تنظيم صفوفهم على أساس ديني قومي حتى قويت شوكتهم، ودخلوا في صدامات عنيفة مع المسلمين ذهب ضحيتها الآلاف منهم، وقد نجم عن ذلك بروز تيار سياسي فكري تزعمه "محمد علي جناح"³ وآخرون، دفع بالقوى الإسلامية إلى رفع شعار استقلال المسلمين عن الهندوس، وإقامة دولة خاصة بهم، وكان لهم ما أرادوا عام (1947 م)⁴.

2- الوضع الاجتماعي:

إن الأنظمة الاجتماعية تتبدل أبدا بالمؤثرات المادية والتكنولوجية تبديلا، لا يقل عن ذلك الذي يتم بقوة المؤثرات الأدبية والمعنوية، وقد ذكرنا فيما سبق أن الوضع السياسي في العالم الإسلامي، قد شهد تحولا كبيرا نتيجة الهجمة الأوربية وإفرازاتها، ذلك ما أدى إلى اختلالات اجتماعية كثيرة في تركيبة المجتمعات الإسلامية، عاداتها، وتقاليدها، وأخلاقها، وتوجهاتها وهذا ما سنحاول تجليلته فيما يلي:

1- ينظر: مسعود الندوي، تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند وباكستان، الدار العربية للنشر والتوزيع (د.ت) ص 169-170.

ينظر: أبا الحسن الندوي، المسلمون في الهند، ط1. (مصدر سابق)، ص 177-178. 2 -

3- محامي مشهور وسياسي محنك وقانوني بارع، وزعيم حركة الخلافة ودفين القدس، اقترن اسمه بميلاد دولة باكستان، ولذلك أطلق عليه الباكستانيون القائد الأعظم. وهو أول رئيس لجمهورية باكستان توفي عام 1948م. ينظر:

Hashim Raza Quid-Iazam From Bakistan Pictorial -(may-june), 2001 Islamabad pp2-6

4- ينظر: مسعود الندوي، تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند وباكستان، (مرجع سابق)، ص 249.

2-1 الوضع الاجتماعي في العالم الإسلامي:

شكل التواجد الأوربي بفلسفته ومنجزاته المادية في أقطار العالم الإسلامي صدمة كبرى، إذ وجد أصحاب البلاد أنفسهم في المقام الثاني بعد الإنسان الأوربي الذي بات سيّدا يملك مقاليد الحكم، وزمام الأمور وتبين للشعوب الإسلامية عمق الهوة، وبعُد الفجوة بينها وبين الوافد الجديد، الذي انتهاز فرصة ذهبية بالنسبة إليه هي أن الإسلام قد انحسر عن الساحة العامة في القرن 19م وضمُر، وأن العالم الإسلامي قد ضعف "في الدعوة والعقيدة والعقلية والعلم، وبدا عليه الإعياء والشيخوخة، والإسلام لا يعرف الشيخوخة والهرم، إنه جديد كالشمس، وقديم كالشمس، وشاب كالشمس، ولكن المسلمين هم الذين شاخوا وضعفوا، فلا سعة في العلم ولا ابتكار في التفكير والإنتاج، ولا عبقرية في العقل، ولا حماسة في الدعوة"¹.

وهذا ما سمح للمستعمر الغربي بالغزو الاجتماعي المباشر بإدخال التقاليد والعادات والأذواق الغربية، متسلحا بدهائه السياسي، وسلطانه العسكري وفي هذا يقول المستشرق قماري: "قد غدا التركي اليوم يرتاح إلى العادات والآداب الغربية ارتياحا كبيرا مشهودا ليس في المظاهر الخارجية فقط، بل في أسلوب المعيشة"².

ونجح هذا الغزو المنظم، أعظم نجاح لأنه قويّ الأثر حبيب إلى النفوس، لاصق بالقلوب لاستخدامه الأدوات الحديثة، وجلبه أسباب الرفاهية والرخاء، واستعماله أدوات الفتنة والإغراء، من إذاعة وتلفزة، وجرائد متحررة، وروايات مثيرة.

ونشأ في العالم الإسلامي جيل جديد مثقف بالثقافة الغربية يؤمن بأن الحضارة هي الحضارة الغربية، والثقافة هي الثقافة الغربية، والعلوم هي العلوم الغربية المادية، كما كانوا يظنون أن ازدهار الأمة الإسلامية لا يكون إلا بإتباع الأمم الغربية، وظهر دعاة التغريب في كل مكان، وكان منهم ضياء كوك ألب ومصطفى كمال في تركيا، وقاسم أمين وطه حسين في العالم العربي، وسيد أحمد خان في الهند، وغيرهم كانوا لا ينظرون إلى الحياة إلا بمنظار الغرب، ولا يفكرون في شؤون الحياة إلا بتلك النظرة التي نظر إليها مؤسسو النهضة الأوربية الحديثة، وأما ما عداه فهو الرجعية التي لا يمكن التقدم إلا بالقضاء عليها³.

1- أبو الحسن علي الحسيني الندوي، إلى الإسلام من جديد، ط 6. دمشق: دار القلم 1988، ص 177.

2- ينظر: لوثرود ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، (مرجع سابق)، ج 4 ص 231.

3- ينظر بالتفصيل: أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في القطار الإسلامية، الكويت ط 5. دار القلم: 1985م، ص ص 37-72.

2-2 الوضع الاجتماعي في الهند:

يتشكل الواقع الاجتماعي في الهند من مزيج من اللغات واللهجات والطوائف الدينية، والطبقات الاجتماعية، والأنماط الثقافية، ويعتبر نظامها الطبقي الموغل في القدم من أشد الأنظمة قسوة وفصلا بين طوائفه يقول الشيخ الندوي:

" وامتازت الهند بين جاراتها وأقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب، والامتياز بين الإنسان والإنسان، وكان نظاما قاسيا لا هوادة فيه ولا مرونة مدعما بالدين والعقيدة خاضعا لمصلحة الآريين المحتلين والبراهمة المحتكرين للديانة والقداسة، قائما على أساس الحرف والصنائع وتوارثها، والعنصرية السلالية، وكان ذلك تابعا لقانون مدني سياسي ديني وضعه المشرعون الهنود الذين كانت لهم صفة دينية، وأصبح القانون العام للمجتمع ودستور الحياة"¹.

وقد شكل هذا التنوع الطائفي مناخا ملائما للتدخل الاستعماري، وبث روح الفرقة بين أبناء الشعب الواحد، وإخماد الحماسة الوطنية بإثارة الفتن، وهذا ما شهد به التاريخ القريب حين اتحد المسلمون والهندوس في مواجهة الحكومة الإنجليزية والمطالبة بتحرير البلاد، لكن سياسة التفرقة والتمزيق كانت حائلا دون ذلك يقول الشيخ الندوي:

"إلا أن السياسة الإنجليزية أطلقت سهمها الأخير الذي لا يطيش عادة في البلاد الشرقية، وهو سهم التفرقة والإفساد، وأقنع الحاكم العام ورجال الحكومة، أحد الزعماء الوطنيين الهنالك بضرورة الدعوة إلى الديانة الهندوكية... وتنظيم الشعب الهندوكي على أساس ديني قومي حزبي، ومن هنا ظهرت الدعوة، والتبشير بالديانة البرهمية، والآرية، وانتشر دعايتها في الهند، وظهرت إزاء ذلك حركة الدعوة إلى الإسلام، وتنظيم المسلمين على أساس مستقل، وبدأت المناظرات الدينية والخطب العاطفية والحماسية، وانفجرت الاضطرابات الطائفية في شبه القارة الهندية"².

وهو ما بقيت آثاره إلى اليوم، فلازلنا نسمع ونرى مواجهات، ومنازعات بين أبناء هذه الطوائف المختلفة حتى صارت شيئا مألوفا.

أما من الناحية الأخلاقية فقد تميّز الهنود المسلمون بخاوية المحافظة على الآداب، والقيم التي تظهر في معاملاتهم وأخلاقهم، وطيب معاشرتهم فهم لا ينفكون عن طبيعتهم المحافظة في هذا المجتمع المختلط، ويرونها دليل إسلامهم وبرهان تميزهم، ورافقهم ذلك حتى بعد الانقلاب الكبير الذي حدث بدخول الاستعمار يقول الشيخ الندوي: "و لا يزال هذا الشعب ممتازا في أخلاقه

1- أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ط2. دمشق: دار القلم 2004 م، ص37.

2- ينظر: أبا الحسن الندوي، المسلمون في الهند، ط1. (مصدر سابق)، ص195-196.

وعاداته وخصائصه رغم انخراط عظيم أصيب به هذا الشعب تبعاً للأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية ورغم تطور عظيم حدث في الحضارة والقيم الخلقية¹.

ولم تشفع للمسلمين أخلاقهم، ولا مؤهلاتهم، ولا كفاءتهم، إذ كان المستعمر الإنجليزي يعمل دوماً على إضعافهم واستبعادهم من التعليم والوظائف الكبرى، وإقصائهم وتهميشهم من الحياة، وتقويض جهودهم، وإحداث خلل في أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، بسلب أموالهم، ومراكز نفوذهم، وتقوية خصومهم، والانحياز إليهم، فانتشرت الفوضى والفقر، وظهر الانحلال الخلقي وعانوا ضروب القهر والهوان، وأصبحوا يعيشون عزلة فرضتها عليهم الأوضاع المستجدة، مما حدا ببعض القادة وعلى رأسهم "سير أحمد خان"² أن يعلنوا أن نهضة المسلمين تنحصر في إتباع الحضارة الغربية الحديثة في كل دائرة من دوائر الحياة الشخصية والاجتماعية والعملية وغيرها.

وكان لهذه الدعوة أنصار ومريدون، فانتشرت في شبه القارة الهندية الخلاعة والسفور بعدما التحقت الطالبات المسلمات بالكليات الحديثة المختلطة، وانتشرت الجمعيات النسوية المطالبة بتسوية المرأة بالرجل في جميع الحقوق والمسؤوليات في التوظيف في الدوائر الحكومية، والالتحاق بالجيش إلى الاشتراك في المباريات.

يقول المؤرخ الهندي المسلم خوجة بوخش: "إن أوضح نتيجة لهذا التطور تزلزل نظامنا القديم القائمة عليه حياتنا المنزلية، وعاداتنا الاجتماعية، وسبب هذا الزلزال إنما هو تيار الحضارة الغربية وهذا الأمر الواقع أظهر ما يكون في موضعين معتقداتنا الدينية، وحياتنا الاجتماعية إن النظام القديم على جميع عيوبه كان مشتتلاً على فضائل جمّة وافية"³.

1- أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند، (المصدر نفسه)، ص175.

2- أحد مشاهير الشرق، لم يكن مثله في زمانه في الدهاء ورياسة العقل، ولد عام 1817م وتوفي عام 1898م من أهم مؤلفاته: "الخطابات الأحمدية في السيرة النبوية وشرح العقيدة الإسلامية"، و"تبيان الكلام" في تفسير الإنجيل، و"تفسير القرآن"، لكن لم يتمه: انظر في ترجمته: عبد الحي الحسيني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمى "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والتواظر"، (مرجع سابق)، ج8، صص 1175-1178 وينظر أيضاً: أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ط1. الجزائر: موقف للنشر 1999م، صص 155-177؛ محمد البهي، الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، ط6. بيروت: دار الفكر 1973م، صص 40-45.

3- ينظر: لوثرود ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، (مرجع سابق)، ج4، ص232.

ومجمل القول أن المجتمع الهندي - كما المجتمع الإسلامي عموماً - تعرض لهزة عنيفة، فككت أوصاله، وبدلت نظامه الاجتماعي، وهزت ثقته بموروثه، ذلك ما دعا المصلحين، والمثقفين إلى إنقاذ مجتمعهم من العبودية الفكرية للحضارة الوافدة، وإعادة ثقتهم في دينهم كمولانا "أبو الكلام آزاد" الذي تعتبر مجلته "الهلل" نموذجاً حياً للصحافة الإسلامية الهادفة، وشاعر الإسلام وفيلسوفه العظيم "محمد إقبال" الذي جعل شعره وسيلة لبعث الإنسان المسلم حتى دعي بشاعر الرسالة، وركز فلسفته على "تجديد الذات".

ثانياً: الأوضاع الدينية والعلمية في عصر الندوي:

1- الوضع الديني:

إن المتأمل في المرحلة التي عاش فيها الإمام الندوي من الناحيتين الدينية والروحية يلحظ بأنها لم تكن أحسن حالاً من الناحية السياسية والاجتماعية في جميع أرجاء العالم الإسلامي بسبب التحديات، والتيارات المعادية للإسلام من جهة وضعف الأقطار الإسلامية الداخلي من جهة أخرى. وسنحاول فيما يلي أن نتعرف على هذا الوضع بشيء من التفصيل حتى نفهم جهود الشيخ الندوي وتجديده.

1-1- الوضع الديني في العالم الإسلامي:

تميّز وضع المسلمين في القرن 19م، بتخلفهم العام بما في ذلك الحياة الروحية والدينية؛ إذ فشا فيهم الجمود، والتقليد، وفساد الأخلاق وكاد يحجب توحيد الإسلام النقي من الشرك والجهل، والضلالة، وطرأت على النظام الديني بدع شغلت مكاناً واسعاً من حياة المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح وعن الدنيا¹.

لقد تحولت العقيدة التي كانت في الصدر الأول إيماناً بالله، واليوم الآخر، وجهاداً في سبيله إلى جدل وكلام عند الخاصة من المسلمين، واعتقادات فاسدة وتفكيرات خرافية عند العامة. وكانت عقيدة القضاء والقدر فلسفة إقدام في الحياة، شعارها "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"² فليس الإقدام على الجهاد والقتال بقاتل إذا لم يأت الأجل، فإذا بهذه العقيدة تصبح فلسفة تواكل وإذا بالتصوف الإسلامي الأصيل الذي يزكي النفس ويطهرها، ويوثق صلة المؤمن بربه بصير عائقاً للمجتمع المسلم عن السير في مضمار الحياة كما أمر الله، ويمنع عن الأخذ بسنن الله في هذا الكون

1- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط2..دمشق: دار القلم 1999 م، ص171.

2- البخاري، الجامع الصحيح، هو جزء من حديث عن عمران بن حصين (كتاب التوحيد، باب في قول الله تعالى "ولقد يسرنا القرآن للذكر").

فكانت النتيجة أن صار المسلمون عالة على غيرهم، ويصف المرحوم "محمد المبارك"¹ هذا الوضع فيقول: "غلبت على المسلمين جدلية اليونان في العقيدة، وصوفية الأعاجم، والانعزالية والتواكل والكسل في الحياة، واستبداد الأكاسرة والقيصرة في الحكم، وشكلية المناطقة في الفقه، والخرافة والجمود في التفكير، واستحكمت الخلافات المذهبية، وحلت الجزئيات الثانوية محل الاتجاهات العميقة، وضعف الوعي الإسلامي العام"².

ونجم عن ذلك هبوب رياح الحضارة الغربية المادية التي أثرت في شباب المسلمين الذين تلقفوا أنماطها، فراحوا يوماً بعد يوم يبتعدون عن مقوماتهم الدينية والثقافية، إذ كانوا يرون فيها عامل تخلف، وانجر عن ذلك الانفصال تصاعد اتجاه معاد للدين وازداد الأمر خطورة حينما نشطت الحركات التبشيرية والتنصيرية والغزو الفكري.

وأمام هذه المستجدات شعر المسلمون بحقيقة كيانهم كأمة رسالة وحضارة، فقاوموا حركات التغريب، وظهر مصلحون وزعماء في كافة أرجاء العالم الإسلامي كالأفغاني، ومحمد عبده (1849-1905)، ومحمد إقبال، وابن باديس (1889-1940م)، والنورسي وغيرهم...

1-2- الوضعية الدينية في الهند:

انتشرت في الهند أديان شتى، ومذاهب مختلفة كان من أهمها الأديان الكبرى الثلاثة: البرهمية (الهندوسية)، والبوذية، والجينية وسنخس كلا منها بنبذة موجزة:

1-2-1 البرهمية:

وتنسب هذه الديانة إلى "برهمن" وهي من أقدم الديانات الهندية، وكانت في أصل نشأتها تتسم بالتوحيد الخالص في العقيدة، والعدل في الاجتماع، والاتصال الروحي بالخالق، ولكنها انحرفت انحرافاً شديداً، وفقدت قوتها الخلقية، وتعقدت تعقيداً شديداً، أصبحت به فلسفة دقيقة غير عملية³.

1- مفكر إسلامي مرموق (1912م-1981م)، من مؤلفاته: بين الثقافتين، نظام الإسلام العقيدة والعبادة، نحو إنسانية سعيدة. انظر في ترجمته: وحدة بغول، إسلامية المعرفة عند محمد المبارك، رسالة ماجستير مقدمة في قسم الدعوة والاتصال، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 2003-2004م، ص1-24؛ حسن أدهم جزار، محمد المبارك العالم والمفكر الداعية، عمان: دار البشير 1981م.

2- محمد المبارك، الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، ط2. بيروت: دار الفكر 1970م، ص39.

3- أبو الحسن الندوي، من رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ط11. الكويت: دار القلم 1999م، ص18. أنور الجندي، الإسلام والفكر المعاصر، الموسوعة الإسلامية العربية ج1، ط1. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1973م، ص42؛ أحمد شليبي، أديان الهند الكبرى، مقارنة الأديان ج4، ط3. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1972م، ص61.

وأهم عقائد البرهمية نظام الطبقات: تناسخ الأرواح، والتثليث وعقيدة وحدة الوجود، كما تحظى البقرة بأسمى مكانة وهي من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها على كثر السنين وتوالي القرون، والتي توصف بأنها أم الإنسان¹.

ومن المعروف أن البراهمة هم الذين وضعوا نظام الطبقات وخصوا أنفسهم بكثير من الامتيازات وفي ظل هذا النظام استبد البراهمة، وظهر عسفهم وطغيانهم، وضج الناس من استبداد البراهمة وجورهم. ومن ثم ظهرت دعوات تخفف من قيود البرهمية الهندوسية: وكان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد، منها البوذية والجينية، وإن كانتا تدوران في فلك الهندوسية ولا تخرجان عنها².

1-2-2-البوذية:

وتنسب إلى مؤسسها "بوذا" الذي ولد في الهند (560 قبل الميلاد) لأسرة نبيلة، مال إلى التقشف منذ صغره، أدت به تأملاته إلى تحرره من الهوى وشور الكون وآلامه، ومن الجهل كما يقول³.

وتقوم فكرته على تجريد النفس وتهذيبها وقمع الشهوات، والعطف والمساواة، ورفض التفاوت الطبقي الذي أصيب به المجتمع الهندي، وانتشرت بسرعة في الجزء الجنوبي والشرقي من قارة آسيا، لكنه ما لبثت أن انحرفت وتحرفت، وهجمت عليها الأوثان والتماثيل والطقوس حتى صارت في زمن قصير ديانة وثنية لا تمتاز عن البرهمية إلا بأسماء الأوثان وعددها⁴.

1-2-3-الجينية:

وتنسب إلى مؤسسها "فارداماتا" (635 قبل الميلاد)، الذي ينحدر من أسرة نبيلة من الشمال الشرقي من الهند، وقد كان معاصرا "لبوذا" مال إلى الزهد، وأخذ يدعو إلى الفضائل والسلام بين الناس، ولقب "بمهافيرا" وجينا أي الذي انتصر على الشهوات وإلى هذا الاسم نسبت ديانته، وأهم مبادئها الإلحاد فهي لا تعترف بوجود خالق عظيم للكون، وإلغاء النظام الطبقي كرد فعل على طغيان البرهمية وجبروتها، وتحريم اللحوم بكل أنواعها والامتناع عن قتل كل حي، والاعتقاد بالتناسخ⁵. هذه هي أهم الأديان التي كانت موجودة في الهند عندما دخلها الإسلام.

1- الإسلام والفكر المعاصر، الموسوعة الإسلامية العربية ج1 (مرجع سابق)، ص45-46. أنور الجندي .

2- المرجع نفسه، ص46.

3- المرجع نفسه، ص18-19.

4- أبو الحسن الندوي، من رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ص 18.

5- عبدالله نومسوك، البوذية تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها، ط1. الرياض: أعضاء السلف 1999م، ص79.

1-2-4- الإسلام في الهند:

عرفت الهند الإسلام مبكراً، واعتنقه أهلها لما لمسوه فيه من مبادئ المساواة، والإخاء والعدل، ورغبة في التخلص من الظلم البغيض الذي كانوا يعانونه وشهدت الهند في ظل عهودا زاهرة من النواحي الروحية والعلمية والأدبية والفنية والمعمارية وتمازجت فيه مدنيتان عديداً، الفارسية والتركية والمغولية والهندية بالقيم الحضارية الإسلامية.

سار الدعاة إلى الله والمربون الروحيون في جميع أرجاء البلاد يغرسون الأخلاق ويكونون المجتمع الهندي الصالح الذي استطاع أن يعيش أكثر من سبعة قرون في وسط الوثنية البرهمية. وكان لرجال التصوف دور بارز في توطيد أركان الإيمان وتقويم الأخلاق ونشر العلوم الدينية، ينقل الشيخ الندوي عن مؤرخ الهند الشهير ضياء الدين البرني قوله: " كان شيخ الإسلام ضياء الدين وشيخ الإسلام علاء الدين وشيخ الإسلام ركن الدين من أعلام التربية الروحية والإصلاح تنور بهم العالم وبايعهم خلق لا يحصون وتاب على أيديهم الفسقة والفجرة وواظبوا على الصلاة وعضوا عليها بالنواجذ طول حياتهم، ونشأ فيهم حب الدين وإجلاله وصحت توبتهم والتزموا العبادات كلها وتضاءل حب الدنيا في قلوبهم بتأثير أخلاقهم السامية الكريمة وانتصر الصدق في الناس"¹.

وظل المسلمون كذلك قروناً عديدة حتى دب فيهم الضعف العلمي والجذب الروحي والانحطاط الفكري، فتفشى الجهل في أوساط العامة وأعرض العلماء عن التفقه في الدين بمعناه الشامل وصاروا إلى مجادلات في الجزئيات والفروع قتلوا بها أعمارهم، وصاروا كالأحبار والرهبان يشترتون الحياة الدنيا بالآخرة ولا يتخرجون من عرض فتاواهم المزورة المحرفة على كل من يساومهم فيها².

وأما التصوف فقد صار مزيجاً من الفلسفات الإشراقية والمانوية والزرادشية، وأصبحت علاقة المريدين بمشايخهم علاقة هدايا ونذور دون الإرشاد والوعظ والتربية إلا قليلاً³.

هذا ما وصلت إليه حال المسلمين يوم دهمهم الاستعمار الإنجليزي كما نكبوا في الثورة التي قاموا بها ضده، فصب عليهم العدو المتعطر العذاب صبا، وشتت شملهم وسد أبواب الرزق في وجوههم وصادر أملاكهم وضيق الخناق على العلماء وحملة الدين، فنفي بعضهم إلى الخارج وألقى البعض

1- أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند، (مصدر سابق)، 152.

2- أبو الأعلى المودودي، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، ط. باتنة: دار الشهاب 1988م، ص 150؛ أبو الحسن الندوي، تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، (مرجع سابق)، ص 182.

3- المرجع نفسه، ص 151.

الآخر في غياهب السجون من غير محاكمات حتى يخلو له الجو ولا يبقى من يعارضه في ما يريد من تغييرات¹.

في هذه الظروف قام السيد أحمد خان بجهود سياسة وعلمية كبيرة للدفاع عن المسلمين، دفعت بكثير منهم إلى تبني أفكاره، فأرسلوا أبناءهم إلى المدارس العصرية التي قاطعوها سابقا فأفرغت في عقولهم وقلوبهم ثمرات الثقافة الأوربية الجديدة، وحمل عدد من هؤلاء لواء التوفيق بين آراء الأوروبين ونظرياتهم المتجددة وآيات الكتاب العزيز، فحرفوها عن مواضعها وفتحوا بذلك بابا عظيما للفتنة وجنوا على الدين جناية لا تغتفر².

ومن جهة أخرى شجع المستعمر رجال الدين المسيحي على القيام بنشاطات تبشيرية واسعة فأرسلت الإرساليات وترجمت الكتب المقدسة باللغات المحلية، وصدرت البحوث التي تعج بالشبهات حول الإسلام، وأنشئت المدارس والمعاهد ذات الروح الغربية التي سعت إلى صوغ المجتمع الهندي في قالب المجتمع الغربي.

كما نشط المحترفون بالتصوف في نشر شطحاتهم وإلهاماتهم وقويت رغبة الدهماء في الأمور الغربية والخوارق العجيبة وكثر الأدعياء، وهياؤوا العقول والنفوس لكل أمر غريب ودعوة طريفة، واستولى على المسلمين اليأس والتذمر ويئس الناس من إصلاح الأوضاع بالأساليب العادية وبدأوا يتطلعون إلى منقذ جديد غريب فكثرت التنبؤات والإلهامات، في هذا الجو ظهر " المرزا غلام أحمد القادياني"³ أواخر القرن 19 فوجد محيطا مناسباً لفكرته، ومشجعا لدعوته فادعى بداية أنه "المسيح المنتظر"، ثم ادعى النبوة فأحدث بذلك فتنة عظيمة وقدم للمستعمر خدمات عديدة⁴.

ومن معالم الوضع الديني في هذه الفترة أيضا، ظهور حركة إنكار السنة التي كان من أهدافها الأساسية تفسير الإسلام والقرآن بما يوافق الأفكار الغربية، ولما كانت السنة تحول دون ذلك فلا بد من إزاحتها، وبدأت هذه الفتنة على يد السيد " أحمد خان" وحمل لواءها بعده عدد من تلاميذه⁵.

1- أبو الحسن الندوي، تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، (مصدر سابق)، ص 185.

2- المصدر نفسه ص 188؛ وينظر أيضا: أليف الدين الترابي، أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته، ط1. الكويت: دار القلم، (د ت)، ص 82.

3 - ولد في قاديان بالبنجاب عام 1840م من أهم مؤلفاته: "براهين أحمدية"، وتوفي عام 1908م بلاهور، ودفن حيث ولد. أنظر في ترجمته: أبو الحسن الندوي، القادياني والقاديانية، ط 5. الرياض: الدار السعودية 1983م. ص 24-31.

4- المصدر نفسه، ص 59-70.

5- أليف الدين الترابي، أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته، (مرجع سابق)، ص 83.

ومجمل القول أن هذا العصر كان عصر تحديات عنيفة للإسلام والمسلمين، بدءاً بالهجمة الشرسة للحضارة الغربية وسرعة انتشارها وتأثيرها، وضعف القيادة الدينية التي كانت حبيسة ثقافتها القديمة التي لم تمكنها من السيطرة عليها، وانتهاء ببروز جيل مقلد منبهر يرى قبول المجتمع الإسلامي لهذه الحضارة ونظمها المختلفة سبيلاً إلى نهضته وتقدمه.

في ظل هذه الظروف ولد الشيخ الندوي وعاش، وبذل جهده مساهماً في محاولة تبديل هذا الحال ورفع المسلمين إلى حياة أفضل.

2- الوضع العلمي:

عرف الواقع العلمي للعالم الإسلامي عامة في العقود الأخيرة خللاً كبيراً، سببه ذلك التباين والتضاد بين نظام تعليمي قديم موروث بعيد عن التجدد، ونظام آخر مدني حديث مشبع بالروح الغربية والفلسفة المادية، وهو ما أدى بالعالم الإسلامي إلى التآرجح بين عقليتين وفلسفتين مختلفتين تتصارعان دائماً وهو ما سنحاول تجليلته في هذا المبحث.

2-1- الوضع العلمي في العالم الإسلامي:

تميزت المؤسسات التعليمية في البلاد الإسلامية في سابق عهدها بنظام تعليمي موحد، لا يعرف التفريق بين تعليم ديني وآخر مدني، تعليم موحد ويجمع كل أنواع التخصصات فيخرج منه الطبيب الفيلسوف كابن سينا (370هـ-427هـ)، والمتكلم الفقيه الصوفي كالغزالي، وغير ذلك يشتركون جميعاً في ثقافة واحدة هي الثقافة الإسلامية ويشتركون في علومها المتنوعة. وإن كان كل واحد قد تخصص في ناحية وبرز في علم.¹

ولكن حال العالم الإسلامي اختلف بعد اتصاله بالحضارة الغربية ومحاولته تقليدها والاقتراب منها للقيام بنهضة علمية فأدى ذلك إلى تباين في مصادر الثقافة.

فمن جهة نجد المراكز العلمية القديمة الموروثة كالأزهر والزيتونة والقرويين تقوم بدورها العلمي ولكن في معزل عن التطور وعن النهضة الحديثة، وكانت في طور الضعف بسبب جمودها والبرامج وطرق التدريس والبعد عن روح العصر فلا تزال تدرس في كثير من هذه الهيئات المتون القديمة وشروحها المعقدة العويصة يضاف إلى ذلك بعد المدرّس عن روح العصر، وخلو ذهنه من مشكلاته وعدم إطلاعها على جوانب الثقافة المعاصرة التي قد يطلع عليها طلابه.²

1- محمد المبارك، الفكر الإسلامي الحديث مواجهة الأفكار الغربية، (مرجع سابق)، ص. 135.

2- مسعود الندوي، تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، (مرجع سابق)، ص 193.

ومن جهة أخرى نجد مدارس وكليات أنشئت في البلاد الإسلامية على نمط المدارس الغربية، تقدم معارف وآداب مشبعة بثقافة وأفكار وعقائد ومفاهيم أوربية، ولكنها على أساس أساليب التعليم الحديثة والطرق المعاصرة المرغوبة من حيث مراعاة مستوى الطلاب العقلي ومن حيث حسن التعبير وجمال التأليف.

مما أدى إلى ضعف الإقبال على المدارس القديمة، وضيق سبل العيش أمام المتخرجين منها بقدر ما كثر الإقبال على المدارس والجامعات الحديثة حتى أصبح المتخرجون منها يحتلون مراكز العمل والتوجيه، فصار منهم الحكام والموظفون الكبار والأطباء والمهندسون وقادة الفكر في البلاد. هذا ما أضعف الثقة بالدين وأبعد تأثيره في النفوس والعقول يقول الندوي: " لقد كان نظام التعليم الغربي محاولة عميقة وخفية لإبادة العنصر الإسلامي والقضاء عليه، وانتقل مفكرو الغرب من طريقتهم المتوقعة القديمة في إبادة الأجيال والفتك بها إلى الطريقة الجديدة التي قرروا صوغها في قالبهم فأسسوا لهذا الغرض مراكز كثيرة باسم الكليات والجامعات¹.

ومن جانب آخر بدأ صفوة من الشباب في العالم الإسلامي يؤمنون عواصم الغرب ومراكز الثقافة العصرية للتوسع في الدراسات والتعمق فيها، وينقلوا العلوم التحريبية المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية النظرية والتطبيقية التي لا تزال المكتبة العربية فقيرة فيها كما فعل اليابانيون عوض ذلك انصرفت عنايتهم إلى ترجمة كتب الآداب والاجتماع والفلسفة والتاريخ والروايات التي ساعدت على نشر الاضطراب الفكري والاجتماعي، وتأليف كتب وبحوث ينشرون من خلالها أفكار المستشرقين كبشرية القرآن، وفصل الدين عن السياسة، والشك في مصادر العربية الأولى، والتشكيك في قيمة الحديث النبوي وإنكار حججه، والدعوة إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل وإلى السفور، والدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام كالفرعونية والتغني بحضارتها والدعوة إلى العامية والكتابة والتأليف بها إلى غير ذلك².

تلك أهم ملامح الوضع التعليمي في العالم الإسلامي في تلك الفترة دون إغفال محاولات الإصلاح وجهود المصلحين كمحاولة الشيخ محمد عبده لإصلاح الأزهر³ في مصر، وإنشاء ندوة العلماء بالهند التي تأسست على مبدأ الجمع بين القديم والجديد النافع والتي كانت المحضن الدافئ والكنف الآمن الذي نشأ فيه الندوي وعاش كاتباً ومدرسا ومربيا.

1- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 174.

2- المصدر نفسه، ص 103.

3- ينظر: محمد المبارك، الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، (مرجع سابق)، ص 139.

2-2- الوضعية التعليمية في الهند:

اهتمت الحكومات الإسلامية المتتابعة في الهند بتثقيف الشعب الهندي ونشر الوعي الإسلامي وتكريم العلماء حتى ازدهرت الحالة العلمية في عهدهم وبلغت الهند ذروة الحضارة والثقافة في ذلك العصر¹.

وظل المسلمون في الهند كذلك عهوداً طويلة، وحين دخلها الإنجليز وجدوا مدنها وقراها تكتظ بالمدارس والمعاهد التي تدرس علوم الدين واللغة، ولما كان للمسلمين دور كبير في مقاومة المحتل وقيادة الثورة فقد عمد إلى إخماد حماسهم الديني بوسائل شتى منها غلق مدارسهم، وقتل علمائهم أو نفيهم، ومزاحمة نظامهم التعليمي القديم بنظام جديد لا يوافق طبيعة المسلمين ولا ثقافتهم ويقطع صلة الشعب بدينه وتاريخه وحضارته².

في هذه الأثناء قام "سيد أحمد خان" المعروف بإعجابه الشديد بالثقافة الغربية، بدعوة قومه إلى الاعتراف من بحر التعليم العصري، والاقتراف من ثمرات الثقافة الجديدة، وإرسال أبنائهم إلى المدارس العصرية، فتشكلت مراكز للعلم والثقافة مختلفة التوجهات نوجزها فيما يلي:

2-2-1- دار العلوم بديوبند:

وهو أكبر معهد ديني في الهند بدأ كمدرسة صغيرة، ثم لم يزل يتوسع بفضل جهود القائمين عليه وإخلاصهم وكان افتتاحه في شهر ماي 1867 أسسه العالم الجليل "محمد قاسم النانوتوي" وقد ركزت عنايتها على تدريس القرآن الكريم والسنة النبوية ودراسة اللغة العربية والاحتفاظ بالتراث الإسلامي، ويقدر عدد الذين اشتغلوا بالعلم بأكثر من عشرة آلاف والذين نالوا الشهادة منها نحو خمسة آلاف والذين درسوا فيها من الخارج كأفغانستان، وباكستان وبخاري وروسيا نحو خمسمائة. وكان للمتخرجين فيها تأثير كبير في حياة المسلمين الدينية، وفضل في محو البدع وإزالة المحدثات وإصلاح العقيدة والدعوة إلى الدين ومناظرة أهل الضلال، وكان شعارها التمسك بالدين والتعصب للمذهب الحنفي والمحافظة على القديم والدفاع عن السنة.

كما أن هناك مدارس عديدة في الهند تشارك معهد ديوبند عقيدته ومبدأه وشعاره³.

1- ينظر في تفصيل ذلك: أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند، (مصدر سابق)، ص 99 وما بعدها.

2- مسعود الندوي، الدعوة الإسلامية في الهند، (مرجع سابق)، ص 185.

3- أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند، (مصدر سابق)، ص 129 - 130.

2-2-2- المدرسة السلفية:

قامت جمعية أهل الحديث بتأسيسها تحت اسم الجامعة السلفية في مدينة بنارس التي تعتبر مركزا كبيرا للمعابد الوثنية وهي عند الهندوس أقدس مكان يتبركون به فكانت الحاجة ماسة إلى تأسيس مركز ديني وعملي بها.

وقد نالت الجامعة السلفية ترحيبا في جميع الأوساط العلمية والدينية في الهند وخارجها وركزت بصفة خاصة على الأهداف التالية:

- تدريس القرآن والسنة كمصدرين للشريعة الإسلامية.
 - دراسة اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية والاجتماعية القديمة والحديثة.
 - نشر العلوم الإسلامية والأدبية والاحتفاظ بالتراث الإسلامي والاهتمام بتعميم اللغة العربية في الهند.
 - إعداد الدعاة الصالحين.
 - الاعتناء بناحية التأليف والطبع في مختلف اللغات العالمية المهمة.
 - محاربة البدع والخرافات والعادات الجاهلية الفاشية في المجتمع الإسلامي¹.
- وفي مقابل دار العلوم بديوبند وما كان على شاكلتها من المدارس الدينية القديمة أقيمت الجامعات العصرية التي أسسها المسلمون في مدينة عليكرة ودلهي وحيدر أباد لتعليم أبنائهم العلوم العصرية واللغات الأجنبية وإعدادهم للوظائف الرسمية والمراكز الحكومية.

2-2-3- جامعة عليكرة:

وهي أشهر الجامعات وأقدمها وأكثرها تأثيرا في عقلية المسلمين وتعد من أرقى جامعات الهند وأوسعها تأسست عام 1877، أسسها الزعيم الشهير "سيد أحمد خان" باسم مدرسة العلوم وقد نجحت جامعة عليكرة في رسالتها بنجاحا كبيرا وأقبل عليها عدد كبير وتخرج منها رجال كثيرون شغلوا وظائف كبيرة في الحكومة، ولعبت الجامعة وأبنائها دورا مؤثرا في حياة المسلمين وسياسة البلاد ومنها نبتت حركة القومية الإسلامية مقابل حركة القومية الهندية².

1- أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند، (مصدر سابق)، ص 133 - 134.

2- أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند، (مصدر سابق)، ص 136.

إلا أن ما يؤخذ على السيد "أحمد خان" أنه لم يفكر في إخضاع النظام التعليمي لطبيعة هذا المجتمع الإسلامي الهندي، واكتفى باستيراد نظام غربي بتفاصيله وخصائصه وروحه، واشترط أن يكون عميد الكلية وعدد من مدرسيها من الإنجليز، وكان لهذا التوجيه عواقب وخيمة في السياسة، واتجاه المسلمين السياسي¹.

ومما يؤخذ عليه أيضا أنه تمسك في هذا النظام التعليمي بتعليم اللغة والآداب فقط ولم يعن بتعليم العلوم التطبيقية العناية التي تستحقها مع أنها ثمرة العلم الجديد اليانعة، وسر قوة الأمم الغربية وسيادتها، وكانت نتيجة لذلك أن خرجت الجامعة عددا من الأدباء والإداريين والقضاة والموظفين الكبار، ولم تخرج بطبيعة الحال رجالا مبرزين في علوم الهندسة والطبيعة، والصناعات المفيدة والعلوم التي كان الشعب الهندي في فقر شديد إليها².

2-2-4- الجامعة المليية الإسلامية:

وهي شقيقة جامعة عليكرة وتقترب منها في الاتجاه العصري ولكنها تختلف عنها في السياسة والفكر أنشأها الزعيم الكبير "مولانا محمد علي" في مدينة دلهي 1920م، ويمتاز أساتذتها وإداريها بنزعتهم الوطنية وروح التضحية وكان على رأسها "ذاكر حسين" الذي ترأس الجمهورية الهندية فيما بعد وتوفي 03 ماي 1969³.

2-2-5- الجامعة العثمانية:

وتمتاز هذه الجامعة بتدريسها العلوم العصرية باللغة الأوردية، وعنيت بنقل العلوم الحديثة، وترجمة الكتب المهمة في الفلسفة والسياسة، والتاريخ وعلوم الطبيعة والطب والاقتصاد إلى "أردو"، ووضع المصطلحات العلمية فيها وبذلك أدت خدمة عظيمة للمسلمين وثقافة الهند، ويقدر عدد الكتب التي نشرتها بحوالي 358 كتابا في العلوم والفنون المختلفة وقد عطلت بعد تقسيم الهند 1948 ووقع حريق في مكتبتها أتلّفها وضيع تراثا ثميناً⁴.

1- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 69.

2- المصدر نفسه، ص 71.

3- أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند، (مصدر سابق)، ص 137.

4- المصدر نفسه، ص 137 - 144

2-2-6- ندوة العلماء:

لما رأى بعض العلماء أن الهوة قد اتسعت جدا بين التعليم المدني والتعليم الديني، وصار خريجهما على طرفي نقيض، ومن العسير اتفاق الفريقين على كلمة واحدة ولا تكاد ترى دعاة الطائفتين يجتمعان في مجلس واحد، وإن اجتمعا فهناك الجدل والخصام، هؤلاء يستهزؤون بالمتدينين عامة ويرمون المشايخ بالجمود، وأولئك يكفرونهم وينسبونهم إلى الزندقة والإلحاد، وما زاد الطين بلة تضارب العلماء والمشايخ وتشاجرهم فيما بينهم وتكفير بعضهم لبعض، وخلت مجالسهم إلا من مناظرات بين الحنفية وأهل الحديث، والجدال بين السلفية والصوفية حول مسائل لا صلة لها بالحياة¹.

لما بلغ الأمر هذا الحد أحست جماعة من العلماء بالخطر الداهم وأرادوا تداركه قبل تفاقمه فأسسوا جمعية ندوة العلماء عام 1893 م، في مدينة "لكهنؤ" وترأسها "محمد علي المونكيري" وفتحوا أبوابها لكل من يريد المشاركة فيها من المؤمنين من غير فرق بين طائفة وطائفة، وأهم مبادئهم:

- إصلاح مناهج التعليم في المعاهد الهندية حتى تكون جامعة بين علوم الكتاب والسنة والعلوم العصرية.

- التوسط والاعتدال والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع.

- العناية بالقرآن الكريم وتدرسه ككتاب كل عصر وجيل.

- العناية باللغة العربية كلغة حية يكتب بها، ويخطب لا كلغة أثرية دارسة.

- استبدال العلوم القديمة قليلة الفائدة بعلوم أخرى عصرية لا غنى عنها للعالم العصري².

وتخرج منها جماعة من المثقفين بالثقافتين الجديدة والقديمة، فتقدمت إلى ميدان العمل حاملة يمينهما فكريا وثقافة إسلامية صحيحة، وآخذة مصباح العلوم الحديثة والمعارف الجديدة بشمالها فدافعت عن الملة ولها آثار جميلة في الأدب الإسلامي، وعلم التوحيد والتاريخ والسير النبوية على صاحبها الصلاة والسلام.

1- مسعود الندوي، الدعوة الإسلامية في الهند، (مرجع سابق)، ص 195؛ أبو الأعلى المودودي، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، (مرجع سابق)، ص 156.

2- مسعود الندوي، الدعوة الإسلامية في الهند، (مرجع سابق)، ص 196؛ أبو الحسن الندوي، المسلمون في الهند، (مصدر سابق)، ص 139.

وجدير بالذكر أن والد الندوي "عبد الحي الحسيني"¹ وأخوه "عبد العلي الحسيني"² كانا قد أشرفا على ندوة العلماء وهو ما هياً له النشوء في هذه البيئة البعيدة عن آثار الغزو وعدم التلوث بشيء منه، وبعيدا عن الجمود وتقليد الجامدين.

ومما ينبغي أن يذكر أيضا أن "أبا الحسن الندوي" كان يدير هذه الندوة ويشرف عليها منذ عام 1961 إلى أن توفاه الله آخر يوم من عام 1999 م رحمه الله رحمة واسعة.

1- ولد في عام 1869م وتوفي عام 1923م من أهم مؤلفاته: "تاريخ الثقافة الإسلامية في الهند"، "الأعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" انظر في ترجمته: أبو الحسن الندوي، مقدمة تهذيب الأخلاق لعبد الحي الحسيني، ط1، بيروت: المكتبة العصرية (د-ت) ص 22-33، أبو سحبان روح القدس الندوي، العلامة الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسيني الرائي بريلوي، مجلة البعث الإسلامي الهندية، الأعداد التالية: 1-2-3 المجلد 44، سنتي 1998 - 1999م على التوالي.

2- هو العالم الجليل الدكتور عبد العلي (1894م-1961م)، أحد الأطباء المشهورين في الهند والمعروفين بالفضل والصلاح، يراجع: أبو سحبان روح القدس الندوي، الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسيني، مجلة البعث الإسلامي، العدد 03 المجلد الرابع والأربعون شهر فيفري عام 1999م، ص 50-51.



المبحث الثاني

حياة أبي الحسن الندوي



تمهيد:

يعد " أبو الحسن علي الحسيني الندوي"¹ من كبار المفكرين الإسلاميين وفحول العلماء، وزعماء النهضة في العالم الإسلامي؛ تشهد بذلك مسيرته العلمية والعملية، وجهوده الكبيرة، ومناصبه التي تقلدها، وكتبه ومقالاته، ومشاركاته الفاعلة.

وتمتاز كتبه بخصيصة قلما وجدت في كتب غيره من المؤلفين وهي غزارة المادة العلمية، وبلاغة القلم وصناعة الإنشاء حدث بالدكتور "مصطفى السباعي (1915-1964م)" أن يقول عنها: "وكتبه ومؤلفاته تتميز بالدقة العلمية، وبالغوص العميق في تفهم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي، ووسائل معالجتها، عدا ما يمتاز به من روح مشرقة وخلق نبوي كريم، ومعيشة تذكرك بعلماء السلف الصالح في زهده وتقشفه وعبادته وكرامة نفسه"² وهي شهادة لها قيمتها من رجل خبر الحياة كالسباعي.

والحقيقة التي لا جدال فيها أن الراحل أثري المكتبة الإسلامية المعاصرة بمؤلفاته القيمة، ودراساته الرصينة، ابتداء من كتابه الخالد "ماذا خسر العالم الإسلامي بانحطاط المسلمين"³ الذي نال به شهرة وصيتا في العالم الإسلامي، وكان رسوله الأول إلى العالم العربي، ورزق من القبول في الأوساط العلمية مبلغا عظيما فطبع عشرات الطبعات وترجم إلى معظم اللغات الأجنبية.

1- انظر في ترجمته: يوسف القرضاوي، الندوي كما عرفته، ط1، دمشق، دار القلم 2001م، نذر الحفيظ الندوي الأزهرى، أبو الحسن علي الحسيني الندوي كاتبا ومفكرا، ط2. الكويت: دار القلم 1986م؛ السيد عبد الماجد الغوري، أبو الحسن علي الحسيني الندوي الامام والمفكر الداعية الأديب، ط2، دمشق: دار ابن كثير 1999م؛ محمد أكرم الندوي، أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، ط1، دمشق، دار القلم، 2006م؛ عثمان العباس الطيب عبد الرؤوف، الجهود الأدبية والنقدية لأبي الحسن الندوي - دراسة تحليلية نقدية - رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة في قسم اللغة جامعة أم درمان بالسودان، 2013م؛ حنان محمد فضل الله، أبو الحسن الندوي وجهوده الدعوية، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة أم درمان الإسلامية، كلية الدعوة الإسلامية، السودان، 2010م؛ رياض السيد السيد عاشور، جهود الشيخ أبي الحسن الندوي في الدعوة الإسلامية، رسالة ماجستير غير منشورة كلية أصول الدين، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، جامعة الأزهر الشريف، 1993م. وأوفى ترجمة عن حياته ما كتبه هو عن نفسه في كتابه في مسيرة الحياة وهو عبارة عن سيرة ذاتية له، ينظر: أبا الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، ط1، دمشق: دار القلم 1987م، وهو في ثلاثة أجزاء.

2- مصطفى السباعي، مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، لأبي الحسن الندوي، ط9، الكويت: دار القلم 1993م، ج1، ص5.

3- هو أشهر مؤلفات الشيخ أبي الحسن وأوسعها انتشارا في العالم الإسلامي ويذكر الندوي نفسه أن هذا الكتاب قد طبع ثلاثة عشر طبعة شرعية، وهناك طبعات غير شرعية وقد طبع من آخر طبعة شرعية نحو تسعين ألف نسخة دفعة واحدة، وهذا الكلام الذي يقوله الندوي مضى عليه الآن أكثر من ربع قرن؟! ينظر: لقاء مع العلامة أبي الحسن الندوي، مجلة الرائد الهندية، العددان 01 و02 السنة الرابعة والعشرين الموافق 01 - 16 جويلية 1982م.

ولد أبو الحسن علي سنة 1914 م، ببلدة "رائي بريلي" في الهند، وكان رحيله عن الدنيا في 31 ديسمبر 1999، وفيما بين هذين التاريخين كانت رحلة حياته التي خلفت آثاره الخالدة ومآثره التالدة.

1- ولادته ونشأته العلمية:

نشأ أبو الحسن الندوي في بيت علم وفضل وصلاح، فوالده العلامة عبد الحي الحسيني (1869م - 1923)، ينتهي نسبه إلى السيد الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب¹، وهو صاحب أكبر موسوعة في تاريخ أعلام الهند وأعيانها من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر والموسومة "بنزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر".

والواقع أن هذا الكتاب يقوم لوحده مقام المجامع العلمية برجالها وعدتها، وهو يشتمل على نحو خمسة آلاف ترجمة، وقد استغرق تأليفه أكثر من ثلاثين سنة، بالإضافة إلى كتاب "الثقافة الإسلامية في الهند" وهو بالعربية، وكتاب "كل رعنا" الذي ألفه بالأردية وهو في الشعر الأردني وشعرائه، ويعد من المصادر المهمة في هذا الجانب، ويدرس في كبريات الجامعات في الهند وباكستان في مقررات الدراسات الأدبية².

كما ينتهي نسب جدته من جهة والده إلى الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وينتهي نسب أمه أيضا إلى الحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، فهو نجيب الطرفين في النسب³.

والحقيقة أن الأسرة الكبيرة لأبي الحسن أنجبت أعلاما تزينت بهم الدنيا وكتب التاريخ؛ نخص منهم علم الله ابن فضيل الحسيني المتوفى عام (1096هـ) الذي أنشأ المركز الديني التربوي الإصلاحية في بلدة "رائي بريلي" والمعروف بـ"تكية كيلان". كما نبغ من هاته الأسرة الطيبة فحول من العلماء والمربين لعل أشهرهم "أحمد بن عرفان الشهيد"⁴ الذي تلقى التربية والتهذيب على يد خلفاء "شاه

1- أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، ط1، دمشق: دار القلم 1987م، ج1، 30-72.

2- الحسيني السيد قدرة الله، العلامة عبد الحي الحسيني، ط1. جدة: دار الشروق للنشر والتوزيع 1983 م، ص84.

3- المرجع نفسه، ص284-285. وينظر أيضا: - الندوي، أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ص92.

4- هو الإمام المجاهد الشهيد: أحمد بن عرفان بن نور الشريف الحسيني البريلوي ولد في صفر 1201هـ وتوفي في عام 1246هـ انظر في ترجمته: عبد الحي الحسيني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمى "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"، (مرجع سابق)، ج7، صص899-902، وقد ألف أبو الحسن كتابا في سيرة السيد "أحمد بن عرفان" سماه، إذا هبت ريح الإيمان، ط11. بيروت: مؤسسة الرسالة 1999م؛ وينظر أيضا: أبو الحسن الندوي، الإمام الذي لم يأخذ حقه من الإنصاف والاعتراف، ط2. القاهرة: دار الاعتصام، 1978م.

ولي الله الدهلوي"¹، واستشهد الإمام أحمد في موقعة "بالاكوت" الشهيرة التي وقعت بعد احتلال فرنسا للجزائر بسنة واحدة.

ولعل من نافلة القول أن نذكر بجدّ من نترجم له العلامة فخر الدين بن عبد العلي الحسيني المولود عام (1256هـ)، صاحب المؤلفات القيمة نخص منها كتاب "مهرجهان تاب" في ثلاثة أجزاء كبار، والذي يعد بحق أول موسوعة باللغة الفارسية في العلوم والفنون والآداب والتراجم والسير، وكتاب "سيرة السادات في بيان أنساب الأشراف"، وديوانه الشعري، ولقد كان فخر الدين رجلاً رانياً بآتم ما للكلمة من معنى، توفي في العاشر من رمضان (1326هـ)، الموافق عام (1908م)².

ومن هنا يبدو أن السليقة الأدبية والفنية، والملكة التاريخية العلمية في أبي الحسن وراثته من الأسرة الصغيرة، ومن مكان الولادة، إذ كان جده وأبوه كاتبين موهوبين ومؤرخين أمينين، وأوشك هو أن ينشأ على صناعة أبويه.

يقول الندوي متحدثاً عن فضل هاته التنشئة: "لقد ولدت في بيت كان موضوعه الحبيب، بل هوأيته التأليف في سير الرجال وطبقاتهم، وتراجم العلماء وأهل الفضل، وخاصة الذين أنجبتهم أرض الهند... فقد نشأت بصفة خاصة على حب التفنن في الفضائل، والجمع بين الأشتات، بل الأضداد من الفضائل الإنسانية، وأنواع العلوم والمعارف والآداب والثقافات وعلو المهمة، والقدرة الفائقة، على التنسيق بينها، وتسخيرها للوصول إلى غاية مثلى وخدمة العلم والدين، حتى لو أدى ذلك إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين، ويعدونّها من ضالة الآداب، وبراية الآداب"³.

1- هو الإمام المجدد صاحب "حجة الله البالغة" ويكفي هذا الكتاب في التعريف بفضله، انظر في ترجمته: عبد الحي الحسيني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمّى بـ"نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"، ط. بيروت: دار ابن حزم، (د.ت)، ج 5، ص 858-867؛ أبا الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الإمام الدهلوي)، ط 1. الكويت: دار القلم 1985 م. ج 4، ص 59-129، ابن الألويسي، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، ط 1، القاهرة: مطبعة المدني 1981 م، ص 59 - 60، عبد الحي الكتاني، معجم المعاجم والمشيوخ والمسلسلات، تح: إحسان عباس، ط 1 بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982 م. ج 2 ص 1119 - 1122، د. انظر في آرائه: زهير الدواوي، شاه ولي الله تجديد الدين وتجديد الدنيا، ط1. بيروت: دار الانتشار العربي 2012م.، كما ينظر: عبد الحي الحسيني، الثقافة الإسلامية في الهند، المسمّى بـ"معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف"، ط2. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق 1983م.

2- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج 1، ص 30.

3- اجتهاء الندوي، أبو الحسن الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل، (مرجع سابق)، ص 12-13.

1-1- ولادته:

ولد أبو الحسن علي لست خلون من محرم عام ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف الموافق 1914م، بقرية "نكية كيلان"، بمديرية "رائي بريلي" الولاية الشمالية "أترا بديش" من بلاد الهند، حيث تبعد "نكية كيلان" ثمانين كيلو مترا من مدينة لكهنؤ¹.

في هدوء هذه البلدة الوادعة درج "أبو الحسن علي"، وفي كنف والدين عطوفين تربى، والذين جمعا إلى الشغف بالعلم، حب العمل، مما انعكس أثره على الطفل الصغير طول حياته، وتذكر كتب التراجم أن والده كان من كبار مؤرخي الهند، حتى دعي ب "ابن خلكان الهند"، أما والدته فكانت من فضليات النساء القانتات ومن أمارات هذا أنها كانت أشد ما تكون صرامة في أمرين: المحافظة على أداء الصلوات في المسجد سواء في حرّ أو قرّ، أما الأمانة الثانية أنها كانت لا تتساهل في أي سلوك عدواني أو ظلم يصدر من فلذة كبدها على أحد أبناء الجيران².

1-2- اسمه ولقبه ونسبته:

أما اسمه فهو علي كما هو مثبت في جميع مؤلفاته، واشتهر بأبي الحسن علي الحسيني الندوي، والحسيني نسبة الأسرة إلى سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما³، والندوي نسبة إلى ندوة العلماء، وهي الجامعة التي تخرج منها، وندوة العلماء صرح علمي أسسه العلامة "شيلي النعماني"، وهي جامعة تجمع بين الأصالة والمعاصرة بنيت على غرار كلية دار العلوم المصرية.

1-3- نشأته العلمية:

في هاته القرية تعلم الفتى "علي" الخط، وقرأ مباهي الأردية والفارسية، وكان يتردد بين قريته ولكهنؤ، لكن غالب إقامته كانت في لكهنؤ حيث كان والده "عبد الحي" يشتغل بالمداواة وإدارة شئون "ندوة العلماء"، ولما انتقل والده إلى جوار ربه قفل مع أمه راجعا إلى مسقط رأسه "رائي بريلي" ليتم تربيته في حجرها، ويكمل حفظه للقرآن على يديها، إذ كانت والدته حافظة لكتاب الله وشاعرة رقيقة المشاعر، وكاتبة لها مؤلفات، توفيت عام 1388هـ⁴.

1- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص45.

2- المصدر نفسه، ج1، ص72.

3- السيد قدرة الله الحسيني، السيد عبدالحي الحسيني: عصره - حياته - مؤلفاته، (مرجع سابق)، ص74-75.

4- محمد احتباء الندوي، أبو الحسن الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل، ط1، دمشق: دار القلم 2001م، ص30-

39. وينظر أيضا: الحسيني السيد قدرة الله، العلامة عبد الحي الحسيني عصره - حياته - مؤلفاته، (مرجع سابق)، ص174-

وبعدما ختم الطفل القرآن الكريم، بدأ تعلم اللغة الفارسية، وعهد به أخوه عبد العلي إلى معلم حاذق بارع وهو الشيخ "محمود علي" وقد كان معلماً مهذباً، مارس هاته المهنة سنوات عدة، وفي هذه الأثناء طالع ماكتبه والده للأطفال الصغار مثل كتاب "تعليم الإسلام"، وكتاب "نور الإيمان"، كما تعلم الخط وأتقنه على أحد معلميه¹.

وبعد انتقال والدته إلى الرفيق الأعلى كفله شقيقه الأكبر عبد العلي الذي كان له الفضل في توجيهه إلى دراسة الإنكليزية والتعمق فيها، لأنه أدرك أن نجم اللغة الفارسية بدأ يأفل في الهند، وبخاصة وأن أبا الحسن حصل منها على ما يمكنه من مطالعة كتب الطبقات والرجال والمعارف والحقائق، وفهم دواوينها الشعرية، كما كان له الفضل الأكبر في تنشئة أبي الحسن تنشئةً سالحة، حيث حَبَّب إليه التمسك بالكتاب والسنة، وكره إليه الشرك والبدع، وغرس فيه ميلاً إلى التطلع إلى مصادر الدين الصحيح والإسلام الخالص².

وبعد هذا التعلم والتربية على أيدي والدته وشقيقه، بدأ أبو الحسن علي يدرس اللغة العربية على الأديب الفاضل "خليل بن محمد الأنصاري" اليماني الأصل (1887م-1966م) وكان أبو الحسن حينذاك في العاشرة من عمره، وكان شيخه خليل من نوادر المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم بطابعهم، وينقلون إليهم التذوق المباشر للنثر البليغ، والشعر الرقيق واستطعامهما والتلذذ بهما، وكانت له قدم راسخة في تعليم اللغة العربية وتسهيلها وتجييبها إلى النفوس، وصاحب منهج مبتكر في تعليم مبادئ العربية وآدابها في الهند³.

وبسبب هاته الطريقة درس الندوي الكتب العربية المهمة القديمة، مثل "نحو البلاغة"، و"مقامات الحريري"، و"دلائل الإعجاز للجرجاني"، و"القصائد العشرة"⁴. حتى بات يتكلم العربية بطلاقة. وهذا الأمر شجعه على دراسة العلوم الدينية، والتبحر فيها على أيدي أساتذة كبار نخص منهم "الخواجة عبد الحي الفاروقي" أستاذ التفسير بالجامعة المليّة بدلهي حين مقدمه إلى لکنهؤ، وعمه الفاضل "طلحه بن نور الهدى"، ثم العلامة الطوكي (ت 1970م)⁵ أحد الرجال المبرزين في الحديث والرجال العربية.

1- الندوي، أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ص 62.

2- المصدر نفسه، ج 1، ص 77.

3- ينظر: الندوي، أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ص 77 وما بعده.

4- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق) ج 1، ص 79.

5- ينظر: أبو سحبان روح القدس الندوي، العلامة الشريف السيد عبد الحي بن فخر الدين الحسيني الرائي بريلوي، مقال منشور في مجلة البعث الهندية العدد الثالث المجلد الرابع والأربعون شهر فيفري 1999 م، ص 53.

كما أنه حضر دروس الحديث بندوة العلماء بلكنهؤ التي كان يلقبها الفقيه المحدث الشيخ حيدر حسن بن أحمد بن حسن الأفغاني الطوكي (ت 1947م)¹ ولازمه سنتين كاملتين وقرأ عليه "صحيح البخاري" و"صحيح مسلم"، و"سنن أبي داود"، و"الترمذي" حرفا حرفا، وقرأ عليه شيئا من تفسير "البيضاوي"، وأخذ عنه عدة دروس في المنطق.

كما صحب العلامة اللغوي المحقق الدكتور "محمد تقي الدين المراكشي" (1894م-1987م)² إبان إقامته "بندوة العلماء" مدرسا للغة العربية وآدابها ما بين (1930م-1933م) وانتفع بمجالسه العلمية واستفاد كثيرا من تحقيقاته اللغوية وقرأ عليه "ديوان النابغة الذبياني" مع تقييد فوائده ونكته.

وانطبع الندوي كثيرا بأراء أستاذه أحمد علي اللاهوري في التفسير، وأسرار وحكم التشريع، وحضر دروسه في "حجة الله البالغة" لمؤلفه الطيب الذكر الشيخ ولي الله الدهلوي المجدد (1114هـ - 1176هـ) وكان أبو الحسن يجلب شيخه اللاهوري إجلالا كبيرا، ويخلص له الحب والاحترام.³

ثم رحل أبو الحسن إلى ديوبند عام (1932م) ولازم دروس شيخه المحدث حسين أحمد بن حبيب الله المدني (ت 1958م) في "صحيح البخاري"، و"سنن الترمذي" بصورة منتظمة، وأسند عن الشيخ "حسن خان الطوكي" السالف الذكر، وأجازته المحدث الشهير عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري صاحب الكتاب الذائع الصيت والموسوم بـ "تحفة الأحمدي في شرح سنن الترمذي" ت 1934م⁴.

2- وظيفته وأشغاله:

تم تعيين الندوي مدرسا في دار العلوم التابعة "لندوة العلماء" في جويلية 1934م⁵، وباشر عمله عمله بانتظام واقتدار كبيرين، وكان يقوم فيها بتدريس الأدب والتفسير والحديث والمنطق.

وأتيحت للعلامة الندوي في هذه الأثناء فرصة وضع المقررات الدراسية لتعليم اللغة العربية، فألف "قصص النبيين للأطفال" و"القراءة الراشدة"، و"مختارات من أدب العرب" في قسمين لدراسة

1- أبو سحبان روح القدس الندوي، العلامة الشريف السيد عبد الحي بن فخر الدين الحسيني الرائي بريلوي، (المرجع سابق)، ص 54.

2- هو العلامة محمد تقي الدين الهلالي الحسيني المغربي كان من كبار علماء العربية في هذا العصر، وأصحاب التحقيق والإتقان في صحة الكلمات العربية وأصالتها كان يرجع إليه أمير البيان المرحوم شكيب أرسلان والعلامة محمد رشيد رضا صاحب مجلة "المنار" ويتحاکمان إليه عند الاختلاف في صحة التعبير العربي، ينظر: أبا الحسن، الأعلام، (مصدر سابق)، ص 22.

3- ينظر: أبا الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق) ج 1، ص 92، وص 108 منه.

4- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق) ج 1، ص 94-95؛ وأيضا: ج 1، ص 106-107؛ وينظر أيضا: محمد أكرم الندوي، أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، (مرجع سابق)، ص 68-69.

5- ينظر: محمد اجتباء الندوي، أبو الحسن علي الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل، (مرجع سابق)، ص 40.

النصوص الأدبية من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث مع تعريف موجز بأصحابها وذكر مميزاتهم الأدبية¹.

ولقد حاول الندوي في هذه الفترة أن يلم بطرف من الثقافة العصرية ويواكب الحركة الأدبية الناشئة في العالم العربي فكان له ذلك.

فقد اتفق أن وقعت يد الشيخ على كثير من الصحف والكتب التي تحمل هذا اللون الجديد من الفكر مثل "المنار" و"الهلال" و"المقتطف" و"مجلة الزهراء" و"المجمع العلمي" و"العرفان" و"الفتح" ذلك لأن هذه الصحف والمجلات كانت ترد تباعا إلى دار المطالعة لجمعية الإصلاح بدار ندوة العلماء² فأقبل الشباب على هذا اللون الجديد من الثقافة بكل شوق ورغبة، وتأثر بالغ إلى جانب تأثره بشيوخه في الفقه والحديث والتفسير وبقي العلامة الندوي مشغولا بالتدريس والإفادة حتى ألف رائعته "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" الذي نفع الله به خلقا لا يحصون، ولم يكذب يوجد مرشد أو مرب بعد صدوره إلا واستفاد منه ونصح طلابه بمراجعته.

3- الزواج:

وفي عام (1934م) تزوج العلامة الندوي ببنت خاله السيد أحمد سعيد، وهي حفيدة الشيخ الجليل السيد ضياء النبي أحد كبار مشايخ المرين في شبه القارة الهندية، ولقد خطب الشيخ حيدر حسن خان شيخ الحديث بدار العلوم خطبة الزواج³، وعمر هذا الزواج المبارك أكثر من خمسين عاما إلى أن انتقلت السيدة الفاضلة إلى رحمة الله تعالى في 15 ديسمبر 1989 بمدينة رائي بريلي⁴.

4- صفته وأخلاقه:

كان العلامة الندوي عالي الهمة كبير الطموح شديد الحب قوي الإيمان، وكان مما حباه الله به، سعة النظر واعتدال الفكر ورحابة الصدر يضيق بالتعصب والتزمت والجمود، ويكره الحضارة اللادينية إلى حد الحقد والانتقام.

يكره التكلف ويجب البساطة في كل شيء، يلبس أيسر اللباس وأرخصه وأبعده عن الزهو والخيلاء والتعالي، قميص طويل تحته سراويل واسعة على عادة علماء الهند فيما يلبسون.

1- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق) ج1، ص141-145.

2- المصدر نفسه، ج1، ص116.

3- ينظر: أبو الحسن علي الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص118.

4- ينظر خبر نعي السيدة قرينته في مجلة البعث الإسلامي العدد العاشر المجلد الرابع والثلاثون شهر فيفري 1990م

ومن صفاته الخلقية أنه ربع القامة، مائلا إلى القصر مشرق الوجه تلوح عليه أمارات الصلاح والتقوى، ويعلوه الوقار والسكينة، له لحية كثة مستديرة، وعينان واسعتان تشفان عن ذكاء وحياء، ملتزما رحمه الله لغطاء الرأس في الأسفار والملتقيات، دائم الفكر في حال الأمة على اتساع جغرافيتها وامتدادها المكاني، يحيا آلامها وآمالها، لا يشغله هم عن هم ولا بلد عن آخر، امتزج الحب والشوق لله العظيم ولرسوله الكريم بلحمه ودمه، وملك عليه جوانحه وكله، فكان لا يعنى إلا بهما، وبإشعال مجمرهما وتأجيج نارهما في قلوب المؤمنين، وهذه العاطفة الجياشة، وهذا الحب العارم جعله يتغنى كثيرا بشعر جلال الدين الرومي حتى ليحس القاريء كأنه شعره هو ينطلق من قيثارته.

ومما يمتاز به الندوي شدة الشغف بالعلم، وكثرة الاشتغال بالمطالعة والتأليف حتى أريت مؤلفاته على أكثر من مائة وسبعين مؤلفا في فنون شتى من الأدب، والتاريخ، والسير إلى الدين فكانت بهذه المناسبة سجلا حافلا لتاريخ أمتنا في مظاهره الثقافية والروحية والاجتماعية.

وكان العلامة سلس القريحة سيال القلم يغلب على إنشائه الطبع والرواء، والطلاوة والجمال، وعدم التكلف في التصنيف وبالجملة فهو صاحب أسلوب متميز شهد له بذلك العلامة اللغوي الكبير "محمد تقي الدين الهلالي" وقديما قيل: "إنما يخلد المرء بأسلوبه".

والمأمل في كتبه لا تخطئ عينه العديد من الخصائص والصفات التي حباها الله إياها، والتي قل أن تجتمع لرجل في هذا الزمان، فمن ذلك:

4-1- التكامل في شخصيته بين العلم والعمل، والتمكن في فنون كثيرة، والروح الاجتماعية، وإنهاك البدن بالعمل والترحال، والتصدي لجلائل الأعمال

4-2- الوعي بالعصر وقضايا ومشكلاته ومستجداته، ومعرفة تاريخ الفكر وتياراته، ومتغيرات المجتمعات ونوازها، ساعده على ذلك تكوينه الغربي وإتقانه للإنكليزية، حيث جمع بين الثقافتين أو بين ما يسميه الناس في عصرنا الأصالة والمعاصرة فهو رجل أصيل موصول بالتراث عارف به مطلع على كنوزه المختلفة في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ والفكر الإسلامي والأدب وغير ذلك، ولكنه غير غائب عن العصر فهو يعيش العصر ومشكلاته وتياراته المختلفة ليس ككثير من علمائنا الذين يعيشون في الماضي وحده ولا يعرفون عن الحاضر شيئا.

لكن الشيخ الندوي يعرف الماضي ويعايش الحاضر ويستشرف المستقبل ولعل معرفته باللغة الإنكليزية. جعلته يفتح على العصر، ينظر إلى العصر بعين وإلى التراث بالعين الأخرى، لذلك اهتم بالجانب الإصلاحية والتجديدي في الإسلام وضرورة تغيير الأمة إلى ما هو أفضل وأحسن عن طريق

تغيير أفكارها وتغيير معارفها وتغيير إرادتها أو ما عبر عنه القرآن بتغيير ما بالأنفس، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد، الآية، 11).

4-3- الدأب والمواصلة والإصرار، فالشيخ في سابقته وسنه يحفز الشباب للعمل والإيجابية بحيويته وإنجازته، وأنت لا تراه إلا قارئاً أو كاتباً أو متحدثاً أو منغمساً في حل مشكلة، أو مهموماً بمشروع إسلامي يخدم الأمة ويحقق شيئاً من تطلعاتها.

4-4- وهو رجل كوني، تجد آثار عمله الجاد المنظم في لندن وأوروبا كلها، كما تجده في أمريكا، كما تجده في الهند، حيث ولد وعمل، كما تجده في دول المغرب، كما تجده في دول الشرق، والسعودية والخليج وغيرها.. ولذلك كتب الله له القبول والمحبة والذكر الحسن، ولعل هذا عاجل بشراه.

4-5- والشيخ رجل خلق وكرم، فهو بشوش، سمح المحيّا، كريم المعشر، يعطف على الضعيف والمسكين.

ولاجتماع هذه الخصال في الشيخ صار بهذه المنزلة الكريمة عند الخاص والعام، وكتب الله له هذا التأثير والحضور في المحافل الإسلامية والمجتمعات الدعوية، وأصبح يعد أحد المراجع العلمية في العالم الإسلامي.

ويضاف إلى هذه المزايا ميزة أخرى عرف بها الشيخ في أوساط العلماء والدعاة والمرين، وهي "الريانية" مع الانصراف التام عن مباحج الحياة، وفيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومتاع وجاه يصدق عنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران، الآية: 79).

ولا شك أن هذا من بركات التنشئة السليمة والتربية القويمة في البيعة الصالحة، والبيت الطاهر قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ (الأعراف: الآية: 58).

5- جهوده الدعوية:

إن الشيخ الندوي أحد أعلام الدعوة، وقد آتاه الله - تعالى - من المواهب والقدرات والمؤهلات، والأدوات ما مكّنه من تبوء المكانة الرفيعة وحصوله على الشهرة الواسعة في عالم الدعوة والدعاة¹.

1- القرضاوي، الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص 72.

ويبدو أن هذا الميل إلى العمل الدعوي منغرس في "أبي الحسن علي" من ميراث الأسرة الفاضلة، ولعل هذا ما أشار إليه حينما قال إنه ينحدر من أسرة عربية شريفة تمتاز بتمسكها بالشرعية الإسلامية، وبذل الجهد في نشر العلم وخدمة الإسلام والعمل لخير المسلمين¹.

بدأ الشيخ الندوي أعماله الدعوية حين ترك عمل التدريس النظامي، فوسع من مطالعته وقراءته للكتب وللمجلات والمقالات والبحوث وغيرها، وتحوّل في أنحاء الهند، واتصل بالأستاذ أبي الأعلى وقد انسجمت أفكاره معه، فانضم إلى الجماعة الإسلامية، وكان من بين الأعضاء المسؤولين في الجماعة الإسلامية، ثم انفصل عنها، لكنه بقي دائم الصلة مع الأستاذ المودودي. كما اتصل بالشيخ عبد القادر الرائبوري، وبإيعاز منه زار مركز نظام الدين في دهلي وميوات، والتقى مع الشيخ الداعية الكبير محمد إلياس، - مؤسس جماعة التبليغ وتعرف على دعوته وأسلوبه ومنهجه في الدعوة - والتبليغ، فتأثر به ولازمه مدة من الزمن².

وتوسعت الأعمال الدعوية للشيخ الندوي، وتجاوزت حدود الهند، فتحول في أنحاء العالم شرقه وغربه وجنوبه وشماله، وزار البلاد العربية والإسلامية، وتنقل في البلاد والدول الغربية كذلك، وألقى الخطب والمحاضرات الدعوية والفكرية والإرشادية في الاجتماعات والندوات والمؤتمرات والحفلات، كما ألف الكتب والرسائل الدعوية العديدة³.

6- مرتكزات العمل الدعوي عند الندوي:

غني عن البيان أن نشير إلى أن العصر الذي ولد فيه سماحة الأستاذ أبو الحسن الندوي، كان بداية القرن العشرين في الحقبة التي شهدت الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية حيث امتد أوار هذا الصراع إلى سائر بقاع العالم الإسلامي.

وسط هذا الخضم الزاخر جاء الندوي كتجسيد للحديث الشريف "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"⁴، فدخل معترك هذا التحدي الحاسم وخاض غماره

1- القرضاوي، الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص32.

2- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص155-156.

3- القرضاوي، الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص49-57.

4- أخرجه أبو داود من طريق أبي هريرة في أول كتاب الملاحم، وقال محمد آبادي في عون المعبود و"حديث أبي هريرة سكت عنه المنذري، وقال السيوطي في مرقاة الصعود، اتفق الحفاظ على تصحيحه منهم الحاكم في المستدرک والبيهقي في المدخل، ومن نص على صحته من المتأخرين ابن حجر، ينظر: محمد شمس الحق آبادي، عون المعبود في شرح سنن أبي داوود، تح: عبد الرحمان محمد عثمان، المدينة المنورة: المطبعة السلفية 1969م، ج11، ص369.

خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، مقتحما ميدان الفلسفة حيناً ومجال التاريخ حيناً آخر مناقشا لقضايا الفقه والاجتهاد، والتجديد أحيانا أخرى.

واقفا نداءً للتيارات التغريبية على مختلف منازعها ومشاربها داخلها وخارجها كاشفا الغطاء على نقاط ضعفها وهوائها بيراع حاذق ولسان فصيح.

طموحه في كل ذلك ينصب على إبقاء أفكار الإسلام وأحكامه ونظرياته حيّة غضة تتحكم في سلوكيات الناس وتوجه حياتهم.

وعى الندوي جيدا المرحلة التي تعيشها أمته، وأدرك المسؤولية الملقاة على عاتقه، والتي لا مجال للنكوص عنها أو التنكب لها ولم يغفل -بحكم انشغاله في حركة المجتمع الثقافية والاجتماعية- الصعوبات التي تكتنف عملية إعادة البناء الفكري والثقافي في الإسلام.

وما يحتاجه من تمييز بين الثابت والمتغير في الفكر الإسلامي وبخاصة في العملية الاجتهادية، وما يتطلبه أيضا من استيعاب شامل للواقع الفكري الذي تعيشه الأمة سواء من حيث المحتوى أو المنهج، ولم يكتف الشيخ بالمناداة بذلك، بل بادر بنفسه لتشخيص الداء وإبراز مواطن الخلل ومكمن الفراغ، وحلّل الأسباب التي أدت إلى كل ذلك بجرأة وموضوعية.

والحقيقة التي لا مرء فيها أن المشروع الإصلاحى وإن شئت قلت التجديدي الذي رامه الندوي كان يهدف بالأساس إلى إحياء واستنهاض، إحياء لما اندثر أو كاد من مقومات الأمة، وخصائصها الذاتية، ومعاهد الطرافة والابتكار فيها، واستنهاض لطاقاتها المعطلة وهم أبنائها التي أوشكت على الاندثار تحت ركام وطغيان الروح الانهزامية.

ولعل أهم سمات المشروع الفكري للندوي أنه يستلهم عناصره ومكوناته من منهل القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة وحياة الصحابة -رضي الله عنهم- ويصبو إلى بناء أمة واحدة تفرض وصايتها على العالم وحسبتها عليه، أمة قوية مرهوبة الجانب توجه الركب الإنساني إلى شاطئ الأمان ومرافئ النجاة.

كما حرص الندوي في مشروعه على عرض الإسلام بما يتماشى مع متطلبات العصر، مبينا صورته الشاملة غير المجزأة، صورته الناصعة التي كانت عند الرعيل الأول من السلف مستبعدا كل الشوائب التي علقته به عبر مخلفات القرون.

ويقوم منهج أبي الحسن الندوي في الإصلاح والدعوة على الأسس التالية:

الأساس الأول: عقيدة التوحيد النقية الواضحة: وبذل الجهد من أجل تعميقها في القلوب وترسيخها في النفوس حتى يتسنى مواجهة المادية الطاغية التي أعادت اللات والعزى إلى الحرم.

الأساس الثاني: إعادة الثقة بالرسالة المحمدية: وخلودها وبيان حاجة الناس إليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة في سويداء النفوس.

الأساس الثالث: البناء لا الهدم والجمع لا التفريق: أما طريقته -رحمه الله- في معالجة الخلافات التي تنشأ بين المسلمين نتيجة الطوائف المختلفة والأذهان المتفاوتة فهو يستند إلى قاعدة إحسان الظن بهم، والتماس العذر لهم متمسكا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر، الآية: 10)، وكان الندوي أميل بطبعه إلى جمع الصفوف المتحاربة، وتوحيد الجماعات المتنافرة ييغض الفرقة والتناز والتدابير، يسعى جهده إلى ما يحقق مصلحة الإسلام الاجتماعية.

الأساس الرابع: التركيز على وصول الإيمان إلى الحكام: بعدما سبر الندوي الظروف التي تعيش فيها الدعوة الإسلامية خرج بمنهج أفضل وأصلح للدعاة والعلماء وهو "التركيز على وصول الإيمان إلى الحكام، بدل التركيز على وصول جماعة مؤمنة إلى كراسي الحكم"¹ ومما ساعد على نضوج هذه الفكرة تجربة الإمام "أحمد السرهندي"² الذي غير الوضع بهذا المنهج السليم وأحدث انقلابا سلميا طوعيا، وكانت تجربته تجربة ناجحة.

ولقد اعتنى سماحة الأستاذ الندوي بهذا المنهج ونصح به أعلام الصحوة الإسلامية، والجماعات والأحزاب الإسلامية في العالم كله بالأخذ به، وبخاصة في هذه المرحلة الدقيقة التي تمر بها الأمة الإسلامية، كما دعاهم إلى تجنب الطرق والمناهج التي تؤدي إلى التناحر، والتشاجر، والتطرف التي تؤدي لا قدر الله إلى اجتثاث شجرة الإسلام كلها لا سمح الله.

الأساس الخامس: محاربة اليأس والتشاؤم: وبعث الأمل والرجاء، والثقة والاعتزاز وهو في هذه الحيشة متفق مع الشيخ "سعيد النورسي"³ الذي رأى بأن حياة اليأس التي يعيش فيها المسلمون اليوم هي أحد العلل التي جعلت المسلمين يعيشون على أعتاب القرون الوسطى في الوقت الذي تقدم فيه غيرهم من الأمم وبخاصة الأوربيين ولعل مبعث هذا الأمل الذي يختلج في صدر الندوي ناشيء من

1- أبو الحسن علي الحسيني الندوي، **نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان**، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة 1987م، ص 11.
2- من أعظم رجال الإصلاح والتجديد في بلاد الهند الإسلامية ولد سنة (971هـ) وتوفي عام (1034هـ) من أهم مؤلفاته: "المكتوبات" و"اثبات النبوة" وكلاهما مطبوع أوفى ترجمة له ما كتبه الإمام الندوي، في سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الإمام السرهندي) حياته وأعماله، ط1 الكويت دار القلم 1980م، ج3.

3- سعيد النورسي، **الخطبة الشامية**، ترجمة إحسان قاسم الصالح، ط1، اسطنبول: سوزلر للنشر 1409هـ، ص 32

يقينه بأن المستقبل لن يكون إلا لهذا الدين، وأن الحكم في الأخير لن يكون إلا لحقائق وهدايات القرآن ذلك لأن هذا الكتاب يحتوي في ذاته على استعداد وقابلية تدفع أهله إلى مراقي التقدم المادي والمعنوي معاً، ولعله بسبب هذه الخصيصة أحب أدب إقبال لأنه وجدته مفعم بمعاني الحب والطموح والإيمان.¹

الأساس السادس: إيجاد الرباط المقدس بين الدين والعلم: ذلك لأن مهمة الدين تحديد الغايات، أما مهمة العلم فهي التزويد بالوسائل ولعل الانفصام النكد الذي تتخبط فيه الحضارة الغربية الآن ناتج في الأساس من القطيعة بين العلم والدين، بين التقنية والحكمة. والمتأمل المنصف في بنية الحضارة الغربية المعاصرة يدرك أن السر الأعظم وراء خوائها هو بسبب غياب الهدف والمعنى في حياتها، وهذا ما كان ملحظاً لشاعر الإسلام وفيلسوفه "محمد إقبال" حينما قال: "إن هذه الحضارة سوف تنتحر بجنجرتها، لأن عشاق بني علي غصن ضعيف لا خلود أبدي له"²، فلا غرو أن نرى شيخنا يربط مصير أحدهما بالآخر كما نجد في مواضع كثيرة يفخم من شأن العلم، ويحث على ضرورة الانتفاع بالعقل حتى في القضايا الدينية كما يدعو إلى النظر في الآفاق والأنفس.

الأساس السابع: الجمع بين الدين والدنيا: فإذا كانت بعض المدارس الصوفية تؤمن بضرورة العزلة على المجتمع وترى الحياة الحققة في العيش في الأديرة والزوايا فإن الندوي كان يدعو إلى العبادة والعمل المنتج معاً، ولقد تجلّى هذا المنحى عند شيخنا في كتابه القيم "ربانية لا رهبانية" حيث أكد في كتابه هذا أن الربانية دعوة وجهاد، وحب وعاطفة، ودين ودولة، ومصحف وسيف، الربانية كما يراها الندوي لا تدعو إلى التواكل والتكاسل والجمود، بل إنها تحول التراب تبرا والحصى جوهراً، والجماد حيا نامياً، وهي السر وراء نجاح الجهود الإصلاحية التي عرفتها الأمة عبر تاريخها الطويل. على هذه الأسس المكيئة بنى الندوي منهجه في الدعوة والإصلاح، وبجانب هذا المنهج اهتم - رحمه الله - بالحكمة والموعظة الحسنة مع المدعوين متأسيا بقوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾. (النحل: الآية: 125). كما لم يغفل العلامة الندوي أهمية الأدب ودوره في تنمية شخصية المسلم، وتنمية شعوره بالانتماء إلى الاسلام وبعث شعور العزة والكرامة فيه وبتاريخ أسلافه الصالحين.

1- أبو الحسن علي الحسيني الندوي، روائع إقبال، ط1، باتنة: دار الشهاب 1986م، ص 1.

2- أحمد معوض، العلامة محمد إقبال حياته وآثاره، ط1: القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980م، ص 56.

وكان من منن الله عليه أن رزقه الله قلما سيالا في الكتابات الإسلامية، واقتدارا على اللغة العربية كأهلها فقد كان يجري في الكتابة كما يجري الماء النмир من غير أن يظهر عليه شيء من الكلفة، أو التصنع التي تصرف الكاتب عن الانسياق مع الفكرة، أو تصرف القارئ على مجارة الموضوع. ومن هنا فلا غرابة أن نجد الندوي من أول المنتبهين لإثارة قضية الأدب الإسلامي، ودوره في معركة الإسلام الحاسمة في العصر الحاضر إذا أردنا أن يظل الإسلام إحدى القوى الروحية الكبرى الموجهة في المستقبل.

7- آثاره العلمية:

كان النشاط العلمي والتألفي يشكل جزءا مهما من رسالة العلامة الندوي الإصلاحية، شأنه في ذلك شأن حكيم الإسلام "ولي الله الدهلوي" حيث ترك ذخيرة من الكتب هي ذريته الباقية لأنه تزوج ولم يعقب نسلا. وفي كتابات مولانا أبي الحسن يقترن جمال التعبير، وروعة العرض مع خصوبة المادة وعمق النظرة، وسعة الاطلاع، فكانت كتبه مزيجا من العلم والأدب والحكمة تشبع العقل وتروي العاطفة. وأكثر ما كان يبدو هذا التوفيق في كتابه "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" حيث يحدثنا فيه عن أصحاب القلوب الحية من أمثال "عمر بن عبد العزيز"، و"الحسن البصري"، و"الغزالي" إلى "الجيلاني"، و"جلال الدين الرومي"، و"ابن تيمية (661هـ-728هـ)"، و"السرهندي"، و"الإمام الدهلوي" واستطاع الرجل بقلمه البليغ أن يستعرض أفكارهم الإصلاحية وآثارهم التجديدية، ويبين كيف أدوا دورهم في حماية حمى الإسلام في ظروف دقيقة ولحظات عصيبة من التاريخ. ويعتبر هذا الكتاب بالإضافة إلى كتبه الأخرى "ربانية لا رهبانية"، و"روائع إقبال"، و"إذا هبت ريح الإيمان" تجديدا في كتابة السير والتراجم، وفتحا في هذا الباب، وعسى أن يقبض الله من يتابع خطوات الشيخ ويقتفي أثره في هذا السبيل.

أما كتابه في "السيرة النبوية" فهو يعد من أعظم كتب السيرة جمالا وروعة، وإثارة لحب النبي - صلى الله عليه وسلم - وإجلاله وإقناع الناس بنبوته، وصدقه، وكونه أفضل الرسل - عليهم السلام - وأجدرهم بالاعتداء والإتياع، والكتاب يسد ثغرة عانت منها المكتبة الإسلامية المعاصرة حيث نجد أن التأليف في مناقب هذه الشخصية العظيمة قد انتقص إلى حد مدهش ينذر بالخطر على كيان المسلمين الديني وبخاصة في هذه الفترة التي فشا فيها تقليد الغرب، وعمت هيمنة الحضارة اللادينية مما أوجد في عقول النشء مركب النقص، وأنشأ عقدة الشعور بالدون كما هو الحال اليوم - وهذا ولا شك - نتيجة طبيعية كما جرت على ذلك سنن التاريخ، إذ ركب في طبيعة البشر كما يقول

المفكر المسلم محمد أسد: " أن الأمم والمدنيات التي هي أخصب من الناحية السياسية والاقتصادية تترك على الأمم التي هي أضعف منها في الحيوية روعة، وتؤثر فيها من الناحية الثقافية، والاجتماعية من غير أن تتأثر هي نفسها".¹

والكتاب أحيراً مؤسس على الآيات القرآنية، والوثائق التاريخية، ودقائق الخلق والخلق في العادات والعبادات، والأخلاق، والمعاملات لا يتصور مزيداً عليه.

أما "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ففيه رؤية دقيقة لعطاء الإسلام تبصر خلف غيوم الضعف، والتخلف القوة الحقيقية للإسلام، وتحدث رغم المرارة والإحباط عن إمكاناته الهائلة لإنقاذ البشرية من المأزق الذي آلت إليه، والكتاب في الحقيقة نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي من منظور إسلامي، إذ دأب الباحثون والكتاب والمؤرخون أن ينظروا إلى المسلمين من خلال التاريخ العالمي من زاوية الأحداث، من زاوية الشعوب والأمم من زاوية التقلبات، ولكن مؤلف هذا الكتاب قلب الرؤية، وتخطى الإطار التقليدي فأراد أن ينظر إلى العالم من خلال المسلمين، بحيث يكون المسلمون عامل من عوامل التاريخ مؤثرين فيه لا متأثرين فحسب كما يحلو لبعض المستشرقين، وشتان بين النظرتين نظرة تنظر إلى المسلمين كأهم ما خلقوا إلا ليخضعوا للحوادث، ويتأثروا بما يحدث لهم، ونظرة تنظر إلى المسلمين كأمة تستطيع أن تؤثر في المسيرة الإنسانية، وعلى الاتجاه العالمي، وعلى القيم والمثل.

لقد أدرك الندوي بثاقب فكره وبعد نظره أن خطأ المؤرخين يكمن في تصورهم للمسلمين حيث نظروا إليهم كشعب من الشعوب الكثيرة المعدودة بالملثات، شعب يعيش تحت رحمة الوقائع والتقلبات، وتحت رحمة الحكومات، والحضارات، والفلسفات، والمعسكرات، وتناسوا القوة الكامنة في الرسالة الإسلامية التي يحملها المسلمون، وهي الحقيقة الخالدة المسيطرة على جميع الاعتبارات السياسية، والاقتصادية والتي تتمثل أساساً في أن المسلمين أصحاب رسالة، أصحاب عقيدة تفرض وصايتها على العالم، وحسبتها على المجتمع الإنساني، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (الصافات، الآية: 172) وقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْعَالِمُونَ﴾ (الصافات، الآية: 173)، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة: الآية: 21)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران، الآية: 139).

1- محمد أسد، الإسلام في مفترق الطرق، تر: عمر فروخ، ط بيروت: دار العلم للملايين، ص 18.

بهذه النظرة نظر الندوي إلى المسلمين معتبرا إياهم نقاوة العالم، وخلاصته إن هم استعادوا قيمتهم وأدوا واجبهم في تكوين المجتمع الإسلامي المؤمن القوي النقي أما إذا نكصوا على أعقابهم، وتولوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، وفاقد الشيء لا يعطيه، والمريض لا يعالج المريض.

والواقع أن هذا الوضع الديني، والخلقي، والاجتماعي، والسياسي المزري الذي يعيشه العالم اليوم، بل الأختيار الإنساني والاحتضار المعنوي الذي يعانيه مجتمعنا المعاصر كله تفسير لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال، الآية: 73). من هنا وفق الأستاذ الندوي في اختيار هذا العنوان "ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين"، فكان هذا الكتاب بحق "ثورة في التفكير، وثورة في البحث والتحليل، وتقوية لمعنوية المسلمين، وإثارة لروح الثقة، والاعتزاز فيهم بدينهم، ومركزهم والتهيؤ لقيادة العالم من جديد، ليردوا إلى الإنسانية اعتبارها وإلى العالم السعادة والسلامة"¹.

وإذا كان هذا الكتاب بهذه المثابة فلا غرابة أن يعتبر المفكر الإسلامي الكبير "محمد المبارك" هذا الكتاب بأنه من خيرة الكتب التي صدرت في هذا القرن.²

ويذكر الأستاذ الدكتور محمد اجتباء الندوي أن المفكر الكبير مصطفى السباعي كان يقول: "إن هناك أربعة كتب صدرت حديثا يجب على كل طالب، ودارس، وباحث أن يدرسها وهي: "ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين"، و"العدالة الاجتماعية في الإسلام"، و"الرسالة الخالدة"، و"الإسلام في مفترق الطرق".³

أما "الأركان الأربعة" فحسبك في بيان قيمته العلمية شهادة المفكرة المهتدية "مريم جميلة" والتي تقول في رسالة بعثت بها إلى العلامة الندوي بعد صدور الكتاب نقتطف جزءا منها: "...اسمحوا لي أن أقول بكل صراحة أن معظم الكتب التي ألفها الكتاب المسلمون في هذا الموضوع لم يعجبني، إذ أن أسلوب بعض الكتاب ركيك للغاية لا يغدو الخط القانوني والرسمي، كما أن أكثر علماء المسلمين يتعرضون للموضوع بلهجة سلبية جارحة، ويحاولون أن يضطروا المسلمين الغافلين عن هذه العبادات إلى تأديتها بتخويفهم من عذاب الآخرة الأليم، وتوجيه إنذارات تملأ قلوبهم وحشة وخوفا، فيقبلوا عليها خائفين لا مقتنعين، ومن الذي ينكر عذاب الآخرة؟ إلا أن هذا الأسلوب السلبي يسيء الظن

1- مقتبس من فصل "قصة كتاب يحكيها مؤلفه" نقلا عن: نذر الحفيظ الندوي، أبو الحسن الندوي كاتبا ومفكرا، (مرجع سابق)، ص19.

2- المرجع نفسه، ص20.

3- محمد اجتباء الندوي، أبو الحسن الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل، (مرجع سابق)، ص86.

بالإسلام لدى العقول الجديدة ويمهد لها الطريق إلى الإلحاد والمادية، ظنا منها أن الإسلام، تعبير عن القيود الظالمة والإجبارات القاهرة... إلا أنكم موفقون كل التوفيق في نقل أفكار الغزالي، والإمام الدهلوي إلى الجيل المعاصر بلغة العصر وأسلوبه، وزدتم عليها المقارنة بين عبادات الديانات كالهندوسية، البوذية، واليهودية، والنصرانية".¹

أما "النبوة والأنبياء في ضوء القرآن" فهو من الكتب الأثيرة عند مولانا أبي الحسن ذلك لأنه يعالج موضوعا خطيرا تشتد حاجة الطبقة المثقفة إليه، إذ أدرك الشيخ أن من أقوى أسباب انحراف الطبقات الموجهة والسائدة في العالم الإسلامي هو خضوعها الزائد للمفاهيم، والقيم المنافية لروح الديانات السماوية، وتمسكها بالأساليب الصناعية، والمناهج الفكرية الغربية حتى في تفسير الإسلام، وفي مجال الدعوة والإصلاح العام.²

ومن هنا حاول الشيخ أن يبين منهج الأنبياء وفضلهم على الحياة والمدنية والعقل الإنساني، وأن المعرفة الحقة المأمونة من أخطار التشكيك والتناقض تتمثل فيما يبلغونه للناس من أجل إنقاذهم وهدايتهم، استعرض المؤلف كل هذه الأسئلة محاولا بقدر الجهد والطاقة أن يكشف عنها في ضوء القرآن الكريم.

أما الكتاب الأخير من كتب أبي الحسن الندوي المفضلة لديه فهو "الطريق إلى المدينة"، والكتاب في الحقيقة كتاب وفاء وتحنان، يثير كوامن الغرام، ويحرك سواكن الحب في قلب المسلم تجاه النبي محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين.

وحسب القارئ الكريم شهادة "أديب الفقهاء وفقه الأديباء" الأستاذ علي الطنطاوي في تقديمه للكتاب، إذ يقول:

"لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي، لكن لما قرأت كتابك يا أخي أبا الحسن! "الطريق إلى المدينة" أحسست بالشوق يعود فيعتلج بنفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، ولكن هموم العيش وطول الألفة قد غطياه بالغبار، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار"³.

1- نقلا عن: نذر الحفيظ الندوي، أبو الحسن الندوي كاتباً ومفكراً، (مرجع سابق)، ص 29.

2- أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ط5، دمشق: دار القلم 1980م، ص6.

3- أبو الحسن الندوي، الطريق إلى المدينة، ط1، دمشق: الدار الشامية، 1999م، ص12.

وقد كدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أعد أجد عند الأدباء هذه النعمة العلوية التي غني بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البرعي، فلما قرأت كتابك وجدتها، وجدتها في نثر هو الشعر إلا أنه بغير نظام، فيا أبا الحسن إليك الشكر علي أن رددت إلي ثقتي بنفسي وثقتي بأدب لغتي¹ وبالجملة فإن الباحث في كتب الندوي كلها تقريباً يجد طرافة البحث وأصالة التناول، وعمق الفكر التي تطبع مؤلفاته كلها بالإضافة إلى ما تبعته داخل الإنسان من مشاعر علوية مثل الإخلاص، وطلب الرضا الإلهي والحب له، والشوق والتحنان إليه، كما تزرع الطموح، والصدق، والثبات، والذاتية، وتدعوه إلى المساهمة في تكوين أمة ذات شأن لها قيمتها، ومكانتها، ووزنها بدلاً من تلقينه طرائق العبودية، والخضوع للغرب، وإذا كان الرجل قد رحل عنا إلى عالم الخلود فإن آراءه التي أودعها مصنفاته ستظل كجذوة النار يستتير بها كل متمسك بعروة الدين، ومتشبع بمبادئه السمحة.

8- محاضرات الشيخ الندوي:

إن الشيخ الندوي بالإضافة إلى عمله في مجال التدريس بدار العلوم بندوة العلماء لكانوا، قد ألقى محاضرات علمية في كثير من الجامعات الشهيرة في داخل الهند وخارجها، منها جامعة عليكرة، والجامعة المليية بالهند، وجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة)، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة دمشق، وجامعة أندنبرة، وجامعة لندن، جامعة برمنغهام، وجامعة ليدز، وجامعة غلاسغو، وجامعة كولومبيا، وجامعة كيمبردج، وجامعة وايترايت، وجامعة جنوب كاليفورنيا، وجامعة يوتا، والجامعة التنظيمية بسريلانكا، وجامعة أكسفورد، وجامعة العين بالإمارات، وجامعة اليرموك، وجامعة صنعاء، والجامعة الوطنية بماليزيا، وجامعة التكنولوجيا بماليزيا، وغيرها من الجامعات العالمية المعروفة كما قام الشيخ الندوي بإلقاء المحاضرات في المؤسسات العلمية العالمية والهيئات والمعاهد والجوامع والحفلات والمناسبات وغيرها².

9- أهم المناصب التي تولاها الشيخ الندوي:

تولى الشيخ الندوي - في حياته الحافلة بالعمل العلمي والدعوي عدداً من المناصب العلمية والإدارية، وهذه المشاركات الواسعة إن دلت على شيء، فإنما تدل على الصبغة العالمية التي اكتسبها الشيخ، ونذكر هنا بعضاً منها :

1- أمين عام لندوة العلماء بالهند ورئيس جامعة دار العلوم التابعة لها.

2- رئيس المجمع العلمي الإسلامي بالهند والمؤسس له.

1- أبو الحسن الندوي، الطريق إلى المدينة، (مصدر سابق)، ص12.

2- القرضاوي، الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص52 وما بعده.

- 3- رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، والمؤسس لها.
- 4- عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
- 5- عضو المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها.
- 6- عضو المجلس الأعلى للمساجد بمكة المكرمة.
- 7- عضو المجلس الأعلى العالمي للدعوة والإغاثة بالقاهرة.
- 8- رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند.
- 9- رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية بالهند.
- 10- رئيس مجمع دار المصنفين بأعظم كره بالهند.
- 11- رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن.
- 12- عضو المجلس التنفيذي بالجامعة الإسلامية دار العلوم ديونند بالهند.
- 13- عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بباكستان.
- 14- عضو مجلس الأمناء للجامعة الإسلامية العالمية شيتا غونغ، بنغلاديش.
- 15- عضو مجامع اللغة العربية بدمشق والقاهرة وعمان.
- 16- عضو مجلس المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي.
- 17- عضو المجلس التنفيذي لرابطة الجامعات بالرباط، المغرب.
- 18- مؤسسة وعضو بالمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل بيت) بالأردن.
- 19- عضو استشاري للجامعة الإسلامية بماليزيا.
- 20- رئيس حركة رسالة الإنسانية والمؤسس لها.
- 21- رئيس تحرير لعدد من المجلات العلمية مثل مجلة الأدب الإسلامي ومجلة الندوة، ومجلة تعمير جات، ومجلة المعارف وغيرها¹.

10- جوائز التكريم والشهادات التي نالها الشيخ الندوي:

- حصل الشيخ الندوي على عدد من الجوائز العالمية والتكريم والشهادات التي نالها على خدماته وأعماله لصالح الإسلام والمسلمين والعلم والمعرفة واللغة العربية، منها ما يلي:
- 1- جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام عام 1980م.
 - 2- شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام 1981 م.
 - 3- جائزة الشخصية الإسلامية لعام 1998م من حكومة دبي في شهر رمضان عام 1419م.

1- القرضاوي، الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص44-45.

- 4- جائزة السلطان حسن البلقية - سلطان برونائ - للدراسات الإسلامية عام 1998 م.
 - 5- جائزة الإمام ولي الله الدهلوي من معهد الدراسات الموضوعية بالهند عام 1999 م.
 - 6- وسام الأيسسكو بالدرجة الأولى من المنظمة العربية الإسلامية.
 - 7- أقيمت له حفلة تكريم بجدة عام 1985 م.
 - 8- أقيمت له حفلة تكريم في إستانبول عام 1996 م.
- ولكن الشيخ الندوي من زهده وتقواه لم يتمتع بهذه الجوائز، بل تبرع بها إلى المجاهدين الأفغان والفقراء والمساجد والمدارس والمؤسسات التعليمية والدينية¹.

11- لقاءات الشيخ الندوي ومقابلاته:

التقى الشيخ الندوي مع عدد من الملوك والأمراء والرؤساء للبلاد العربية والإسلامية وغيرها، ووجه إليهم نصائح وإرشادات ورسائل دعوية، وهم:

- 1- الملك عبد الله بن الشريف حسين، ملك الأردن سنة 1951 م.
- 2- الملك حسين بن طلال عام 1973 م.
- 3- الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود عام 1962 م.
- 4- الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود عدة مرات.
- 5- الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود عدة مرات.
- 6- الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود عدة مرات.
- 7- الملك الحسن الثاني، ملك المملكة المغربية عام 1976 م.
- 8- حاكم الشارقة الأمير سلطان بن محمد القاسمي، 1974 م.
- 9- الرئيس علي عبد الله صالح، رئيس الجمهورية اليمنية.
- 10- الرئيس الجنرال محمد ضياء الحق، رئيس جمهورية باكستان عام 1984².

12- إشادة العلماء بالشيخ الندوي والثناء عليه:

يعد الشيخ الندوي صاحب شخصية فذة، قد اتفق أهل العلم والمعارف وأصحاب الصلاح، والتقى على الثناء عليه والإشادة به، وذلك شهادة منهم على فضله، وعلمه وعلو منزلته، ورفي مكانته في الإصلاح، والتقوى والدعوة إلى الله تعالى.

1- القرضاوي، الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، 45.

2- القرضاوي، الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص 43-44.

ونذكر فيما يأتي بعض أقوال هؤلاء العلماء والفضلاء بشأن الشيخ الندوي:

قال الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي في تقديمه لكتاب رجال الفكر والدعوة في الإسلام: "ومن أعلام هذه الحركة المباركة (حركة الرجوع للإسلام) الأستاذ أبو الحسن الندوي مؤلف هذا الكتاب، فهو عالم مصلح، وداعية مخلص دأب منذ آتاه الله العلم على الدعوة إلى الله بقلمه ولسانه، وبرحلاته المتعددة إلى أقطار العروبة والإسلام، وبجولاته الموفقة في ميادين الدعوة، حتى إنه اليوم ليعد من أبرز أعلام الإسلام المصلحين في ديار الهند، وله تلاميذه المنتشرون في كل بلد، وله كتبه ومؤلفاته التي تتميز بالدقة العلمية، وبالعمق في تفهم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ووسائل معالجتها، بالإضافة إلى ما يمتاز به من روح مشرقة، وخلق مستمد من أخلاق النبي الكريم، ومعيشة تذكرك بعلماء السلف الصالح في زهده، وتقشفه، وعبادته وكرامة نفسه"¹.

بعث الشيخ خليل بن محمد اليماني رسالة إلى الشيخ الندوي وخاطبه بقوله: "أعز من نفسي ونفائسي أخي الفاضل أبا الحسن علي حفظك الله تعالى... سلاما وشوقا وحنينا وتوقا من صميم الفؤاد المتقطع بسيف البعاد"².

قال المفتي أمين الحسيني "الندوي... المؤمن المخلص الذي يستطيع تشخيص الداء ووصف الدواء"³ وقال الشهيد سيد قطب: "الندوي عرفته في شخصيته وفي قلمه، فعرفت فيه القلب المسلم، والعقل المسلم، وعرفت فيه الرجل الذي يعيش بالإسلام وللإسلام على فقه جيد للإسلام... هذه شهادة لله وأُديها"⁴.

وقال عنه الشيخ محمد الغزالي (1917-1996) معجبا بما في رسائل الشيخ من عاطفة وحماس وروح: "هذا الإسلام لا تخدمه إلا نفس شاعرة محلقة، أما النفوس البليدة المطموسة فلا حظ لها منه"⁵. وقال الشيخ محمد بھجة البيطار الدمشقي في رسالته إليه: "إني أيها الصديق الكريم، والحل الوفي، ما ذكرتك في نفسي أو في ملاء من قومي إلا وذكرت علمك الواسع، وأدبك الجم، ولطف حديثك وإمتاع جليسك بفوائدك الغزيرة، ونوادرك العذبة الشهية"⁶.

1- مصطفى السباعي، مقدمة من رجال الفكر والدعوة في الإسلام، للندوي، (مصدر سابق)، ج 1، ص 79.

2- الندوي، رسائل الإعلام بين الشيخ الندوي ودعاة الإسلام، ط 1، القاهرة: دار الصحوة 1985م، ص 11.

3- القرضاوي، الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص 201.

4- المرجع نفسه، ص 203.

5- المرجع نفسه، ص 19.

6- الندوي، رسائل الإعلام، (مصدر سابق)، ص 59.

ويقول الأديب الشيخ علي الطنطاوي: " أبو الحسن بنى للإسلام في نفوس تلاميذه حصونا أقوى وأمتن من حصون الحجر، بنى أمة صغيرة من العلماء الصالحين والدعاة المخلصين.. وجدت أن الله أكرمه فاستكمل فيه مزايا الداعية الإسلامي¹ .

وكتب عنه الشيخ الدكتور القرضاوي: " أشهد أبي أحبه وأرجو أن يكون حبا لله تعالى، فقد أحببته لتجرده وإخلاصه وربانيته، وأحببته لاعتداله ووسطيته، وأحببته لنقاء فكره من الخرافة، وصفاء قلبه من الحسد، وسلامة عقيدته من الشركيات، وسلامة عبادته من المبتدعات، ونظافة لسانه من الطعن والتجريح أو التلويح، أحببته لانشغاله بالقضايا الكبيرة عن المسائل الصغيرة، وبالحقائق عن الصور، وبالمعنى عن المبنى، وبالعمق عن السطح.

ولست أنا وحدي الذي يحب الشيخ الجليل، فأحسب أن كل من عرفه واقترب منه أحبه على قدر معرفته به وقربه منه، وكلما ازداد منه قربا ازداد له حبا... ولا غرو أن يختلف الناس على أشخاص العلماء، ولكنهم يتفقون على أبي الحسن، حتي الذين ليسوا من مشربه، ولا على طريقتة، لا يملكون إلا أن يختاروه في مجامعهم، لما خصه الله من مزايا قل أن توجد في غيره. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة، الآية: 105)².

وقال أيضا في رسالة بعثها إلى الشيخ الندوي: ولقد لمست ولمس معي كل من عرفكم - ولا أجاملكم- ما أنعم الله به عليكم من فضائل، هي من خصائص ورثة النبيين وخلفاء الرسل، ومجددي الدين، تتمثل هذه الفضائل في وضوح الفكرة، وحيوية الكلمة، وحرارة الدعوة، واستقامة السلوك، والصدق مع الله ومع النفس كما تتجلى في الاعتدال والتوازن الذي عرفتم به في الأوساط الإسلامية، والذي جعل لكلماتكم تأثيرها، ولكتبكم قراءها، ولشخصيتكم قبولها العام بين المسلمين والجماعات الإسلامية على اختلاف مشاربهم، وتنوع وجهاتهم ومذاهبهم، حتى من خالفكم أو خالفتموه في الرأي أو الوجهة، لا يملك إلا أن يقدر لكم حق قدركم، ويني عليكم، ويعترف لكم بالفضل، وهذه من نعم الله الكبرى³

وهكذا نجد كثيرا من أقوال وآراء العلماء العظام والشخصيات الكبار، الذين أشادوا بالشيخ الندوي، وأثنوا عليه ثناء عظيما فلا نورد هنا جميعاً خوفاً من الإطالة.

1- الطنطاوي، مقدمة في مسيرة الحياة، (مصدر سابق) ج 1، ص 17.

2- القرضاوي، الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص 15.

3- الندوي، رسائل الإعلام، (مصدر سابق) ص 78-79.

13- دنو الأجل ووفاة الشيخ:

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء انتقلت روح الندوي إلى الملأ الأعلى وكان ذلك في يوم الجمعة بعد أن استعد للصلاة حيث قرأ سورة يس عوضاً عن سورة الكهف التي كان يتلوها كعادته في هذا اليوم، ولما بدأ يقرأ آيات من سورة الكهف أصابته فجأة سكتة قلبية لقي على إثرها ربه عز وجل، فإننا لله وإنا إليه راجعون، وكان ذلك في 31 ديسمبر 1999م الموافق 22 رمضان 1420 هـ.¹

ولقد كانت وفاة الندوي حسرة على مسلمي الهند بما فقدوا المرشد الهادي، وافتقدوا الدليل الحادي، وبما حرموا هذا ينبوع الثّار بل النهر الهدّار.

وقد رددت هذه الحسرة مقالاتهم ورسائلهم وأشعارهم، وشارك المسلمون غيرهم في الأسى عليه، وإكبار فقده، وحسبك أن نقل ما قاله رئيس الوزراء الهندي "آثال بهاري فاجبايي" حيث قال: "إني شخصياً فقدت مفكراً كبيراً"² وقالت السيدة "سونيا غاندي" رئيسة حزب المؤتمر الحاكم: "لم نفقد بوفاته مفكراً وعالمًا إسلامياً كبيراً فحسب، وإنما فقدنا أعظم شخصية دينية محترمة في الدنيا كلها"³ رحم الله أبا الحسن في الخالدين.

ولقد قدر الله -عز وجل- على الأمة الإسلامية في ذلك العام أن تودع عدداً من كبار علمائها وخيارهم علماء، ودعوة ووعملاً وإصلاحاً وتوجيهاً وإرشاداً، وهم: علامة الجزيرة العربية الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، والشيخ علي طنطاوي، والشيخ مصطفى الزرقا (1904-1999)، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني (1914-1999)، وختم الله تعالى هذا الموكب بالإمام الجليل الشيخ أبي الحسن الندوي فرحمهم الله تعالى رحمة واسعة وجزاهم عن الأمة الإسلامية خير الجزاء.

وبعد أن انتهيت من الحديث عن حياة أبي الحسن الندوي وعصره أحاول توضيح منهجه في تفكيره ومذهبه، وذلك في المبحث التالي..

1- محمد اجتباء الندوي، أبو الحسن علي الحسيني الندوي، (مرجع سابق)، ص74.

2- نور عالم خليل الأميني، كبار الشخصيات الهندية تبدي أسفها على رحيل الشيخ، مجلة الداعي، ديونند الهند: العدد 11-12، عام 2000، ص 27.

3- المرجع نفسه.



المبحث الثالث:

المعرفة والمنهج عند أبي الحسن الندوي



تمهيد:

ليس ثمة شك في أن تحديد منهج المفكر أو المصلح من الأهمية بمكان، ذلك لأن المرء إذا وقف على منهج المفكر أو المصلح الذي يريد أن يتفهم آراءه، ضمن لأحكامه الدقة، واستطاع أن يضعها في إطارها الصحيح، وسنحاول ونحن بصدد الحديث عن منهج أبي الحسن الندوي أن نتحدث عن مذهبه في المعرفة ومصادرها، وموقفه من كلا المنهجين العقلي والإشراقي حتى نبرز الملامح الأساسية لهذا المنهج.

1- مذهب في المعرفة ومصادرها:

1-1- العقل وحدوده:

يصدر الندوي في موقفه من العقل عن رؤية قرآنية، احترمت العقل الإنساني وحثته على التفكير والنظر في الآفاق والآنفس قال تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت، الآية 53)، ودعوة القرآن إلى التفكير متكررة في الكتاب العزيز في عشرات الآيات حتى قال الندوي: إنه لا يعرف ديناً ولا كتاباً سماوياً دعا إلى استخدام العقل والانتفاع به، وإلى التفكير وذم تعطيل هذه الهبة العظيمة مثل ما فعله القرآن¹.

بل إن الشيء الوحيد الذي يقف حداً فاصلاً بين الإنسان والحيوان هو العقل²، لكنه مع ذلك يذكر بأن كل وسائل الإدراك تختص بدائرة معينة تعمل فيها ولا تتعداها، بما في ذلك العقل، ويرى أن دائرة عمل العقل هو الكون الفسيح الذي ينبغي عليه أن يقوم فيه بدوره، وبكل جد في الكشف عن قوانينه، فيلاحظ ويحلل ويستنتج ليصل في الأخير إلى تسخير هذه المخلوقات والظواهر لخدمة الإنسانية ورفاهها بعد الاهتداء إلى الحقيقة العظمى.

كما اعتبر الندوي التفكير في ماضي الأمم والمجتمعات، واكتشاف سنن الله في الاجتماع الإنساني، وما يظهر من نتائج الأعمال والأخلاق على مستوى الأفراد والحكومات والشعوب مجالاً خصباً يستطيع العقل الوصول فيه إلى نتائج تفيد الإنسانية، وتجنبها عشرات كبيرة³.

وخلافاً لكثير من رجال العلم في الإسلام يعترف الندوي بدور العقل حتى في قضايا الدين الأساسية كالبرهنة على حقائق الإسلام بالحجج العقلية، والرد على خصومه بنفس أساليبهم، وتعزيز

1- ينظر: الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، (مصدر سابق)، ص 109.

2- الندوي، بين الدين والمدنية، بيروت: مؤسسة الرسالة 1987م، ص 15.

3- ينظر: الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، (مصدر سابق) ص 109 وما بعدها. الندوي، دور الإسلام الإصلاحية الجذري في مجال العلوم الإنسانية، (مصدر سابق)، ص 50-51.

الثقة في نفوس المسلمين بالنبوة بالكشف عن أسرار التشريع وفلسفته، ويمكن الوقوف على شواهد عديدة في مکتوباته تؤكد هذه الفكرة، منها إشارات بهجود الإمام الأشعري¹ في خدمة العقيدة الإسلامية وصيانتها من تلاعبات المعتزلة والفلاسفة، يقول الندوي متحدثاً عنه: "إن عبقرية تتجلى في أنه أقام البراهين والدلائل العقلية والكلامية على هذه العقائد، وناقش المعتزلة والمتفلسفة عقيدة عقيدة، وذلك كله في لغة يفهمونها، وأسلوب يألفونه ويجلّونه، وبذلك أثبت أن هذا الدين وعقيدته الواضحة مؤيدان بالعقل، وأن العقل الصحيح يؤيد الدين الصريح، ولا صراع بينهما ولا تناقض"²، ونكاد نجد الموقف نفسه مع الغزالي، الذي أشاد الندوي بعبقرية في دحض حجج الفلاسفة وتأويلات الباطنية وعرض الإسلام عرضاً عقلياً سائغاً³.

لكن هذا الموقف المعتدل من العقل يختلف عن مواقف كثير من المتكلمين والفلاسفة الذين بالغوا في تمجيده، وأقحموه فيما ليس من اختصاصه، فقد تبني الندوي فكرة محدودية العقل وعدم قدرته الخوض في المسائل الغيبية، وحاجته إلى النبوة باعتبارها الوسيلة الوحيدة الصحيحة لمعرفة الله ومعرفة صفاته وكل ما يتعلق بحقائق عالم الغيب.

اعتمد الندوي على هذه الفكرة الأساسية، وإن شاركه فيها غيره، فالعقل لا ينتج إلا في إطار المحسوسات، وإذا تعدى هذا الطور وقع في الخطأ، وكانت أحكامه - وبخاصة في إدراك الأمور الغيبية، كمعرفة ذات الله ﷻ وصفاته - غير يقينية، ولعل هذا ما انتهى إليه الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط Emmanuel Kant" (1729م-1804م)⁴ في كتابه الشهير "نقد العقل الخالص"، هذا الكتاب الذي قال عنه الدكتور محمد إقبال: "إنه هدم أعمال المتنورين وحوّلها إلى كومة من تراب"⁵.

1- علي بن إسماعيل بن بشر الأشعري، أبو الحسن (260هـ-324هـ)، إمام أهل السنة والجماعة في الكلام، له مصنفات عديدة منها: "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع"، و"الإبانة عن أصول الديانة". ينظر: سير أعلام النبلاء، ج15، ص85-90. وينظر أيضاً في سيرته والدفاع عنه: ابن عساكر، تبين كذب المفتري، تقديم وتعليق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث.

2- الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق) ج1، ص123.

3- المصدر نفسه، ص144-174.

4- من أكبر فلاسفة العصر الحديث، من أهم مؤلفاته: "نقد العقل الخالص"، و"نقد العقل العملي" انظر في ترجمته: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984م، ج2، ص269-295.

5- أبو الحسن الندوي، بين الدين والمدنية، ط5. (مصدر سابق)، ص22.

ذلك لأن العقل كما يقرر الندوي: " ليس حرا طليقا في أداء مسؤوليته الطبيعية، من الاكتشاف والتحقيق والاستدلال، وأنه في حاجة إلى أشياء أقل منه شأنًا، وأتفه منه قيمة، وأن دوره الأصيل هو التوصل من المحسوسات والمعلومات والتجارب السابقة، إلى أمور غير محسوسة ومعلومة، وأن يصل بترتيبها علميا بالاستعانة ب ذخيرة هذه المعلومات، والمبادئ، والمقدمات، إلى نتائج لم تكن حاصلة من قبل، وما كان يمكنه الحصول عليها بالاعتماد على الحواس والتجارب، فإننا إذا نقدنا جميع المعقولات وحللناها تحليلًا علميًا يتضح لنا أن العقل لم يصل إلى هذه الحقائق الدقيقة والمعارف العالية إلا عن طريق هذه المحسوسات التافهة، والمعلومات البدائية البسيطة، التي لم تكن تؤدي بنفسها- من غير مساعدة الترتيب العقلي والعلمي- إلى هذه النتائج الخطيرة"¹.

ثم يمضي الندوي في تبيان قصور العقل وعدم كفايته، ووجه حاجته إلى الحواس فيقول: " فمن الظاهر البديهي أن المجالات التي لا تستطيع الحواس البشرية أن تعمل فيها، ولا تملك أي رכיـزة لمعلوماتها الأساسية، ولا تعرف مبادئها وأوليائها، ولا يمكن أن يكون لديها أي تقدير وتجربة لحقيقتها، ولا دخل للقياس فيها، فأني للعقل والذكاء والقياس والتخمين أن يصل فيها ويجول؟ إن العقل ليعجز فيها عن أن يصل إلى نتيجة ما من النتائج، ويقف مقصوص الجناح، مثلما يعجز الإنسان عن أن يعبر البحر من غير سفينة، أو أن يطير في الجو على غير طائرة... مهما كدَّ وجدَّ، كذلك يستحيل أن يستقل العقل في الإجابة على هذه الأسئلة الخطيرة [يقصد من صانع هذا الكون؟ وما هي خصائصه؟] لأن الإنسان لا يعرف مبادئها وأوليائها، وهي لا تقبل التقدير والقياس"².

ثم يستطرد الندوي في بيان محدودية العقل وضيق دائرته، وأنه مخلوق من مخلوقات الله أعطاه خلقه، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ وَهُوَ يُرِي هَدَى﴾ (طه، الآية 50)، وفي هذا المعنى يقول: "إن قوة العقل، ودائرة عمله ضيقة محدودة، فله نطاق لا يتعداه، وكما أن القوى الحسية في الإنسان لها دوائر ومجالات لا تتجاوزها، فحاسة البصر تلتقط آلافًا من المبصرات، ولكنها لا تستطيع أن تسمع ولا صوتًا واحدًا، وكذا الحواس الأخرى، ثم إن قوة هذه الحواس وعملها في دوائرها الخالصة،

1- أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج3، أحمد السرهندي، حياته وأعماله، ط1 الكويت: دار القلم 1980م، ص174-175.

2- المصدر نفسه، ص175.

وفي محسوسات خاصة، ليست مطلقة غير محدودة، كذلك العقل بالرغم من أن مجاله أفسح، ودائرته أوسع من هذه الحواس إلا أنه محدود لا يتعدى طوره¹.

وما يقرره الندوي في هذا الموضوع هو آخر ما توصلت إليه اكتشافات العلوم الحديثة؛ إذ يقرر علماء العصر الحديث أن العقل لا يعمل إلا فيما تأتي به الحواس، ونحن نعلم أن الحواس محدودة ولها مجالات لا تتعداها، فلا شك أن النتائج والأحكام التي تأتي من هذا الطريق تكون محدودة وصحيحة في هذا المجال، لكن إذا تجاوزنا مجال المحسوسات، فإن العقل لا يكون منتجاً لعدم امتلاكه معطيات خارج هذا المجال، ومثال ذلك المسائل الغيبية.

وعندما يتجاوز العقل حدود عالم المحسوس يقع في التيه، كما أن ما وصلت إليه الفلسفة يعد إشكالا لا إنتاجا، وهو معنى يوضحه لنا العلامة ابن خلدون (732هـ-808هـ) بقوله:

والعقل ميزان صحيح، وأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال. ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال. وهذا لا يُدرِكُ على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره. حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه، وتفطن من هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه واضمحلال رأيه.²

والحقيقة الأخرى التي يؤكد عليها الندوي وهي عدم التحرر التام للعقل من المؤثرات الخارجية، وعدم تجرده الكامل من الشوائب، إذ ليس هناك شيء في الوجود أندر من "العقل الخالص" و"العقل الجرد" إن الحرية أمر نسبي ذلك؛ لأن كثيرا من الفلاسفة الذين ادعوا الحياد، وعدم الانحياز لجانب أي فكرة كانوا في الواقع ضحايا أفكار خفية في نفوسهم، وقد عملت عملها دون أن يشعروا وهناك حقيقة في علم النفس مفادها أن النفس البشرية تعمل أضعاف ما لا تشعر به مما تشعر به، وهناك حقيقة أخرى يؤكدها علماء الاجتماع مؤداها أن الإنسان لا بد أن يتأثر ببيئته

1- المصدر السابق، ص 175-176.

2- ابن خلدون، المقدمة، ط بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982م، ص 825.

وبمجتمعه، ولعل هذا ما كان ملحظا للفيلسوف باسكال (ت1662م)¹ حينما قال: للاعتقاد وسائل ثلاث: العرف، والعقل، والإلهام، وقديما قال أبو العلاء المعري:

وما دان الفتى بحجا ولكن يعلمه التدئين أقربوه

فأغلب الناس يأخذون عقيدتهم، ويؤمنون بما يؤمن به ذووهم وفي الحديث الصحيح (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه)².

وفي سبيل الدفاع عن العقائد الإسلامية من تلاعبات الفلاسفة، والفرق الكلامية التقليدية وعلى رأسهم المعتزلة، وجه الندوي إليهم سهام نقده، وكان في مقدمتها هذا النقد المنهجي، وهو ما سنحاول بيانه فيما يلي.

1-1-1- نقد أساليب الفلاسفة:

لم يقف الندوي من الفلسفة موقفا رافضا شأن كثير من علماء الدين، بل نراه يقبل ما لا يتعارض منها مع الأمور الدينية، وهو موقف متوازن يدل على سلامة التفكير وسعة الأفق، يتجلى ذلك عند حديثه عن أبي حامد الغزالي وإشادته بدوره في نقد الفلاسفة وإنصافه لعلومهم التجريبية النافعة واعترافه بإفادتها يقول الندوي: "ولم يظلم الفلاسفة ولم يشملها باللعن والتكفير شأن كثير من الفقهاء ورجال الفتوى بل تناولها بالتحليل والتقسيم، وذكر أصناف الفلاسفة وأقسامهم، وذكر ما لهم وما عليهم وما يمس الدين من آرائهم وبحوثهم ويتصل به وما لا يمسه ولا يتصل به، وما يستحقون به التكفير وما ليس من الدين في قليل ولا كثير وهو أول عالم ديني يقوم بهذا التحليل العلمي ويتثبت هذا التثبت"³.

ولما كان الندوي رجل دعوة وإصلاح ديني لم يعن بالبحث والتوسع في آرائهم الرياضية والمنطقية والطبيعية، ولكنه عني بنقد محصول بحثهم في الإلهيات. لقد حمل الندوي على الفلاسفة حين خاضوا البحث في ذات الله وماهيته وصفاته وعلاقتها بالذات، وكيفية ظهور هذه الصفات، وصدور أفعال الله وكيفيةها، وحدوث العالم وقدمه، وعن الحياة بعد الموت وقضايا ما بعد الطبيعة فجاء موقفه واضحا صريحا في قوة وبلاغة، فقرر أن كل مجهود عقلي-مهما أوتي صاحبه من الذكاء وحدة الذهن

1- باسكال، بليز "Blaise Pascal" (1623-1662م)، رياضي وفيلسوف فرنسي، من أواخر كلماته لحظة وفاته: "أرجو أن لا يتخلى عني الله أبدا". من أهم مؤلفاته: "حقيقة الدين المسيحي"، "الخواطر". ينظر: جورج طرايبيشي، معجم الفلاسفة، ص 178-181.

2- مسلم، الجامع الصحيح، كتاب القدر رقم الحديث 2658. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، رقم الحديث 1359 و1385.

3- أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 1، ص 151.

وسلامة الفطرة والغنى في التجارب - يسعى للاستقلال بهذه المعرفة دون علوم الأنبياء؛ إنما هو ضلال وتعب وجهد في غير جهاد يقول الندوي:

"ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة إلا ما كان من طريقهم لا يستقل بها العقل ولا يغني فيها الذكاء وقد ذكر الله هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة فقال: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾¹ وقرنوا هذا الاعتراف بقولهم: ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾² (الأعراف، الآية: 43)، فدل على أن الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى وعلم مرضاته¹.

ويبين الندوي السبب في ذلك وهو محدودية العقل وعجزه عن أداء وظيفته الطبيعية دون الاستعانة بأشياء أقل منه قيمة هي المحسوسات، والمعلومات البدائية التي لولاها ولولا ترتيبها ترتيباً خاصاً لما وصل العقل إلى هذه النتائج الخطيرة؛ فإذا كان في أمر على جهل بمبادئه فهناك يعجز العقل عن شق الطريق إلى الأمام والوصول إلى نتيجة في هذا الموضوع، يقول الندوي: "ينبغي قبل كل شيء أن لا ننسى أن العقل ليس حراً طليقاً في أداء مسؤوليته الطبيعية من الاكتشاف والتحقيق والاستدلال، وأنه في حاجة إلى أشياء أقل منه شأنًا وأتفه منه قيمة، وأن دوره الأصيل هو التوصل من المحسوسات والمعلومات والتجارب السابقة إلى أمور غير محسوسة ومعلومة وأن يصل بترتيبها علمياً بالاستعانة بذخيرة هذه المعلومات والمبادئ والمقدمات إلى نتائج لم تكن حاصلة له من قبل"².

ويتساءل الندوي عن استمرار المحاولات العبثية للفلسفة، ومواصلة جهودها في هذا المضمار عدة آلاف من السنين رغم وضوح الحقيقة ومعرفة الفلاسفة أنهم لا يعرفون مبادئها ومقدماتها يقول الندوي: "ولكنها رغم ذلك قامت بالتحقيق والتدقيق في هذا الموضوع، من غير تلكؤ ولا تردد كما يفعل علماء اللغة والاشتقاق حول كلمة يبحثون عنها، بل كما يفعل علماء الكيمياء في الأدوية والعقاقير، وجمعت ركاباً من المباحث والتفاصيل والتحقيق والتفكير حتى ظن القارئ أن البحث كله يدور حول شخصية عادية هي في تصرف الإنسان ومتناول يده"³.

كما يشرح الندوي نفسية الفلاسفة عند حوضهم في موضوع الإلهيات ويبين الدافع القوي الذي جعلهم يخوضون هذا المضمار فيرده إلى أن نبوغهم في الآداب، ودكاهم في العلوم والرياضيات والهندسة وحصولهم على نتائج هائلة في تلك المجالات جعلهم يعتدّون بقدراتهم وعقولهم ويعتقدون

1- أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 20-21

2- أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج3، ص174.

3- المصدر نفسه، ج2، ص290.

أنهم قادرون بواسطتها اقتحام كل مجالات المعرفة والوصول إلى نتائج قاطعة وحتى لو كانت هذه المجالات تتعلق بمعرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وصلته بالكون يقول الندوي: " وهذا سر ضلال الفلسفة الإغريقية الإلهية وأقطابها ونوابغها، فقد غرهم ذكاؤهم وعلومهم وشعرهم الخصب وملاحمهم العظيمة التي نظموها، ونبوغهم في علوم الرياضة والهندسة والإقليدس والفلسفة الطبيعية والنجوم والفلكيات، فحاضوا في الإلهيات وفي موضوع الذات والصفات والخلق والإبداع فجاءوا بالسخيف المرذول وبالمتهافت الساقط، وبالمتناقض المتضاد من الآراء والأقوال والتحكيمات والتخمينات"¹.

وفي سبيل التأكيد على رأيه والإقناع به، يستدل الندوي بنقول من أقوال الغزالي المؤيدة لهذا المسلك نختار منها قوله: "ظلمات فوق ظلمات، لو حكاها الإنسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها التخمينات لقليل إنها ترهات، لا تفيد غلبات الظنون."²

ويتأسف الندوي؛ لأن فلسفتنا الإسلامية التي نشأت لمحاربة الفلسفة اليونانية تأثرت بنفس نزعتها، وهي البحث التفصيلي في قضايا ليس عند الإنسان مبادئها ومقدماتها، فجاءت بالتدقيق في مسائل الذات، وتأويل الأسماء والصفات وتناولوا هذا البحث بالتشريح والتجزئة والتحليل، كأنهم في معمل كيماوي. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.³

1-1-2- نقد أساليب المتكلمين:

حينما نستعرض موقف الندوي النقدي لعلم الكلام نجد بداية يقر بمشروعية هذا العلم خلافا لبعض الشخصيات والمذاهب التي يتسم موقفها بالرفض الكامل له والتحذير منه، بل نجده يثني ثناء كبيرا على عدد من المشتغلين به كالإمام أبي الحسن الأشعري ويشيد بموقفه المعتدل بين المعتزلة المغالين في تمجيد العقل، من جهة والجامدين الذين ينكرون استخدامه ويرون السكوت على تلك المباحث أولى وأفضل من جهة أخرى.

لقد رأى الندوي في موقف الأشعري نصرة للدين، وخدمة له وإعادة للثقة به في نفوس وعقول أجيال من المسلمين، وتركه يعبر عن هذا الإعجاب بقوله: " إن عبقرية الأشعري تتجلى في أنه أقام البراهين والدلائل العقلية والكلامية على هذه العقائد وناقش المعتزلة والمتفلسفة عقيدة عقيدة، وذلك

1- أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 22.

2- الغزالي، تهافت الفلاسفة، تح: سليمان دنيا، ط6، القاهرة: دار المعارف، ص146.

3- ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء (مصدر سابق)، ص 23.

كله في لغة يفهمونها وأسلوب يألّفونه ويجلّونه، وبذلك أثبت أن هذا الدين وعقيدته الواضحة مؤيدان بالعقل وأن العقل الصحيح يؤيد الدين الصريح ولا صراع بينهما ولا تناقض¹.

إن هذا الموقف المؤيد للصريح للأشعري هو في حقيقته موقف إيجابي من علم الكلام ودوره في الدفاع عن العقائد وتثبيتها.

ونكاد نجد الموقف نفسه أو قريبا منه مع ابن رشد (520هـ-595هـ) وكتابه الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، فقد أبدى الندوي موافقته للنتيجة التي توصل إليها ابن رشد وهي قوة الاستدلال القرآني وتفوقه إزاء أساليب المتكلمين، واعترافه بمحدودية قوى البشر وقصورها عن إدراك مسائل ما وراء الطبيعة يقول الندوي: " أما الكتاب الذي صنّفه في الرد على المتكلمين باسم الكشف عن مناهج الأدلة فقد أثبت فيه قوة الاستدلال القرآني وتفوقه إزاء أسلوب الاستدلال الكلامي بقطعيته، ويعتبر نموذجا جيدا لسلامة فهمه، إنه أبان فيه في عدة مواضع عجز الجمهور عن إدراك هذه الأمور والمسائل، إنني أوافق رأيه هذا كليا بأن قوى البشر وعقولهم مقصّرة عن إدراك المسائل والبحث عنها والتأمل فيها"².

كما نراه يشيد إشادة كبيرة بالغزالي ودوره التجديدي في علم الكلام وعدم خضوعه لأسلافه وتقليدهم، بل وانتقاده غلوهم وإسرافهم في إقحام العقل في مجال الإلهيات، ونجده يثني على دعوته إلى الاهتمام بمناهج القرآن الإقناعية واعتبارها أبلغ وأنفع وأعم وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة³.

لكن هذا الموقف الداعم لعلم الكلام ودوره، لم يمنع الندوي من إبداء موقفه النقدي تجاهه وتسجيل ملاحظاته المنهجية عنه وخاصة فيما يتعلق بمسألة قياس الغائب على الشاهد، ومسألة الدور التي كادت تؤدي بحجية النص، ومسألة أساليب علم الكلام وطبيعتها الجدلية، وضمور روح التجديد في المدارس الكلامية في عهوده الأخيرة وهو ما سنحاول الوقوف عليه فيما يلي:

أ- مسألة قياس الغائب على الشاهد:

لابد أن نذكّر بداية أن الندوي ينطلق في نقده للمتكلمين من نفس الفكرة التي ذكرناها سابقا وطالما ردها وركز عليها في كتبه وهي محدودية العقل الإنساني واختصاصه بدوائر معينة لا يستطيع الحصول على نتائج مهمة خارجها، بل نجده ينعي على المتكلمين الأوائل عدم استخدامهم هذه

1- أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج1، ص123.

2- أبو الحسن الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص24.

3- أنظر تفصيلا لذلك: الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج1 ص178.

القضية المعرفية في مواجهتهم للفلاسفة وطوائف المشككين¹ ومن جهة أخرى استحالة استغناء العقل البشري عن الأنبياء وعلومهم الصحيحة التي تهدي هذا العقل وتزوده بالمعارف في المجالات التي لا يمكنها الوصول فيها إلى اليقين.

اعتماداً على هذا المبدأ انتقد الندوي المتكلمين عموماً والمعتزلة خصوصاً فيما يعرف بقضية قياس الغائب على الشاهد، وهي قياس الله تعالى على الإنسان، وإخضاعه لقوانين هذا العالم، فأدى ذلك إلى إلزامهم الرب عز وجل بالعدل كما يتصوره الإنسان، وقولهم في الحسن والقبح والصلاح والأصلح، وقولهم في صفات الله هي عين ذاته، وقولهم بحدوث الأفعال.

لقد أصدرنا أحكاماً على الله تعالى اعتماداً على قوانين الإنسان، اعتقاداً منهم أنها قوانين شاملة، وهذه جرأة العقل الذي لا يعرف حدوده، يقول الندوي: "لقد كان هذا الاتجاه العقلي الذي تزعمه المعتزلة، والذي كان يقوم على تمجيد العقل وتأليه، وإخضاع النظام الديني بما فيه من عقائد وحقائق بل إخضاع الذات والصفات والأفعال الإلهية له، وعلى قياس الغائب على الشاهد اتجاهها خطراً على الإسلام وفتح باب فساد عظيم في المجتمع الإسلامي"².

ويقول في موضع آخر: "وأغرب من هذا كله أن متكلمي الإسلام الذين كانوا يهدفون إلى رد الفلسفة والدفاع عن الإسلام، أخذوا مصطلحات الفلسفة وافترضاها ذاتها، وبدأوا يبحثون عن ذات الله وصفاته في اعتماد وتفصيل كأنهم يتحدثون عن شخصية مشاهدة ملموسة وعن مسألة طبيعية"³.

هكذا حدد الندوي موقفه الحاسم في هذه القضية وحذر من هذا المسلك الخاطئ ونتائجه الجريئة.

ب - مسألة الدور:

وهي مسألة كلامية قديمة تدور حول حجية الدليل النقلي وعلاقته بالدليل العقلي، وصورتها عند القائلين به؛ أنه لا يمكن الاستدلال بالأدلة النقلية في المسائل الكلامية ما لم يثبت وجود الله تعالى أولاً، وكمالاته وأفعاله التي منها إرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات فإذا ما ثبت صدق الرسول أمكن أن نأخذ عنه ما بقي من أمور العقيدة.

1- انظر تفصيلاً لذلك: أبو الحسن الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 23.

2- أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 1، ص 94.

3- المصدر نفسه، ج 2، ص 290.

وبناء على هذا الرأي انطلق المتكلمون في نظم الأدلة العقلية المختلفة المثبتة لوجود الله تعالى وصفاته، وتوسعوا في ذلك، وانطلاقاً منها أثبتوا بقية المسائل الكلامية، هذا ما أدى إلى انحسار شديد للدليل النقلي في الدراسات الكلامية وكاد يفقد وجوده، لولا قلة قليلة من المناصرين له، الذين يرون أنه من الممكن للناظر في مسائل الكلام أن يبدأ بإثبات النبوة أولاً فإذا تبين له صدق الرسول بالنظر العقلي في مسلكه الشخصي من جهة، وفي محتوى دعوته من جهة أخرى أمكن الاعتماد على علمه، ومتابعته في كل جاء به سواء في الإلهيات أو السمعيات أو الأحكام العملية.

وقد ارتضى هذا الطريق عدد من العلماء قديماً وحديثاً: منهم عالم معاصر متمرس بالفلسفة وعلم الكلام والتصوف وهو عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الذي قال: "نحن مع العقل حتى تثبت الرسالة؛ فإذا تحقق الوحي الإلهي الصادق، كان من العبث والمناقضة للعقل نفسه وللphilosophy الحققة ولمنهج السلف الصالح أن نعدل به غيره"¹.

وهذا هو الرأي الذي احتفى به الندوي ونوّه به وأقام عليه بناءه الفكري وجهده الإصلاحية، فلا نكاد نجد كتاباً من كتبه، أو مقالة من مقالاته إلا فيها هذا الإعلاء لعلوم الأنبياء، والاعتداد به والاعتماد عليه والدعوة إليه في غير كل ولا ملل، يقول الندوي: "أما المؤمن بالغيب، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرة، المصدق للرسول في كل ما جاؤوا به ونطقوا به وأخبروا عن الله فهو في راحة وهدوء وانسجام ووثام مع روح هذه الديانات وأخبارها، جاهد وفكر مرة ثم استراح، جاهد وفكر في الإيمان بالله وصدق الرسول وعصمته فيما يقول: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم، الآيتان: 3-4)، ثم آمن واطمأن وصدق بكل ما جاء به الرسول، وصح به النقل في سهولة، ويسر كأنه كان معه على ميعاد وكان له على أتم الاستعداد"².

1-1-3- أساليب علم الكلام الجدلية:

نظم أكثر المتكلمين أدلتهم في أساليب جدلية، خلطوا كلامهم بالفلسفة، واصطنعوا مناهج المنطق اليوناني في تفكيرهم فجاءت أدلتهم دقيقة يعجز عن فهمها واستساغتها كثير من العقلاء والأذكياء ناهيك عن العامة والبسطاء، وهذا ما عابه الندوي على المتكلمين من تحويلهم الدين في بساطته وسهولته، وقدرته على التلغغل في الوجدان إلى مجموعة قضايا عقلية، وبراهين منطقية وأنساق فكرية أثارت من البدع والشكوك ما أضعفت به اليقين والثقة بالنبوة، يقول الندوي:

1- عبد الحليم محمود، الإسلام والعقل، ط1. القاهرة: دار الكتب الحديثة 1966م، ص104.

2- أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 59 - 60.

"لقد كان هذا تحويلاً للدين البسيط العملي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم يستسيغه العقل البشري بكل سهولة إلى فلسفة دقيقة يعجز عن فهمها العقلاء ولقد كان تنمية للعقل على حساب العاطفة والوجدان وإضعافاً للإيمان وإثارة للشكوك والشبهات وعدم الثقة بما يقوله النبي"¹.

ويدعو الندوي كبديل عن هذا إلى اعتماد أسلوب القرآن الذي يتميز بقدرته على التغلغل في أعماق النفوس وإفادته لمختلف الطوائف ويستدل لهذا الرأي بكل دليل، من ذلك ما نقله من كلام الغزالي الذي يقول "نعم لست أنكر أنه قد يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الإيمان في حق بعض الناس، ولكن ليس بمقصود عليه، وهو أيضاً نادر، بل الأنفع الكلام الجاري في معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن؛ فأما الكلام المحرر على رسم المتكلمين فإنه يشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعة وجدلاً، وربما يكون سبباً لرسوخ العناد في قلبه"².

ويستدل أيضاً بقوله: "فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضرر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع، والرجل القوي وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً"³.

وهذا الموقف هو ما تبناه الندوي وأعجب به ومارسه من خلال كتبه ودعا إليه بقوله وهو يتحدث عن الأنبياء وعلومهم: "فهم دائماً يخاطبون الفطرة السليمة والعقل العام بأسلوب فطري غير ذي عوج، لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر وعلم فائق والمعية بارعة ودراسة واسعة للعلوم، وإحاطة بالمصطلحات العلمية ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات... يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء، كل على فهمه وطاقته ويطابق حال الأمم التي على فطرتها وسذاجتها، كما يطابق حال الأمم المتعدنة المثقفة العالية، ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها إنما كلامهم كالزلال الذي يسيغه كل واحد ويحتاج إليه كل واحد"⁴.

1- أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص52.

2- الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج1، ص177.

3- المصدر نفسه، ص178.

4- أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص52.

1-2- الحواس ودورها:

من وسائل المعرفة المعتبرة؛ الحواس الخمس، فهي المنافذ التي تطل منها قوانا الإدراكية على العالم الخارجي وتزودها بالمبصرات والمسموعات وغيرها من المدركات، ولا يستطيع العقل القيام بوظيفته تحليلاً وتركيباً واستنتاجاً وقياساً إلا في إطار ما تزوده به الحواس من هذه المعارف الأولية، فهي موهبة كبرى منحنا الله إياها، وبها نتمكن من اكتساب علم اليقين¹، وليس لدينا معارف ومعلومات أكثر بدهاءة وقطعية من الحسوسات، وهي وسيلة اكتشافنا لهذا العالم المحيط بنا، وبها اطلعنا على الكثير من قوانين الطبيعة وظواهرها²، لكن هذه الحواس على أهميتها لها نطاق خاص لا تتخطاه؛ فهي محدودة كما وكيفاً فنحن "لا نستطيع أن نبصر إلا في مساحة معينة؛ أمّا ما عداها فيرجع إلينا البصر خاسئاً وهو حسير، وكذلك قوتنا السامعة، لا تعمل إلا في نطاق محدود معلوم، أما قوى الحس الأخرى فهي أضعف وأقصر مدى من القوتين السابقتين"³.

إن مجال الحواس ودائرة عملها هو العالم الحسوس فقط " ولا تستطيع أن تحكم على شيء خارج هذا النطاق سلباً أو إيجاباً أو تقوم بتصديق أو تكذيب شيء، وجُل ما يمكن عن طريقها هو إنكار وجودها الحسي لا وجودها المطلق"⁴.

يرى الندوي أننا إذا استخدمنا حواسنا بشكل صحيح، وفي مجالها الصحيح، يمكننا أن نستفيد جانباً مهماً من العلم بسنن الله في هذه الطبيعة، هذا هو العمل الطبيعي لحواسنا الظاهرة وتلك هي نتائجها الطبيعية. لكن الاقتصار عليها وحدها، والاكتفاء بالمسلك الحسي طريقاً وحيداً للمعرفة، وإنكار ما لا تصل إليه الحواس خطأً منهجي كبير، ونحن لا نعمل في حياتنا اليومية بهذا المبدأ " فالذي لا نحسه لا نؤمن بوجوده؟ كلا، لأن الأمر إن كان كذلك لن يوجد أي فرق بين الإنسان والحيوان وينهار بناء العلم والمدنية انهياراً كلياً"⁵.

انتقد الندوي هذه النزعة التي تنكر وتستخف بكل ما لا يأتي تحت الحس، وما ينتج عنها من نظرة مادية صرفة تنكر الخالق أو لا تكثرث به، وتنكر الآخرة وتجعل الحياة الدنيا هي الغاية، وتتحول غايات الأعمال كلها إلى المنافع الشخصية والمادية، لا إلى المبادئ والأخلاق، وتتحول الحياة إلى

1- ينظر: الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص11.

2- المصدر نفسه، ص12.

3- المصدر نفسه، ص13.

4- المصدر نفسه.

5- المصدر نفسه.

فرصة للتمتع وتُسَخَّرُ كل قوى الإنسان ومواهبه لهذه الغايات المادية الحسية، ويغيب كل نضال من أجل المبادئ الفاضلة والغايات الشريفة¹.

1-3- المسلك الإشراقي:

من مسالك المعرفة المعتبرة عند أهلها المسلك الإشراقي، الذي لا يعتمد النظر الفكري والبرهان والاستدلال طريقاً للمعرفة؛ وإنما سبيل الوصول إلى المعرفة الحقيقية هو الشهود والكشف والإلهام وبه يقع العلم في القلب بطريق الفيض، والنور الذي يقذفه الله في القلب بعد تطهيره من الشواغل الحسية وإحضار الهمة والإرادة الصادقة، والتعرض للنفحات الإلهية².

يعتقد الإشراقيون أن التحرر من سجن الحس، وتقوية الروح، وتنوير الباطن يفتح في الإنسان بصيرته، ويؤهله لتلقي المعاني والمعارف الصحيحة، واليقينية التي تتفوق في يقينيتها ووثوقها عن كل معرفة لا تكون بهذا النور الباطني الذي ينشأ بكثرة الرياضات والمجاهدات.

والندوي رحمه الله يعترف بهذا المسلك ويعترف كذلك بوجود عوالم أخرى غير عالمنا تستلزم لإدراكها قوى تليق بها وتناسبها، يقول: "إن وجود هذه الحاسة الزائدة أمر لا شك فيه، بل يمكن أن تكون حواس أخرى كهذه"³، وتاريخ الفكر الإنساني حاشد بالمدارس الإشراقية في الإسكندرية واليونان والهند وغيرها، فإنكاره من المكابرة والجحود، ولكنه يستدرك استدراكاً منهجياً، خلاصته؛ محدودية هذه الحاسة الإنسانية كشأن العقل والحواس الخمس، وأن أحكامها قابلة للخطأ، وخاضعة لتأثيرات العوامل الخارجية، كسائر القوى الإنسانية ووسائل الكشف عن المعلومات، يتساءل الندوي قائلاً: "ولكن ما هو الدليل على أن هذه الحاسة ليست محدودة ولا قابلة للخطأ والمغالطات كالحواس الأخرى؟"⁴.

انبرى الندوي للتأكيد على محدودية هذه الحاسة، وإمكان خطئها باستعراض نتائجها في آراء ومعتقدات أصحابها، بدءاً بالإشراقية القديمة وانتهاء بأهل الكشف والإشراق من المسلمين.

ففي الأولى وجد تعارضاً بيننا واختلافاً ظاهراً بين أئمتها وروادها، فبعضهم لا يعترف بالنظام الديني والعبادات السائدة في عصره، ويركز على الفكر والمراقبة أكثر من تركيزه على العمل، وبعضهم كان متقيداً بجميع التقاليد والطقوس الدينية والعبادات، ويقول بتناسخ الأرواح الإنسانية وتحولها إلى

1- ينظر: الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، من ص 40 إلى ص 56.

2- ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982، ج 2، ص 230.

3- الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 28.

4- الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 3، ص 191.

أرواح حيوانية، وبعضهم لا يقول بذلك، بل إن رائدا من روادهم عارض المسيحية وأيد قيصر الروم في حركته لإحياء الوثنية والجاهلية الرومية من جديد¹.

أما أهل الكشف والإشراق من المسلمين فقد وَجَدَ في كشفهم اختلافا كثيرا وتعارضا كبيرا، فالواحد منهم يعارض الآخر ويثبت أن كشفه بعيد عن الحقيقة غير مطابق للواقع، من ذلك قول بعضهم أنه يصافح العقول ويجتمع بها ويقابلها، ويضرب الندوي مثلا بشيخ الإشراق في الشرق شهاب الدين السهروردي (632هـ)، ويعرض بعض آرائه، يقول الندوي: "والعالم عن شيخ الإشراق قديم، والزمان أزلي أبدي، ولا يقول بتناسخ الأرواح ولا ينكره؛ إذ إن أدلة الفريقين في هذه القضية غير مقنعة"².

ويستطرد الندوي القول في التدليل على رأيه هذا باستعراض الخلاف المشهور بين إمامين من أئمة التصوف وهما الشيخ محي الدين بن عربي، وأحمد السرهندي، فالأول يقول بنظرية "وحدة الوجود" والثاني يرفضها وينقضها وي طرح تصورا بديلا هو وحدة الشهود.

يقول أحمد السرهندي: "يرى هذا الفقير أن الشيخ محي الدين بن عربي من الرجال المقبولين ولكنه يرى معارفه وعلومه التي يخالف فيها عقائد جمهور الأمة وظاهر الكتاب والسنة خطأ وضرا على قارئها... ومما يعجب له أن الشيخ ابن عربي يبدو من المقبولين وتبدو أكثر معارفه وتحقيقاته التي جانب فيها أهل الحق خاطئة بعيدة عن الصواب"³.

ويتحدث السرهندي عن نفسه ويصرح بأنه كان يعتقد القول بوحدة الوجود وبقي على ذلك أعواما، ولكنه ألهم أخيرا إلى أن هذا المقام مقام سفلي ينبغي الترقى عنه - وقد كان لا يتمنى مفارقتة لظنه أنه الكمال -، ولكن كمال العناية الإلهية وغاية اللطف بلغته مقام العبدية⁴.

يخجل الندوي بهذه النتيجة ويكتب معلقا فيقول: "يعرف الجميع الخلاف المشهور بين الشيخ محي الدين بن عربي والشيخ أحمد السرهندي المجدد في مسألة وحدة الوجود، وتحقيق كل واحد منهما يقوم على المشاهدة الشخصية والكشف، وقد قال الشيخ المجدد عن شيخه الكبير عبد الباقي الدهلوي وعن نفسه: "أنهما كانا في مقام استولت عليهما فيه فكرة وحدة الوجود، وكانت هذه النظرية تبدو

1- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج3، ص192.

2- المصدر نفسه، ص194.

3- أحمد السرهندي، المكتوبات الربانية، ج1، ص92 وج2، ص57 وج3، ص268.

4- ينظر: تفصيل المسألة في: أحمد السرهندي، المكتوبات الربانية، (مصدر سابق)، ج1، ص92 وج2، ص57 وج3، ص268.

لهما مؤيدة بالمقدمات الكشفية والدلائل اليقينية ولكنه أدركهما التوفيق الإلهي فسما بهما مقاما أسمى من هذا المقام ورجعا عنها"¹.

ويعلل الندوي هذا التباين في المواقف بين الشيخين محي الدين بن عربي وأحمد السرهندي، وبين هذا الأخير وشيخه عبد الباقي الدهلوي بين مرحلة وأخرى، بأن التجرد التام عن الأوهام والتصورات والعقائد والمسلّمات السائدة في بيئة الإشراقي ومحيطه والتحرر التام من الميول النفسية والرغبات الداخلية لا يمكن التخلص الكلي منها، حتى ولو كان صفاء النفس والإشراق رائده، وهذا ما يفسر به الاختلاف بين أئمة الكشف، وهو ما يمهد الطريق إلى القول بالحاجة الماسة والضرورة الملحة لعلوم الأنبياء.

والحق أن الندوي قد استفاد هذا الرأي من مكتوبات الإمام الرباني، وحفل به وأكد عليه مرارا في عدد من كتبه، واعتبره من التحقيقات العلمية الدقيقة والاكتشافات الخطيرة في عالم الأفكار ليس في عصر السرهندي وبيئته فقط؛ وإنما هو إعلان تجديدي جريء لم يقدر حق قدره، ولم تعرف أهميته حتى الآن².

ومجمل القول أن الشيخ أبا الحسن بيّن قصور الطريق الإشراقي وعدم كفايته وعصمته، وضرورة الاستمسك بالأنبياء الذين شرفهم الله تعالى بالوحي والرسالة وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه بما يعطونه من العلم بالله وصفاته وبما يسمونه من معالم طريق السعادة البشرية.

لقد حرص الندوي مرارا وتكرارا على التأكيد على هذه القناعة الراسخة، مبررا أهمية هذا النقد للعقل والكشف معا، ممهدا الطريق لاعتبار النبوة الوسيلة الوحيدة المأمونة الصحيحة التي تستمد منها التصورات والعقائد والأحكام بل النظام الديني كله.

وهو بذلك يسير على خطى إمام دار الهجرة الإمام مالك رحمه الله الذي قال: "كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر"، ويتبنى رأي أبي الحسن الشاذلي الذي يقول فيه: "إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة"³.

1- الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص33-34.

2- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج3، ص188.

3- ينظر: عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ط. القاهرة: دار الفكر العربي، 1952م، ج2، ص04.

2- منهج التآسي والافتداء:

حضت آيات الكتاب الكريم ونصوص السنة النبوية الشريفة على الدعوة إلى الإلتباع، وترك الابتداء، ونهت إلى مسألة الافتداء، من ذلك قوله جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب، الآية: 36). وقوله في آية أخرى ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٤ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب، الآيتان: 45-46). وقوله أيضا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٦ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (الشورى، الآيتان: 52 - 53). وقوله جل جلاله: ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۗ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الزخرف، الآية: 43). وغير هذه الآيات كثير؛ وردت بوجوب الطاعة وضرورة الافتداء، وإتباع الصراط المستقيم.

أما السنة الشريفة فقد وردت عدة أحاديث تحت على هذا الشأن من ذلك الأحاديث التالية: عن أبي نجیح العرياض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن أمر عليكم عبد حبشي؛ فإنه من يعيش منكم بعدي فسيروا اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)¹.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل)².

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال:

1- أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما. ينظر: محمد ناصر الدين الألباني؛ صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم الحديث 2549 ط3. بيروت، المكتب الإسلامي، سنة 1408هـ/1988م. ج1، ص499، وقال الألباني صحيح.

2- أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما، أنظر: محمد ناصر الدين الألباني؛ صحيح الجامع الصغير وزيادته، (المرجع نفسه)، ج2، ص984.

(أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)¹.

لذلك نجد الندوي يولي قدرا كبيرا من جهده البياني في التأكيد على دور منهجية الاقتداء هذه، وأهميتها وشدة حاجة البشرية إليها، وعدم كفاية قوى الإنسان الإدراكية في الإجابة عن أسئلة الإنسان الخالدة التي طرحها قديما ولا يزال، ويؤكد على أن هذه المهمة يضطلع بها الدين، والوسيلة في ذلك؛ إنما هي الوحي والنبوة.

وما كان تأكيد الندوي وإلحاحه المتواصل على محدودية العقل وتوسله بكل وسيلة لإثبات ذلك، وما كان حديثه عن الحواس وعدم كفايتها، وذمه اقتصار الحسين عليها وحدها طريقا للمعرفة، وإنكار ما لا تدركه هذه الحواس، وما كان تأكيده على عدم خلوص المعرفة الكشفية وتأثرها بالمعقولات السائدة والميول والأهواء، واعتبارها حاسة إنسانية محدودة كغيرها من الحواس، ما كان كل ذلك إلا ليمهد الطريق ويهيئ النفوس ويقنع العقول بضرورة **المنهج التأسسي والاقتداء**، ومكانته ويؤكد مسيس الحاجة إليه.

ويمكننا الجزم بأن هذا الموقف يمثل قناعة راسخة، وركيزة أساسية في فكر الشيخ الندوي، حتى أن عددا معتبرا من كتبه يمكن ردها إلى هذا الأصل ويقوم هذا المنهج على قواعد أساسية هي:

2-1- اعتبار الفطرة:

ومن سمات منهج التأسسي والاقتداء اعتبار الفطرة والبعد عن الأساليب الصناعية، والتصنع والتكلف بصفة عامة، وقد كان قول آخر الرسل ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٨٦) **إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** ﴿٨٧﴾، (سورة ص، الآيتان: 86 - 87) فالأنبياء كما يؤكد الندوي: " دائما يخاطبون الفطرة السليمة والعقل العام بأسلوب فطري غير ذي عوج... يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص، ويتنفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء، كل على فهمه وطاقته ويتطابق حال الأمم التي على فطرتها وسذاجتها كما يتطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة العالية"².

وما ذاك إلا لأن ما تحمل عليه مبادئ الإسلام، وقيمه العليا متناغمة مع مقومات الفطرة رشدا وهداية وتشريعا.

1- البخاري، محمد بن إسماعيل؛ الجامع الصحيح؛ كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.

2- أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 52.

والتأمل في آي القرآن الكريم يجده يقابل الدين بالفطرة على أنه عينها - أصالة وجوهرا ومقتضيات - ويقرر صراحة ألا تناقض بينهما؛ وأنه "الدين القيم"، فالفطرة قيمة؛ وأنه "لا تبديل لخلق الله"، فلا تبديل لشرع الله، مما يوحي أيضا؛ بأنه لا يجوز الخروج على مقتضياتها¹.

قال تعالى ﴿ فَأَقْرِبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الروم، الآية، 30). ويذكر ولي الله الدهلوي أن الفطرة هي: "الدين الذي لا يختلف باختلاف الأعصار، والأنبياء كلهم يجمعون عليه"².

وما "العقل العام" الذي ما فتىء الندوي يكرره في أكثر من موضع من كتبه إلا "المدارك المودعة في أصل الخلقة" التي قابل الإمام الدهلوي بينها، وبين الفطرة كما جاء في كتابه "الفوز الكبير في أصول التفسير"³، وإن شئت قلت: "السنة الراشدة" التي ذكرها الإمام في كتابه "حجة الله البالغة" وبينها بقوله وهي التي سلم بها: "القوم عصرا بعد عصر، وعليها كان محياتهم ومماتهم، ويست عليها نفوسهم وعلومهم، فظنوها متلازمة للأصول وجودا وعدما، ولم تكن إرادة الخروج عنها وعصيانها إلا ممن سمحت نفسه وطاش عقله، وقويت شهوته، واقتعد غاربه الهوى"⁴.

ويتساءل الدهلوي عن سرّ اتفاق سائر الشعوب والأمم على هاته الخصال على اختلاف فيما بينهم في أديانهم، ولغاتهم، وأقاليمهم؟! فيرى أن مردّد ذلك يرجع إلى صميم أصل نشأتها، وفي هذا المعنى يقول: "فهل يمكن أن يتفق عرب الناس، وعجمهم على اختلاف عاداتهم وأديانهم، وتباعد مساكنهم، وبلدانهم على شيء واحد وحدة نوعية، إلا بمناسبة فطرية"⁵.

والحقيقة أن الندوي لا يتردد في الأخذ بتصور الدهلوي في الفطرة، ولذلك أكثر من النقل عند حديثه عن الفطرة في كتابه "النبوة والأنبياء في ضوء القرآن"⁶، وينقل عن الدهلوي قوله: "ومن سيرتهم (الأنبياء) أن لا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خلقوا عليها، وعلومهم التي هي

1- فتحي الدريني، علاقة الدين بالفطرة وكيف قررها القرآن الكريم، مقال منشور بالأردن في مجلة هدي الإسلام، مجلد 31، العدد 04، السنة 1987م، ص 18.

2- الدهلوي، حجة الله البالغة، ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية 1995م، ج 1، ص 62.

3- الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، تر: سلمان الندوي، ط 4. الهند: دار السنة 2002م، ص 40.

4- الدهلوي، حجة الله البالغة، (مرجع سابق)، ج 1، ص 101.

5- المرجع نفسه، ج 1، ص 103.

6- حيث نقل الندوي من الحجة صفحات كاملة ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ص 52-54.

حاصلة عند غيرهم بأصل الحلقة؛ وذلك لأن نوع الإنسان حيث ما وجد فله في أصل الحلقة حد من الإدراك زائد على إدراك سائر الحيوانات إلا إذا عصمت المادة جدا، وله علوم لا يخرج إليها إلا بحرق العادة المستمرة كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء، أو رياضات شاقة تهيئ نفسه لأدراك ما لم يكن عنده بحساب، أو ممارسة قواعد الحكمة والكلام، وأصول الفقه ونحوها مدة طويلة¹.

ويزيد الدهلوي هذا المعنى جلاء بقوله: " فالأنبياء لم يخاطبوا الناس إلا على منهاج إدراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الحلقة، ولم يلتفتوا إلى ما يكون نادر الأسباب قلما يتفق وجودها، فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات، ولا بالبراهين والقياسات، ولا أن يعرفوه منزها عن جميع الجهات"².

لذلك يرى الندوي -وهو متأثر في ذلك برأي الإمام الدهلوي - أن ما يصدر عن أصحاب المنهج الفطري من أقوال " لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر، وعلم فائق، والمعية بارعة، ودراسة واسعة للعلوم، وإحاطة واسعة بالمصطلحات العلمية، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات وعلوم الطبيعة"³.

ويرى الندوي أن شقاء الإنسان والإنسانية لا يرجع إلى فقد الآلات والوسائل؛ وإنما يرجع إلى ضلال الإنسان وانحرافه عن الجادة المستقيمة، والفترة السليمة⁴، وانطلاقا من البعد الفطري هذا دعا ندوي إلى ضرورة إنشاء (حركة رسالة الإنسانية)⁵، وهي فكرة أساسها شعور عميق بحب الإنسانية كلها، وأصالة الوحدة النوعية للبشر، وغلبتها على الفوارق المحلية من لون ووطن وقومية، كما تعمل على تجسيد مبدأ المساواة، ورفع قيمة هذا الإنسان على كل ما سواه، ولذلك اعتبر الندوي هاته القيم التي جاءت بها البعثة المحمدية من أجل المنن والمنح للبشرية قاطبة⁶.

والواقع أن هاته المبادئ هي الدعائم التي يقوم عليها الأمن والسلام في كل زمان ومكان، ومن هنا ينبغي أن تكون قواعد للأمن المجتمعي، وأن يكون نظر المجتمع ناظرا لكل شرائح المجتمع نظرة واحدة بلا تمييز ولا إهانة؛ وإلا كان النظام حاملا لبذور فئائه عاجلا أم آجلا.

1- نقلا عن الندوي: المصدر السابق، ص53.

2- نقلا عن: الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، (مصدر سابق)، ص53.

3- المصدر نفسه، ص52.

4- المصدر نفسه، ص137.

5- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص337؛ وأيضا: ج1، ص339.

6- الندوي، السيرة النبوية، ط3. دمشق: دار ابن كثير 2004 م، ص625 وما بعده.

وقد بينت شواهد التاريخ: "إن احترام الإنسان للنظام العام مرهون بمدى ما يوفره ذلك النظام للإنسان من خدمات ومصالح عامة؛ وبقدر ما يحس أن هذا النظام محافظ على إنسانيته بقدر ما سيدافع عنه ويزداد تمسكه به؛ ومن ثم فإن الشعور باللامبالاة وعدم الاكتراث بالنظام العام سببه غالباً عدم تأمين ذلك النظام للمصالح والخدمات الأساسية؛ ومتى كان النظام مستهيناً بكرامة الإنسان، فإنه سيتحول إلى عدو حقيقي له قد يتسبب في حدوث ردة فعل طبيعية وهي مقاومة الجهات التي تقف وراء النظام؛ وهنا مكمّن الخطر حيث يحصل الإخلال بالنظام وينتشر الفساد وتعم الفوضى ويحتل نظام الحياة"¹.

وهكذا تغدو الشريعة ومقاصدها الكلية- عند الندوي- هي المقوم الرئيسي (لنظام العالم وإصلاح المجتمع)، فهي (السنن الراشدة)، وليس مدونة للأحكام الشرعية فحسب. والحق أن آراء الندوي في الفطرة تحتاج إلى قراءة جديدة وتثوير، لعل وعسى تكون جسراً بين النسق الأصولي القديم، ومذهب الحق الطبيعي كما تجلّى ذلك عند صاحب كتاب العقد الاجتماعي، "جون جاك روسو".

2-2- الاتصال المباشر بالقرآن الكريم:

القرآن الكريم بالنسبة للمسلم هو المصدر الثّر، الذي يؤسس تصوره للكون والحياة والإنسان، ويؤصل له مفاهيمه عن الأشياء من حوله، كما يوجه تطلعاته العملية، وأشواقه الروحية إلى الصراط المستقيم، فهو النور، والكتاب المبين الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام الفكري والروحي والعملية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم، وليبين لهم الذي اختلفوا فيه، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، ويهدي للتي هي أقوم، وفيه شفاء لما في الصدور، وبرهان وبصائر من ربكم- كما وصف الله به كتابه- وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو الوثيقة المعصومة التي حفظها الله من التحريف والزيادة والنقصان كما جاء في قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، (الحجر، الآية: 9).

في ضوء ذلك كان من الضروري أن يولي "أبو الحسن الندوي" هذا الكتاب العناية التي يستحقها، "فالدرجة الأولى في سلم الاستفادة منه - كما يؤكد الندوي - هو الاستماع والإصغاء إليه، فمن لم يُصنغ إليه، ولم ينصت له كيف يرقى السلم وكيف يقطع مراحل الطريق ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ ٧ الَّذِينَ

1- عليان بوزيان، مقصد حفظ نظام الأمة- مقارنة مقاصدية- منشور على الشبكة العنكبوتية، ينظر:

http://almuslimalmuaser.org/index.php?option=com_k2&view=item&id=129:maksad-hefaz-el-2oma

يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾
(سورة الزمر، الآيتان: 17-18).

ولكن الاستماع المحض لا يغني من جوع، فما اقتضى منه العمل وكله يتطلب العمل ويقتضيه لا بد من الأخذ به وتطبيقه والعمل عليه، فإن العلم ما لم يصحبه عمل، ترف عقلي ليس غير، ولذلك أردف القرآن الكريم ذكر الاتباع بعد الاستماع¹.

وللندوي تجربة عملية، واقتراحا مخلصا في صدد الصلة الشخصية المباشرة بالقرآن الكريم، والعلاقة القوية معه، والاستفادة منه أكثر فأكثر، والتقرب به إلى الله، والرقي عن طريقه في مدارج التوفيق، نستسمح القارئ في نقله على طوله بعض الشيء وفي هذه الوصية يقول:

"وهو أنه ينبغي أن يشتغل بالقرآن قدر المستطاع مباشرة بدون وساطة، ويتلو متنه أكثر ما يمكن، ويستمتع بقراءته، ويتذوق ويتدبر في معانيه، فإذا كان القارئ قد حصل من العربية ما يحتاج إليه، وتمكن من فهم القرآن الكريم مباشرة، فعليه بقراءته وفهمه مباشرة، وإلا فليرجع إلى الحواشي والملاحظات التفسيرية المختصرة، ويحاول تلاوة القرآن الكريم، وفهمه وتدبره وتذوقه من دون اعتماد وتعويل دائم على تفسير إنساني، ومراجعة كثيرة لكتب التفاسير ويكتفي بذلك إلى مدة ما من الزمن، ويحمد الله تعالى على ما يفتح عليه من فهم كتابه وما يوفق إليه من تلاوته، حمدا كثيرا"².

لقد أدرك الندوي بتجربته الحية أن كتب التفسير والحواشي قد تكون عائقا بين العبد وبين الاتصال بينوع القرآن الثر، فقدم هاته الوصية توجيها لطلاب العلم، وربطاهم بمتن القرآن مباشرة لتذوق الكلام الإلهي.

ويلح الندوي على ضرورة أن يجتنب الباحث عدا مواضع الحاجة إلى البحث العلمي أو إزالة شبهة "البحوث التفصيلية الخاضعة للاتجاهات العصرية، أو العصبية الجماعية، السياسية أو القيادية، أو التفكير الناشئ من دراسة العلوم الحديثة أو الحضارة الغربية؛ إذ أنه تطغى أحيانا على ينبوع القرآن النقي الصافي ظلال العقول والعلوم الإنسانية، والأغراض الجماعية أو القيادية، كما تغشى على العين الصافية النقية ظلال الأشجار الكثيفة الوارفة، ثم لا تبقي فيه تلك العذوبة واللذة والأصالة والشفافية التي هي جوهر القرآن وروحه"³.

1- الندوي، المدخل إلى الدراسات القرآنية، ط2. دمشق: دار ابن كثير، 2010م، ص130.

2- المصدر نفسه، ص149؛ وينظر أيضا: الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك، ط2. الكويت: دار القلم، 1983، ص189 وما بعده.

3- المصدر نفسه، ص149-150.

بل يؤكد الندوي أن التجارب قد أثبتت: " أن القارئ يتأثر أحيانا بتفهم إنسان المعني فاضل وتفسيره وقد يكون معجبا به من قلبه أكثر مما كان ينبغي له أن يتأثر بالكلام الإلهي الأصيل ويتسرب إلى ذهنه وشعوره، أو من منفذ من المنافذ المختلفة، أنه لو لا هذا التفهم والتفسير لم يظهر هذا الجمال القرآني الذي أتمناه ولم تتحل لي عظمته وجلاله وروعته، وأقل ما يتمكن من خاطره أنه يتعود على النظر إلى القرآن الكريم بمنظار تفسير إنساني خاص أو قل بمنظار أحد المفسرين والشرح، و القادة والدعاة"¹.

2-3- الارتباط بالرسول ﷺ:

لقد كان أبو الحسن الندوي، شديد التعلق بالرسول ﷺ، قوي العاطفة تجاهه، بل لقد هاله ضعف العاطفة في بلاد المسلمين، وضعف صلتهم الروحية وعاطفتهم بالنبي ﷺ وهو أمر خطير، أدت إليه عوامل ودعوات، رأى أنها أنضبت منابع الحب، وأصابت النفوس بتبدل في الشعور والتفكير، فأفرعه كل ذلك وقرر أن لا مناص من مواجهة هاته الردة، بما يعيد إثارة الحب الكامن في قلب كل مسلم، وإشعال جمرة إيمانه، ووجد أن خير من يحقق ذلك كثرة الاشتغال بكتب الحديث، ومدارسة سيرته ﷺ وكثرة الاطلاع على كتب الريانيين الذين عرفوا بالشغف به ﷺ وهو ما بينه في أحد وصاياه بقوله: " ومن المفيد المؤثر في توثيق الصلة القلبية بشخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والزيادة في حبه، والحرص على الاقتداء به، كثرة الاشتغال بالحديث الشريف ومذاكرته، ثم بكتب الشمائل والسيرة الموثوق بها، فمن أحب شيئا أكثر ذكره، ومن أكثر ذكر شخص وتبع دقائق أموره أحبه، وكذلك الاطلاع على أخبار من عرفوا بالحب العميق والشغف العظيم بشخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فالاطلاع على أحوال المحبين وأقوالهم، وشعرهم يورث الحب، ويغذيه، وينميه إذا كان موجودا"².

2-3-1- الحديث والسنة الشريفة:

لقد أدرك الندوي ما لأهل الحديث من الكرامة، نتيجة قربهم من صاحب الرسالة - صلوات ربي وسلامه عليه- إذ اتصلوا بالشخصية الفذة التي وعدها الله بالخلود وبقاء الذكر، وانتشار الصيِّت، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾، (سورة الشرح، الآية: 4). فحازوا بهذا القرب نصيبا من الحياة والظهور.

1- الندوي، المدخل إلى الدراسات القرآنية، (مصدر سابق)، ص150.

2- الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك، (مصدر سابق)، ص191.

فالتأسي بنموذج النبي - ﷺ - الذي أمرنا به بنصوص القرآن الكريم، كما في قوله جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، الآية: ٢١). وقوله في آية أخرى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران، الآية: ٣١). يوجب السير في ظل كتب السنة والحديث، ولذا كان أقرب الأشخاص إلى التجديد والإصلاح هم المحدثون، كما نص الإمام ولي الله الدهلوي، ولعل هذا ما كان ملحظاً لأبي الحسن الندوي فقال: "وقد ظلت الكتب الستة - ولا تزال - مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد، والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية، تلقى منه المصلحون في عصورهم العلم الديني الصحيح، والفكر الإسلامي النقي... واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح، وفي محاربتهم للبدع والفتن والفساد، ولا يستغني عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص والإسلام الكامل، ويريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية، والأسوة الكاملة، وكل من تلجئه الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة"¹.

والواقع أن كتابه "دراسات في الحديث الشريف"، مظهر من مظاهر نبوغ المؤلف، وعلو باعه في هذا الفن، ولم يقتصر جهد أبي الحسن الندوي على التأليف والكتابة في علم الحديث؛ وإنما تجاوز ذلك إلى جلوسه للتعليم والإفادة لكتب السنة كجامع الصحيح للبخاري، وجامع الترمذي وغيرها².

2-3-2- السيرة النبوية:

للسيرة النبوية أهمية عظيمة عند الندوي لأنها ترجمة عملية لتعاليم الإسلام، وقدوة حية للمسلمين في كل زمان ومكان، وفي هذا المعنى يقول: "والقرآن وسيرة محمد ﷺ، قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلا من أمة مستسلمة منخذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسية وغيره، وحنقا على الجاهلية، وسخطا على النظم الجائرة"³.

ويرى الندوي أن علة علل العالم الإسلامي هي الإخلاق الزائدة للحياة الدنيا، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة، وأن لا شيء لمواجهة هذا الداء مثل القرآن والسيرة وفي هذا المعنى يقول: "ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية - إن وجدا إلى القلب سبيلا - يحدث صراع بين الإيمان والنفاق، واليقين

1- الندوي، المدخل إلى دراسة الحديث النبوي الشريف، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2002م، ص 25-26.

2- الندوي، نظرات في الحديث، ط1. دمشق: دار ابن كثير، 1999م، ص 68؛ وينظر أيضا: الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص 119.

3- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط. المنصورة: مكتبة الإيمان، (د.ت)، ص 235.

والشك، بين المنافع العاجلة، والدار الآخرة، وبين راحة الجسم ونعيم القلب، وبين حياة البطالة وموت الشهادة، صراع أحدثه كل نبي في وقته، ولا يصلح العالم إلا به"¹.
وما سرّ اهتمام الندوي بالسيرة النبوية إلا لأنها النموذج الحي للقرآن الكريم وهو ما بيّنه سيّد الأنام بقوله: (ألا أني أوتيت القرآن ومثله معه)²، ولذلك لما سئلت السيّد عائشة - رضي الله عنها - عن خلقه قالت: (كان خلقه القرآن)³، فالسيرة بهذه المثابة تغدو المثال التطبيقي الذي يراد منه تجسيد الحقيقة الإسلامية في نموذجها الأعلى محمد ﷺ وهو ما حدا بالندوي للقول عنه: "كان أروع آيات الله تعالى في جمال الخلق والخلق، معجزة كاملة تشتمل على المعجزات بقدر أيام حياته وأخلاقه وكلماته، فيجب الإسلام لأجله، ولما رآه في شخصيته، وسيرته من العدل، والعقل والفضل والجمال"⁴.

ولا يقصد الندوي من دراسة السيرة ما يقصد به عادة من الوقوف على الوقائع التاريخية، والفهارس العقيمة التي وضعت للطلبة، وطلب منهم حفظها واستحضارها، إنما يقصد الندوي من دراسة السيرة النبوية: "ما يملأ القلب مهابة وجلالا، ومحبة وإيمانا"⁵.
لأجل ذلك يؤكد على أن تكون السيرة من المواد الدراسية الرئيسية في نظام التربية والتعليم الإسلامي ولذا يوصي الندوي: "بأن لا يخلو معظم الفصول من درس كتاب مؤثر في السيرة"⁶.
والواقع أن السيرة النبوية من أقوى العوامل في تكوين العاطفة المشبوبة، والتعلق بحب رسول الله، والتصديق بعظمته ﷺ.

1- الندوي، ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص235.

2- أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب العلم، رقم الحديث2664، وقال أبو عيسى حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه؛ وأخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند الشاميين، رقم الحديث16742، عن المقدم بن معدي كرب الكندي.

3- أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، رقم 746؛ وأحمد في المسند، ج6، ص91، ص163، ص216.

4- الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية، ط1. بيروت: دار الإرشاد، 1969م، ص15.

5- المصدر نفسه، ص16.

6- المصدر نفسه.

2-3-3- مطالعة كتب وأشعار المحبين:

ومن أقوى وسائل إثارة الحب والحنان، ترداد ما تغنى به الشعراء والمحبون من عرب ومن عجم، "فالاطلاع على أحوال المحبين وأقوالهم، وشعرهم يورث الحب، ويغذيه، ويثممه إذا كان موجوداً"¹. ويؤكد الندوي أن هذا اللون من الأدب كفيلاً: "بإثارة المواهب الدفينة، وتدقيق القرينة الخامدة، وإثارة المعاني، والحماس البياني، مع رقة الشعور الإنساني؛ فإن الشاعر إذا كان مدفوعاً من داخل نفسه، مستوقاً من إيمانه، متجرداً عن الأغراض الخسيسة، والمنافع المادية، متجاوزاً لقلبه وروحه، عَرَفَ من بحر لا ساحل له، واقتنصَ نجومها كانت فوق متناول يده"². والواقع أن هذا الشعر أثر في وجدان الأمة، وحرك سواكنها، ولا يزال لحد الآن "يثير الأشواق، ويدمغ الآماق، وينزل الأعماق، ويثير الكوامن في نفوس العشاق"³. وما هاته الثروة من المدائح النبوية، والأدبيات الغزلية حوله ﷺ إلا برهان صدق على مدى "تعلق قلوب هذه الأمة وارتباطها عقدياً وعقلياً ونفسياً وعاطفياً- بنبيه ﷺ تعلقاً، لم يعرف في تاريخ الديانات، وفي واقع الأمم"⁴. ولذلك اهتم الندوي بالتأليف في هذا اللون من الأدب الذي يعرف "بالنبويات"، وقد سمي مجموعته "الطريق إلى المدينة" قال عنها أديب الفقهاء علي الطنطاوي -رحمه الله- في تقديمه لهذا الكتاب: "لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي، ولكني لما قرأت كتابك يا أخي أبا الحسن، الطريق إلى المدينة" أحسست بالشوق يعود ليعتلج بنفسي، فعلمت بأني قلبي ما خلا من جوهر الحب، ولكن هم العيش، وطول الألفة قد غطيا جوهره بالغبار، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار، وكدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أجد عند الأدباء هذه النعمة العلوية التي عني بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البرعي، فلما قرأت كتابك وجدتها في نثر هو الشعر إلا أنه بغير نظام، فيا أبا الحسن لك الشكر على أن رددت إليّ ثقتي بنفسي، وثقتي بأدب لغتي..."⁵.

1- الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك، (مصدر سابق)، ص191.

2- الندوي، جوانب من السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأوردية، ط1. القاهرة: دار الصحوة للنشر، 1989م، ص5.

3- المصدر نفسه، ص8.

4- المصدر نفسه، ص3-4.

5- الندوي، الطريق إلى المدينة، ط4. دمشق: دار القلم، 1980م، ص10.

وما سرّ تسميته هذه، إلا لأن الندوي كان يرى أن هذه المجموعة تمهد الطريق إلى هذه المدينة، وتبعث الأشواق إليها، وإلى متورها عليه ألف ألف سلام¹.

2-4- التعلّق بسير السلف:

وذلك بالدعوة إلى دراسة سيرة الصحابة والتابعين، والفقهاء والمحدثين والعلماء الربانيين، وأولياء الله العارفين، الذين اتفقت الأمة على حسن عقيدتهم، وكمال إتباعهم للرسول ﷺ ومعرفتهم للكتاب والسنة وعلمهم بغوائل النفس ومكايد الشيطان، وإقبالهم على الآخرة، وما ينفعهم فيها، وينقل الندوي عن ابن الجوزي قوله: " رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلا أن يمزج بالرفائق والنظر في سير السلف الصالحين؛ فأما مجرد العلم بالحلال والحرام، فليس له كبير عمل في رقة القلب؛ وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث، وأخبار السلف الصالحين، لأنهم تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المعمول بها، إلى ذوق معانيها والمراد بها.

وما أخبرتكم بهذا إلا بعد معالجة وذوق؛ لأني وجدت جمهور المحدثين، وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي، وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقهاء في علوم الجدل، وما يغلب به الخصم وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء وقد كان جماعة من السلف، يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه لا لاقتباس علمه، وكذلك إلى ثمرة علمه وهديه وسمته، فافهم هذا وامزج طلب الفقه، والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا، ليكون سببا لرقّة قلبك².

وما تأكيد الندوي على ضرورة التعلّق بفهم الصحابة - رضي الله عنهم - للدين، إلا نتيجة ما حصل لهم من معارف متكاملة، وعلوم عميقة استفادوها من بركة التربية الصالحة للنبي ﷺ وفي هذا المعنى ينقل عن ابن تيمية قوله: " وأصحاب محمد ﷺ كانوا مع أنهم أكبر الناس علما نافعا وعملا صالحا أقل الناس تكلفا، يصدر عن أحدهم الكلمة، أو الكلمتان من الحكمة أو من المعارف ما يهدي الله به أمة، وهذا من منن الله تعالى على هذه الأمة، وتجدر غيرهم يحشون الأوراق بالتكلفات، والشطحات ما هو من أعظم الفصول المبتدعة، والآراء المخترعة³.

1- الندوي، المصدر السابق، ص4.

2- نقلا عن: الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك، (مصدر سابق)، ص193.

3 - الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، ط 1. دمشق: دار القلم، 2002م، ج2، ص 216.

ولنا هاهنا كلمة ذهبية رويت عن الصحابة منهم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود في أثر صحيح قال- رضي الله عنه - : " المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة"¹.
 ومما يروى عن عبد الله بن مسعود في وصف صحابة رسول الله ﷺ قوله: " كانوا أبرَّ الناس قلوبا، وأعمقهم علما، وأقلهم تكلفا، اختارهم الله لصحبة نبيه وإعزاز دينه"².
 وعلى العموم فقد كان الندوي يرى أن: " هذا الجيل الذي أنشأته دعوة الرسول ﷺ وأحكمت تربيته، من أفضل الأجيال البشرية في تاريخ الإنسان كله، وأجملها وأكملها وأجمعها للمحاسن الإنسانية"³.

2-5- الاقتداء الحي:

ومن مزايا منهج التأسسي أن أصحابه لا يكتفون بقراءة كتب السيرة والأحاديث النبوية فقط؛ لأن هذه الأخيرة إن أفادتكم علما، فإنها لا تفيدهم عملا؛ ذلك لأن العمل كما يقول "طه عبد الرحمن" "بحق" ليس من جنس ما يُقال أو يُقرأ؛ وإنما من جنس ما يشاهد بعين البصر ويُنال بأداة الحس، لذلك فإن طالب مرتبة التحلق المؤيد يجتهد في البحث عن تحقق فيه التحلق النبوي"⁴.
 ولذلك جد الندوي في طلب المرشد؛ لأنه كان يريد أن يتخلق بطريق الاقتداء الحي لا بطريق التأمل المجرد، وعملا بوصية الشيخ "محمد إلياس الكاندهلوي" الذي كان كثيرا ما يؤكد عليه بضرورة توثيق الصلة بالمربي الجليل "عبد القادر الرائي بوري"⁵، والاستفادة منه، حيث كتب إلى الندوي ذات مرة قائلاً: " أنه لم يبق الآن إلا هذا الدكان الذي يشتري منه الإخلاص والصلة بالله تعالى، وتزكية النفس، وتربية الروح، وليس هناك حديث آخر ولا تفكير فيه غير هذه البضاعة العظيمة"⁶.

1- رواه الطبراني في الكبير، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله موثقون. ينظر: الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تح: حسن سليم الداراني، ط1 دمشق: دار المأمون للتراث، ج2، ص261؛ وروى نحوه الدارقطني عن علي كرم الله وجهه، ولكن بلفظ الأنبياء قادة وقال المحقق الحديث ضعيف جدا ينظر: الدارقطني، السنن، تح: شعيب الأرنؤوط، ط1. بيروت: دار الرسالة، 2004م، ج4، ص56.

2- رواه الدارمي في مسنده.

3- الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، (مصدر سابق)، ص147.

4- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، ط5. الدار البيضاء: 2013م، ص85.

5- هو خليفة الشيخ الأجل عبد الرحمن الرائي بوري، توفي عام 1962م بلاهور ينظر: أبو الحسن الندوي، من أعلام المسلمين ومشاهيرهم، (مصدر سابق)، ص260؛ وينظر أيضا: أبي الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص160، وج1، ص210.

6- أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص210-211.

سافر الندوي إلى "سَهَارَنفور"، ومنها إلى "رائيبور"، ليلتقي بالشيخ المري الجليل "عبد القادر الرائيبوري" الذي احتفى به، حفاوة بالغة، ويذكر الندوي في أول لقاءه به، كأنه كان منه على ميعاد¹. كما يذكر الندوي أن عبد القادر الرائيبوري كان من كبار المربين الذين ازدانت بهم شبه القارة الهندية وفي هذا المعنى يقول كان الشيخ: "من العلماء الربانيين المطلعين البصيرين من أصحاب الفراسة والذكاء، والانفتاح الذهني، الذين يجمعون بين العلم والعمل، والتربية والترقية، وهو من أولئك القادة الروحيين والعلماء الصالحين الذين يحتاج إليهم المسلمون في كل زمان للقيادة والتوجيه والاستفادة من تجاربهم وطيب أنفاسهم، وقد رأينا في اطلاع الشيخ وبصره بأوضاع العصر وظروفه، وبصيرته السياسية وفراسسته الإيمانية، وجمعه بين العبادة والإنابة، والجانب العملي المشرق، نموذجاً طيباً للزوايا السنوسية، وذكّرنا أخلاقه الفاضلة وعطفه الأبوي وتواضعه وحفاوته وضيافته، بأخلاق السلف الصالحين، الذين كانوا يقتدون بأسوة صاحب الخلق العظيم ﷺ"².

لقد وجد الندوي أخيراً ضالته عند هذا الشيخ المبارك، وأخذ عنه، وهو موقن أنه سوف يحصل على يده ما لا يقدر على تحصيله بنفسه، لاعتقاده الراسخ بأن العمل يُتوارث، متخلقا عن متخلق، ويؤكد الندوي أن تذوق الشيخ للعبادة، وضروب مجاهداته تذكّر بالحكايات التي تؤثر عن السلف وفي هذا المعنى يقول: "أما مكارم الأخلاق، ودقائق السلوك الإسلامي الإنساني، والزهد في الدنيا، والاستهانة بالزخارف والمظاهر، وعدم الاكتراث ببناء الناس ونقدهم، والاستغناء عن الناس بما فيهم من ولاة الأمور وحكام البلاد وكبار الأثرياء والوجهاء، والنظر إلى أكبر مقدار من المال كالحصاة والرمل، والتوكل على الله، وتكفل الله بجميع حاجاته بطرق تحيّر العقول، والإنابة إلى الله في جميع الأحوال والاطراح على عتبة عبوديته، فهو حديث يطول، وقصص ومشاهدات تذكّر بحكايات السلف التي دونها كتاب (حلية الأولياء) لأبي نعيم، و(صفة الصفوة) لابن الجوزي، و(مدارج السالكين) لابن قيم الجوزية"³.

ويرى الندوي أن الغرض الأساسي من هذه الصحبة كان من أجل تقويم الأخلاق، وإزالة الرذائل وإلى هذه الحقيقة أشار بقوله: "لأجل ذلك كانت الحاجة ماسة إلى مثل هذه الشخصية التي أجد عندها هذا المدد والزيادة وقد كنت أشعر في قرية رائبوري بور أنها جزيرة صغيرة في بحر المادية، والعقلانية

1- أبو الحسن الندوي، من أعلام المسلمين ومشاهيرهم، إعداد عبد الماجد الغوري، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2002م، ص259.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه، ص266.

المظلمة التي يحيط بها من جوانبها الأربعة، حيث لا حديث ولا موضوع ولا شغل إلا ذكر الله تعالى والتفكير في آلائه، وتربية الروح، وحيث يسود جو الذكر وتمتد أطنابه"¹. ولقد أورت هذه التربية الندوي نظرة إنسانية واسعة، شملت جميع البشر قاطبة، على اختلاف ألوانهم، وأديانهم، وأوضاعهم، ملأت جوانحه كلها، استمدتها من محبة مولاها من جل في علاه. وحتى لا ينسب أمر هذا الشيخ إلى البدعة ذكر الندوي جوانب من فهمه الشامل للإسلام، من ذلك جهاده لمحاربة القاديانية وفي هذا المعنى يقول الندوي: " كان الشيخ الرائيوري مندفعاً قلبياً ووجدانياً إلى محاربة هذه الحركة ومؤمناً بضلالها، وهو الذي نفخ الروح في القادة الذين قاموا بحركة مقاومة القاديانية، كحركة "أحرار إسلام" و"منظمة تحفيظ ختم نبوت" والعلماء الآخرين، وكان ذلك حديث مجالسه، وخدمة دينية جلية في ذلك العصر، وكان الإسهام في حركة المقاومة للقاديانية أو الحديث عنه، وسيلة للتقرب إليه والتحبب لديه، وهو الذي أمر كاتب هذه السطور بتأليف كتاب بالعربية في التعريف بالقاديانية والرد عليها، فكان تأليف كتابي (القادياني والقاديانية) ونقل إلى عدة لغات"².

وقد أبدى الشيخ عبد القادر سروره الكبير بتحقيق هذا العمل، وكان يأخذ الكتاب بيده أحياناً ويقول للناس اشتروا هذا الكتاب وقرأوه، ويأمل المؤلف أنه بالقيام بهذا التأليف أدخل السرور على قلب شيخه واستحق دعاءه"³.

أما اهتمامه بما يؤثر في حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية، ومرونته الخلقية والفكرية، وهي جوانب لا تتوقع غالباً من مربّ روحاني يعيش في عزلة عن الخضم السياسي والمجتمع الهائج المتطور، عاكفاً على العبادة والدعاء للمسلمين، وتربية القاصدين لإصلاح أخلاقهم وتزكية نفوسهم، فقد بلغ فيهما الغاية، فقد كان شديد اللهج في مجالسه على ضرورة تقدم البلدان الإسلامية وتطورها اقتصادياً، واستقرارها سياسياً، واعتمادها ذاتياً، وقد كان هذا موضوعه الأثير إذا ضم مجلسه رجالاً من الطبقة السياسة المسلمة، وقد أشار مرة في أحد مجالسه، فقال: " إن المسلمين انغمسوا في أشغالهم وأصابهم النعاس فلا يفيقون، فقد كان المسلمون نائمين نوماً عميقاً لما كانت أوربة متيقظة، فأعدت كل نوع من المعدات الحربية، وأهملها المسلمون، وكيف يمكن شقّ حرب بدون سلاح، فلو

1- أبو الحسن الندوي، من أعلام المسلمين ومشاهيرهم، (المصدر سابق)، ص 266.

2- المصدر نفسه، ص 265.

3- أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج 1، ص 269.

تحوّلت جميع الدول المسلمة إلى دول إسلامية حقيقية، فإنها لا تستطيع أن تتحمل نفقات حرب يوم واحد¹.

ولم يكتف الندوي بإبراز جوانب من فهم الشيخ الشامل للإسلام، وإنما حاول أن يعطي صورة مصغرة عنه تكشف خصائصه التي يتميز بها تفيد في دفع أي تنقص له، ولمقام التربية الذي يتولاه يقول الندوي: "ولم أكن أدرك المدارج الباطنية الروحية في ذلك الوقت ولا أدركها الآن، إلا أن مزايا الشيخ الثلاث أثرت في: إحداهما: تواضعه الكبير الذي لم أر له نظيراً ولا أعلم له مثيلاً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، الآية: 76)، الثانية: سعة أفقه ورحابة صدره وواقعيته التي لم أشهد مثلها في كبار العاملين في مجالات الحياة، والعلماء المحنكين والقادة السياسيين الذين جربوا الحياة حلوها ومرها، وبسبب طبيعتي الخاصة ودراساتي المتنوعة الواسعة وبيئتي التي نشأت فيها وتربيتي تربية عقلية فكرية لم يكن لمثلي أن يجد مكانه في هذا المركز لولا هذه السعة في التفكير ورحابة الصدر. والميزة الثالثة: هو عطفه الكبير عليّ الذي لا أستطيع أن أشبهه إلا بعطف الأم وحنانها². ويبدو أن الإعجاب بشيخه المرابي وصل إلى حد بعيد، ملك عليه مشاعره وجوانحه، ظهر أثر ذلك في كتابه "تذكرة الشيخ عبد القادر الرائيبوري" بشيء من التفصيل³.

وبقي الندوي محافظاً على هاته الرابطة، والصلة الروحية إلى أن توفي شيخه بتاريخ 13/ ربيع الأول 1382هـ الموافق 16/ أغسطس 1962م بـلاهور، ويذكر الندوي أنه تلقى قبل ذلك بقليل قبول دعوة صديقه الحبيب الدكتور سعيد رمضان لمشاركة الجلسة الاستشارية للمركز الإسلامي بجنيف، وقضاء أيام مع الطلاب المسلمين المغتربين، وإلقاء الخطب والمحاضرات فيهم، ولكنه اعتذر عنها لما وصله من أخبار مرض الشيخ الرائي بوري الشديد الخطير، فأثر السفر إلى لاهور على السفر إلى أوروبا⁴.

1- نقلا عن: الندوي، من أعلام المسلمين ومشاهيرهم، (مصدر سابق)، ص 264.

2- أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج 1، ص 211. وينظر أيضاً: الندوي، من أعلام المسلمين ومشاهيرهم، (مصدر سابق)، ص 266-267.

3- صدرت للكتاب عدة طبعات في الهند وباكستان، والكتاب في أوردو ويقع في 352 صفحة. ينظر: الندوي، هامش من أعلام المسلمين ومشاهيرهم، (مصدر سابق)، ص 266.

4- أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج 1، ص 289.

2-6- الانشغال بالعمل، والإخلاص فيه، والتجرد عن المطامع:

ومن قواعد منهج التأسّي والافتداء هذا؛ أنه منهج يعتد بالعمل أكثر من الانشغال بالنظر الفكري المجرد، فلقد كان الندوي رجلاً فعلاً لا قولاً، وما ذاك إلا أثر من آثار التمدج باسمه تعالى "الخالق"، ومن مقتضى هذا التحلق اجتهاد الإنسان في التعبد قلباً وقالباً، والمتأمل في سيرة الرجل يجد أن جهاد الندوي شمل مستويات عدة:

2-6-1- الجهاد في خدمة الخلق:

اعتمد الندوي هذا الأسلوب في منهجه الإصلاحية الاجتماعي الذي نذر حياته كلها له، ففي الهند أسس (حركة رسالة الإنسانية)، ويبين لنا الندوي الأسباب الكامنة من وراء إنشائها بقوله: "لقد كان من المشاهدات اليومية أن هذه البلاد تسير بخطى حثيثة إلى الفوضى والانتحار الجماعي، فتداس القيم الخلقية، ويصاب الناس بجنون النفعية والانتهازية - باستثناء الذين أثر فيهم الدين تأثيره، أو الذين اعتزلوا معترك الحياة- ويُفقد سريعاً احترام الأعراض والأموال والأنفس، فيُضْحَى لأغراض تافهة حقيرة بمصالح قومية واجتماعية، وتنتشر اللامسؤولية، وإضاعة الوقت، والرشى والسوق السوداء، والادخار والاكتناز، وكل ما يخالف الدين والعرف والقانون، وقد أصبحت الحياة بذلك جحيماً لا يطاق"¹.

ثم يسترسل الندوي في بيان الأسباب الموجبة لهذه الحركة وفي هذا المعنى يقول: "إن على المسلمين مسؤولية ذات وجهين: إحداهما أن كتابهم الأخير الخالد القرآن، ورسولهم الخاتم محمد ﷺ لا يرشدهم إلى اجتناب هذا الفساد العام والحريق المستطير، ووحل عبادة المادة والمال فحسب، بل يأمرانهم بالوقوف دونه وسدّ سبيله وحماية الناس منه.. والمسؤولية الثانية: أنهم كانوا وردوا هذه البلاد برسالة احترام الإنسانية والعمل الاجتماعي والمساواة الإنسانية وقد أسعفوا هذه البلاد في ساعات دقيقة حرجة، ولا تزال هذه الرسالة محفوظة في صحائفهم الدينية، فلو لم يبذلوا جهودهم المستطاعة في الأخذ بهذه السفينة الغارقة أو المتورطة، لكانوا عند الله أصحاب ذنب وتقصير وجريمة، وسجلهم التاريخ غير قائمين بالواجب، كافرين بالنعمة مجرمين بالغفلة"².

اعتماداً على ما سبق، يمكننا أن نلاحظ أن الصبغة العملية بارزة بوضوح في تجديد الندوي، فقد كان - رحمه الله - شديد الصلّة بحياة الناس وكان يرى أن واجبه كمسلم يحتم عليه: "أن يعتبر نفسه مسؤولاً عن مجتمعه ولا يتعامى عن الأخطار بدس الرأس مثل النعامة، ولا يردد درس (كل شيء

1- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص 337-338.

2- المصدر نفسه، ج1، ص 339.

على ما يرام)، فإن على المسلم حقاً في كل مكان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالإصلاح وإزالة الفساد، وليحسب نفسه راكباً في سفينة الحياة، إذا غرقت غرقت مع الجميع¹.

2-6-2- جهاد التغلغل في العمل التزكوي:

فقد كان الشيخ - رحمه الله - متدينا متورعا، متمسكا بالشرعية، عاملا بها، محافظا على نوافل الطاعات، فضلا عن الفرائض والواجبات. ويروي الندوي أنه كان يخرج في كل يوم خميس مع جماعة من إخوانه " بعد العصر بعد أن نأخذ زاد الطريق، ونحمل معنا حسب مقتضى الفصل بسطنا وفرشنا، وكنا نمشي على الأقدام نذهب إلى القرى المجاورة، وكنا ننقسم من هناك في يوم الجمعة في جماعات، ونخرج إلى النواحي والقرى القريبة، وقد أفادت هذه الجولات والتحركات طلاب دار العلوم من النواحي الدينية والإصلاحية، من تحسن وتقدم في الاهتمام بالصلوات، والمحافظة على ذكر الله، وقيام الليل، مع فوائد أخرى كثيرة، من تقشف وتحمل للمشاق، وتآلف وتحابب وأخوة².

أما الزهد والقناعة فقد بلغ فيهما شأوا بعيدا يقول الأستاذ محمد المجدوب: " وأنا لا أذيع مجهولا من حياة الشيخ، عندما أذكر: أنه - وهو العضو الدائم في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - لم يقبل أن يصرف له فلس واحد من المكافآت السخية المخصصة لمثله، ولم أعرفه نزل فندقا قط على حسابها، على تعدد المرات التي حضر فيها هذا المجلس حتى الآن، وأنا لا أدري كم في علماء الإسلام من نظير لهذا الزاهد الكبير؟! "³.

ويؤكد الأستاذ محمد المجدوب " إن خاصة الزهد والترفع عن حطام الدنيا، في هذا الجسد النحيل اللطيف الذي يكاد ينطق بقول ابن الرومي عن نفسه:

أنا من خف واستدق فما يُثقل أرضا ولا يسد فضاء

هذه الخاصة هي التي مكنت له في مضمار الإصلاح والنقد الاجتماعي، فلا يهادن باطلا، ولا يكتفم حقيقة... جعلت لكلامه مساعغا، فلا تنكر عليه ما يقول⁴.

وإن أدل دليل على تغلغل الندوي في العمل التزكوي ذلك الجد في الطلب من أجل التحقق بالإخلاص الذي ظهر منه حتى وجد المرشد، ولا شك أن الانضواء تحت لواء هؤلاء الربانيين من

1- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص 328-339.

2- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص186.

3- محمد المجدوب، علماء ومفكرون عرفتهم، ط4. القاهرة: دار الشواف 1992م، ج1، ص143.

4- المرجع نفسه.

أمثال " عبد القادر الرائيبوري " يعني الالتزام بأوراد وأذكار تهذب النفس وتصلح الروح، وترفع الهمة إلى ملكوت رب العالمين.

2-6-3- جهاد التعليم:

دخل الندوي التعليم بما هو وظيفة نبوية، وذلك من خلال الانشغال باتخاذ التعليم منطلقاً من التلميذ إلى المدرس، إلى إصلاح ووضع المقررات التعليمية، إلى المؤسسة التعليمية كلها التي " لا أداة أقوى تأثيراً أو فعالية منها في صياغة الجيل الصاعد، وتكوين عقليته، ومشاعره، وأخلاقه، ومثله، فهي المرصعة، والحاضنة، وهي المعلمة والمرية، وهي التي تستطيع أن تتخذ من أمة ذات عقائد ومبادئ ومثل، أمة جديدة، لا تتصل بأبائها إلا بالولادة، والدم، والنسل، وبالأسماء، وباللغة أحياناً"¹ حيث اشتغل الندوي في هذا القطاع الحيوي الخطير ممارساً ومنتجاً، لمدة عشر سنوات كاملة (1934-1944م)، ويذكر الندوي أن مهنة التدريس والتعليم ساعدته كثيراً على الاتصال المباشر بالطلاب والعمل فيهم، والإقدام على تجارب تعليمية جديدة، ربما وصلت إلى التقدم بمقترحات متواضعة حول المناهج والمقررات الدراسية².

وفي أثناء اشتغاله بالتدريس أبت عليه همته القعساء أن تقعد به عند قراءة ما يتعلق بالمادة التي يشتغل بتدريسها دون غيرها، وإنما " اتجه إلى مطالعة كتب التاريخ، والفكر التي دفعته لاختراق حدود الهند إلى العالم الإسلامي، والاهتمام بقضاياها وحركاته"³.

كما استفاد كذلك من المجالات التي كانت تصل إلى دار العلوم تباعاً كالمنار، والفتح من مصر، والعرفان من الشام، والصفاء من لبنان، ولقد أثرت هاته المطالعات رصيده المعرفي، كما وسعت من آفاقه الفكرية، وفي هذا المعنى يقول الندوي: " تعرفنا بهذه المطالعة وهذا الجو الأدبي على أصحاب الأقسام والأدباء من أصحاب الأساليب البيانية والمفكرين الفضلاء من أصحاب المدارس الفكرية المستقلة وأفغانهم"⁴.

1- الندوي، أسبوعان في المغرب الأقصى، ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983م، ص151.

2- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص114-115.

3- عبد الماجد الغوري، أبو الحسن الندوي الإمام المفكر والداعية الأديب، ط2. دمشق: دار ابن كثير، 1999م، ص48-49.

4- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص117.

كما طالع في هاته الفترة ما جادت به المطابع العربية خاصة، فقرأ مؤلفات الأمير شكيب أرسلان، والمصلح الثائر عبد الرحمن الكواكبي، والأستاذ أحمد أمين فشكلت مؤلفاتهم عقله، وكانت سببا لولوج الندوي عالم أفكار العالم الإسلامي قاطبة، والاهتمام بقضاياها وحركاته¹. ولم يكتف الندوي بقراءة كتب كبار المفكرين العرب، والمؤلفين الإسلاميين، وإنما امتدت يده لمطالعة كتب بعض المفكرين المهتمين من أمثال: "محمد أسد" حيث قرأ كتابه "الإسلام في مفترق الطرق" (Islam At the cross roads)². والمهتدية "مرم جميلة" وجرت بينهما مراسلات، كما قرأ إنتاج بعض كبار مفكري الغرب مثل "دريبر" صاحب كتاب "الصراع بين الدين والعلم" و"إدوارد جيون" صاحب الكتاب الذائع الصيت "سقوط الإمبراطورية الرومانية وانحطاطها"، كما لم يفته الاطلاع على ما ديجته يراع عتاة المستشرقين "كجيب"، و"توماس أرنولد" و"آربري"، وغيرهم³. ولقد كانت هاته القراءات مفيدة له، حيث أدرك من خلالها روح الحضارة الغربية، ونفذ إلى خصائصها الجوهرية، وتصورها للحياة والإنسان.

2-6-4- جهاد الدعوة:

ومن مزايا منهج التأسسي والافتدائي أن أصحابه تسري الدعوة إلى الله وإلى الدار الآخرة في حياتهم كما يسري الماء في عروق الشجر، والكهرباء في الأسلاك، ويظهر أثر ذلك على أخلاقهم وعبادتهم، فترق قلوبهم، وتخشع نفوسهم، وتزداد رغبتهم في العبادة؛ ذلك لأن الوحي لا يصل إلى الناس إلا بعد أن تشتعل بجمراته أفتدة الدعوة إليه، وتلتهب هي ذاتها بحقائقه، وتتوهج بخطابه، فلا نور واشتعال إلا باحتراق، والداعية الناجح هو الذي يهدي إلى الحق بعمله، وإن لم ينطق بكلمة، يقول الندوي حين سئل عن أفضل الوسائل التي يجب التزامها لنشر الدين:

"والله! لم يزل - ولا يزال - إلى أن يرث الأرض ومن عليها الشيء الأول والأكثر تأثيرا هو الأ نموذج العملي"⁴.

والمأمل في سيرة النبي ﷺ يعلم كيف كانت معاناته في تمثل القرآن الكريم أوليس هو القائل (شيبتي هود وأخواتها)⁵؟.

1- الندوي، في مسيرة الحياة، ج1، ص156، 171.

2- المصدر نفسه، ج1، ص157.

3- المصدر نفسه. وينظر أيضا: ج1، ص290 منه.

4- نقلا عن: سيد عبد الماجد الغوري: الإمام المفكر الداعية المرابي الأديب، ط3. دمشق: دار ابن كثير 2005م، ص425.

5- رواه الترمذي ورقم الحديث ورقم3297. وقال الترمذي: إنه حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه.

2-6-5- المحاضرات والرحلات:

ويظهر هذا جليا في خطبه ومحاضراته التي اتصل بها مع مختلف طبقات الشعب في جولاته وأسفاره المتعددة، داخل الهند وخارجها، فهو لم يتوقف يوما عن الدعوة إلى الله والتذكير بالآخرة¹.

2-6-6- مناصحة الحكام والأمراء والملوك:

لقد عمل الشيخ جاهدا لإنتاج سياسة تسوس السياسة ولا تشتغل بالسياسة، ومعناه أن تكون حاضرة في كل شيء، وموجهة له، هدفه في ذلك إيصال رسالة الإسلام إلى كراسي الحكام، لا الوصول إلى كراسي الحكام، متأثراً بمنهج عبد الأحد السرهندي في هذا الشأن، وفرق كبير بين المعنيين ففي الطرف الأول مصدر إنتاج حاكم يكون له الأثر البالغ في التوجيه والتأثير، بينما هو في الطرف الثاني مجرد منتج محكوم، خاضع لتقلبات السياسة وأهوائها، أدت في كثير من الأحيان إلى محاصرة الدعوة ورجالها كما هو ملاحظ اليوم!.

لذلك لم يألو الشيخ جهدا في مراسلة الحكام والاتصال بهم، وإسداء النصح لهم بغرض تذكيرهم بالأمانة التي حملوها².

2-6-7- التأليف والتصنيف:

إن الكتابة والتأليف عمل في الإنسان أيضا، وصناعة لعقله ووجدانه، بناء وهدما، وهنا مكن الأهمية والخطر على المستوى الدعوي، لذلك خاض أبو الحسن غماره غير خائف ولا وجل، فظهرت مؤلفاته تترأ في الدعوة، والفكر والسيرة والأدب حتى أربت على المائة والسبعين.

كما دخل الندوي المعتزك الإعلامي لرفع كلمة الله، على الرغم من سيطرة أصحاب التوجهات العلمانية عليه، فأصدر الشيخ جريدة باللغة الأوردية اسمها " ندائي ملّت " ³ التي نالت قبولا ورواجا في الهند وباكستان وغيرها، وكانت لا تخلو بعض الجرائد من افتتاحياته كما نلاحظ ذلك في صحيفة " الرائد " الهندية الصادرة بالعربية، وكذلك مجلة " البعث الإسلامي " الصادرتين عن ندوة العلماء ولقد أحرزت هاته الوسيلة على بساطتها، ما لم تحرزها الفضائيات المتغلبة بعديتها وعتادها، وما ذاك إلا ببركة إخلاص الرجل في دعوته، ومن تولى الله عمله جعل قليله كثيرا.

1- سيد عبد الماجد الغوري: الإمام المفكر الداعية المربي الأديب، (مرجع سابق)، ص426.

2- ينظر في هذا الشأن: الندوي، خطابات صريحة إلى الأمراء والرؤساء، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2002م.

3- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص287.

2-7- النفي المجمل والإثبات المفصل:

اهتم الندوي بمسألة الصفات الإلهية وتحدث عنها في مواضع عدة من كتبه، وأكد رحمه الله على أن العلم بها من أجل العلوم التي استفادها البشر من الأنبياء، فهم وحدهم الأدلاء على الله ذاتا وصفاتا، وتتميز معرفتهم بأنها المعرفة الوحيدة الصحيحة التي لا يشوبها جهل ولا ضلال، ولا سوء فهم ولا سوء تعبير¹.

ويبين رحمه الله أن معرفتها والإيمان بها يُنشئ صلة حية قوية، وعلاقة متينة بالله، فعلى قدر ما يعلم العبد من أسماء ربه وصفاته وأفعاله، وعلى قدر ما يتشرب القلب من تلك المعرفة على قدر ما تنمو صلته بالله وتزدهر.

يكتب الندوي تحت عنوان: "الصلوات تابعة للصفات نابعة منها فيقول: "و الصلة دائما تابعة للصفة، نابعة منها، إنك لا تستطيع أن تحدد صلة بين طرفين، وعلاقة بين اثنين، إلا إذا عرفت صفة كل واحد منهما، وعرفت التفاوت أو التفاضل بينهما، وعرفت مقدار احتياج أحدهما إلى الآخر، وفضل أحدهما على الآخر، وجميع الصلوات التي نمارسها في الحياة، والتي تشكل القانون، وتكوّن المدنية، وتصوغ المجتمع خاضعة للصفات التي نعرفها أو نتوهمها للأفراد والكائنات، أو أعضاء الأسرة أو ذوي السلطان، لذلك لهجت الصحف السماوية، والأديان والشرائع بالصفات قبل أن تحدد الصلوات، وتدعو إلى العبادات، وتسن الفرائض وتحث على الطاعات ولذلك سبقت العقيدة في جميع الأديان العمل والعبادة وأحكامهما وشرائعهما."²

و القرآن الكريم باعتباره الكتاب الخاتم الخالد خير شاهد على هذه المسألة فالمطالعة الأولية له تكشف عن أن هذا الموضوع "هو الموضوع المكرر المتنوع الذي احتلّ المكان الرئيسي في هذا الكتاب المعجز، وسمي ما تجلّى فيه هذا الموضوع بأكثر قوة ووضوح على وجازته وقصره (وهي صورة الإخلاص): ثلث القرآن، وذكر من صفات الله الكريمة وأسمائه الحسنى، وأفعاله وتصرفاته العجيبة، وقوته وقدرته، وصنعه وإبداعه، ولطفه ورحمته، وحبه ورأفته، وجوده وكرمه، وعفوه وصفحته، وإعطائه ومنعه، وضرره ونفعه، وعلمه ومعرفته، وقربه ودنوّه، وإحاطته ومعينته، وقبوله واستجابته، ما يجعله المثل الأعلى في الجمال والجلال، والكمال والنوال... ويجعله متفردا في صفات الحُسن والإحسان"³.

1- ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص20.

2- الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق)، ص 15-16.

3- المصدر نفسه ص 16.

ويلفت الندوي النظر إلى سمة هامة من سمات منهجية القرآن في أسماء الله وصفاته وأفعاله سبحانه وتعالى تمثل فارقا مبدئيا بينه وبين طرائق الفلاسفة، وهي سمة النفي المجمل والإثبات المفصل، وتعني باختصار أن القرآن لا ينزع في تعريفه بالله إلى كثرة السلوب كما يفعل الفلاسفة حتى يتحول الإله إلى فكرة ذهنية لا تملأ قلبا ولا تحرك في الإنسان ساكنا ولا تبعث فيه رغبة أو تنشئ فيه دافعا، بل يكتفي في تنزيهه الله وتقديسه بنحو قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهَا لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى، الآية 11) وقوله: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (المؤمنون، الآية: 91). وقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ (٣) ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ، (الإحلاص، الآيتان 3-4)،... الخ، أما في الإثبات، فالقرآن الكريم يلهج بذكر أسماء الله وصفاته في بسط وتفصيل وأسلوب شيق جميل¹ حتى أن المطالع للقرآن الكريم لا يكاد يطوي صفحة إلا وفيها إثبات كمال الله تعالى وكمثال على ذلك أواخر سورة الحشر: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣٢) ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣٣) ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر، الآيات 22-24)

ويقابل الندوي بين هذه المعلمة من معالم المنهجية القرآنية وبين تراث فلاسفة اليونان في الإلهيات ويبين أثرها بقوله: " فإن المبالغة والاهتمام اللذين بذلتهما فلاسفة اليونان في نفي الصفات إنما جعل ذلك وجود الإله فكرة ذهنية، وشخصية عقيمة مجهولة عاجزة، أما عن كيفية الإله وحقيقته، فلا يعدو مفهوم ذلك عندهم عددا من الكلمات ومصطلحات فلسفية، مما أدى إلى أن الأوساط الخاضعة لفلسفة اليونان سواء في داخل يونان أو خارجها ظلت محرومة من أي صلة حية وعلاقة عملية بالله تعالى، وذلك لأن هذه العلاقة الحقيقية والعملية، التي تنبع من القلب والعاطفة إنما تحتاج إلى أسماء الله تعالى وصفاته، بينما الفلسفة ملحة على نفيها." 2

و يزيد الندوي في شرح أثر هذا الإثبات المفصل وبيان سر إطالة القرآن في ذكر صفات الله وآلائه بقوله: "فإن الصفات، هي التي تثير الحب وتبعث الحنان، وتوجد الأشواق، وذلك سر تفصيل القرآن

1- ينظر: الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك، (مصدر سابق)، ص 39.

2- الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 2، ص 215.

الذي يعبر عنه بعض علماء الكلام وأئمة الإسلام، (بالنفي المجمل والإثبات المفصل)، فإن الإثبات هو الذي ينبع منه الحب، ويفيض منه الحنان، وتنبعث به الأشواق، وتتغذى به العاطفة، فإذا كان النفي رائد العقل كان الإثبات رائد القلب، ولولا هذه الصفات العليا وأسماء الله الحسنى، التي نطق بها القرآن، ووردت بها السنة، وهام بها الهائمون، وتغنى بها العارفون، وسبح بها المسبحون، وسبح في بحارها، ونزل في أعماقها الغواصون، لكان هذا الدين خشيبا جامدا، لا يملك على أتباعه قلبا، ولا يثير فيهم عاطفة، ولا يبعث فيهم حماسة، ولا يحدث في القلب رقة، ولا في الصلاة خشوعا، ولا في العين دموعا، ولا في الدعاء ابتهاالا، ولا في الجهاد تفانيا، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة ميتة لا حياة فيها ولا روح، ولا مرونة ولا سعة، وكانت الحياة كلها حياة رتيبة خشبية، لا عاطفة فيها ولا أشواق، ولا حنان فيها ولا هيام، وإذن: أي فرق بين الحياة والموت وبين الإنسان والجماد "1

و لا يكتفي الندوي بهذا البيان النظري بل يزيده توضيحا وبيانا فيذكر كيف صنعت هذه العقيدة انقلابا عجيبا في العرب الأولين، والمسلمين السابقين الذين تبذلت معرفتهم العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة واضحة عميقة حية ذات سلطان على القلب والجوارح وذات تأثير في الأخلاق والمعاملات فيقول: "... آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، آمنوا برب العالمين، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، العزيز الحكيم... له الخلق والأمر، بيده ملكوت كل شيء ويجير ولا يجار عليه إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه، فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا، فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهرا لبطن، تغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره... وجعل منه رجلا غير الرجل وظهر منه روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة..."².

كما نبه الندوي على خطورة اختزال علاقة المسلم بربه في حدود الطاعة والانقياد والخضوع للأحكام العملية بمعزل عن المحبة والإجلال والتعظيم والتفاني في طلب مرضاته، وبذل المهج للحصول على رضاه، وهي إشارة إلى اختزال الصفات الإلهية وردها إلى معنى الحاكمية يقول رحمه الله في هذا المعنى: "و الذين حصروا صفات الله وحقوقه، في حق الحاكمية والسلطة العليا وحده، ورأوه أصل الحقوق الإلهية، وأول المطالب الربانية؛ أخاف أن يكون قد صدق عليهم قول الرب تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الأنعام، الآية 91)... إن القرآن الكريم قد استخدم التفصيل والتوسع في

1- الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق)، ص 212.

2- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 90.

ذكر الصفات وإثباتها، بالعكس من الفلسفات القديمة التي استخدمت التفصيل والتدقيق في نفي الصفات وإذا كان لا بد من ذكرها لجأت إلى الإجمال والإيجاز¹ ثم بين عمق هذه الصلة ووسعها والأساس المتين التي قامت عليه وهو التصور المختلف للألوهية ذات الصفات والأسماء الكثيرة بقوله: "و لكن صلة العبد وره أشمل وأوسع، وأعمق وأدق بكثير من صلة الحاكم والمحكوم، والأمر والمأمور، والسلطان والرعية، وقد لهج القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته في بسط وتفصيل، وأسلوب شيق جميل لا يدلان أبداً على أن المطلوب من العبد هو الإيمان بمجرد حاكميته المطلقة، والإذعان لسلطته العليا، وأن لا يشرك آخرين معه في سلطته، إن هذه الأسماء والصفات والأفعال الإلهية - التي زخر القرآن بذكرها... تتطلب في صراحة أن يحب العبد إلهه وره بقلبه وقالبه، وأن يتفانى في طلب رضاه، وأن يتغنى بمجده ويسبح بحمده، وأن يلهج بذكره قياماً وعوداً، وأن يكون ذلك هو شغله الشاغل وهمه الكبير، وأن يظل خائفاً منه، فزعا من بطشه وقهره، ورجلاً من غضبه وسطوته، ملتجئاً إليه بالبحاح وإقبال، متطلعا إلى جماله الذي هو مصدر الحسن والإحسان، ومنتهى الفضل والكمال، تملكه عاطفة البذل في سبيله بكل ما عنده، من نفس ونفيس، وغال ورخيص"².

2-8- خذ ما صفا ودع ما كدر³:

لقد فتح الندوي بهذه القاعدة الذهبية الباب على مصراعيه أمام علماء المسلمين ومفكريهم، لاختيار النافع المفيد من العلوم العصرية، وتجنب الضار السقيم الذي لا يتفق مع قيمنا وتصوراتنا للكون والحياة والإنسان، وفي هذا المعنى يقول: " فيجب أن لا نتناول العلوم والآداب والمناهج التعليمية، ونظرات التربية التي ظهرت في الشرق والغرب على أنها آخر ما وصل إليه العلم البشري... بل نأخذها على أنها مواد خام، ونصنع منها ما نشاء وفق حالتنا وحاجتنا ونفرغها في قالبنا، ونجردها مما اقترن بها - في غير لزوم ولا مبرر- من عوامل الإلحاد والإفساد، والاستخفاف بالقيم الخلقية، ونأخذها نقيّة صافية مهذّبة منقّحة، بل نطعمها بالإيمان بالله والنظر العميق"⁴.

ويدعو الندوي أبناء العالم الإسلامي إلى التعمق في العلوم الغربية، والإجادة فيها على نحو صنيع الغزالي وابن تيمية الذين فاقوا أقرانهم، بل تجاوزوا أصحاب تلك التخصصات، ثم نقدوها وكشفوا

1- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق) ص 79-80.

2- الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك، (مصدر سابق) ص 39-40.

3- ينظر هذه القاعدة عند الندوي: نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية، (مصدر سابق)، ص 27.

4- الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية، (مصدر سابق)، ص 70.

للناس عوارها، فإذا لم يصل النقد والتمحيص " إلى درجة اطلاع الإمام الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية على العلوم العقلية التي شاعت في عصرهم، فلا بد أن يكون في درجة اطلاع القساوسة والمبشرين والمتخرجين في كلية القسس في (الفاتيكان) ذلك أن الذي يجهل هذه العلوم، أو لا يرتقي فيها على درجة العوام والسوقة لا يقوم بمهمته، ولا يتمتع بالثقة والاحترام في المجتمع"¹.

وينتقد الندوي الانبهار بالآخر، ويدعو إلى ضرورة التحرر من مركب النقص الذي نشأ عند البعض، من جراء الاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية المتفوقة عسكريا وصناعيا وعلميا واقتصاديا، ولا يتحقق ذلك إلا بجعل الغرب موضوعا للدراسة بعد أن كان دارسا، ولذا كان الرجل من أول الداعين لإنشاء علم الاستغراب عندنا وهذا ما بيّنه بقوله: " لا بد أن نقصي استيلاء الغرب العقلي، والكفر بإمامته وسيادته، ونجعل علومه ونظرياته موضوع الفحص، والدراسة الجريئة، ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الإنسانية والمدنية، وتدرس علومه بشجاعة وحرية، وتعتبر كمواد خام Raw Material) نضع منه ما يوافق حاجتنا ورغباتنا، وعقيدتنا وثقافتنا"².

والمتمم في كتب الرجل يجد أن الندوي قد استند إلى معايير واضحة في اختيار المعرفة التي تتناغم مع خصائص الأمة، ومقوماتها الذاتية، وتلبي نظرية البناء المعرفي، وهذا ما وضحه بقوله: " نحن أولى بأن نفصل لباس التربية والتعليم، والمناهج الدراسية، والمواد العلمية على قامتنا، وأن نخضع أكثر من أي أمة وشعب لمبادئنا وأهدافنا التي نعيش لها"³. وهكذا فالأمة الإسلامية التي ينشدها أبو الحسن الندوي ليست بالأمة الخانعة الذليلة التي تنتظر ما يجود به الآخرون عليها، ولا بالأمة المزورة التي ترفض هدايا ومنح الآخرين لها، ولكنها الأمة التي تأخذ ما صفا وتدع ما كدر، أمة تتمسك بالأصول والغايات، وتتوسع في الوسائل والآلات⁴.

3- خصائص منهج التأسسي والاقتداء عند الندوي:

بات واضحا أن الندوي يعتبر النبوة نعمة عظيمة، تحتل الصدارة من بين وسائل المعرفة، خاصة ما تعلق بالمعارف الغيبية والشرعية، فلا تُتلقى الأحكام الاعتقادية الصحيحة، ولا الأحكام العملية الشرعية الحكيمة، ولا القيم الضابطة للسلوك الفردي والاجتماعي إلا منها، وما دور العقل في هذا المجال إلا تفهّم نصوص الوحي وخدمة حقائقه.

1- الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية، (مصدر سابق)، ص 96.

2- المصدر نفسه، ص 44.

3- المصدر نفسه، ص 69.

4- الندوي، ملة إبراهيم وحضارة الإسلام، ط 2. لكتاؤ: المجمع الإسلامي العلمي، 1992م، ص 17.

ولقد تركز جهده الإصلاحى والدعوى على بيان هذه النعمة وإعلاء شأنها والضغط على أهميتها، والعمل على إعادة الثقة بها، خاصة والمرحلة قد عرفت ردة فكرية واسعة اكتسحت العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه، وقد تضافرت عوامل عدة على توسيعها وتعميقها، منها جهود الفكر الاستشراقى فى توجيه الحياة الفكرية والثقافية، ومنها كذلك دور المدارس والجامعات ذات الصبغة الغربية التى حملت ثقافة الغرب وفلسفته ونظرته للدين والحياة، وكذلك من خلال الآداب الأوربية التى تسلل عبرها التهوين من شأن الدين، وزرع بذور الشك والقلق، وغرس مركب النقص فى نفوس شباب الأمة المسلمة، كما أسهمت طلائع "المتنورين" والنخبة التى درست فى المدارس الغربية وتمكنت من الوصول إلى مراكز القرار والقيادة فى توجيه العالم الإسلامى نحو هذه الوجهة، كل ذلك دعا إلى تبصير الأجيال بخطورة هذا التوجه وتذكيرها بعظم نعمة الله عليها، وما جهود أبى الحسن الندوى إلا حلقة فى هذا التبصير وخطوة فى هذا العمل التجديدى، وفيما يلي محاولة لبيان أهم خصائص منهجه.

3-1- الواقعية:

ونعنى بها أن جهود الشيخ الفكرية ومساهمته التجديدية إنما كانت استجابة لتحديات واقعية أفرزتها متابعاته الدقيقة للساحة الفكرية والدينية، وجعلته يدرك العلل المختلفة والأدواء المتكثرة التى أصيبت بها الأمة، وهو ما مكَّنه من توصيف العلاج المناسب. لقد كان الشيخ الندوى نموذجاً للعالم الرحالة، فجولاته المتعددة وأسفاره الكثيرة جُلَّ أقطار العالمين العربى والإسلامى، واتصاله المباشر بقيادة الفكر والرأى ورجال الإصلاح، وزعماء الحركات الإسلامية وحتى القادة السياسيين أتاح له الاطلاع الواسع على اختلالات الحياة الإسلامية.

كما أن متابعاته للإنتاج العلمى والفكرى المطبوع سواء فى شبه القارة الهندية، أو فى كبريات الحواضر الإسلامية - ومنذ سن مبكرة - أهَّله للاطلاع والتعرف على الواقع الدينى والفكرى، وهو ما ساعده على التفاعل الإيجابى والمشاركة فى التحليل الدقيق والموضوعى لمشاكل العالم الإسلامى والبحث عن وسائل معالجتها.

إن استعراض بعض كتبه والقضايا الكبرى التى كانت محط عنايته وتركيزه كفىل بتأكيد هذه السمة فى منهجه، فتأكيده على التوحيد وأبعاده إنما كان استجابة للخلل الحاصل فى تصورات كثير من المسلمين لآفاق هذه العقيدة وامتداداتها العميقة فى النفس الإنسانية وفعاليتها

الاجتماعية والحضارية. وتأكيد على أهمية النبوة والعمل على إعادة ثقة الجيل المثقف بها، والتي تضمنها العديد من كتبه، جاء ردا على تيارات الحضارة الغربية المادية المنكرة للدين، أو غير المكتثرة به على الأقل، والتي غزت العالم الإسلامي بفكرها المادي المؤلّه للإنسان وفكره المحدود. وتأكيد على عقيدة ختم النبوة والتي تضمنها أساسا كتاباه "النبوة والأنبياء"، و"القادياني والقاديانية" كان استجابة لحاجة ملحة، وهي نشاط البهائيين والقاديانيين الدعوي المحموم في إيران والهند وباكستان وبعض البلاد العربية والإسلامية وحتى الغربية.

ودفاعه عن نتائج جهود النبي - ﷺ - التربوية في "صورتان متضادتان"، إنما كان استجابة لتجدد النيل منها بفعل نجاح ثورة الخميني في إيران.

كما أن تأكيده على حقيقة الإنسان ومكانته ووظيفته إنما كان استجابة للوضع المهين الذي وصل إليه الإنسان في العصر الحديث بفعل الفلسفات المادية المعاصرة، وبفعل الاستعمار الغربي الذي عرفه العالم الإسلامي والأنظمة السياسية المستبدة التي خلفته، كما أن البيئة الهندية التي ولد وعاش فيها الندوي والنظام الطبقي الحاد الذي تعرفه بفعل الديانة الهندوسية يمكن أن يكون عاملا إضافيا.

أما إلحاحه على صيانة المفاهيم الدينية والاصطلاحات الشرعية من كل تحوير وتبديل، إنما كان ردة فعل لإكراهات واقعية تمثلت في كتابات بعض رموز الحركة الإسلامية المتأثرة ببعض المفاهيم والنظم الغربية ويمكن اعتبار كتابيه "التفسير السياسي للإسلام"، و"الأركان الأربعة" نموذجاً صريحا في الرد على هذا التوجه.

وما تأكيده على إحياء الريانية، وتحديد العمل الديني، والدفاع عن الممارسة الصوفية الحقة النقية، إلا استجابة لجفاف الحياة الإسلامية والتهالك على التكاثر المادي من جهة، ونزوع كثير من قادة الفكر إلى إشباع العقل على حساب القلب، كما أن الهجمة العنيفة التي قادتها بعض فصائل الصحوة الإسلامية على التصوف ورموزه، وحرمان الأمة من عطاءاته، يُعدّ نازلة استوجبت تصحيح المفاهيم ورد الأمور إلى نصابها، ويعتبر كتابه "ريانية لا رهبانية" و"إذا هبت ريح الإيمان" نموذجين لهذا الاتجاه.

أما تأكيده على أهمية الأدب الإسلامي ودعوته إلى الإنتاج فيه، ومشاركته الشخصية فيه إبداعا وتنظيرا، إنما هو استجابة لتحديات واقعية أفرزها الأدب الغربي وروحه المادية الخبيثة التي

تسللت عبر القصص والروايات، وكتابه "نظرات في الأدب" و"سيرة النبيين" و"قصص الأنبياء للأطفال"، و"القراءة الراشدة" نموذج لهذا التوجه.

كذلك فإن اهتمامه بنظم التعليم في أقطار العالمين العربي والإسلامي وتحذيره من استيراد المنظومة التربوية الغربية وخطورتها، لما تحمله من روح واضعيتها وفلسفتهم ونظرتهم للكون والإنسان والحياة، إنما هو ردة فعل قوية لما ظهرت طلائعه من حصاد هذه النظم من ردة فكرية واعتقادية في العالم الإسلامي تنذر بعواقب وخيمة لا سمح الله.

لهذه الاعتبارات حكمتنا على مساهمة الشيخ أبي الحسن بالواقعية، والانطلاق من هموم أمته والتفاعل الإيجابي معها، ولم يكن الشيخ منعزلاً في برج عاجي منقطع عن الحياة وتفاعلاتها يجتر مشكلات الماضين شأن بعض علماء الدين.

3-2- التكامل:

رغم أن الندوي يعلي من شأن الوحي والنبوة، ويعتبر علوم الأنبياء هي العلوم الصحيحة وأنهم الهداة وقادة سفينة الإنسانية، إلا أنه لا يتنكر للعقل ويعاديه شأن الحرفيين من علماء الإسلام، بل يعترف بدوره المهم في دوائر اختصاصه، والتي منها النظر في مخلوقات الله والتدبر في آيات قدرته وحكمته الماثورة في هذا العالم الكوني الفسيح، والوقوف على سنن الله فيه، والإفادة منها في تسخير نعم الله لعباده، ومنها التأمل في سنن الله في النفس الإنسانية والاجتماع الإنساني والوقوف على نتائج الأعمال¹، فإن لهذه المجالات سننا تحكمها لا تقل أهمية معرفتها والإفادة منها عن معرفة قوانين عالم الطبيعة، وكذلك دوره في تفهّم نصوص الوحي والكشف عن مقاصده وأساره، كما يعترف بدوره في الدفاع عن حقائق الدين بالحجج والدلائل المختلفة. ومن جهة أخرى لا ينكر الندوي المسلك الإشراقي ونتائجه ما دامت موافقة لحقائق الكتاب والسنة مؤيدة بشهود عدول منهما، والذي ينكره من هذا المسلك اعتبره مصدراً لتلقي الحقائق الغيبية اليقينية، والأحكام الشرعية، وبعبارة جامعة ينفي عنه ما يدنيه من رحاب النبوة؛ أما كونه وسيلة للعلوم الوجدانية والحكم والمعارف وبعض الأخبار التي تلهمها النفوس الزكية أو أصحاب الرياضات والمجاهدات فقد استفاض واشتهر، وإنكاره من المكابرة² ويستدل له الندوي

1- ينظر: الندوي، دور الإسلام الإصلاحية، (مصدر سابق)، ص50.

2- ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص112-113.

بالحديث الصحيح: (لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء) ¹.

والعرفة الحسية أيضا لها اعتبارها ولها مجالها ويؤكد الندوي على أن القرآن ذكر بهذه النعم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة النحل، الآية: 78).

لقد نعى الندوي على ممثلي المدنيات، الحسيّة والعقلية والإشراقية تركيزهم على حاسة وإنكار ما عداها؛ لأن ذلك يؤدي حتما إلى إنكار مُدركاتها وبالتالي يتخلف الحصول على جزء من الحقيقة، وتكون المعرفة منقوصة؛ أما النظرة التوحيدية فهي نظرة متكاملة يجتمع فيها المحسوس والمعقول والحقائق الميتافيزيقية باعتبار الكل آيات الحقيقة المطلقة.

يقول الندوي "وقد نوّع القرآن وسائل العلم ومصادر الدراسة والتأمل، ودعا إلى التفكير في الأنفس والآفاق، وفي ماضي الأمم والمجتمعات والتوصل بكل ذلك إلى نتائج ذات قيمة عميقة الأثر بعيدة المدى في المصير الإنساني" ².

إن هذه الرؤية التكاملية تنزع فتيل الصراع المفتعل بين الدين والعلم، والعقل والنقل بل يسلك الجميع في وحدة متألّفة تدرك بها الحقيقة في مستوياتها المختلفة.

ومن وجوه التكامل أيضا الجمع بين العلم والعمل، ويعتبر الندوي هذا البعد أثرا من آثار النبوة يقول "ثم إن النبوات - وعلى رأسها وفي خاتمتها النبوة المحمدية - تربط العلم دائما بالعمل، والقول بالتطبيق، والإيمان والافتقار بالحقائق، وبالسلوك الفردي والجماعي، " يقول القرآن: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف، الآيات 2-3) ويقول ذاما الشعراء والحكماء ناعيا عليهم: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء، الآية: 226)، ويقول في وصف العلماء الراسخين: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ وقد ضرب الله مثلا للذين يعلمون والذين لا يعلمون، بالحمار الذي يحمل وقرا من الكتب والأسفار على ظهره ولا ينتفع به، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

1- رواه البخاري عن أبي هريرة في مناقب عمر رضي الله عنه. برقم 3282.

2- الندوي: دور الإسلام الإصلاحي، (مصدر سابق) ص 50.

يَسْأَلُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ (الجمعة الآية: 5).
وتلك غاية في الدم والاحتقار، والتنكيت والتفريع¹.

ويعتبر الندوي أن من سقطات الإنسانية وعثرتها هذا الانقسام بين العلم والعمل والفكر والسلوك والتناقض الصارخ بين سمو العقلي والتدني الخلقى، ويسوق الشيخ مجموعة من شهادات التاريخ تؤكد هذا الاختلال في اليونان والهند وإيران²، ثم يعقب على تلك الشهادات بقوله: "والسر في تخبط هذه الشعوب والبلاد العملاقة العبقريّة في الفنون والآداب والفلسفة والرياضيات، والسر في وجود التفاوت الفاحش، والفجوة العميقة السحيقة بين العلم والعمل والنظر والسلوك وبين الذكاء والخلق والاستقامة، وفي انتشار الفوضى المنهجية والعقائدية والتوزع بين المذاهب والآراء، وفي وجود وحدات علمية متناقضة حيناً، متناثرة أحياناً مجردة من وحدة تربطها وتخضعها لقوة قاهرة أو إرادة قاسرة أو غاية مشتركة فاضلة، هو انقطاع آخر خيط يربط هذه الشعوب والبلاد بالنبوات"³.

ويذكر الندوي أن الرعيل الأول من سلف الأمة كان منصباً بهذه الصبغة، لا ينفصل لديهم الاعتقاد والتصور عن العمل، ولا السلوك عن القيم والخلق، لكن طراً بفعل التخصص العلمي - وبشكل تدريجي - نوع من التفكك، وتوزعت العلوم الشرعية بين شعب ثلاث: شعبة تعنى بالأحكام العملية من عبادات ومعاملات، والمتخصصون فيها هم الفقهاء، وشعبة أخرى تعنى بالاعتقادات، وسمي المتخصصون فيها بالمتكلمين، وطائفة ثالثة تهتم بالنواحي القلبية والخلقية سمي المتخصصون فيها بالزهاد والصوفية.

ذلك ما أدى إلى تركيز جانب على جانب آخر عند فئات من الناس وتحولت الوحدة المعرفية والنظرة الشاملة التي جاء بها الإسلام وحدات منفصلة تؤدي حتماً إلى تضخم مجال على حساب آخر في المجتمع بمجموعه، وكذلك في الكيان الإنساني الفردي، ذلك ما دفع الغياري من علماء الإسلام إلى لفت النظر لخطورة هذا التوجه، وتدارك الوضع بتأليف عدد من الكتب الجامعة لترميم ما تصدع وإعادة اللحمة بين عناصر منظومتنا المعرفية.

1- الندوي، المصدر السابق، ص 41.

2- المصدر نفسه، ص 30-36.

3- المصدر نفسه، ص 37-38.

ويعتبر الندوي أحد هؤلاء الأعلام الذين عنوا بهذا الجانب في العصر الحديث، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الآتي:

إشادته بالعرض التكاملي للإسلام والذي تضمنته مجموعة من الكتب القديمة والحديثة. أولها: كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي (ت505هـ) الذي يقول عنه الندوي: "وكان أكثر من تفتن لهذه الحاجة واستجاب لها استجابة علمية، وتجلّى هذا الاتجاه عنده في أروع مظاهره، الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، فألّف كتابه الخالد الطائر الصيت (إحياء علوم الدين)... فجعله يحتوي على العقائد والفقهاء وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق.."¹

ثانيها: "سفر السعادة" للمحدث اللغوي الفيروزآبادي (ت817هـ) الذي يقول عنه الندوي، "وقد عني في الكتاب بعرض السيرة النبوية باختصار ثم بسننه وتعليماته في العبادات والمعاملات، وفي مختلف أحوال الحياة وبالأخلاق النبوية والشمائل المرضية، فالكتاب يدور حول السيرة والطريقة النبوية في الحياة الفردية والاجتماعية.."²

ثالثها: كتاب "زاد المعاد في هدي خير العباد" للحافظ ابن قيم الجوزية (ت751هـ) الذي يقول عنه الندوي: "إلا أن أكبر مجهود في هذا الاتجاه وأعظمه قبولاً وانتشاراً هو كتاب "زاد المعاد في هدي خير العباد" للحافظ ابن قيم الجوزية، فإنه يحتوي على مواضيع مختلفة من السيرة والسنة والفقهاء وعلم الكلام والتزكية والإحسان، وأعتقد أنه ليس هناك كتاب جامع أُلّف للعمل والإصلاح بعد كتاب "إحياء علوم الدين" بل وقد يفوقه من ناحية التحقيق والاستناد والتطبيق بين الكتاب والسنة ويبدو أنه أراد أن يؤلف كتاباً ينوب عن المكتبة الدينية إلى حد كبير ويقوم مقام مرب ومرشد وفقهه ومحدث"³.

ورابعها: "الصراط المستقيم" الذي أُلّف بتوجيه من السيد أحمد بن عرفان الشهيد (ت1236هـ) وقد أُلّفه رفيقه محمد بن إسماعيل الشهيد (ت1236هـ) يقول الندوي عن الكتاب بعد عرضه لمحتوياته: "أنه مزج التعليمات في الأذكار والعبادات وإصلاح العقيدة والسلوك إلى الله، بالدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله والعمل بالعزيمة والاهتمام بأمر الأمة، والتهيؤ لإعلاء كلمة الله والانتصار لدين الله".⁴

1- الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك، (مصدر سابق)، ص7.

2- المصدر نفسه، ص11.

3- المصدر نفسه.

4- الندوي، المصدر نفسه، ص17.

كما تتجلى هذه النزعة في تسمينه جهد الإمام الدهلوي في " حجة الله البالغة" الذي عرض فيه نظام الإسلام الكامل الشامل، واستوعبت مباحثه العقائد والعبادات والمعاملات والإحسان والتركية، وكسب المعاش وتديبر المنزل، والأطعمة والأشربة، واللباس والزينة، وآداب الصحة والاجتماع والقضاء والجهاد، ونظام الخلافة، وأخيرا الفتن والملاحم وأشراط الساعة¹.

وبعد أن استعرض الندوي ما يدل على النظرة التكاملية للكتاب وإحاطته، وما يثبت تميزه قال: "وبالجملة فإن الكتاب بشموله وعمقه وتمثيله الواسع المتسق المترابط للدين والشريعة ولمئات من النكات واللطائف والتحقيقات النادرة، يحتل مكانة ممتازة فريدة في المكتبة الإسلامية الزاخرة، ويصدق ما قيل: كم ترك الأول للآخر"².

ومن كتب المحدثين التي ظهرت فيها هذه الخصيصة، وتحقق فيها هذا المقصد؛ كتاب " الإسلام وحاجة الإنسانية إليه " للدكتور محمد يوسف موسى وقد أشاد الندوي بفرادته وأثنى على مؤلفه- رغم اختلافه معه في بعض أفكاره- وفي تقديمه للكتاب بين الندوي الحاجة المتجددة لتفهم الناس الإسلام فهما تكامليا، وعرضه عرضا جميلا واضحا لا تعقد فيه ولا تطويل، يلخص الثقافة الإسلامية في أسلوب عصري في دقة وأمانة، يقول الندوي عن الكتاب المذكور: " وهو أفضل كتاب وقع عليه نظري في هذا الموضوع، هو كتاب يجمع بين علم الكلام والتاريخ والعقيدة والشريعة، والعرض والدعوة والعقل والعاطفة"³.

ولم يكتف الندوي بتسمين هذه الجهود التأليفية المباركة، وإنما ساهم فعليا بتأليف كتاب قصد فيه إلى نفس الغاية، وتحقيق ذات المقصد بأسلوب معاصر ولغة تناسب ذوق الجيل، وهو ما يدل على شمول نظره وتكاملها ووضوح رؤيته في هذا الجانب⁴.

ومن جهة أخرى يمكن التماس خصيصة التكامل في نهجه المعرفي من خلال تنوع اهتماماته العلمية التي غطت جُلّ العلوم الإسلامية والقضايا الفكرية.

لقد كانت للندوي مشاركات تأليفية متعددة ومتنوعة منها ما يتعلق بالعقيدة وتقوية الإيمان وتصحيح التصور، ومنها ما يتعلق بالأحكام الشرعية العملية وبيان أسرارها، كما أنه من كبار

1- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة، ج4، ص186-191.

2- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج4، ص191

3- محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ط. بيروت: دار الفكر العربي ص8.

4- هذا الكتاب هو: العقيدة والعبادة والسلوك، عرض فيه المؤلف مختصرا جامعاً لمباحث العقيدة الإسلامية، وملخصا للعبادات والأدكار والأدعية النبوية، كما خصص فصلا للجهاد ومكانته ومراتبه، وقدم فيه أيضا بسطة وافية في تهذيب الأخلاق وتركية النفوس، وضعه رحمه الله كمنهج عملي مختصر يلي حاجة أبناء العصر الذين لا صبر لهم على المطولات.

المهتمين والحريصين على إحياء الربانية وتزكية النفس تأليفا وسلوكا، وله عناية كبيرة بالسير والتراجم والدراسات التاريخية، وله عناية كبيرة أيضا بالدراسات القرآنية والحديثية والأعمال الأدبية إلى غير ذلك من مجالات المعرفة، ومطالعة القائمة الطويلة لكتبه ورسائله¹، والتي فاقت مائة وسبعين كتابا ورسالة، والمقدمات الكثيرة التي دمجها بطلب من المؤلفين لهي أكبر دليل على هذه السمة.²

أما على المستوى الشخصي؛ فإن أبا الحسن يمثل الشخصية القرآنية المحمدية الجامعة بين العلم والعمل والخلق، يشهد له بذلك عدد من معاصريه ومعاصريه، والشهادات كثيرة جدا تؤكد هذا الجانب من شخصيته أكتفي بإيراد شهادتين: الأولى للأستاذ مصطفى السباعي الذي يقول في تقديمه للجزء الأول من رجال الفكر والدعوة: "ومن أعلام هذه الحركة المباركة الأستاذ أبو الحسن الندوي مؤلف هذا الكتاب، فهو عالم مصلح وداعية مخلص، دأب منذ أتاه الله العلم على الدعوة إلى الله بقلمه ولسانه، وبرحلاته المتعددة إلى أقطار العروبة والإسلام، وبجولاته الموفقة في ميادين الدعوة حتى إنه اليوم ليعد من أبرز أعلام الإسلام المصلحين في ديار الهند، له تلاميذه المنتشرون في كل بلد، وله كتبه ومؤلفاته التي تتميز بالدقة العلمية والغوص العميق في أسرار الشريعة، والتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ووسائل معالجتها، عدا عما يمتاز به من روح مشرقة، وخلق نبوي كريم، ومعيشة تذكرك بعلماء السلف الصالح في زهده وتقشفه وعبادته وكرامة نفسه"³

أما الشهادة الثانية فهي شهادة الدكتور يوسف القرضاوي التي وصف فيها الندوي بأنه شيخ رباني يجمع بين العلم والعمل والتعليم.⁴

ويقول الشيخ القرضاوي: "ولكن الشيخ لم يكن عظيما بنبوغته العلمي والثقافي فحسب بل كان عظيما بما وهبه الله تعالى من محاسن الصفات ومكارم الأخلاق..... كان رضي الله عنه قرآني الأخلاق، محمدي السلوك، حسني السيرة، رباني الغاية، إسلامي المنهج والفكر والهوى،

1- ينظر: قائمة عناوين مؤلفات الشيخ الندوي في: يوسف القرضاوي، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، (مرجع سابق) ص 173 وما بعدها.

2- ينظر: هذه المقدمات في: سيد أحمد زكريا الغوري الندوي، مقدمات أبي الحسن الندوي، ط1، دمشق: دار ابن كثير، 2010.

3- الندوي، من رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج1، ص5.

4- القرضاوي، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ط1، دمشق، دار القلم، 2001، ص10.

كان إنسانا بكل ما تسعه كلمة الإنسانية، رانيا بكل ما تعطيه كلمة الريانية، أخلاقيا بكل ما تفهمه كلمة الأخلاقية، مسلما بكل ما تفيده كلمة الإسلامية"¹.

3-3- الوضوح والتيسير:

ونعني به البعد عن كل الأساليب المتكلفة التي تَقْصِد أصحابها الإغراب والتعقيد، فالندوي باعتباره صاحب دعوة وإصلاح اختار الأساليب السهلة الواضحة السائغة التي يدركها الجميع ولا تتطلب نبوغا أو حدة في الذكاء، إن كل ما يهّمه هو أن يبلغ ما يؤمن به من حقائق الدين وقيمه، ويكشف عما يُضادها ويخالفها ويزاحمها بعبارة رشيقة وأسلوب ممتع، يخاطب العقل والقلب معا متذعرا بكل ذريعة محتجا بكل حجة، وكثيرا ما ردد أن ذلك هو ميزة أسلوب الأنبياء الذي لا يخضعون فيه للمصطلحات ولا للأساليب التي يخضع لها أهل الصناعة العلمية؛ وإنما "يستخدمون الطرق الفطرية الموهوبة، ويرسلون النفس على سجيته ويخاطبون الفطرة البشرية بلغتها التي تفهمها والأسلوب الذي ألفته في جميع البيئات ومراحل الحياة فلا تحتاج إلى شارح أو ترجمان"².

وفي سياق آخر يتحدث عن سمات منهج الأنبياء باستفاضة وإعجاب - وهو ما يعكس نفسيته وعقليته- فيقول: "فهم دائما يخاطبون الفطرة السليمة والعقل العام بأسلوب فطري غير ذي عوج، لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر، وعلم فائق، وألمعية بارعة، ودراسة واسعة للعلوم، وإحاطة بالمصطلحات العلمية، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات وعلوم الطبيعة، يتفهمه العوام كما يتذوقه الخواص، وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء، كل على قدر فهمه وطاقته، ويطابق حال الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها، كما يطابق حال الأمم المتقدمة المثقفة العالية، ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة، ولا يفترضونها؛ إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيغه كل واحد ويحتاج إليه كل واحد"³.

كما يبدو أن البيئة الهندية، وهي إحدى محاضن الحكمة الشرقية تركت أثرها على شخصية الندوي الذي يقول: "ويبدو لنا أن حكماء هذا القطر قد أعربوا عن دقائق الفلسفة في لغة

1- القرضاوي، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته (مرجع سابق)، ص 59-60.

2- الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 77.

3- الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 52.

سهلة وأسلوب جذاب، وحاولوا نقل الحقائق الجافة إلى الحياة العامة"¹، وهو عين ما يسعى الندوي إلى تحقيقه.

ومما يعزز تأكيد هذه السمة في أسلوب الندوي إشارات به وبمن ظهرت فيهم، فما هو على سبيل المثال يشيد بمواهب الغزالي، وعقله المبتكر الذي لم يخضع لأساليب المتكلمين ومناهجهم في إثبات العقيدة وتوصيل حقائقها؛ وإنما تكلم فيها كلام مجتهد واع بعقلية أهل عصره، ويعرف من أين يدخل إلى عقولهم وقلوبهم، يقول الندوي: "وجاء في كلامه في صفات الله تعالى، ومعجزات الأنبياء، والتكليفات الشرعية، وإثبات العذاب والثواب، والبرزخ والمعاد، والجبر والاختيار، والقضاء والقدر، بمقدمات وأمثلة، تورث الإذعان، وتفتح القلب للإيمان، ولم يسبق إليها، وعدل عن تشكيكات المتكلمين، ومقدماتهم المنطقية إلى أسلوب واضح مشرق يسيغه العامة وأوساط الناس، ولا يناقشه الخاصة والعلماء."²

والذي ساعد الندوي في تحقيق هذه الخاصية هو ما حباه به الله من قدرة بيانية ومملكة أدبية قال عنها أديب الفقهاء الشيخ علي الطنطاوي في تقديمه لـ "الطريق إلى المدينة": "وكدت أفقد ثقتي بالأدب حيث لم أعد أجد عند الأدباء هذه النعمة العلوية التي غنى بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البرعي، فلما قرأت كتابك وجدتها، وجدتها في نثر هو الشعر إلا أنه بغير نظام، فيا أبا الحسن لك الشكر على أن رددت إليّ ثقتي بنفسي وثقتي بأدب لغتي."³

كما أكد الشيخ يوسف القرضاوي في سياق تعداد مواهب الندوي هذه الملكة بقوله: "ولقد قرأنا الرسائل الأولى للشيخ الندوي التي اصطحبها معه حينما زارنا في القاهرة سنة 1951م... فوجدنا فيها نفحات أدبية جديدة في شذاها وفحواها، حتى علق الشيخ الغزالي رحمه الله على تلك الرسائل بقوله: "هذا الدين لا تخدمه إلا نفس شاعرة"! فقد كانت تلك الرسائل نثرا فيه روح الشعر، وعبق الشعر"⁴.

1- الندوي، حديث مع الغرب (مصدر سابق)، ص106.

2- الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 1، ص174.

3- الندوي، الطريق إلى المدينة، (مصدر سابق)، ص12.

4- القرضاوي، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص75.

3-4- الشمول والعالمية:

ومن مزايا هذا المنهج كذلك أن أصحابه يدعون إلى الإسلام بشموله للحياة كافة، فهو ليس عقيدة تستقر في الضمير فحسب، ولا حركة اجتماعية تهدف إلى الإصلاح وكفى، ولكنه دينٌ يستوعب الزمن كله، ويستوعب الحياة كلها، ويستوعب الإنسان من قبل ميلاده إلى بعد وفاته، ويضع له من التشريعات التي تكفل له السعادة في الحال والمآل، لذلك نجد أن كتاباته شملت جوانب الحياة كلها العقدية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية.

كما لم يفت الندوي أن يشارك بنفسه في عضوية المجلس الاستشاري الإسلامي مما عرّضه لانتقادات كثيرة، وعدوه خروجاً عن التقاليد المتوارثة في الأسرة، لكن الشيخ الندوي كان يرى أن هذا نابع من التصور الجديد للحكومات؛ إذ لم تعد وظيفة الحكومة محصورة في جباية الأموال وتنظيم الدولة، وإعداد القوة الدفاعية كما كانت في العهد القديم، " بل يسوغ لها الآن في تصورها الواسع أن تتدخل في أي شيء من شؤون الحياة، وتسن القوانين الجديدة في كل شعب من شعبيها، وتشرع قوانين الأحوال الشخصية العامة والمشاركة (Uniform Civil Code)، وتضع مناهج تعليمية وتربوية خاصة للتكوين العقلي والخلقي للجيل الجديد، الذي يترك أثره على عقائده ومسلماته وتصوراتها، ويمكن أن يقطع صلته بماضيه وحضارته وثقافته، وهي تملك الحرية المطلقة في تغيير اللغة وخطها"¹.

وعلى الرغم من تنوع هذه الوظائف وشمولها لجميع مناسط الحياة؛ "فإن هذه الحكومات تأتي إلى السلطة وتعزل عنها عن طريق الانتخابات، فكيف يجوز في هذا العصر - الذي اتسعت فيه دائرة الحكومات الذي يشمل الحياة كلها، وفي البلاد التي لا تملك فيها أي وسيلة للحفاظ على حقوقنا أو دفع الأخطار المحدقة بنا إلا حق التصويت والنفوذ السياسي والحكمة واللباقة السياسية- لأي أمة أو ملة أن تعتزل سياسة البلاد، والنفوذ والتأثير على الطريقة الديمقراطية، لاسيما إذا كانت هي أمة تصورها للدين شامل لجميع جوانب الحياة وهي لا تؤمن بالتصور المسيحي للدين، وهو أنه (قضية بين العبد وربّه)"².

1- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص334.

2- المصدر نفسه.

ويؤكد الندوي أن الشمول والعالمية هي خاصية الدين الإسلامي وميزته الكبرى عن سائر الأديان وهو ما بينه بقوله: " وديانة الأمة المسلمة بالعكس من سائر الديانات، أكثر حساسية وتأثراً لاحتوائها على أبعاد الحياة وشمولها وسعتها"¹.

بل يذهب الندوي أكثر من ذلك حينما يؤكد " أن الذين يلقنون الناس بأن السياسة ليست إلا الشجرة الممنوعة، بل هي (الشجرة الملعونة في القرآن)، ويشيرون على الأمة باعتزالها تفكيراً وعملاً، أو يوصونها بأن يشتغلوا مثل الجوس... بإقامة المؤسسات الخيرية، أو رفع مستواهم الاقتصادي وحالتهم المعيشية، أو رفع مستوى التعليم فحسب، والذين يوجهون هذا التوجيه، إنهم في واقع الأمر يشيرون عليها بالانتحار الاجتماعي والقومي"².

ويبين لنا الندوي العلة في ذلك فيقول: " إن المسلمين حينذاك لا يستطيعون أن يحافظوا على شخصيتهم المليّة، وفرائضهم وشعائهم الدينية، وقوانينهم الإسلامية، ولا يعودون قادرين على حماية معتقداتهم وحضارتهم، ولا يمكن لهم أن يعيشوا في البلاد أعزة كرماء، فضلاً عن (يتولوا منصب القيادة والدعوة الذي هو دورهم الحقيقي ومهمتهم الأساسية)"³.

والمأمل في كتب الشيخ يجد أن خطابه قد شملت الجاليات الإسلامية جميعاً في بقاع الأرض المختلفة، " ومن قرأ عناوين محاضرات الشيخ، ورسائله وأحاديثه، وأين ألقيت؟، وإلى أين وجهت؟ يعرف هذه العالمية بوضوح، فهناك أحاديث إلى العرب، وأحاديث صريحة إلى أمريكا، وأسبوعان في المغرب.. من نهر كابل إلى نهر اليرموك، وهناك جملة أسمعيات"⁴.

وهكذا أعاد الندوي الاعتبار لعالمية الدعوة من جديد من خلال رحلاته المكوكية لشتى أصقاع العالم، فقد كان عضواً نشطاً " في أكثر من مجلس، وأكثر من مؤسسة، مثل المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، والمجلس العالمي الأعلى للمساجد، ومجلس المجمع الفقهي للرابطة، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، والمجمع العلمي بدمشق، وهو الذي سعى لإنشاء مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، ليكون نقطة انطلاق للفكر الإسلامي

1- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج1، ص334.

2- المصدر نفسه، ج1، ص335.

3- المصدر نفسه.

4- القرضاوي، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص13.

في جامعة غربية عريقة، وهو الذي يرأس مجلس أمنائه منذ أنشئ، كما أسهم في إنشاء (رابطة الأدب الإسلامي) لتكون منبرا عالميا لأدباء الإسلام. وهو رئيسها أيضا¹.

والمتتبع لنشاطات الشيخ الندوي يدرك بوضوح لا تنقضه الشواهد أن الرجل لم يقصر همّه ونشاطه يوما على القارة الهندية على الرغم من أنه الهندي مولدا ونشأة، فهو كما يقول الشيخ القرضاوي بحق: "عالمي الوجهة والغاية، عالمي النشاط والحركة، وهو - وإن اهتم بالمسلمين في الهند، وشارك في همومهم، وتصدر الصفوف أحيانا في ذلك، كما في قوانين الأحوال الشخصية، التي أرادت الحكومة الهندية يوما أن تفرض على المسلمين فيها ما يحرمهم من خصوصيتهم - لا يقتصر همّه ولا نشاطه على القارة الهندية، بل يمتد إلى العالم كله"².

فليس غريبا أن نجد الندوي ينشئ حركة "رسالة الإنسانية"، إذ كان يرى الواجب يحتم عليه القيام بماته الحركة إنقاذا للإنسانية من براثن المادية التي شوهدت فطرة الإنسان من جهة، ثم إن الإسلام رسالة رحمة للناس جميعا.

ويؤكد الندوي أن أسلافه من المسلمين في الهند، قد أسعفوا فيما مضى هذه البلاد في ساعات دقيقة حرجة، فما المانع أن يبذلوا جهودهم المستطاعة في الأخذ بهذه السفينة الغارقة أو المتورطة، ولو لم يفعلوا هذا الواجب، لكانوا عند الله أصحاب ذنب وتقصير وجريمة، وسجلهم التاريخ غير قائمين بالواجب، كافرين بالنعمة مجرمين بالغفلة³.

والواقع أن "رسالة الإنسانية" نبعت في أساسها من شعور أخلاقي متقوم بحب الإنسانية، شعور عميق ملك وجدان الشيخ بأصالة الوحدة النوعية للبشر، وغلبتها على الفوارق المحلية من لون ووطن وقومية.

1- القرضاوي، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، (مرجع سابق)، ص 12-13.

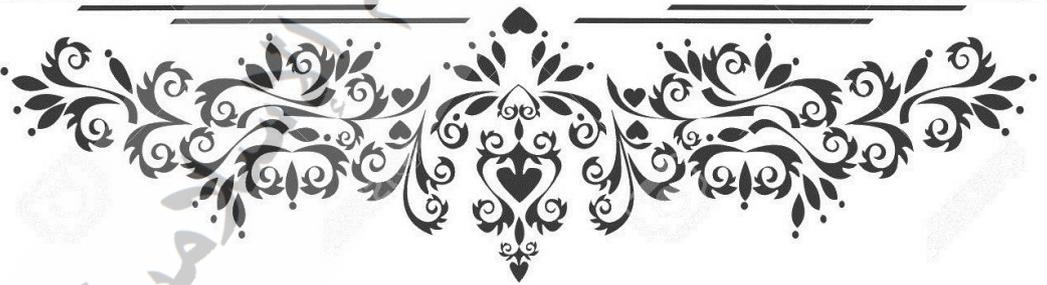
2- المرجع نفسه، ص 12.

3- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج 1، ص 339.



الفصل الثاني

آراء الندوي في مواجهة التحديات الداخلية





المبحث الأول:

علم الكلام النشأة والتطور



تمهيد:

قبل الحديث عن مساهمة الشيخ الندوي - رحمه الله - في الدفاع عن الحقائق الإسلامية وبيان جهوده ومشاركته في تعزيز الإيمان برسالة الإسلام وخلودها، نرى أنه من الضروري، وضع هذه المساهمة في إطارها المعرفي العام وهو ما يعرف في الإصطلاح الإسلامي بعلم الكلام، مبتدئين بتقديم خلاصة نتناول فيها التعريف بهذا العلم وتسمياته المختلفة وبيان مقاصده، ومنهجه، وأهميته، وأسباب نشأته، ومراحل تطوره وصولاً إلى المرحلة الأخيرة وهي مرحلة البعث والتجديد.

1-تعريف علم الكلام:

علم الكلام هو لقب أطلق على الجهود العلمية التي تعنى بالبحث في الأحكام الاعتقادية من الدين الإسلامي، وقد عرّف بتعاريف مختلفة، نحاول استعراض أهمها:

1-1- تعريف الفارابي (260هـ-339هـ):

عرفه بقوله: " وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان على نصره الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقوال¹ " قسّم الفارابي علم الكلام حسب هذا التعريف إلى قسمين: يتعلق الأول منهما بالآراء أي الاعتقادات، كالصفات وعلى رأسها التوحيد والنبوة.. إلخ أي كل ما يتعلق بالجانب النظري.

أما الثاني فيتعلق بالأفعال وهي الأحكام العملية لا من جهة تفاصيلها الفقهية ولكن من حيث الاستدلال على أحقيتها، ودعمها بالبراهين ودفع شبهات الخصوم عنها؛ كالانتصار لأحكام تحريم الربا والزنا، والخمر، وبيان المفسدات المختلفة التي تنتج عنها وبيان المقاصد والحكم التي تحققها للمكلفين في معاشهم.

ومما يلاحظ في هذا التعريف هو تمييزه بين وظيفتين لعلم الكلام: وظيفة إيجابية تعنى بإثبات العقائد والأحكام التي دعت إليها الملة بالبراهين المختلفة، ووظيفة سلبية تعنى بإبطال وتزييف ما يناقضها ويخالفها.

وما يمكن أن يلاحظه الدارسون لتعريف الفارابي أيضاً هو شموله مذاهب المتكلمين المختلفة شيعة كانوا أم سنة أم معتزلة على عكس تعريفي الغزالي وابن خلدون.

1- أبو نصر الفارابي، إحصاء العلوم، نج، عثمان أمين، ط3، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968 م، ص 131.

1-2- تعريف الغزالي: (ت 505هـ):

عرّف الغزالي علم الكلام بقوله: " وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة"¹، وعند التأمل في هذا التعريف نلاحظ الآتي:

يقصر الغزالي وظيفة علم الكلام على الدفاع عن العقيدة في مواجهة الخصوم الذين يثيرون الشبه في وجه معتقد أهل السنة؛ أما أن يكون له وظيفة تحصيلية فهذا ما لا دخل لعلم الكلام فيه. والواقع أن هذا غير صحيح؛ إذ أن علم الكلام يقوم بوظيفة تحصيلية أيضا.

وما يلاحظ على التعريف ثانيا: أن الغزالي قصر علم الكلام على المدرسة السنية فقط، والحق أن الكلام نشأ على أيدي المعتزلة لشرح وتوضيح العقيدة الإسلامية والدفاع عنها أمام الشبهات التي أثارها اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الملل، ولهم مشاركات مهمة، وكذلك الشيعة والخوارج.

1-3- تعريف الإيجي: (ت 756هـ):

عرف الإيجي علم الكلام بقوله: " والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج، ودفع الشبه "².

إن مقصود الإيجي بالعقائد هو ما يتحملة المسلم اعتقاداً دون الفروع العملية، وبالدينية المنتسبة إلى دين محمد ﷺ لأن الخصم حتى لو أخطأ فهو لا يخرج من زمرة علماء الكلام³.

وهكذا يشمل البحث في علم الكلام مذاهب الفرق الأخرى حتى لو كانت خاطئة عند التحقيق مادام القائل بما ينسبها إلى الإسلام لشبهة عرضت له.

1-4- تعريف ابن خلدون: (ت 808هـ):

يقول ابن خلدون في مقدمته: " علم الكلام هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة "⁴.

إن هذا التعريف قريب من تعريف الغزالي في تركيزه على وظيفة هذا العلم الحجاجية وفي كونه علما سنيا، والحق أن الدارس لتاريخ هذا العلم يقف على جهود كثيرة لمدارس عدة كان هدفها المنافحة عن اعتقاداتها التي تؤمن بها، وتراها حقا ولم تكن تقصد حراسة عقيدة أهل السنة.

1- الغزالي، المنقذ من الضلال، تح: عبد الحليم محمود، ط2. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1985م، ص87.

2- الإيجي، المواقف في علم الكلام، ط بيروت: عالم الكتب، (د.ت) ص7.

3- المرجع نفسه.

4- ابن خلدون: المقدمة، بيروت: دار الجيل، (د، ت)، ص547.

1-5- تعريف محمد عبده: (ت1325هـ):

عرّف الشيخ محمد عبده علم الكلام بقوله: " علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات، وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفي عنه، وعن الرسل وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم"1.

إن الملاحظ على تعريف الشيخ محمد عبده لعلم الكلام ما يلي:

- تعريف العلم بموضوعه وأهم مباحثه.
 - تعريف غير تام لأنه أهمل الإشارة إلى مباحث رئيسية كالسمعيات.
 - كما خلا التعريف من الإشارة إلى الوظيفة السلبية لعلم الكلام، كما في التعاريف السابقة.
- جدير بالذكر أن هذا العلم يتميز بالتوسع في مسائله وقضاياها، خلافاً للعقيدة ذاتها فهي ثابتة القضايا محدودة المسائل، وفي هذا المعنى يقول الأستاذ النجار: "وأما علم العقيدة فإنه بما هو بحث إنساني في أحكام العقيدة فهما وشرحا واستدلالاتاً وردا للشبه يتصف بأنه غير محدود في مسائله وقضاياها، بل هو ممتد في ذلك إلى غير نهاية تتزايد فيه الشروح، والأدلة والردود بما يتزايد من مشاركة الباحثين والعلماء عبر الزمن وتتوسع مادته في ذلك بما يتسع من المعرفة الإنسانية التي تصلح أن تتخذ مقدمات للاستدلال على حقائق العقيدة، وبما يتسع من الجبهات التي ترد منها التحديات الموجهة إليها فتستلزم ردوداً عليها"2.

ويتميز من ناحية أخرى بالتطور والتغيير، خلافاً للعقيدة ذاتها، لأن الشروح والاستدلالات والردود تخضع لأحوال الناس وأوضاعهم في الفهم والاقتناع وحسب ثقافتهم.

2- أسماء علم الكلام:

تعددت أسماء هذا العلم حتى أوصلها البيجوري في حاشيته على السنوسية إلى ثمانية أسماء، الأمر الذي لا نعرف له نظيراً في علم آخر، وسنحاول استعراض أهم الأسماء وسبب التسمية.

1-2- الفقه الأكبر: وهو الإسم الذي ارتضاه الإمام أبو حنيفة النعمان (80هـ-150هـ) لهذا العلم في كتابه " الفقه الأكبر" تمييزاً له عن الفقه المتعلق بفروع الأعمال. إذ هو فقه بكبرى قضايا الدين وهي حقائق العقيدة. والفقه الأصغر يعني بالأحكام العملية أو ما يعبر عنه بالشرعية.

2-2- علم التوحيد: وهو من باب تسمية الشيء بأشرف أجزائه؛ إذ موضوع التوحيد هو رأس المسائل التي يبحثها هذا العلم ويركز عليها استدلالاً ومنافحة وبياناً لآثاره في النفس والمجتمع.

1- محمد عبده: رسالة التوحيد، ط1. الجزائر: موفم، 1989م، ص5.

2- عبد المجيد النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1997م، ص11.

2-3- علم أصول الدين: لأنه يبحث في أسس الدين وأصوله كوجود الله وأسمائه وصفاته والنبوة والمعاد وهذه أساس الإيمان، والدين لا يقوم إلا بها.

2-4- علم العقيدة: والمقصود به العلم الذي يُعنى بالاعتقادات أي القواعد والأحكام الشرعية الاعتقادية التي يطلب من المكلف الاعتقاد بها أي الإيمان بصحتها، وقد جرت عادة العلماء على استخدام هذه التسمية كما فعل الغزالي في قواعد العقائد وابن تيمية في (العقيدة الواسطية)، والإيجي في (العقائد العضدية) ومن المحدثين (العقائد الإسلامية) لعبد الحميد بن باديس.

2-5- علم الكلام: وهو من أكثر هذه الأسماء شهرة، ظهر في القرن الثاني¹، ولا يزال مستعملاً حتى اليوم.

وأما عن سبب تسميته بذلك فيرجعها بعض الباحثين إلى ما أشتهر فيه من مبحث يتعلق بكلام الله تعالى هل هو قديم أم حادث؟ وما حف ذلك من خصومات ومضاعفات سياسية في عهد المأمون.

وقيل في سبب التسمية أن مباحثه كانت تبدأ بقولهم: "الكلام في كذا.."، وقيل: "لأنه يورث القدرة على الكلام وإلزام الخصوم"، ويرى آخرون: "إنه من الكلام المقابل للأفعال أي أنه جهد نظري لا يبني عليه عمل".

3- فائدته:

اختلفت كلمة العلماء والباحثين في تحديد الفائدة من مدارس علم الكلام، ويمكن تصنيف هذه الآراء إلى مجموعتين رئيسيتين:

- أولهما: توسع مقاصد هذا العلم ولا تقصره على الناحية الدفاعية.
- ثانيهما: تضيق من أهدافه وتقصرها على الدفاع والمنافحة عن العقائد الإسلامية في وجه خصومها وسنحاول بيان كلا الرأيين بإيجاز.

الرأي الأول: وهو رأي جمهور المتكلمين الذين يجعلون له مقاصد متعددة من بينها:

- ترقية الإيمان بالعقيدة الإسلامية من درجة الوراثة والتقليد إلى درجة الاقتناع والإيقان بإيراد البراهين العقلية المثبتة لحقائق المعتقد، ولا شك أن الإيمان المطلوب في الدين هو الإيمان المبني على دليل مقنع، يقول التهانوي: " وفائدته الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان"².

1- الشافعي حسن محمود: المدخل إلى دراسة علم الكلام، ط2. القاهرة: مكتبة وهبة، 1991م، ص26.

2- التهانوي، كشف اصطلاحات الفنون تح: أحمد بسج، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998م، ج1، ص33.

ويزيد سعد الدين الفتازاني (ت793 هـ) هذا الأمر تأكيداً إذ يقول: (ومسائله القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية، وغايته تحلية الإيمان بالإيقان، ومنفعته الفوز بنظام المعاش ونجاة المعاد وغاية الكلام أن يصير الإيمان والتصديق بالأحكام الشرعية متيقناً محكماً لا تزلزله شبه المبطلين...¹).

- تصحيح ما قد يحصل من انحراف في بعض المعتقدات، وتوضيح ما قد يحصل من إبهام فيها، ذلك أن إيمان المقلد قد تطرأ عليه شكوك، أو شبهات أو أخطاء في التصور لكونه غير مؤسس على البحث والتمحيص، فمدارسة هذا العلم وأدلتها من شأنها أن تصحح هذا الانحراف وتوضح الإبهام.

- إرشاد المسترشدين والتصدي لما قد يطرأ على النفس من الوسوس والظنون التي قد تخطر على النفس من داخلها، أو ترد عليها من خارجها وذلك نتيجة نزغات الشياطين، أو شبهات المشككين، فالوقوف على البراهين والأدلة العقلية والنقلية من شأنه أن يطرد تلك الوسوس والشكوك، وأن يثبت المسلم على العقيدة الصحيحة.

الرأي الثاني: ويمثله الغزالي وابن خلدون وبعض الصوفية، فيرون أن الفائدة من علم الكلام تقتصر على الدفاع عن العقائد الإسلامية ورد الشبهات التي يثيرها الخصوم عن طريق الاستدلال العقلي وهو ما يشتركون فيه مع الرأي الأول.

يقول الغزالي " ومقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق... ثم ألقى الشيطان في وسوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها فأنشأ الله تعالى طائفة من المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثه على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله، ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة"².

ويؤكد هذا المعنى الشيخ محيي الدين بن عربي بقوله: " وعلماء هذا الفن - رضي الله عنهم - ما وضعوه وصنفوا فيه ما صنفوا ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله، وإنما وضعوه ردعاً للخصوم الذين جحدوا إليه، أو الصفات، أو الرسالة، أو رسالة محمد ﷺ خاصة، أو حدوث العالم، أو الإعادة إلى الأجسام بعد الموت، أو الحشر والنشر، وما يتعلق بهذا الصنف، وكانوا كافرين بالقرآن مكذبين

1- الفتازاني، شرح المقاصد، تح: عبد الرحمن عميرة، ط2، بيروت، عالم الكتب 1998م، ج1، ص 175.

2- الغزالي، المنقذ من الضلال، تح: جميل صليبا، ط بيروت: دار الأندلس، 1996م، ص91-92.

جاحدين له، فطلب علماء الكلام الأدلة عليهم على الطريقة التي زعموا أنهم أدتكم إلى إبطال ما ادعينا صحته خاصة حتى لا يشوشوا على العوام عقائدهم"¹.

ثم يأتي ابن خلدون ليؤكد هذا المعنى أيضاً، وهو اقتصار وظيفة علم الكلام على الحجاج ورد الشبهات التي يثيرها المبتدعة وأهل الإلحاد في قلوب المسلمين، يقول رحمه الله: " والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك - أي الحجاج عن العقائد بالأدلة العقلية - كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية، بالبدع النظرية، فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضتهم"².

ويقول: " فموضوع علم الكلام عند أهله؛ إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية، فترتفع البدع، وتزول الشكوك والشبهة عن تلك العقائد"³.

4- موضوعه:

يتضمن علم الكلام موضوعات عديدة هي إجمالاً العقائد الإيمانية الأساسية الثلاث، بالإضافة إلى دراسة طبيعة الشبه الموجهة إلى هذه العقيدة:

4-1- العقائد الإيمانية: ويندرج تحتها: الإلهيات: وموضوعها مباحث الوجود الإلهي والأسماء والصفات، والردود على مزاعم الملاحدة والكفار والمشركين.
النبوات: وموضوعها حاجة البشر إلى النبوة، وإمكانها وصفات الأنبياء ودلائل النبوة والردود على منكريها.

السمعيات: وهي حقائق من عالم الغيب لا تعرف إلا بالسمع أي الخبر المعصوم، كالملائكة، والحياة البرزخية واليوم الآخر... وإقامة الأدلة على إمكانها ومحاجة من ينكرها.
وتجدر الإشارة إلى أن من المعاصرين من أعاد طرح موضوعات هذا العلم بترتيب مغاير لترتيب القدماء، استجابة لتحديات معاصرة، كما فعل الأستاذ محمد مبارك في " نظام الاسلام العقيدة والعبادة"، حيث رتب موضوعات هذا العلم ترتيباً يقرها من مبحث الوجود الفلسفي وهو: الله، الإنسان، والعالم.

1- ابن عربي، الفتوحات المكية، ط بيروت: دار صادر، (د.ت)، ج1، ص 35.

2- ابن خلدون، المقدمة. (مرجع سابق)، ص516.

3- المرجع نفسه.

4-2- دراسة طبيعة الشبه الموجهة إلى العقيدة:

ومن موضوعات هذا العلم أيضاً، بحث المقالات التي يثيرها أهل الملل والنحل والمذاهب الفلسفية المختلفة، المخالفة للرؤيا الإسلامية والإمام بأبعادها وأصولها كخطوة أولية لتزييفها وردّها، وقد كان هذا دأب المتكلمين قديماً كما فعل الغزالي - رحمه الله - في رده على الفلاسفة والباطنية والنصارى، وكما فعل ابن الحزم (384هـ-456هـ) في الفصل في الملل والأهواء والنحل، والشهرستاني في الملل والنحل.

كما أن من موضوعات هذا العلم التبعية والتي لها حكم الوسيلة، تلك المقدمات النظرية الطويلة التي يفتتح بها المتكلمون مدوناتهم، كمباحث الوجود والماهية والجواهر والأعراض؛ مما ناسب عصورهم، ولعل من المناسب لعصرنا سعة الاطلاع على مخرجات العلوم المعاصرة كالفيزياء والفلك والأحياء وتوظيفها في خدمة العقائد الدينية؛ لأن هذا ما يتلائم مع روح العصر. وإن كان هذا العمل قد يند عن جهود الأفراد مما قد يستدعي تأسيس مراكز بحثية متخصصة تعنى بهذا العمل المثمر بإذن الله.

وكذلك الإمام بالمنتج الفلسفي الحديث والمعاصر الذي يتخذ وسيلة للهجوم على القرآن والسنة.

5- منهجه:

من المقرر أن مفردات العقيدة هي حقائق جاء بها الوحي، لا دخل للعقل في إنشائها؛ وإنما يقتصر دوره على تفهم هذه الحقائق، والوعي بها أولاً ثم خدمتها بالاستدلال على مسائلها، وصيانتها من كل ما يعكر صفاءها، وما يثار في وجهها من شبهات. وهذا ما حدا بالمتكلمين قديماً إلى بناء علم الكلام وفق منهج يقنع المخاطبين ويتمشى مع السقف المعرفي لذلك العصر، فكانت هذه المنهجية تتراوح بين الاستدلال النقلية والعقلي وإن غلب عليها في أكثر الأحيان اعتمادها المنطق الصوري، فولدت استدلالات وشروحات تنزع منزعاً تجريدياً نظرياً حقق إلى حد كبير دوره في نصرّة العقيدة.

والتأمل في منهج علم الكلام يجده يقوم على المزاملة بين العقل والنقل وهو وإن كان يستند إلى الأدلة العقلية وصورها؛ فإن العقل لا يستقل بإثبات القضايا العقديّة، بل الوحي هو الذي يقرر تلك القضايا كي تصير جزءاً من الدين، ودور العقل يقتصر على تلك العقائد التي جاء بها الوحي والاستدلال لها، وهذه الخاصية التي اتسم بها المنهج في علم العقيدة نابعة من كون العقيدة جاءت عن طريق الوحي لذلك اصطبغ المنهج في علم العقيدة بصبغتين: صبغة دفاعية، وصبغة استدلالية.

5-1-1- الصبغة الدفاعية: هذا العلم منطلق من حقائق ثابتة تكفل الوحي ببيانها، وللدفاع عن العقيدة مسلكين¹:

5-1-1-1- مسلك الإثبات: وبه تظهر صحة، وأحقية تلك الأحكام.

5-1-1-2- مسلك الرد: وبه تزيّف وتبطل العقائد المخالفة والمناوئة.

5-2-1- الصبغة الاستدلالية: بين الدفاع والاستدلال عموم وخصوص من وجه كما يقول المناطقة، والاستدلال يدخل في الدفاع، وقد نشأ متساوقا في وجوده مع نشأة العلم ذاته، وينقسم إلى قسمين:

5-2-1-1- الاستدلال النقلى: استخدم المتكلمون الدليل النقلى من نصوص القرآن الكريم، والحديث الشريف شواهد على الآراء العقديّة في الحوار الدائر بين الفرق الإسلامية، تأصيلا لهذه الآراء وردا على ما يخالفها، وقد ظل هذا الاستدلال النقلى مواكبا للدرس الكلامى طيلة مسيرته في الحوار الداخلى بين المسلمين، لكن بمجيء إمامى أهل السنة: الأشعري والماتوريدي نشأ ضرب من التوازن بين الدليل النقلى والعقلى، ثم أخذت كفة الدليل العقلى ترجح على حساب النقل عند المتأخرين منذ الجوينى ومن جاء بعده.

5-2-2-1- الاستدلال العقلى: ولما نجحت تحديات أهل الأديان والمذاهب في القرن الثانى الهجرى نشأ لدى المتكلمين الأسلوب العقلى في الاحتجاج، ذلك أن أصحاب هذه التحديات من النصارى والجموس، كانوا متمرسين بالفلسفة اليونانية ومنطقها الصورى، فاستخدموا آليات هذه الفلسفة للاحتجاج نصرّة لمعتقداتهم ونقدا للعقيدة الإسلامية، لذلك بادر المعتزلة باستخدام الحجّة العقلية لمواجهة هذه التحديات، وأصبح هذا الأسلوب هو الأسلوب الغالب على الفكر الكلامى².

ولما استفحلت الفلسفة اليونانية في الساحة الإسلامية في القرن الثالث الهجرى، وانتشرت مقولاتها مختلطا فيها المسائل الميتافيزيقية بالمسائل الطبيعية، طوّر الفكر الكلامى من منهجه، فأدخل في دائرة اهتمامه المسائل الفلسفية، والطبيعية مثل قضايا العلة والمعلول، والجوهر والعرض، والجوهر الفرد وأمثالها. واستخدمها مقدمات في الاستدلال على العقيدة الإسلامية، ورد الشبه الواردة عليها، وأصبح سنة ماضية في هذا الفكر منذ أبى هذيل العلاف (ت235هـ).

والواقع أن الاستدلال العقلى أدى دورا مهما في الدفاع عن العقيدة، ونصرتها والاستدلال لها لتبتيها وتقويتها بدلائل قدرة الله المبتوثة في كونه المنظور.

1- النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامى، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامى، 1992م، ص98. وما بعده.

2- المرجع نفسه، ص112.

6 - أسباب نشأة علم الكلام:

يمكن إرجاع نشأة علم الكلام إلى أسباب رئيسية ثلاثة:

6-1- القرآن الكريم:

تناول القرآن الكريم مباحث العقيدة من إلهيات ونبؤات وسمعيات وكونيات في عدد كبير من آياته، ما جعل العلماء يخوضون في هذه المسائل بوحى منه، ويتأملون الآيات، ويتكلمون حول دلالتها. فقوله تعالى مثلاً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ (نوح، الآيات: 15-16)، يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدوم العالم وأنه أزلي، وقوله سبحانه ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ (الطور، الآية: 35) فيه دليل على وجود الله وأنه محدث هذا العالم وخالقه.

وقوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَقَّأُ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنبَتَّتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ (الحج: 5) دال على خالقية الله عز وجل. فخلق الإنسان ومروره بأطوار متعددة دليل على وجود خالق وناقل له من طور إلى طور وفق مبدأ الأثر دال على وجود مؤثر.

وفي موضوع الصفات الإلهية نقراً مثلاً قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُدْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ (الأنبياء، الآيات: 21-22). وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِّنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ (المؤمنون، الآية: 91).

وغير هذا كثير من الآيات الواردة في الحجاج عن التوحيد وهناك آيات كثيرة تدل على مخالفته سبحانه للحوادث وقدمه وبقائه وقيامه بنفسه، واستغنائه عن غيره.

وهناك آيات تثبت له الاستواء على العرش والفقوية وأخرى تثبت الوجه واليد... الخ¹.

1- فرغلي، عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، ط1. القاهرة: دار الآفاق العربية، 2013 م، ص 36.

أما فيما يتعلق بالقدر والفعل الإنساني فنقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران، الآية: 176)، وفيها إثبات الإرادة لله. وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة، الآية 13)، وفيها إثبات أن المشيئة لله وحده. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام، الآية 39)، وهي تصريح بأن الإضلال بفعل الله.

وهناك آيات أخرى تنفي إرادة الله تعالى للشر منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة، الآية: 185)، ومنها إثبات المشيئة للعبد، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف، الآية: 29)، ومنها إسناد الهداية والإضلال لغير الله كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام، الآية: 116). ومنها إضافة الفعل للعبد كقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة، الآية: 286)، فهذه الآيات وأمثالها كانت مصدر نقاش طويل بين العلماء في بحث الفعل الإنساني.

وفي موضوع النبوة وإثباتها نقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء، الآية 94).

ويرد على زعمهم استفادة النبي ﷺ القرآن من بشر بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل، الآية 103).

وفي موضوع البعث نقرأ قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (ص، الآية: 78)، وقد كانت هذه الآية ومثيلاتها مصدر إلهام للعلماء في نظم الأدلة على إمكان البعث.

ومن جهة ثانية فإن تعرض القرآن للحديث عن الأديان والملل التي كانت منتشرة في محيط الجزيرة العربية، وحكايته أقوالهم والرد عليهم بالأدلة المختلفة كان عاملاً أساسياً في نشوء علم الكلام وتوسع البحوث فيه، فرد على الدهريين الذين ينكرون الخالق والبعث بآيات كثيرة تسند الإحياء والإماتة

والتصرف في الملك لله تعالى، ورد على المشركين الذين أهوا الكواكب بمثل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُعْتَبَرُ مِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّكْرِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ (الأنعام، الآيات: 76-79).

كما رد على اليهود والنصارى ومشركي العرب في جوانب عديدة، الأمر الذي حفز علماء الكلام على تفهم هذه النصوص وتوسيع مباحثها.

يقول أحمد أمين: كان للمتكلمين في تعريفهم لأقوال المذاهب والفرق المختلفة ومجادلتها قدوة بالقرآن؛ إذ تعرّض هذا الكتاب لأهم الفرق والأديان التي كانت منتشرة في عهد الرسول ﷺ فرد عليهم ونقض قولهم، فحكى عن قوم أنكروا الأديان والإلهيات والنبوات وقالوا ما يهلكنا إلا الدهر ورد عليهم بمختلف الدلائل وعرض للشرك بمختلف أنواعه¹.

ومن جهة ثالثة لعل الجانب الدلالي للغة القرآن ومحاولات الفهم لهذا النص كانت سبباً إضافياً في نشأة علم الكلام، فوجود التشابه كما أنه دعوة للإيمان والتسليم، هو دعوة للاجتهاد في الفهم وتنشيط العقل وهو ما حصل عملياً، ولعل الفرق المختلفة لم تكن بعيدة عن مراد الله تعالى فيما ذهبت إليه من آراء².

يقول ابن خلدون: " الخلاف في تفاصيل العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة، فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر، والاستدلال بالعقل زيادة على النقل، فحدث بذلك علم الكلام"³.

6-2- تحديات نابعة من المجتمع الإسلامي:

ما وقع من أحداث في المجتمع الإسلامي خُرقت فيها المبادئ والتعاليم الإسلامية بشكل واسع في مجال السلوك الفردي والاجتماعي، وقد كانت تلك الأحداث محلاً للنظر والتقويم والتعليل من قبل بعض المسلمين، ثم انتقل النظر فيها من ذواتها إلى أصولها في العقيدة باعتبار أن قواعد السلوك إنما هي فروع لقواعد العقيدة فمعالجتها تكون بمعالجة أصولها في العقيدة ومن ثم نشأ النظر والبحث في مسائل ذات طبيعة عقدية.

1- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط10. بيروت: دار الكتاب اللبناني، (د.ت)، ج3، ص1.

2- يحيى هاشم فرغل، عوامل وأهداف نشأة علم الكلام، (مرجع سابق)، ص24.

3- ابن خلدون، المقدمة، تح: عبدالله محمد الدرويش، ط1 دمشق: دار البلخي، 2004م، ج2، ص210.

ومن أمثلة ذلك ما وقع في النصف الثاني من القرن الأول من الفسق والمجون كشراب الخمر والزنا واحتجاج مقتري هذه الأعمال بالقدر المحتوم الذي لا فكاك منه، مما دعا إلى الرد عنهم بأنهم مختارون لأفعالهم، وأنهم مسؤولون عنها متحملون لتبعاتها، وانجر البحث من ذلك إلى البحث في القضاء والقدر والفعل الإنساني بين الجبر والاختيار، وهي مسألة ذات طبيعة عقديّة.

ومن الأمثلة أيضاً أن بعض المنكرين لظواهر الفسق والمجون ذهبوا إلى الحكم على مرتكبي هذه الأعمال بالكفر فقابلهم آخرون بالقول: إنها وإن كانت كبائر إلا أنها لا تنقض الإيمان؛ وإنما تؤدي إلى الفسق، مما اقتضى البحث في حقيقة الإيمان وأركانه ونواقضه والكفر وسبله، وتلك أيضاً مسألة عقديّة¹.

كما كان للخلافات السياسية التي حدثت بين الصحابة -رضي الله عنهم- حول الخلافة، والفتنة التي وقعت بمقتل عثمان رضي الله عنه، والقتال الذي وقع بين الإمام علي وخصومه في موقعي الحمل وصفين.

كل ذلك كان له أثر في ظهور الفرق المختلفة وخاصة الخوارج والشيعة التي تبلورت لها آراء عقديّة خاصة².

6-3- تحديات خارجية:

وهو ما كان من شبه وردت على العقيدة الإسلامية نتيجة التقاء المسلمين بأتباع ديانات ومذاهب مخالفة، خاصة بعد حركة الفتوح لبلاد الشام والعراق وفارس، فهؤلاء منهم من أسلم مخلصاً، ولكن بقيت في نفسه شوائب من معتقده السابق، فجعل يدخلها في العقيدة الإسلامية مثل بعض معاني التشبيه والتجسيم التي كان عليها اليهود، ومنهم من لم يسلم إلا ظاهراً، وجعل يدس تلك المفاهيم بقصد إفساد المعتقد الإسلامي وتحريفه، مثل معاني الاتحاد والحلول التي كانت عليها أديان فارس والهند ومنهم من بقي على دينه وجعل يدافع عنه بإثارة الشبهات والمطاعن في المعتقد الإسلامي، كما فعل بعض المسيحيين والمجوس.

فلما ظهرت هذه التحديات الحقيقية واستهدفت العقيدة، انبرى علماء المسلمين لإبطالها وردّها، ودحض حججها والبرهان على ثبوت العقيدة الإسلامية، ومن ثم نشأ البحث في مسائل العقيدة، ثم تطورت حتى صار علماً مستقلاً³.

1- ينظر: النجار، الإيمان بالله، (مرجع سابق)، ص 17، 18.

2- الشافعي، المدخل إلى علم الكلام (مرجع سابق)، ص 66.

3- النجار، الإيمان بالله، (مرجع سابق)، ص 19.

7 - مراحل علم الكلام:

مر علم الكلام منذ نشأته إلى الآن بمراحل مختلفة، تراوح فيها بين القوة والضعف، تميزت كل مرحلة منها بميزات وخصائص، ويمكن تلخيص هذه المسيرة على النحو التالي:

7-1- مرحلة النشأة: واستغرقت زمنياً القرنين الهجريين الأول والثاني¹ تقريباً، وإن كانت المناقشات في مسائل العقيدة حدثت في القرن الأول، إلا أن النشأة الحقيقية لهذا العلم لم تكن إلا في أوائل القرن الثاني على يد واصل بن عطاء (ت 131هـ) وعمرو بن عبيد (ت 144هـ) وهما من المعتزلة، وفي هذه المرحلة وضعت المعالم الأساسية لهذا العلم في قضاياه وفي منهجه، إلا أنه لم تظهر فيه كل القضايا ولا كل الطرائق الاستدلالية التي اكتملت فيما بعد، وكذلك ألفت فيه بعض الرسائل والكتب التي لم يصل منها شيء يذكر، ولكن هذه التأليف لم تكن إلا بدايات تأسيسية تتصف بالبساطة شأن سائر العلوم في أطوار نشأتها الأولى².

أما أهم القضايا التي تم بحثها في هذه المرحلة وافترق حولها الرأي فهي:

- مسألة حكم مرتكب الكبيرة هل هو مؤمن أم كافر، فقد نزع الخواارج إلى التشدد والتطرف، وحكموا بكفر مرتكب الكبيرة وبخلوده في النار، وحكموا بكفر أمير المؤمنين علي عليه السلام، بعد قبوله التحكيم، وخرجوا عن طاعته واعتزلوا في منطقة حروراء فسموا بالخواارج والحرورية. وفي مقابلهم تطرف المرجئة وقالوا بأنه لا يضر مع الإيمان معصية، ووقف علماء السلف من الصحابة والتابعين الموقف الوسط مبينين أن المسلم لا يخرج من الملة بذنب ولو كان كبيراً، ما لم ينكر أصلاً معلوماً من الدين بالضرورة، ولكنه مسلم فاسق وأمره إلى الله إن شاء عفا عنه، أو نالته الشفاعة أو عذبه، لكن دون الخلود في النار.

- مسألة الإمامة وقيادة الجماعة المسلمة: اختلف المسلمون في مسألة الخلافة ومن هو أحق بها أهم آل البيت كما يرى الشيعة، أم أن الأمر متروك للأمة وفق نظام الشورى؟ فرأى الشيعة أن الإمام علياً أحق بالخلافة ممن تقدمه وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده، وأنها ليست قضية مصلحة تناط باختيار الأمة، بل هي ركن من أركان الدين لا يجوز للرسول إغفالها أو إهمالها. أما الخواارج فيرون أن الإمامة تنعقد لأكثر المسلمين علماً وورعاً وعدلاً سواء كان قرشياً أو غير قرشي.

1- الشافعي، المدخل إلى علم الكلام (مرجع سابق)، ص 53.

2- النجار، الإيمان بالله، (مرجع سابق)، ص 20.

- مسألة الفعل الإنساني بين الجبر والاختيار: تطرف البعض في هذه المسألة وقالوا بنفي العلم القديم، وقالوا: بأن الإنسان يخلق أفعاله بنفسه دون حاجة إلى معونة إلهية وشعارهم لا قدر والأمر أنف، وسموا بالقدرية الأوائل، وتجدر الإشارة ألا نخلط بين هؤلاء والمعتزلة المعترفين بالعلم الإلهي السابق، وإن اشتركوا في حرية الإنسان وخلقه لأفعاله.

وفي مقابل هؤلاء نزع آخرون إلى الجبر، ونفوا الفعل عن الإنسان تماماً ونسبوه إلى الله تعالى وحده حتى تطرف بعضهم وقال: إن الإنسان كالريشة في الهواء، لا فعل له، ولا قدرة، وقد تصدى علماء الصحابة والتابعين لكلا الفريقين يكشفون عن خطئهم ويشرحون المذهب المعتدل الذي يتماشى مع مجموع النصوص، وإن تباينت آراء أهل السنة إلا أنها متقاربة.

7-2- مرحلة النضج: استغرقت هذه المرحلة زمنياً القرن الثالث والرابع والخامس على وجه التقريب، وفيه توسعت مباحث علم الكلام، فشملت الإلهيات والنبوات والسمعيات، ونضج البحث في كل منها واستوفى عناصرها.

كما أن المنهج المستعمل في الاستدلال هو بدوره توسع أيضاً، فشمل المنهج النقلي والعقلي ووقع فيه الاقتباس من مسائل العلوم الطبيعية والمنطقية لتستخدم كمقدمات في الاستدلال وفي هذه المرحلة، كثر العلماء والباحثون من مختلف المدارس الكلامية وتنوعت المؤلفات وازدهرت. وفيها قام هذا العلم بدور الدفاع عن العقيدة توضيحاً وإثباتاً ورداً عن المطاعن والشبهات التي تكاثرت، وكان له فضل كبير في حفظ العقيدة ودحر المخالفين رغم مظاهر الشطط التي وقع فيها بعضهم كالمعتزلة مثلاً في مسألة خلق القرآن¹. ومن أشهر علماء هذه المرحلة وأهم كتبهم نذكر:

من المعتزلة: أبا الهذيل العلاف، (ت 226هـ)، إبراهيم النظام (ت 231هـ)، وأبا عثمان الجاحظ (ت 255هـ)، ومن كتبه: " الرد على النصارى " أبا علي الجبائي (ت 303هـ) وابنه أبا هاشم الجبائي (321هـ)، وأبا الحسين الخياط (ت 390هـ) ومن كتبه التي وصلتنا كتاب الانتصار، والقاضي عبد الجبار (ت 417هـ) ومن كتبه الموسوعة الضخمة " المغني في أبواب التوحيد والعدل".
وإن كان المعتزلة قد فقدوا مكانتهم إلا أن منهجهم وكثيراً من أفكارهم قد تسربت إلى عديد من الفرق.

أما من أشهر علماء أهل السنة في هذه المرحلة، فنذكر من المحدثين الإمام الدارمي (260هـ) الذي ألف كتابه " الرد على الجهمية"، والإمام محمد بن اسماعيل البخاري (256هـ) ومن كتبه "

1- النجار، الايمان بالله، (مرجع سابق)، ص 20-21.

خلق أفعال العباد"، ومن الأشاعرة نذكر الإمام المؤسس أبا الحسن الأشعري (ت324هـ) ومن كتبه "الإبانة عن أصول الديانة ومقالات الإسلاميين". وأبا بكر الباقلاني (ت403هـ) ومن كتبه "التمهيد"، وإمام الحرمين الجويني (ت478هـ) ومن كتبه "الشامل" و"الإرشاد"، وأبا حامد الغزالي (ت555هـ) ومن كتبه "إلجام العوام عن علم الكلام" و"الاقتصاد في الاعتقاد".
ومن الماتريدية الإمام أبو منصور الماتريدي (ت333هـ) ومن أهم كتبه "كتاب التوحيد"، "وتأويلات أهل السنة".

وهناك كثير غير هؤلاء من مختلف الفرق الإسلامية كالظاهرية والشيعة والإثنا عشرية وغيرهم ساهموا كلهم خلال هذه المرحلة في إنضاج علم الكلام وإكمال بنائه سواء ما تعلق بمسائله أو منهجه، وتعتبر هذه المرحلة أهم مراحلها سواء في ثراء مادته ومنهجه أو في نجاحه في الدور الذي قام به دفاعاً عن العقيدة، وكذا المؤلفات العديدة التي دونت فيه حتى اعتبر ما جاء بعده إنما هو عالة عليه¹.

7-3- مرحلة الاستقرار:

امتدت هذه المرحلة زمنياً على وجه التقريب القرون الثلاثة: السادس، والسابع، والثامن، ولم يعرف علم الكلام في هذه المرحلة نمواً ذا قيمة لا موضوعياً ولا منهجياً، ولكن وقع فيه مزيد ترتيب وتنظيم للكم الكبير من البحوث التي أنجزت في المرحلة السابقة حتى غدا هذا العلم على أحسن حال في تحرير المسائل وعرضها، مع إضافات محدودة في الاستدلال؛ إذ اختلقت مباحثه بمباحث الفلسفة في الإلهيات وفي البحوث الطبيعية كما يلاحظ ذلك في كتاب "محصل آراء المتقدمين والمتأخرين" للرازي وغيره، وكان ذلك بغرض الرد على ما تضمنته من آراء مخالفة للعقيدة، ودعم المواقف الكلامية ببعض أفكار هؤلاء الفلاسفة.

ومن أبرز أعلام هذه المرحلة من الأشاعرة فخر الدين الرازي (ت606هـ) ومن كتبه "معالم أصول الدين" و"التفسير الكبير"، وعلي الآمدي (ت631هـ) ومن كتبه "غاية المرام في علم الكلام"، وعضد الدين الإيجي (ت756هـ) ومن كتبه "المواقف في علم الكلام" الذي شرحه السيد الشريف الجرجاني، ويعد أهم شرح عليه.

أما من الماتريدية فنذكر: سعد الدين التفتازاني (ت793هـ) ومن كتبه: "شرح المقاصد" و"شرح العقائد النسفية"، وكمال الدين بن الهمام (ت861هـ) ومن كتبه "المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة".

1- حسن محمود الشافعي، المدخل إلى علم الكلام، (مرجع سابق)، ص 71.

ومن أهل السنة السلفية نذكر: ابن تيمية (ت728هـ) ونذكر من كتبه "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" و"درء تعارض العقل والنقل"، و"منهاج السنة النبوية" وتلميذه ابن قيم الجوزية، ومن كتبه "مفتاح السعادة"، وهداية الحيارى في الرد على النصارى".
كما كان للشيععة والإباضية مساهمات في التأليف في هذا العلم ولكنها لم تخرج في الجملة على خصائص المرحلة.¹

7-4- مرحلة الجمود والتقليد:

استغرقت هذه المرحلة ما يقارب الخمسة قرون: من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر، وفيه اقتصر العلماء على ما ألفه أسلافهم وعكفوا عليه بالدراسة شرحاً واختصاراً وتحشية، دون إضافة تذكر لا في الموضوع ولا في المنهج، وتحول هذا العلم في الأغلب إلى مصطلحات تردد واستدلالات تكرر، دون أن يكون لها صلة بوضع العقيدة في الواقع. ولم يعد هذا العلم يقوم بدوره الدفاعي الذي من أجله نشأ، ولعل ذلك راجع إلى الركود العام في الحياة العلمية الإسلامية؛ إذ لا يخفى أن علم الفقه وعلوم اللغة وغيرها عرفت نفس المآل من الجمود والتقليد غالباً.

ولعل من أهم أعلام هذه المرحلة الإمام السنوسي (ت 895هـ) صاحب العقائد المشهورة: الكبرى، الوسطى والصغرى (أم البراهين)، وصغرى الصغرى، وقد تولى بنفسه شرح كتبه، كما شرحها أعلام آخرون، وعلقوا عليها وكتبوا عليها حواش، بل حواش للحواشي، ولعل هذا المثال يعكس التردّي الذي وصلت إليه حالة هذا العلم، حيث غلبت النزعة الاجترارية وعدم الاستجابة لتحديات الواقع.²

7-5- مرحلة البعث والتجديد:

بعد فترة طويلة من الجمود، وبفعل الصدمة الحضارية التي عرفتتها أمتنا بدأت تدب حياة جديدة في علم الكلام، وذلك أن شدة التحديات التي تعرضت لها العقيدة الإسلامية بظهور الغزو الثقافي الغربي المتسلح بالفلسفة والعلم نبهت العلماء والمفكرين على أن التيارات الوافدة والقضايا المستجدة لا يمكن أن تواجهه بالأساليب القديمة، بل لابد من تجديد منهج هذا العلم بما يقنع العقلية المعاصرة، وبما يكافئ في القوة أساليب الخصوم، ومن ثم بدأت تظهر نزعة تجديدية في عرض العقيدة الإسلامية، والاستدلال على مسائلها، ومحاولة تنفيذ ما يعارضها.

1- ينظر: عبد الحميد النجار، الإيمان بالله وأثره، (مرجع سابق)، ص 21.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص 22-23.

يحسن بنا أن نقدم عرضاً موجزاً عن هذا العلم المتجدد، نعرف من خلاله بالرواد، الذين كان لهم شرف التأسيس والمساهمة في هذا الجهد العلمي، كما نحاول بيان مقتضيات هذا التجديد وأهم الدعائم التي يقوم عليها، ومجالات هذا التجديد إلى غير ذلك من المسائل التي من شأنها المساعدة على ضبط مفهومه وتكوين صورة وافية عنه.

7-5-1- مفهوم تجديد علم الكلام:

في البداية وقبل الحديث عن تجديد الندوي لعلم الكلام، يحسن أن نشير إلى المقصود بالتجديد في بعده اللغوي والاصطلاحي.

أ - لغة:

بالعودة إلى المعاجم اللغوية، وبتتبع تصريف الكلمة ودلالاتها المختلفة، نجد أن الفعل (جَدَّ) يتمحور حول معنى أساسي هو القطع، يقال: ثوب جديد، وملحفة جديدة حين جَدَّها الحائك أي قطعها حديثاً¹.

كما يقال: جَدَّدَ العهد، وجدد الضوء وقد يبدو للوهلة الأولى أنهما بعيدا عن معنى الفعل جَدَّ، الذي يأتي بمعنى القطع، ولكن عند إتمام النظر نجد أنهما على مثل المعنى الأول، فكأن الزمان قطع العهد، فاحتاج إلى تجديد في الأول، وكأن الحدث قطع الضوء، فاحتاج إلى تجديد في الثاني، ومنه تسمية العرب الليل والنهار بالجديدين ويقال في اللغة تجدد إذا صار جديداً².

فكأن التجديد هو وصل ما انقطع من المعهود، وإعادة إلى حالة الفاعلية، بعد أن أدركه البلى على مرور الزمن، فاحتاج إلى من يعيده إلى حالته الأولى التي كان عليها، وهو المعنى الذي نراه يتساق مع المفهوم الاصطلاحي للكلمة؛ إذ يرى "محمد الطاهر بن عاشور" أن التجديد هو عبارة: "عن الجهود العلمية والعملية التي تبذل لإصلاح الناس في الدنيا: إما من جهة التفكير الديني الراجع إلى إدراك حقائق الدين، وإما من جهة العمل الديني الراجع إلى إصلاح الأعمال، وإما من جهة تأييد سلطانه"³.

وهذا التعريف يحدد أبعاد التجديد الديني في ثلاثة محاور أساسية:

- بعد الفهم له.

1- ابن منظور الأفرقي، لسان العرب، ط1، بولاق: المطبعة الأميرية بمصر، 1300هـ، ج4، ص81 وما بعدها.

2- المرجع نفسه، ج4، ص82.

3- محمد الطاهر بن عاشور، تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنة، ط1. تونس: الشركة التونسية للنشر والتوزيع 1985م، ص113.

- بعد العمل به.

- بعد المحافظة عليه.

ب- مفهوم علم الكلام الجديد اصطلاحاً:

تباينت الآراء حول تحديد هوية علم الكلام الجديد إلى درجة يصبح معها القول أننا أمام علمين مختلفين، ويمكن تقسيم هذه الآراء إلى اتجاهين رئيسيين هما:

أولاً: اتجاه يرى أن علم الكلام الجديد ما هو إلا تحديث للمنظومة الكلامية القديمة لمواكبة القضايا الجديدة التي تواجه المعتقد الإسلامي.

فظهر مسائل جديدة لم تكن مطروحة على بساط البحث في الكلام التقليدي يقتضي مواجهتها بإدراجها ضمن موضوعات الكلام الجديد، ومثاله ما أثاره المستشرقون من شبهات، كإدعاء أن عقيدة القضاء والقدر هي سبب تخلف المسلمين، وكقضية نطاق الدين، ومحدوديته في العلاقات الخاصة بين العبد وربّه، وإنكار أن يكون له توجيه للحياة العامة.

وكذلك يقتضي تجدد الأساليب والمناهج التي تواجه العقيدة الإسلامية تجديداً في مناهج مواجهتها، بما يكافئ أساليب الخصوم.

مع التأكيد على أن الوظيفة الأساسية للكلام الجديد هي نفس الوظيفة التقليدية، وهي وظيفة بيانية، إقناعية، دفاعية، تنغية الدفاع عن المعتقد الإسلامي أمام شبهات الخصوم بنقض أدلتهم، وإقامة الحجة على حقية المعتقد الإسلامي¹.

فالمتكلم حسب هذا الإتجاه، ينطلق من قناعة راسخة بصحة القضايا التي جاء بها الوحي، ويقوم بشرحها والبرهنة على حقائقها والدفاع عنها.

ومن ممثلي هذا الإتجاه نذكر:

شibli النعماني الذي ألف كتاباً بعنوان "علم الكلام الجديد" ورد فيه بعض افتراءات المستشرقين. وحيد الدين خان ومن أبرز كتبه الإسلام يتحدى، الذي استخدم فيه حقائق العلم الكوني، لمقارعة الإلحاد واللا دينية.

ومن العالم العربي نذكر:

حسين الجسر ومحمد عبده اللذين ساهما مبكراً في التأليف في هذا الإتجاه.

ومن المعاصرين الذين يرفعون لواء التجديد في علم الكلام، الباحث التونسي عبد المجيد النجار.

1- ينظر عبد المجيد النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، (مرجع سابق)، ص 23 وما بعدها.

ثانياً: أما الإتجاه الثاني فيرى اصحابه قطيعة كاملة بين الكلامين التقليدي والجديد، وينحون به منحى مغايراً تماماً. ونشير هنا إلى مشروعين تحديثيين مختلفين:

أولهما مشروع الباحث المصري حسن حنفي، وثانيهما مشروع الباحث الإيراني عبد الكريم سروش ومن لف لفه.

أما حسن حنفي فتتمثل رؤيته في تجديد علم الكلام بتحويله من دراسة الإلهيات والنبوات والسمعيات، إلى دراسة الإنسان، بحجة أن أزمتنا المعاصرة، هي أزمة حرية وتنمية، وانحطاط في النظام الإقتصادي والسياسي والإقتصادي، يقول: "ولهيئتنا يجب أن تكون إلهيات أرضية، ولاهوت الثورة، ولاهوت التنمية والتطور"¹.

ويرى ان التوجه القديم لعلم الكلام نحو القضايا اللاهوتية كان بسبب تأثيرات سياسية، ولا بد من تغيير موضوعات وأهداف هذا العلم ليكون علماً بالإنسان وواقعه، يتحرر به من الإحتلال والتخلف والقهر والفقير².

والحق أن هذه النظرة التجديدية تبتعد بعلم الكلام عن إطاره المعهود بالتغيير الجذري لقضاياها وأهدافه وتحوله إلى علم آخر بعيد كل البعد عما وضع له، بل تشكل قطيعة معه³.

أما المشروع الثاني فيحمل لواءه عدد من الباحثين الإيرانيين المعاصرين من إبرزهم عبد الكريم سروش، ومصطفى ملكيان، ومحمد مجتهد شبستري.

تتلخص رؤية هذا الإتجاه لعلم الكلام في كونه يختلف عن القديم في القضايا والمنهج واللغة، وحتى المقاصد والغايات، فإذا كانت وظيفة علم الكلام التقليدية وظيفية أيديولوجية مضمونها المنافحة عن العقائد الإيمانية، فإن وظيفة الكلام الجديد وظيفية معرفية مضمونها التعرف على حقيقة الظاهرة الدينية، وتحليل عناصرها، بالإستفادة من البحوث الجديدة، في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم، دون إلتزام الدفاع والنصرة للقضايا الدينية⁴.

1- حسن حنفي، التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1992، ص127.

2- حسن حنفي، دراسات إسلامية، مؤسسة الأنجلو المصرية، 1981، ص398.

3- للتوسع في آراء حسن حنفي في الموضوع؛ ينظر: من العقيدة إلى الثورة، ج1، ص77 وما بعدها؛ والتراث ولتجديد، ص127 وما بعدها؛ ودراسات إسلامية، ص398 وما بعدها.

4- ينظر: مجموعة من المؤلفين، العقلانية الإسلامية والكلام الجديد، ط:1، بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2008، ص70.

وهذا التصور لا يتضمن رسم حدود فاصلة دقيقة بين الكلام الجديد وفلسفة الدين، بالإضافة إلى أنه يخلط بين الكلام الجديد والإلهيات المسيحية الحديثة¹. وبناء على هذا التصور تنوعت المسائل المطروحة على بساط البحث في هذا العلم المتجدد، منها على سبيل المثال البحث في النزعة الدينية من حيث حقيقتها، وأسباب ظهورها، وحقيقة التجربة الدينية، ومعيار ضبط صدقيتها، وعقلانية القضايا الدينية.. إلخ². كما لا يفوتنا التذكير بأن هذا العلم حسب هذا الإتجاه، ينفتح على متعددة؛ كعلم: تفسير النصوص (الهرمنيوطيقا)، وعلم السيمياء وغيرها³. ولابد من التنبيه في آخر هذا المدخل المفهومي على أننا نقصد بالكلام الجديد في هذه الدراسة المعنى الأول؛ أي الجهود التجديدية لعلم الكلام في القضايا والمناهج، لا الأهداف والغايات، ولا علاقة لنا البتة بالمقاصد المتجددة لهذا العلم، كما في مشروع حسن حنفي أو عبد الكريم سروش. والذي دفعنا إلى استخدام هذا الإصطلاح وروده في أدبيات أعلام الهند بهذا المفهوم، والشخصية المدروسة في هذا البحث تنتمي إلى ذات السياق المعرفي والتاريخي.

7-5-2- رواد التجديد في علم الكلام:

لعل أول من دعا إلى تجديد علم الكلام هو العالم الهندي المسلم شبلي النعماني، (1274 هـ - 1318 هـ)⁴، في كتابه "علم الكلام الجديد" الذي هدف من خلاله إلى الرد على الشبهات الحديثة التي أثارها خصوم الإسلام، وقد ذكر شبلي في مطلع كتابه: "لقد كان علم الكلام القديم منصباً فقط على بحث العقائد الإسلامية، لأن المخالفين للإسلام، في ذلك العهد كانت اعتراضاتهم تتعلق بالعقائد، ولكن في الوقت الحاضر يبحث في الجوانب التاريخية والحضارية والأخلاقية للدين. إن عقائد أي دين عند الأوربيين لا تكون جدية بالاعتراض إلى هذا الحد ما لم تكن هذه المسائل قانونية وأخلاقية، وفي رأيهم أن إباحة تعدد الزوجات والطلاق والرق والجهاد في أي دين أكبر دليل

1- ينظر: عبد الجبار الرفاعي، تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية، ط:1، دمشق: دار المدى، 2010، ص44.

2- ينظر: مجموعة من المؤلفين، العقلانية الإسلامية والكلام الجديد، (مرجع سابق)، ص38-45.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص70.

4- من أشهر مؤلفاته: "سيرة الغزالي"، و"سيرة العارف الرومي"، و"الفاروق"، و"رحلته"، انظر في ترجمته: عبد الحي الندوي، الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام، (مرجع سابق)، ج3، ص1241-1242؛ وينظر أيضاً: محمد أكرم الندوي، شبلي النعماني علامة الهند الأديب والمؤرخ الناقد الأريب، ط1، دمشق، دار القلم، 2001م.

على بطلان هذا الدين"¹. فلا بد لعلم الكلام الحديث من معالجة هذه القضايا. وقد أشاد الندوي بجهود العلامة "شبلي" في الدفاع عن الإسلام وتزييف مقالات خصومه، كادعاء أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، وما أثاره المستشرقون حول مسألة الجزية في الإسلام.²

كما أن للسيد جمال الدين الأفغاني (1838-1897م) في رسالته "الرد على الدهريين" نَفَسًا تجديدياً تجلّى في كشفه أن الفاعلية الأصلية لعقيدة التوحيد هي فاعلية اجتماعية تمدنية، وأن الدين دعامة أساسية للبناء الاجتماعي والعمراني، وأن إنكار المبدئين الأساسيين اللذين يقوم عليهما كل اعتقاد ديني: الألوهية من ناحية والبعث أو الحشر من ناحية ثانية يؤدي ضرورة إلى إفساد الهيئة الاجتماعية وزعزعة أركان المدنية.³

ولا شك أن هذا الطرح يعتبر طرحاً جديداً لم تعهده المدونات الكلامية القديمة؛ إذ هو استجابة لتحديات جديدة تعرض لها الدين تمثلت في المذهب المادي الذي ينكر الخالق والمعاد.

ويعد الإمام محمد عبده (ت 1905 م)، أبرز من كتب في هذا المرحلة التجديدية، وتعتبر "رسالة التوحيد" أهم الجهود البنائية الإيجابية ومن أبرز ما نبه عليه في رسالته: - رغم إلحاحه على الجانب العقلي - إشادته بدور الوجدان واعتبار سلطته على الإنسان أقوى من سلطة العقل، يقول في ذلك " إن أقصر الطرق وأقومها في التأثير على الوجدان لا تأتي إلا من نافذة الوجدان المطلّة على سر القهر المحيط من كل جانب، فهي التي تذكّر الإنسان بقدرته الله الذي وهبه ما وهب، الغالب عليه في أدنى شؤونه إليه، بما في نفسه الآخذ بأزمة هممه. وهي التي تسوق إليه من الأمثال في ذلك ما يقرب إلى فهمه ثم تروي له ما جاء في الدين المعتقد به، من مواعظ وعبر ومن سير السلف في ذلك الدين ما هو أسوة حسنة وتنعش روحه بذكر رضا الله إذا استقام وسخطه عليه إذا تقحم. عند ذلك يخشع من منه القلب وتدمع العين ويستخذي الغضب وتحمّد الشهوة"⁴.

ومن أبرز معالم التجديد في "رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده بيانه وكشفه عن مضامين متعددة وفعاليات مختلفة لعقيدة التوحيد بعضها نفسي، وبعضها اجتماعي وبعضها أخلاقي وبعضها تمدني.

1- شبلي النعماني، علم الكلام الجديد، تر: جلال السعيد الحفناوي، ط1، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2012، ص181-182.

2- ينظر: الندوي، الطريق الى السعادة والقيادة، (مصدر سابق)، ص 171-172. ونظرات في الأدب، (مصدر سابق)، ص85-86.

3- ينظر: فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط3. عمان: دار الشروق، 1988م، ص199.

4- محمد عبده، رسالة التوحيد، بيروت: دار إحياء العلوم، 1985، ص113-114.

لقد مثل التوحيد لدى محمد عبده طاقة محررة من الطراز الأول تطهر العقول من الأوهام والعقائد الخرافية، وترتفع بالإنسان إلى أسمى مراتب الكرامة.

كما أنه تحرير للإنسان وإطلاق لإرادته من القيود التي كانت تكبلها سواء تمثلت في الرؤساء الدينيين، والكهنة أو المختالين والدجالين، بهذا تحرر الإنسان من عبودية كل موجود سوى الله تعالى، كما تقرر عقيدة التوحيد المساواة بين جميع الناس ورد التفاوت والتفاضل بينهم إلى عقولهم ومعارفهم وفضائلهم على المستوى الخلقى، وإلى عملهم الخير الخالص على المستوى الاجتماعي.

كما أن من أبعاد التوحيد تحرير العقل من سلطة التقاليد الراسخة في عقائد الأمم وإيقاظه من سباته وتخليصه من هيمنة سدنة هياكل الأوهام والخرافات، والجهر بأن الإنسان مخلوق مكرم بالعقل لم يخلق ليقاد.

والتوحيد عنده يعني رد الكثرة إلى الوحدة، والتناوب والفرقة والتخالف إلى الاتحاد والألفة والتجمع. وهذا يصح في رد العقائد إلى دين الله الواحد، كما يصح في رد مظاهر الفرقة الاجتماعية إلى الوحدة والتضامن¹.

ومن أسهم في الجهود التأسيسية لتجديد علم الكلام العالم السوري حسين الجسر الطرابلسي (1845- 1909م) في كتابه "الرسالة الحميدية" و"الحصون الحميدية" وقد تصدى الجسر لمجابهة مخرجات العلم الحديث في صورة أشهر نظرياته في القرن التاسع عشر ألا وهي النظرية الداروينية، إذا ناقش أصحابها بجرأة وثقة ظاهرتين وبصورة اضمحلت فيها مظاهر الرعب التي أثارها هذه الفلسفة لدى معظم المؤمنين في العصر الحديث.²

كما تضمن مشروعه التجديدي التسويغ العقلي لعناصر الاعتقاد الإيماني التي تبدو "لا عقلية"، كالمعجزات والبعث والملائكة؛ مما حصّن الشباب المسلم وحفظ عليه عقيدته وإيمانه أمام التيار الوافد.

أما من حيث المنهج فقد جمع الجسر بين أدلة علم الكلام التقليدي وضم إليها استدلالات بالحقائق العلمية الكونية، واعتبر العلوم الطبيعية، كعلم النبات، وعلم الحيوانات، وعلم الفلك وغيرها مما يبحث في قوانين الموجودات تقدم خير الأدلة على وجود الله وتما قدرته وسمو حكمته، وقد مكّنه

1- ينظر: فهمي جدعان، أسس التقدم الفكري، (مرجع السابق)، ص 206-207..

2- ينظر: تفصيل مناقشته لدعاة هذا المذهب، المرجع نفسه، ص 223 - 232.

تكوينه التقليدي في الأزهر، واطلاعه الجيد على كتب العلوم الحديثة التي تُرجم بعضها إلى العربية، من القيام بذلك على أحسن الوجوه¹.

وقد كان لهذه المحاولة تأثير تاريخي تمثل في إغراء كثير من جاءوا بعد الجسر بالسير في هذا الطريق والاسترسال في بيان اتفاق مضمون آيات القرآن مع مكتشفات العلم الحديث². ويجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى تنويه الندوي بالشيخ الجسر وكتابات المدافعة عن العقيدة الإسلامية، يقول الندوي: "وقد عرفنا نحن أبناء شبه القارة الهندية علامة الشام "حسين الجسر الطرابلسي" بكتابه "الرسالة الحميدية" الذي سارت بذكره الركبان في فجر هذا القرن الهجري، وقد أعجب به علماء الهند واعتبروه دافعاً علمياً قوياً عن العقيدة الإسلامية والدين"³.

ومن أبرز من انخرط في هذه العملية العالم المصري "طنطاوي جوهرى" (1870 - 1940م)، الذي حث على دراسة علوم الطبيعة وبخاصة علم البيولوجيا والفلك، ففي هذه العلوم تتجلى مظاهر العلة الغائية في الكون؛ فالترتيب المحكم، والنظام البديع والحكمة الكاملة في أجزاء الكون وفي أعضاء الإنسان والحيوان، تكشف صراحة أن للوجود خالقا بديعا حكيما واحدا⁴.

ومن سار في هذا النهج أيضا العالم الدمشقي "محمد جمال الدين القاسمي" (1866-1914م) صاحب كتاب "دلائل التوحيد" الذي بناه على تأسيس الاعتقاد على العقل الفلسفي والمنجزات العلمية، كما دعا الجسر، فهو يقول صراحة: "إنه كلما ازداد المرء علما بالفنون الكونية ورسخت قدمه في العلوم الطبيعية ازداد بموجد الكون معرفة، وبالآيات الدالة عليه بصيرة... وكلما ارتقى الإنسان في العلم ولطّف وجدانه بالفهم، ونفذ عقله في أسرار الكون تمزقت دون روجه حجب المادة وأنجلي له الوجود الأعلى"⁵.

كما أنه استخدم فكرة الأفغاني التي تؤكد على الدور البنائي للدين في المجال الاجتماعي والعمراني مقابل الأثر الهدمي الذي يحدثه القول بالمذاهب المادية.

ومن كانت له اليد الطولى والإسهام الوافر في تجديد علم الكلام، المفكر والشاعر الهندي المسلم "محمد إقبال" (1873-1938 م)، فقد كان لكتابه "تجديد الفكر الديني في الإسلام" الذي

1- فهمي جدعان، أسس التقدم الفكري، (مرجع السابق)، ص 216.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص 237.

3- الندوي، من نهر كابل الى نهر اليرموك، (مصدر سابق)، ص 120.

4- ينظر: فهمي جدعان، أسس التقدم الفكري، (مرجع السابق)، ص 237.

5- ينظر: المرجع نفسه، ص 239.

شرح فيه أفكاره وتأملاته ورؤيته - صدى قويا واهتماما كبيرا - بالإضافة إلى دواوينه الشعرية التي تناول فيها قضايا عدة، وضمنها رؤيته التجديدية، ويمكن تلخيص أبرز مشاركات إقبال في الآتي:

الأول: هدمي:

ويتمثل في التبصير بالأخطاء التي وقع فيها المتكلمون سواء من المعتزلة أو الأشاعرة. **المعتزلة:** إذ من المعلوم أن المعتزلة قد غلب عليهم النظر العقلي، فانعكس ذلك على رؤيتهم لحقائق الدين حيث نظروا إلى الدين نظرة عقلية مجردة نات بهم عن إدراك روح القرآن وما يشتمل عليه من حقائق واقعية وجدانية، حيث اعتبروا الدين "مجموعة من العقائد، متجاهلين أنه حقيقة حيوية - فلم يخلوا بأساليب إدراك الحقيقة إذا كانت لا تقبل التصور، وأرجعوا الدين إلى نسق من المعاني المنطقية، انتهى إلى موقف سلمي بحت، وغاب عنهم أنه في ميدان المعرفة - علمية كانت أو دينية - لا يمكن للفكر أن يستقل تمام الاستقلال عن الواقع المتحقق في عالم التجربة"¹.

وهكذا انتهى الأمر بالمعتزلة إلى الغلو والإسراف في الاستدلال العقلي، ولم ينتبهوا إلى أن الدين يرتبط أساسا بالشعور والوجدان، ولكي ندرك الحقيقة إدراكا كاملا ينبغي أن يكمل الإدراك الحسي، بإدراك آخر هو ما يصفه القرآن بإدراك القلب وهو نوع من علم الباطن أو البدهة وهو ما بينه بقوله: "وهو قوة ترى أن ما يتحدث به القلب لا يكذب أبدا إذا فسر على وجهه الصحيح، وعلى هذا الأساس يكون مجال الرياضة المفتوح سبيله للقلب مجالا حقيقيا وواقعا ككل ضرب من ضروب التجربة"².

أما الأشاعرة - في رأي محمد إقبال - فهي مدرسة قامت على أساس الدفاع العقلي عن الدين على رأي أهل السنة، ومجاهة العقليين بسلاح المنطق اليوناني، إلا أن إقبال وعلى الرغم من قبوله الكثير من آراء هاته المدرسة كالقول بخالقية الله للكون وما فيه، وعلمه المحيط الواسع فإنه رفض المسلك المنطقي اليوناني الذي انتهجوه في الدفاع عن العقيدة، ويرى إقبال أن الأشعرية لم تعمل بالقدر الكافي على تطهير العقيدة من الشوائب التي لحقتها من العناصر التي تسربت إلى الثقافة الإسلامية من هنا وهناك، تحت عوامل مختلفة³.

1- ينظر: محمد إقبال، تجديد التفكير الديني، تر: عباس محمود، ط 1. دار آسيا: 1985م، ص 10؛ وينظر أيضا: محمد إقبال، ما وراء الطبيعة في إيران، تر: حسين مجيب المصري، ط 1. المجلس القومي للترجمة 2005م، ص 105 وما بعده.

2- محمد إقبال، تجديد التفكير الديني، تر: عباس محمود، (مرجع سابق)، ص 23.

3- محمد إقبال، ما وراء الطبيعة في إيران، تر: حسين مجيب المصري، (مرجع سابق)، ص 105. وما بعده.

إضافة إلى ذلك؛ فإن الأشاعرة حسب وجهة نظر إقبال لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حافظوا على الذات الإلهية، وحرمتها في الخلق، لكنهم ألغوا نظام العالم بنفيهم لمبدأ السببية، لكي يثبتوا معجز الأنبياء- صلوات ربي وسلامه عليهم - ويؤكد إقبال أن أهل السنة كانوا " يعتقدون بالمعجزات وقانون السببية الكلية، ولكنهم كانوا يجزمون بأن الله في عمله لمعجزة من المعجزات، كان يوقف العمل بهذا القانون؛ وأما الأشاعرة الآخذون بفرضية أن السبب، والأثر لا بد أن يكونا متجانسين، فلم يستطيعوا أن يشاركوا في هذا الرأي السني، وأقروا أن فكرة القدرة مجردة من الحس، وأنها لانعرف شيئاً سوى انطباعات سطحية، ونظامها المظهري مدبر من قبل الله " ¹. وهذا ما لم يستسغه إقبال. كما انتقد إقبال الأشاعرة في تصورهم للحركة، وذرية الزمان... قد لا تفي هذا العجالة بمحاولة عرضها لدقتها وغموضها أحياناً أخرى.

الثاني: بنائي:

ويتمثل في إعادة بناء علم الكلام من جديد وفقاً للتطورات الحاصلة في مختلف مجالات العلوم: - دعوته إلى إثبات الذات المسلمة، والتأكيد على مكانتها في الوجود، ومركزيتها في العالم الإنساني، وإثارة معاني النخوة والإباء والقوة والثقة والشجاعة في النفس المسلمة، ونقلها من حالات اليأس والتشاؤم واحتقار الذات، إلى حالات الشعور بالأمل والعزة. ² - دفاعه عن التجربة الدينية وأحقية الاعتراف بالدين أمام الفلسفات المادية التي لا تعترف إلا بالتجربة العملية.

- تجديد البحث الفلسفي من خلال متغيرات العلم الحديث والفلسفة الحديثة. أما المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905-1973)، فقد اهتم بالوظيفة الاجتماعية التي تؤديها العقيدة، وألا تبقى حبيسة مدرجات الدراسة بمنأى عن مشتبك الصراع الفكري، وبعيدة عن واقع الناس ومشكلاتهم، وفي هذا المعنى يقول ابن نبي: " ليست المشكلة أن يعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن ترد على هذه العقيدة فاعليتها وقوتها وتأثيرها الاجتماعي " ثم يردف قائلاً: " إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي أن نشعره بوجوده، وغملاً به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة" ³.

1- المرجع نفسه، ص108.

2- ينظر: عثمان أمين، محمد إقبال، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص21. والندوي، روائع إقبال، ص73 وما بعدها.

3- مالك ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر 1985م، ص48.

وأخيراً لا آخراً لا بد من الإشارة إلى مساهمة الكاتب الهندي المسلم "وحيد الدين خان" التي عرض فيها المسائل العقديّة مقترنة بالأدلة العلميّة، وقد بدأ الرجل مدركاً لروح الحضارة المعاصرة المتمثل في المنهج التجريبي، ما دفعه لينشئ على غرار مقياس استدلالية جديدة مستمدة من العلوم المعاصرة، فقدم العقيدة بأسلوب علمي وتجلي ذلك في تصوره لعلم الكلام حيث رآه: "استجلاء حقائق الدين بالأدلة التي تطمئن الذهن الجديد والعقلية الجديدة وتوصيل التعاليم الإسلاميّة بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد"¹.

ثم يمضي الرجل في تحليل التعريف الذي اختاره، مبيناً مقصوده بالعقلية الجديدة والتي لم يقصد بها إلا العقل العلمي، أما طرق الاستدلال وكيفية التدليل على القضايا؛ فإنه يحاول أن ينتقل من طور الاستدلال الفلسفي الذي سيطر عليه المنطق الصوري كما يلاحظ ذلك في كتاب مصطفى صبري والموسوم "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين"² - وهو أكبر موسوعة كلامية ظهرت في العصر الحديث - إلى طور جديد هو الاستدلال الطبيعي من خلال التوظيف لحقائق العلوم والشهادات الواقعية المحسنة والتي يمكن أن نطلق عليها الأحداث الكونية، وليس هذا بجديد على الدعوة الإسلاميّة، بل هو عودة إلى الكلاميات القرآنية على حد تعبير وحيد الدين خان فيقول: "لأن العلوم ليست من صناعة بعض العلماء، بل هي عبارة عن البحث عن القوانين الموجودة في الكون، فكل ما يعثر عليه العلم إنما هو نفحة من أعمال خالق الكون"³.

ولهذا جعل القرآن الكريم الطبيعة أحد المبادئ الأساسية لعلم الكلام باعتبارها المصدر الأساسي التي يستدل بها الإنسان على ربه، قال تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت، الآية: 53). ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْأَيْكُ وَالشُّجْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس الآية: 101). ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات الآيتان: 20-21).

1- وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي المنهج والشروط، (مرجع سابق)، ص 102.

2- مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ط2. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1981م. ويقع الكتاب في أربعة مجلدات كبيرة يبلغ مجموع صفحاتها ألفين وثمانين عشرة صفحة.

3- وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي المنهج والشروط، (مرجع سابق)، ص 99.

ووحيد الدين خان يتفق في رؤيته هذه مع تصور ابن رشد الذي وجّه النظر إلى معرفة مقصد الشارع من جعل الموجودات موافقة لوجود الإنسان، وأن هاته الموافقة هي من قبل فاعل قاصد لذلك مريد¹، وهو رأي ربما تأثر به ابن تيمية أيضا.

والحقيقة أن التطور العلمي الحاصل اليوم مكنتنا من وضع "علم كلام جديد" متناسق مع القرآن، وإذا كان هناك من شيء يسمى "بعلم كلام جديد"؛ فهو هذا العلم الذي لم يدون بعد بالرغم من توافر المواد وشدة حاجتنا إليه لسدّ الفراغ الفكري الذي يعاني منه المسلمون بصفة عامة، وغير المسلمين بصفة خاصة².

ذلك لأن هذا الأسلوب-فيما- نعتقد أنه أنجع الأساليب لإقناع العقلية الحديثة، وإذا كانت مهمة علم الكلام أنه يقوم بالرد على الملحدين؛ فإن سمة الإلحاد في هذا العصر هي العلم، فهو إلحاد باسم العلم، ومن هنا وجب على المشتغلين بهذا العلم أن يخوضوا دائرة العلم التجريبي، ويعتمدوا نتائجها التي توصل إليها بالتجارب، ثم استخدامها مقدمات لبناء أدلة تثبت بها الحقائق الدينية؛ وذلك لأن أحسن وسيلة للدفاع هي استيعاب سلاح الخصم ومن ثم تجاوزه.

وإذا كان وحيد الدين خان قد سلك مسلكا علميا في الاستدلال، فإنه قد استخدم منهج المتكلمين في المناظرة، وهذا ما أشار إليه في مقدمة كتابه "الإسلام يتحدى" حيث يقول: "لا بد من مراعاة حقيقة، هي أن هذا الكتاب لا يستهدف تفسير الدين، بل هو وليد ضرورة كلامية، فالأسلوب الذي يسلك عند تفسير الدين أمام الفطر الدينية المؤمنة، غير الأسلوب الذي يستخدم عندما يكون الحاضرون ممن يزعمون أن الدين خدعة وأضحوكة وتخدير للشعوب، فكلما أردنا مواجهة الأسئلة التي تثار ضد الدين كان لابد من تغيير لهجتنا ولغتنا"³.

ويذكرنا رأيه برأي الغزالي الذي كان يرى أن علم الكلام وسيلة للمحافظة على العقيدة لا لتحصيلها.

7-5-3- دواعي التجديد:

شهد العالم الإسلامي منذ ما يزيد عن قرن تحديات عدة وفي مجالات كثيرة، من أبرزها التحديات التي تواجه العقيدة الإسلامية بفعل الغزو الثقافي المسلح بالعلم التجريبي ما أثار كثيرا من القضايا التي

1- ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، بإشراف: محمد عابد الجابري، ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998م. ص118.

2- وحيد الدين خان، تجديد علوم الدين، تر: ظفر الإسلام خان، ط1. القاهرة: دار الصحوة للنشر 1986م، ص68.

3- وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ترجمة ظفر الإسلام خان، ط3، القاهرة: دار المختار الإسلامي، 1973م. ص22.

تعارض مع الإسلام في عقائده وشرائعه، بل إن بعض هذه القضايا ينقض العقيدة من أساسها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإن أساليب الخصوم ومناهجهم عرفت تطوراً وتغيّراً كبيرين، وهو ما يمثل تحدياً جديداً يضاف إلى التحديات السابقة وسنوجز فيما يلي أهم هذه التحديات سواء من حيث الموضوع أو من حيث المنهج.

أ - من حيث المضمون:

1- **تحديات الفكر العلماني** الذي نشأ في الغرب بفعل طغيان الكنيسة وتسلسلها - والذي يقوم على مبدأ إقصاء الدين من شؤون الدولة ونظام الحكم، ومناهج التعليم وكل شأن دينوي، وسرعان ما سرى هذا الاتجاه في البلاد الإسلامية وتلقفه ثلة من المثقفين بشراً به ودافعوا عنه حتى عمت آثاره معظم شؤون الحياة من مناهج التربية والتعليم إلى التشريع والقضاء إلى شؤون الاقتصاد والمال، إلى السياسة والحكم. ولم يبق من الإسلام في مجال الممارسة العملية في الحياة الاجتماعية إلا الأحوال الشخصية.

إن الفكر العلماني اليوم في البلاد الإسلامية يصارع الإسلام ويعمل على إقصائه من المشاركة في حركة الحياة أو الإسهام في إدارتها، ويحاول حصره في دائرة ضيقة لا تتعدى ممارسة الشعائر، وفي حدود علاقة الفرد بربه، وذلك هو تفريغ الإسلام من محتواه مثلما فعل الأوربيون بالكنيسة.¹ وهذه نازلة جديدة استوجبت توضيح موقع الإسلام في حياة المسلم، وفي نظرتة لطبيعة الإنسان وتقديره للمادة وملاءمته وتوجيهه للحياة الإسلامية عامة.

2- **تحديات الفكر الاستشراقي** الذي أثار شبهات كثيرة في وجه الإسلام، وشكك في الكثير من عقائده وأحكامه. لقد أشاع المستشرقون أن عقيدة القضاء والقدر هي سبب تخلف المسلمين بما غرسته في نفوسهم من روح الخمول والتواكل.

كما زعموا أن القرآن الكريم ليس وحياً من الله تعالى، وأن محمداً ﷺ هو من كتبه، واستفاد من نظره في العهدين القديم والجديد، وشككوا أيضاً في الوحي المحمدي، وأدعوا أن النبي ﷺ كانت تنتابه نوبات عصبية.

ومن وجوه كيدهم أيضاً أن الإسلام دين العدوان، نشر عقيدته في الناس بحد السيف لا على أساس الإقناع وقوة الحجة، إلى غير ذلك من وجوه باطلهم.

1- ينظر: محمد السيد الجليند، من قضايا الفكر الإسلامي، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، (دت)، ص 96.

والحقيقة أن أعمال المستشرقين المختلفة تمثل تحدياً حقيقياً لعلماء الكلام في وقتنا الحاضر، يتحتم عليهم مواجهتها وبيان ما فيها من فساد وإفساد.

3- تحديات الفكر المادي الذي يدعي أصحابه أن لا وجود إلا للمادة وأن ما عداها وهمّ وخداع، وقد أدى هذا الفكر إلى شيوع الإلحاد ومحاربة الأديان، لأن الأديان عندهم خرافة ومخدر للشعوب، وعلماء الدين أشبه برجل يكتب شيكاً لا رصيد له في المصرف، فهم قد صاغوا عبارات ليس وراءها حقائق علمية. وقد ظهر هذا الفكر المادي في صورة نظريات تناهض الأديان عامة، والإسلام بشكل خاص، ومن هذه النظريات النشوء والارتقاء لتشارلز دارون (1809-1882م). ونظرية ماركس (1818-1883م) في تفسير التاريخ تفسيراً مادياً، والوضعية التي وضع أساسها أوجست كونت، ونظرية فرويد في الشعور والغرائز (1856-1939م)¹. إن هذه النظريات وغيرها تتطلب جهوداً كبيرة لمناقشتها، ونقد أصولها، والرد على أصحابها، متسلحين في كل ذلك بكل سلاح، ومنها بطبيعة الحال ما أنتجه الفكر الغربي ذاته من أدلة فلسفية وعلمية على نحو ما فعله الأستاذ "وحيد الدين خان" في كتابه "الإسلام يتحدى" و"الدين في مواجهة العلم".

4- تحديات الفكر العلمي والفلسفي الذي يهدف إلى تطبيق مناهج العلوم الإنسانية التي نبتت في الغرب على النص الديني والمدونة التراثية المتفرعة منه. ومن أبرز هؤلاء "محمد أركون" في مشروعه "نقد العقل الديني" وعبد الوهاب المؤدب" الذي اعتبر المدخل لإصلاح اختلالات الثقافة الإسلامية هو تحطيم صنمية القرآن الذي ينظر إليه المسلمون بصفته كلام الله المباشر مما يحول بينهم وبين إخضاعه للنظرة النقدية الصارمة والتحليل التاريخي على غرار ما حدث للنصوص المقدسة اليهودية والنصرانية.

إن هذه التحديات تتطلب دقة الفهم للآليات الفكرية الغربية، ونقدها وبيان الأسس التي تقوم عليها على نحو ما صنع الأستاذ "طه عبد الرحمان" في كتابه "تجديد المنهج في تقويم التراث"².

ب - من حيث المنهج:

كان ولا يزال دور علم الكلام شرح حقائق الإسلام الدائمة والدفاع عنها، ونصرتها بالأدلة المناسبة ورد الشبهات المثارة ضدها، هذه هي مهمته الأساسية عبر العصور. وإذا كانت العقيدة وأحكام الدين القطعية ثابتة في ذاتها لا تتغير فإن المناهج التي تكون بها نصرتها يمكن أن تتغير حسب الظروف، ذلك أن هذه المناهج مرتبطة بطبيعة التحديات التي تواجهها، ومرتبطة بالمخاطبين

1- فرحات عبد الوهاب، علم العقيدة في ضوء التحديات الفكرية المعاصرة، ط1، قسنطينة، دار البعث، (د-ت)، ص 11.

2- فرحات عبد الوهاب، علم العقيدة في ضوء التحديات الفكرية المعاصرة، (مرجع سابق)، ص12.

الذين يراد إثبات العقيدة لهم، أو ردّ الشبهات التي يوردونها، وهؤلاء المخاطبون تتغير ذهنياتهم، وثقافتهم ومكوناتهم الفكرية من عصر إلى عصر بحسب ما يطرأ على المجتمعات من تطورات علمية وثقافية وفكرية، وحينئذ فإنه ينبغي أن يكون المنهج الذي تقدم به العقيدة الإسلامية مبنيًا على ما يحقق إقناعهم، مما يحتم تجديد المنهج الذي تقدم به للناس.

وإذا كان السابقون من علماء الكلام قد سلكوا مناهج أقنعت المخاطبين في عهدهم وتحقق بها نصرته العقيدة، فإن العقلية المعاصرة تتطلب منهجية جديدة، تقوم على استثمار حقائق العلوم الكونية للاستدلال بها على حقائق العقيدة، وإبراز الفوائد العملية للعقيدة الإسلامية التي من شأنها أن تحل المشاكل الحياتية المعاصرة، وحينئذ فإن هذا الإنسان الذي خضع عقله لسلطان العلوم من جهة، وأزقت حياته مشاكل الواقع اليومي المزحوم بمطالب المادة، الفقير من مطالب الروح من جهة أخرى، سيجد في الخطاب العقدي ما يجلب اهتمامه، ثم يحقق اقتناعه بحقائق العقيدة.¹

ومن وجوه التجديد المنهجي أيضا إعادة ترتيب بعض قضايا العقيدة كما هي في البنية المعهودة لعلم الكلام، وذلك بسبب تعرض بعض القضايا للهجوم الشديد بالأمس مما استلزم تقديمها بالعناية والإبراز، ولكنها اليوم لم تبق كذلك، مما يستلزم تأخيرها في أهمية البحث، وعلى العكس من ذلك فقد تكون قضايا أخرى لم تول أهمية في رتبة البحث قديما؛ إذ لم تتعرض للتحدي الشديد، ولكنها اليوم أصبحت تتعرض للمطاعن الشديدة مما يستلزم أن تُقدم في رتبة الاهتمام بالبحث والدراسة. ومن ذلك: الاهتمام بموضوع الإنسان من حيث حقيقته وقيمه وغاية وجوده ومصيره؛ فإن هذا الموضوع لم يكن محل اهتمام في علم الكلام التقليدي، وذلك لأن الدواعي لم تتوفر كي يولى من الاهتمام ما يستحقه ولكن اليوم يقع الهجوم عنيفا نظريا وعمليا على حقيقة الإنسان واعتباره بعدا ماديا صرفا، غاية وجوده الرفاه المادي، ومصيره الفناء الأبدي، كما تقرره المذاهب المادية، وتسري هذه الرؤية في عقر ديار الإسلام، وذلك ما يحتم إدراج هذه القضية في مسائل علم الكلام الجديد تصحيحا للأفهام ودفعًا للمذاهب المعارضة للعقيدة.²

1- ينظر: عبد المجيد النجار. الإيمان بالله وأثره في الحياة، (مرجع سابق)، ص 25-26.

2- ينظر: عبد المجيد النجار. الإيمان بالله وأثره في الحياة، (مرجع سابق)، ص 28.

وفي نفس السياق؛ فإن علماء الكلام قديماً اهتموا بجملة من القضايا وأبرزها وأخذت منهم جهداً كبيراً اقتضته ملابسات ظرفية، فإذا زالت تلك الملابسات زال مبرر إدراجها في هذا العلم إلا ما كان على سبيل الاطلاع على أفكار تاريخية في نطاق التخصص الضيق¹.

وهنا نورد نصاً لمؤسس ندوة العلماء بالهند وهو الشيخ محمد علي المونكيري أورده الندوي في معرض بيان جهود ندوة العلماء ومواقبتها للتحديات المعاصرة: يقول: "قد تغيرت الظروف والأحوال في هذا العصر. إن الاعتراضات التي شغلت العقول وحلقات الدرس قديماً قد فقدت أهميتها وقيمتها، وانقرضت الفرق التي كانت تثيرها وتشبث بها، وأصبح العكوف على دراستها وتفهمها إضاعة للوقت وجهاداً في غير عدو، وقد نشأ عالم جديد وتجددت حاجاته. قد أثار أعداء الإسلام وخصومه أسئلة جديدة في هذا العصر لم تكن تخطر على بال، وذلك في ضوء الفلسفة الجديدة. لا يمكن إشباع الرد عليها والإقناع العلمي بالاعتماد على الفلسفة القديمة فقط؛ وإن زعم زاعم. والسبب في ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يحل الشبهة ويفحم الخصم إلا إذا عرف ما يؤول إليه الاعتراض وعرف الدوافع"².

7-5-4- دعائم علم الكلام الجديد:

إن علم الكلام الجديد الذي بدأت ملامحه في التشكل منذ عقود ولم تكتمل صورته بعد، بل لا يزال في طور التوسع والنمو، يحتاج كي يقوم بدوره ويحقق مقاصده أن يرتكز على دعائم قوية ثابتة تتمثل في الآتي:

أ- المعرفة بالواقع الفكري للتحديات المعاصرة:

ويقصد به الدراية التامة بالأفكار والمضامين التي ينتجها المخالفون للعقيدة في مختلف المجالات، وذلك بتتبع المذاهب الفلسفية والفكرية وتقصي أفكارها وأهدافها، وأسباب ظهورها في مجتمعاتها، والأصول التي تقوم عليها، وتلك هي النقطة الأولى في بناء عمل نقدي يكشف زينها وجوانب العوار فيها.

1- وكمثال على ذلك: ما يعرف بمسألة العلاقة بين ذات الله وصفاته، ومسألة كلام الله تعالى أقدم هو أم حادث؟ فإن كلا منهما احتلت حيزاً كبيراً في علم الكلام التقليدي، وذلك لظروف كانت تتعلق بنشاط النصارى وسعيهم للاستدلال على عقيدتهم في التثليث، مما اضطر علماء العقيدة إلى إثارة هذه القضايا لإثبات التوحيد، وتحسين العقول أن تداخلها شبهة التثليث.

2- أبو الحسن الندوي: ندوة العلماء مدرسة فكرية شاملة، ط 1. لكهنؤ: منشورات ندوة العلماء الهند، (د.ت)، ص 3.

ومن بين هذه المذاهب: الماركسية، الوجودية، والبنوية. ومن جهة أخرى الدراية بالمناهج التي يستخدمها الخصوم والآليات التي يفكرون بها وتحليل بنية العقل الذي ينتجها، كي يتسنى الرد عليهم ودحض مقولاتهم بنفس أساليبهم، وذلك ما يحقق الأثر الطيب في نفوس المخاطبين بالعقيدة الإسلامية من المؤمنين بها ويفتح أبواب الاقتناع أمام المسترشدين.¹

ب - التناسب بين قضايا علم الكلام الجديد والتحديات المعاصرة:

إن ما يثار اليوم من أفكار معارضة للعقيدة الإسلامية قد تغير كثيرا عما كان يشغل المعارضين القدامى، لا من حيث الموضوعات في نفسها فقط، ولا من حيث ترتيبها حسب الأهمية في الوضع الجديد الذي طرأ على المعارضة في مادتها، وذلك ما يتطلب تغييرا في مادة علم الكلام بما يناسب مادة التحدي.²

وإن كان علم الكلام في بنيتة التقليدية قد اهتم بمسائل وقضايا اقتضاها الظرف التاريخي، وأوجد لها حلولاً بما يتناسب مع الذهنية والثقافة السائدتين آنذاك؛ فإنه من المطلوب أن يتفاعل علم الكلام الجديد مع قضايا عصره وذهنيات المخاطبين المعاصرين، وفي حدود المعارف المعاصرة. ومن بين المسائل المعاصرة التي يعنى بها الباحثون:

- تكوين رؤية حول موضوع "الإنسان": استجابة لتحديين حقيقيين، أولهما: داخلي يتمثل في امتهان الإنسان وإهانة كرامته، وإهدار قيمته. وثانيهما: خارجي يتمثل في رؤية الفلسفة المعاصرة - وبخاصة الوجودية - التي اختزلت الإنسان في بعده المادي، هذا ما يتطلب تأصيل نظرية حول الإنسان تكشف أهميته، ومكانته المركزية في الكون، ودوره في هذه الحياة، ومصيره. وهو فعلا ما تناوله بالبحث والتأليف عدد من الغيورين على هذا الدين كما سنذكر لاحقا إن شاء الله. ومن بين القضايا المتفرعة عن هذا الموضوع قضية حقوق الإنسان، وموضوع المرأة وإشكالياته.. إلخ.
- مسألة شمولية الدين ومجاله: هل الدين محدود في الفرديات والأخلاقيات أم أنه يمتد ليشمل جميع مناحي الحياة الفردية والاجتماعية، السياسية والاقتصادية وغيرها.
- مسألة العلاقة بين الدين والعلم: هل هناك تعارض حقيقي بين النتائج العلمية الكونية والإنسانية وبين المفاهيم الدينية، وهل نحن ملزمون بالتوفيق بينها؟ وما حدود هذا التوفيق؟ وما هي ضوابطه؟

1- ينظر: عبد الوهاب فرحات، علم العقيدة في ضوء التحديات المعاصرة، (مرجع سابق)، ص19 وما بعدها.

2- وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي المنهج والشروط، تر: محسن عثمان الندوي، ط، 1، القاهرة: دارالصحوة، 1984، ص102.

ج- التناسب بين منهج علم الكلام الجديد والتحديات المعاصرة:

إذا كان علم الكلام التقليدي قد استخدم الأساليب الجدلية المعتمدة على المنطق الأرسطي، واتسم بنزعة تجريدية، وهو ما تلائم مع ذهنية مخاطبيه القدامى الذين لا يتحاكمون إلا إليه. فإن الذهنية المعاصرة الخاضعة للعلوم التحريية لا تقبل تلك الأدلة ومناهجها ولا تستسيغها؛ وإنما تتطلب أدلة جديدة ولغة جديدة، قوامها حقائق العلم الكوني القائم على التجربة، ونتائج البحث الفلسفي المعاصر القائم على حقائق العلم المعاصر. يقول وحيد الدين خان مبينا طبيعة علم الكلام الجديد: " تلخص حقيقة علم الكلام في أنه استجلاء حقائق الدين بالأدلة التي تطمئن الذهن الجديد والعقلية الجديدة وتوصل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد"¹.

والحقيقة أن النظر في مخلوقات الله والبحث في آياته الكونية ومطالعة سنن الله في التاريخ وأفعاله في المجتمعات والحضارات مبدأ قرآني أصيل تشهد له جملة كبيرة من الآيات القرآنية، من بينها قول الله تعالى: ﴿ سَرُّبِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت، الآية: 53)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس الآية: 101). ﴿ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات الآيتان: 20-21).

1- وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي المنهج والشروط، (مرجع سابق)، ص 102.



المبحث الثاني:

أبعاد التوحيد ومضامينه

عند أبي الحسن الندوي



تمهيد:

تعد عقيدة التوحيد حجر الزاوية في التصور الإسلامي لما لها من آثار حميدة على النفس والمجتمع، لذلك تعاقبت الرسائل السماوية على التذكير بها، وتصحيح الانحراف الواقع عليها، وجاء الإسلام أخيراً فأولاهها من العناية والاهتمام ما لم يول أي صفة أخرى، حتى صارت شعاراً مميزاً لهذا الدين عن غيره، فعرف بأنه دين التوحيد.

ولأهمية هذه العقيدة وتشعب امتداداتها وأبعادها في كافة التعاليم الإسلامية، وعمق توجيهها للفكر والسلوك معاً في الحياة الفردية والاجتماعية، فقد أولاهها العلماء المسلمون جهداً بيانياً كبيراً، تقريراً واستدلالاتاً ودفاعاً وتصحيحاً، وكلما وقعت غفلة في المجتمع الإسلامي عن أبعاد ومقتضيات هذه العقيدة هب المجددون لتصحيح هذا الانحراف، وتقوم هذا الاعوجاج لتكون طريقاً إلى استقامة سائر الأحوال والأوضاع، وتاريخ الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي وجهود العلماء الربانيين في القديم والحديث أكبر شاهد على هذا. إن تتبع هذه الجهود المباركة والكشف عما فيها من ذخائر، والاستفادة منها في حياتنا المعاصرة هو من ضروب الجهاد الفكري المشكور، نظراً للغبش الحاصل لدى كثير من المسلمين المعاصرين في وعيهم بهذه العقيدة.

لقد أولى الفكر العقدي التقليدي هذه القضية اهتماماً كبيراً، لكن مناهجه في التعامل معها كانت غالباً ذات نزعة نظرية. وهو ما أملت ضرورة المرحلة التي هيمن فيها المنطق اليوناني، وإن كانت هذه المناهج قد أدت دورها في مراحل سابقة، فلم يعد لها اليوم كبير تأثير في العقلية المعاصرة الخاضعة للمنطق العلمي، والمتأثرة بفسو الفلسفة الذرائعية.

هذا الواقع الجديد دفع المفكرين إلى محاولة إعادة صياغة خطابنا المعاصر وفق منهجية جديدة، لعل أحد معالمها التركيز على الأبعاد الوظيفية للعقيدة، وبيان آثارها على النفس والمجتمع. وسأحاول في هذا المبحث تقصي معالم الرؤية التوحيدية عند الندوي وآثارها من خلال كتبه ومحاضراته وعرضها في صورة واضحة المعالم تبرز جانباً من إسهامه التجديدي.

لقد أولى الندوي - رحمه الله - قضية التوحيد وبيان حقيقته وأبعاده المتعددة وحقيقة الشرك أهمية كبيرة، وأكد على أن هدف النبوات ومقصدها الأول هو القضاء على الوثنية، ويلاحظ أيضاً أن هذا الاهتمام ليس أمراً عرضياً جانبياً ولكنه أمر مقصود أصالة، وقبل الخوض في هذه المحاولة، لا بد من بيان دواعي اهتمام الندوي وتركيزه على هذه العقيدة.

1- دواعي اهتمام الندوي بالتوحيد ومضامينه:

يمكن تلمس أسباب اهتمام الشيخ الندوي بقضية التوحيد وبيان امتداداتها في النفس والمجتمع في الآتي:

1-1- نشأته في مناخ ديني محافظ شديد الغيرة على العقائد الدينية، وتكوينه العلمي الأصيل المعتمد على أصول الإسلام من كتاب الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ وتلمذته على يد جلة من العلماء الربانيين،¹ ومدارسته لتراث كبار المجددين كالإمام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية (691هـ-751هـ) وأحمد السرهندي، والشاه ولي الله الدهلوي وغيرهم.

1-2- خضوع كثير من مسلمي الهند للفلسفات البرهمية، وتغلغل عادات المجتمع الهندي الوثنية، ومفاهيمه الجاهلية في أحشاء المجتمع الإسلامي الهندي نتيجة اختلاط المسلمين بجيرانهم الهندوس؛ مما أدى إلى التباس الحق بالباطل في كثير من المفاهيم الدينية، وهو ما تطلب تصحيح تلك المفاهيم وتمييز الحق عن الباطل والقشور من اللباب.²

1-3- انتشار كثير من الممارسات الخاطئة والمفاهيم المنحرفة والاعتقادات الفاسدة في أوساط جهال الصوفية من غلو في المشائخ والأولياء والصالحين وغيرها مما استوجب تصحيح هذه المفاهيم والاعتقادات وتقويم السلوكات الخاطئة.³

1-4- طغيان الفكر المادي، والروح العلمية المادية المؤهّلة للأسباب الكونية، والافتتان بها، والغفلة والذهول عن حقيقة "توحيد الفاعلية الإلهية"، وقد تناول الندوي هذه القضية في العديد من كتبه - حتى الموجهة للأطفال منها - ك"قصص النبيين للأطفال" الذي اعتبره بعض العلماء الهنود علم توحيد جديد للأطفال.

1-5- ظهور الحركات القومية في أوروبا وتسلسلها للبلاد الإسلامية؛ مما أدى إلى تفكيك الأمة الواحدة إلى قوميات متصارعة ودويلات متنافسة، وهو فكر مناقض للرؤية التوحيدية والرابطة الدينية التي تجمع كل الأعراق والأجناس برباط الأخوة الدينية. ذلك ما استدعى التذكير بعقيدة التوحيد وآثارها الاجتماعية ودورها في توحيد مشاعر المسلمين وأهدافهم العليا.

1- منهم الشيخ خليل بن محمد اليمني الذي يقول عنه الندوي: " وكان التوحيد يملك عليه قلبه وعاطفته وشعوره، فكانت عقيدته- ولا أركي على الله أحدا- صارمة صافية نقية خالصة لا غبار عليها، وكان يحرص على أن يجعل تلاميذه يعتقدون مثله، ويحملون عقيدته، وكانت سورة الزمر " التي تتميز بالدعوة إلى التوحيد في قوة وصراحة كبيرين من السور المختارة الحبيبة إليه، الأثيرة لديه "؛ الندوي، قصة دراستي القرآنية. تر: محمد نعمان الدين الندوي، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2005م. ص9.

2- ينظر: إسماعيل الدهلوي، رسالة التوحيد، تعريب أبي الحسن الندوي، ط1، دمشق: دار وحي القلم، 2003، ص31.

3- المرجع نفسه، ص32 وما بعدها.

1-6- شيوع ازدواجية التعليم بفعل الاستعمار الغربي، وهيمنة النظام التعليمي الغربي المشبع بالروح المادية ما أدى إلى الانفصام النكد بين ما هو ديني وما هو دنيوي، وبين الوعي والعقل، فاقتضى الأمر التذكير بالحقيقة الخالدة والرابط الذي تنتظم حوله المعارف والمقاصد.

2- أبعاد التوحيد في رؤية الندوي:

من خلال استقراء مكتوبات الشيخ الندوي - رحمه الله - يمكن الوقوف على رؤيته الواضحة لامتدادات التوحيد في الحياة الفردية والاجتماعية، وفيما يلي محاولة لجمع ما تبدد من معالم هذه الرؤية.

2-1- أبعاد التوحيد في المستوى الفردي:

تعددت امتدادات التوحيد وأبعاده في الذات الفردية إلى جوانب عدة نفسية وفكرية ومعرفية، نحاول إبراز أهمها فيما يلي:

2-1-1: الأمن النفسي:

يتميز النوع الإنساني بصفات متناقضة، فهو ذو إرادة قوية وعقل جبار استطاع أن يسخر كثيرا من القوى لصالحه ويروض كثيرا من الموجودات لخدمته، ولكنه في الوقت نفسه مفطور على الشعور بالضعف والافتقار وطلب الحماية والعون، وكثيرا ما يقف عاجزا، خائفا أمام ظواهر وأحداث كونية، لا يملكها دفعا، ومشكلات لا يجد لها حلا، وفي أحيان أخرى قد يستولي عليه قلق نفسي لا يدري له سببا، ينغص عليه عيشته، وقد كان هذا الشعور بالضعف والعجز في عهود الجاهليات الماضية سببا في اتخاذ آلهة يُلتمس عندها الأمن والحماية ويطلب منها العون وقضاء الحاجات، لكن التجربة الواقعية بينت أن ذلك لا يزيد إلا قلقا وخوفا وصدق الله إذ يقول: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّسْتَدْرُونَ﴾ (الأنعام، الآية: 82).

إن الإيمان بالله وتوحيده يشيع في النفس الأمن والطمأنينة، فإنه متى وقر في قلب العبد أن العالم بأسره بيد رب واحد رحيم كريم، قوي غني، يدبر خلقه بإرادة خيرة رحيمة، وأن الأحداث المتعاقبة في الكون لا تصدر عن صدف عمياء، وأن كل ما يحدث إنما يقع بتدبير حكيم خبير. فتتشر هذه المعرفة في قلب المؤمن شعورا بالأمن والطمأنينة. يقول الندوي في هذا المعنى متحدثا عن الإنسان وتناقضاته: "هذا الإنسان الذي يحمل دعاوى فارغة ومزاعم جوفاء... والذي استعبد الأمم والبلاد مرارا كثيرة، والذي حوّل الأحجار الصّماء أزهارا عابقة فيحاء، وفجّر الأنهار من بطون الجبال، والذي ادّعى الربوبية أحيانا، هذا الإنسان كان يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع ولا تعطي ولا تمنع... وكان يركع أمام أشياء صنعها بنفسه ويخافها ويرجو منها الخير... وقضى حياته كلها بين هواجس ووساوس،

وبين أختلة وأوهام، وأمان وأحلام كانت نتيجته الطبيعية الجبن والوهن والفوضى الفكرية والقلق النفسي وفقدان الثقة وعدم الاستقرار".¹

ثم بين رحمه الله العطية الإلهية الكريمة المتمثلة في عقيدة التوحيد النقية الصافية التي لم تنل البشرية مثلها إلى يوم القيامة ودورها في طمأنينة النفس الإنسانية فقال: "فأغناه ﷺ بعقيدة صافية نقية، سهلة سائغة، حافزة للهمم، باعثة للحياة، فتخلص من كل خوف ووجل، وصار لا يخاف أحدا إلا الله، وعلم علم اليقين أنه وحده سبحانه هو الضار والنافع، والمعطي والمانع، وأنه وحده الكفيل بمجالات البشر".²

وفي سياق حديثه عن ابن تيمية وما كان عليه من طمأنينة وسكينة رغم حياته المضطربة يقول: "لا يخفى على أهل البصائر أن عباد الله تعالى المخلصين، يتحققون في الدنيا بصفة نعمة، ﴿قُلْنَا أَهْبُطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة، الآية: 38)، ويدوقون لذتها ويرون نموذجها في الدنيا ولا شك أن شيخ الإسلام ظفر بهذه النعمة كما ذكر أصحابه".³

إن المؤمن متى أسلم قياده وفوض أمره في كل شأنه لمن يعتقد أنه الفاعل الأوحد يكون مرتاح البال مطمئن النفس أمام كل ما يقع في الكون من الأحداث، فلا اضطراب ولا قلق ولا خوف. ينقل الندوي عن الشيخ عبد القادر الجيلاني أن العبد متى صار موقنا موحدا ويقطع أن لا فاعل على الحقيقة إلا الله، ولا محرّك ولا مسكّن إلا الله، ولا ضرر ولا نفع ولا عطاء ولا منع ولا موت ولا حياة ولا عز ولا ذل إلا بيدي الله، فيصير حينئذ كالطفل الرضيع في يدي الظئر والميت في يد الغاسل.⁴

وينبه - رحمه الله - كيف وقف الربانيون يذكرون الناس بهذه الحقيقة، ومنهم الشيخ عبد القادر الذي هاله تعلق الناس بالأسباب والوسائط والشفاعات في بغداد عاصمة الخلافة، وكيف اتخذت أربابا من دون الله وأصبح الناس يعتقدون أن الأمراء يملكون أرزاق الناس ويُسعدون ويُشققون ويُعطون ويمنعون، فانصرفت إليهم هم الناس وتسابقوا إلى إرضائهم، فصدح الشيخ عبد القادر بالتوحيد

1- الندوي، السيرة النبوية. (مصدر سابق)، ص472.

2- المصدر نفسه.

3- الندوي، ربانية لا رهبانية، (مصدر سابق)، ص82، 83، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج 2، ص165.

4- الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج 1، ص211 بتصرف.

بأسلوب بليغ يملأ القلوب بمعرفة الله، ويحررها من خوف همّ الرزق وينقل الندوي عن الشيخ قوله: " الخلق عجزة لا يضرونك ولا ينفعونك، إنما الحق يُجري ذلك على أيديهم، فعلة يتصرف فيك وفيهم، جرى القلم في علم الله تعالى بما هو لك وعليك " ¹.

وقد يظن بعد السطحيين أن الإنسان المعاصر لم يعد بحاجة إلى عقيدة دينية، فإنه بعقله قد اكتشف قوانين الكون، وفهم أسرارهِ وعرف كيف يتعامل مع الظواهر الطبيعية التي كانت مصدر خوف وقلق عند الإنسان القديم، كالفيضانات والزلازل والبراكين فاتخذ تدابير تقيه تلك الأخطار، ودليله في ذلك ما عليه الحضارة المعاصرة التي أمنت أهلها بشتى وسائل الحماية.

لكن هذا الزعم ما يلبث أن يظهر زيفه عندما يتعمق الباحث قليلا في دراسة هذه المجتمعات، سيتبين له أن أكثر الناس خوفاً وأشدهم قلقاً هم المعتدّون بما عندهم من العلم، وما ظهور فلسفات القلق والعبث، وتفشي الانتحار، وتعاطي المخدرات إلا دليل القلق النفسي والخواء الروحي، وليس النعيم المادي الظاهري إلا صورة تخفي وراءها ضنكا وحيرة وصدق الله تعالى، إذ يقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾، (طه، الآية: 124)، وفي هذا المعنى يقول الأستاذ النجار: "وليس من باب الاتفاق أن تظهر في أوروبا في منتصف القرن العشرين فلسفة القلق والعبث والإحباط التي نظّر لها سارتر، وألبير كامي؛ وإنما هي تعبير عما أصاب الناس من المآسي إثر حربين عالميتين مدمرتين كانتا بوجه من الوجوه ثماراً مُرةً لفلسفة الإلحاد التي أعلنت موت الإله وأوكلت قيادة الإنسان إلى عقله حينما هتك أسرار الكون، وأصبح قادراً على الاحتماء من غوائل الطبيعة بتلك القوانين. كما قرر أوغست كونت في فلسفته الوضعية التي اعتبرت الإنسان قد تجاوز المرحلة الميتافيزيقية وارتقى إلى المرحلة الوضعية التي يقود فيها نفسه بعقله. إن حصاد ذلك الإعلان لم يكن إلا نسيجا أشقى النفوس من الخوف والهلع والقلق والإحباط ².

وبعد زيارته للولايات المتحدة الأمريكية والإقامة فيها لأكثر من شهرين يخاطب الندوي من يملكون زمام هذه الحضارة بقوله: "إن مصانعكم العملاقة الجبارة لا تصنع الإيمان،... هذا القلق الذي استحوذ عليكم، وحرككم إلى السامة وإلى ردود فعل حمقاء، وحرككم إلى الانتحار، وحرككم إلى اليأس القاتل، هذا الإيمان لا يمكنكم أن تقتبسوه من فلسفتكم ومن هذه الجامعات الكبيرة، إنما تقتبسونه من القرآن" ³.

1- الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج 1، ص 219.

2- النجار، الإيمان بالله، (مرجع سابق)، ص، 172.

3- الندوي، أحاديث صريحة في أمريكا، (مصدر سابق)، ص 30 بتصرف.

وفي موضع آخر يقول متحدثا عن أمريكا: "إنها لما أهملت الجانب الخلقى والجانب العقائدي والجانب الروحي، كانت النتيجة أن البلاد أصبحت شقية في الروح، مضطربة، حائرة، ساد عليها القلق وساد عليها التذمر، وسادت عليها السامة، وليست حركة الخنافس، وليست الحركات التي تلاحظونها في هذه البلاد - التي تدل على القلق وتدل على التذمر - إلا ردود فعل عنيفة على هذه الثورة المادية...¹

وفي سياق نقده لهذه الحضارة المادية التي أنكرت الغيب والدين والروح والأخلاق واعتمدت الحس والتجربة واللذة والمنفعة يقرر أنها فشلت فشلا ذريعا ويصف بعض علاماته البادية بقوله: "عداء داخلي وخارجي وصراع بين الأفراد والطبقات والشعوب، غيوم الحرب الكثيفة التي تغطي العالم كله، وبركان متهيب للانفجار لأدنى مناسبة، ونذر صارخة لنهاية البشر الأليمة وفقدان الثقة والهدوء والأمن العاطفي، وتسلسل الذعر والفرع على الأعصاب، وقلق دائم، وتفسخ خلقي كبير يتخطى القياس، وفراغ روحي هائل لا يملؤه شيء، وسامة لا نهاية لها ولا علاج، وتشاؤم وبأس وحيرة"².
إن من صور الأمن النفسي والطمأنينة التي يغرسها التوحيد في النفوس، الثبات أمام الأحداث الجسام ومواطن البأس والشدة كالحروب مثلا، فإن الموحد الذي يعلم أن الموت والحياة بيد الله وحده يشيع في قلبه الأمن ويبعد عنه الفرع فإذا هو شجاع مقدام.

لقد بيّن الندوي رحمه الله كيف أن الإيمان يصنع الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة وذكر عدة مواقف لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تظهر شجاعتهم وإقدامهم؛ مما يقدم دليلا على أن الإيمان والتوحيد يملأ النفس أمنا وطمأنينة ويجنبها كل خوف وفرع واضطراب.³
ولا يخفى على أحد أن العبد متى شاع في أرجاء نفسه الأمن والطمأنينة كان مؤهلا للعطاء والعمل والإنتاج الخيّر، ففي المناخ الآمن تنمو المواهب والقدرات الذهنية والعلمية وهذا أسمى ما تسعى إليه البشرية، وتطلبه في كل وقت، ولعل حاجتها إليه في هذا العصر أشد، وربما هذا ما يفسر إقبال العديد من الغربيين على الشرق.

1- الندوي، أحاديث صريحة في أمريكا، (مصدر سابق)، ص 36.

2- الندوي، حديث مع الغرب، ط 1. بيروت: دار الإرشاد 1967م. ص 59.

3- ينظر: الندوي، ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 94-95.

2-1-2: العزة والحرية:

كثيرا ما تستعبد الأغراض والأهواء والشهوات المتعددة أصحابها؛ فإذا هم خاضعون تابعون لها مملوكة إرادتهم، مسلوبة مشيئتهم، وقد تتسلط على الإنسان قوى خارجية كطغيان الحكام المستبدين، أو ذوي الجاه والثروة والنفوذ أو المتسلطين من رجال الدين، فهؤلاء جميعا يسلبون الإنسان إرادته ويخضعون فكره وسلوكه. فإذا وقع العبد تحت تأثير هذه الأسباب التسلطية الداخلية أو الخارجية شعر بفقدان اختياره وحرية في التعبير والتفكير والتصرف وذاق طعم الذلة والهوان. فإذا تحقق العبد بالتوحيد وأسلم أمره كله لله فيما يأمر وينهى ويعطي ويمنع، ويخضع ويرفع، تحرر تماما من أسباب التسلط التي تكبل إرادته، وتأسر حريته، فإذا هو حر عزيز قوي، لا يخضع ولا يذل إلا لربه، لا يتبع هوى نفسه وشهواته إذا كانت تورده موارد الصَّعَّار، ولا يخضع للمستبدين والمتسلطين بل ينظر إليهم نظرة استعلاء معتزا بربه معتصما به، معتمدا عليه، مستخفا بكل قوة أو ثروة أمام قوة الله وغناه.

يقول الندوي في وصف الجيل الأول الذي رباه النبي ﷺ وتشرب حقيقة التوحيد: "وكان هذا الإيمان بالله رفع رأسهم عاليا وأقام صفحة أعناقهم فلم تنحن لغير الله أبدا، لا لملك جبار، ولا لخبير من الأخبار، ولا لرئيس ديني ولا دنيوي. وملا قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله تعالى، وعظمته، فهانت وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة والفخفخة، فإذا نظروا إلى الملوك وحشمتهم وما هم فيه من ترف ونعيم وزينة وزخرف، فكأنهم ينظرون إلى صور ودمى قد كسيت ملابس الإنسان.¹ ويزيد الندوي الأمر توضيحا وينقل عن العلامة السيد سليمان الندوي قوله: "إن الأمم التي لا عهد لها بعقيدة التوحيد لم تكد تعرف معنى الإنسانية، وكانت تعد نفسها عبدة خاضعة لكل مظهر من مظاهر القوة، وإن عقيدة التوحيد التي جاء بها محمد رسول الله ﷺ هي العقيدة التي استطاعت أن تحرر الإنسان من المخاوف التي كانت تسيطر على شعوره، فأصبح بفضل هذه العقيدة لا يخاف أحدا إلا الله".²

ويستنتق الشيخ التاريخ ليقدم شهادته في هذه القضية بشواهد تعكس عزة المؤمن وكبر نفسه وأنفته نختار منها واقعتين:

الأولى مثلها جعفر بن أبي طالب ورفقاؤه في مجلس النجاشي، وكان الصحابة لاجئون في الحبشة يطاردهم أعداؤهم، ولكن عزة المؤمن وكرامته تأبى عليه أن يذل لأحد غير الله، وينقل الشيخ الندوي

1- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 92-93.

2- الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة، (مصدر سابق)، ص 24-25.

ما ورد في "البداية والنهاية" من أن أبا موسى قال: "انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جالسون سماطين، وقد قال له عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهى بادرنا من عنده من القسيسين والرهبان: اسجدوا للملك قال جعفر: لا نسجد إلا الله".¹

أما الموقف الثاني فهو موقف ربيعي بن عامر مع رستم يقول الندوي: أرسل سعد قَبَلِ القادسية ربيعي بن عامر رسولا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرايبي الحرير، واليواقيت واللالئ الثمينة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربيعي بثياب صفيقة، وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه: إني لم آتكم؛ وإنما جئتمكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمح فوق النمارق فحرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".²

وليست هذه العزة والحرية وقوة الروح خاصة بالجيل الأول من الصحابة أو التابعين، وإنما تتوالى دروسها البليغة على أيدي الربانيين عبر التاريخ.

ومن التاريخ المعاصر يبرز الندوي نماذج عدة لهذه الشخصيات، تمثل بوحدة منها وهي شخصية العارف بالله مولانا "فضل الرحمان الكنج مراد آبادي" وكيف قابل الحاكم الإنجليزي - وقد كانوا أصحاب صولة في الهند قبل استقلالها - بعزة المؤمن الذي لا يرى لأرباب الدنيا وزنا، يقول الندوي: "وحدثة الشيخ كما يحدث من لا شأن له من الناس ولا خطر، وانتقد حكومته، وقال: قد فشت الرشوة في حكمكم فشوا كبيرا؟ والحاكم منصت خاشع، وقرينته جالسة تسمع، وقال: إن فيكم وقاحة، وقلة حياء يشير إلى سفور المرأة..."³

إن هذه الشواهد المتعددة تقدم دليلا على أن التوحيد ينشئ في نفوس أصحابه شعورا بالتسامي ووعيا بالإنسانية التي خلقوا عليها، مما لا يسمح لأحد بتدجينهم، أو استعبادهم وتلك أولى شروط الاستخلاف والإعمار والإنجاز.

1- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 93.

2- المصدر نفسه.

3- الندوي، ربابية لا رهبانية، (مصدر سابق)، ص 124-125.

أما ما أحدثته الديانات المحرفة ورجالها من أذى بنفوس أتباعها من يأس وتشاؤم وسوء ظن بالفطرة الإنسانية السليمة، كما هو الشأن في الديانات الهندية المعتقددة بتناسخ الأرواح التي لا مجال فيها لإرادة الإنسان، واضطراره لنيل عقوبات على ما قدمته يده في حياته الأولى، أو ما نادى به المسيحية من خطيئة يحملها الإنسان بالولادة، ولا سبيل للخلاص منها بجهد وسعيه، كل ذلك أفقد الإنسان ثقته بنفسه واعتزازه بها، فلما ظهر الإسلام وجهه النبي ﷺ بعقيدة التوحيد " أعاد إلى الإنسان ثقته المفقودة بفطرته ومواهبه وانطلق إلى الأمام بعزم قوي وحماس زائد وعاطفة جياشة ليصنع مصيره ومصير الإنسانية، ويجرب حظه وقدرته في تلك الإمكانيات الهائلة، والفرص الغالية".¹

ويسترسل الندوي في بيان منة الله تعالى برسوله محمد ﷺ وكيف ساق على يديه الكريمتين نعمة "التوحيد" التي أغاث بها الإنسانية من طغيان القوة والثروة والكهنوت يقول: " وهكذا أسعف النبي ﷺ الإنسانية المذعورة الخائفة، التي كانت تمن تحت وطأة اليأس والقنوط، ومنحها فرصة جديدة جميلة من الحياة، ونفخ في قلبها الضعيف المتواني، روحا جديدة وحرارة جديدة، وهياً لروحها بلسما، ورفعها من حضيض التراب إلى أوج العزة والسيادة، والثقة والاعتزاز، والاعتداد بالنفس والاعتماد على الله".²

وفي تحليله لأسباب هزيمة العرب أمام اليهود في حرب فلسطين يبين الشيخ أن الأعداء تفتنوا لمنابع القوة الكامنة في نفوس المسلمين، وهي الإيمان، فسلطوا عليهم عدوين هما أضر بهم من المغول والتتار، ومن الوباء الفاتك. أولهما: الشك وضعف اليقين، وثانيهما: الذل النفسي والشعور بالهوان والدونية، التي إن تمكنت من نفوس أبناء أمة ماتت.

يقول الشيخ: "لقد ثبت مما ذكرناه في هذا الكتاب، وما سردناه من الأمثلة والأخبار وشهادات التاريخ ومشاهدات هذا العصر أن المد والجزر في تاريخ الإسلام، وأحوال المسلمين تابعان للمد والجزر في الإيمان وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين، وأن منبع قوة هذه الأمة في باطنها وهو القلب والروح، فإذا عمر القلب بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وتزكت الروح بتعاليم الدين والأخلاق الإسلامية... فعند ذلك يتحولون قوة خارقة للعادة لا يغلبها شيء، ويصيرون قضاء الله الغالب وقدره المحتوم، وكلمته العليا...".³

1- الندوي، السيرة النبوية، (مصدر سابق)، ص478-479.

2- المصدر نفسه، ص481.

3- الندوي، المسلمون وقضية فلسطين، (مصدر سابق)، ص19-20.

2-1-3: حرية الفكر:

كثيراً ما خضع الفكر الإنساني لعوامل كبلت انطلاقته في البحث عن الحقيقة، وأعادت تعامله الموضوعي مع الأشياء والظواهر، فإذا أحكامه وتصوراته غير مطابقة للحقيقة الموضوعية، وقد تكون تلك العوامل داخلية من ذات الإنسان كالخضوع للأهواء وإتباع الشهوات التي تطفئ نور العقل، وتصرفه عن إدراك الحق والتصرف بمقتضاه، فإذا جمع إلى هذا الخضوع، الإعراض عن هدايات الوحي ونوره، فقد العبد المعالم التي تحدد له مسار الوصول إلى النتائج الصحيحة، وكانت الخسارة فادحة.

إن الإيمان بالله تعالى وتوحيده من شأنه أن يحرر العقل في حركته الفكرية من الخضوع لتلك الأهواء، ويسدده حتى يدرك الحقيقة كما هي، ويتصرف بناء على تلك المعرفة، فيتجنب عثرات كثيرة. إن تحقيق التوحيد يقتضي الانصياع الكامل لجهة واحدة، ومخالفة كل توجيه يناجزها، ولو كانت هذه التوجيهات من داخل النفس كتعلقها برغائب مادية أو معنوية تميل بها عن الحق. كما يضبط توحيد الله قصود الإنسان كلها ويوجه فكره وجهة واحدة هي طلب الحق، والبعد عن كل ما من شأنه أن يجيد به عن الصراط المستقيم.

وقد لاحظ الندوي - رحمه الله - عظم الانحراف الذي وقع فيه الغرب نتيجة الخضوع للأهواء والمطامع والمطامح لرجال الفكر والمال والسياسة، وكيف شقيت الإنسانية بهذه السقطة الكبيرة يقول: "إن أكبر انحراف وقع في خط التقدم العلمي الذي سار عليه الغرب منذ استيقظ من سباته العميق وتحرر من هيمنة الكنيسة، أن الغرب واصل هذا العمل الذي أحدث انقلاباً هائلاً في الحضارة ككائن مستقل حر، يحق له أن يحكم هذا الكون ويسخره لأغراضه الشخصية، أو الوطنية أو القومية، ويتصرف فيه كما يشاء، وهو غير مسؤول أمام ربه. يعمل ما يشاء بالأصالة لا بالخلافة والرسالة، وهذا الخطأ هو الذي جر على العلم، وعلى الأمم التي لم تبلغ هذا الشأو البعيد من العلم والمدنية، أو وقعت تحت رحمته وحكمه، شقاء طويلاً، وعذاباً أليماً"¹.

كما أن من صور إعاقة الفكر الإنساني عن إدراك الحقائق خضوعه لموارث ثقافية، تلقاها الخلف عن السلف دون تمحيص، وقد تكون عبارة عن خرافات وأساطير وأوهام لا صلة لها بالواقع، فإذا بما توجه حركة الفكر وجهة غير صحيحة، وإذا بأحكامه وتفسيراته خاطئة.

فإذا تحرر الفكر من الخضوع لغير الله وتوجيهاته، والتحري في طلب الحقيقة وصل إليها وأدركها، وفي هذا المعنى يقول الندوي: " فيعثر بذلك على المركز الذي يربط به الوحدات المبعثرة في هذا

1- الندوي، دور الإسلام الإصلاحي، (مصدر سابق)، ص 55-56.

العالم، فيترأى له هذا الكون وحدة لا تبعثر فيها ولا تناقض، ولا فوضى فيها ولا تنافس، ولا توجد فيه مناطق مستقلة متناكرة متحاربة؛ إنما هي مملكة منظمة واحدة، تديرها إرادة قاهرة رحيمة واحدة، يتخلص بذلك من جميع أقسام الوثنية والثنوية وعن الأوهام والخرافات وسلطان الأساطير والروايات والتقاليد والعادات، ويرفع عن الخضوع لغير فاطر الكون ومدبره...¹.

كما أن التوحيد حرر الإنسان من توجيهات رجال الدين الذين أعاقوا مسيرة العلم والاكتشاف، واعتقدوا أن ما حوته صفيحهم المقدسة من معلومات كونية هو قطعيات علمية لا يجوز مخالفتها، فجنوا على العلم والدين معاً، إن التوحيد الإسلامي حرر العقل الإنساني من الخضوع لهؤلاء وحفره على النظر والتفكير، ومدح الذين يتفكرون وذم الذين لا يتفكرون فكانت النتيجة هذا " النشاط الفكري العالمي في كل مجال من مجالات العلوم والصنائع والمدنية ظهر أثره في العالم كله، وكأنما فتحت كوة ومنفذ واسع يدخل منه النور والهواء الطلق، وكأنما كسر، أو فتح ذلك القفل الذي وضعه أعداء الحرية والتفكير السليم أو الممثلون المزورون للديانات القديمة على العقل البشري وانتبه العالم من سباته العميق الذي طال قرونا وآلآفا من السنين " ².

2-1-4: وحدة النفس:

إن مما يشتهت النفس أوزاعاً ويفرقها مزقاً، تعدد مصادر التوجيه والأمر والنهي وتعارضها، مما يمزق قوى النفس ويوزعها بين ولاءات متعددة تحيّر الإنسان في الاختيار لأيّها يستجيب، فإذا هو بين إقدام وإحجام، وعزم ونكوص، وتردد بين الغايات والمقاصد المختلفة المتضاربة، فإذا العبد في عطالة عن الفعل والإنجاز تحاكي عطالة جسم تتجاذبه قوى متعارضة، ويمكن ملاحظة هذه الحالة من التشتت النفسي في أحوال كثير من المسلمين، الذين ضعف وعيهم بالتوحيد، فإذا بهم خاضعون لأهوائهم وأعرافهم في بعض شؤونهم، وخاضعون لدينهم وعقيدتهم في البعض الآخر، ما أدى إلى وضع شاذ جعل الأمة تراوح مكانها، فلا هي سارت في طريق تحقق فيه مقاصد الدين العليا ولا هي قطعت صلتها به نهائياً وسارت في طريق الحضارة الغربية المعاصرة.

إن إخلاص الدين وتوحيد الولاء والقصد يكسب النفس وحدة وجمعية وانسجاماً وراحة نفسية ودفاعية للفعل والعطاء.

1- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 21.

2- الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة، (مصدر سابق)، ص 112.

ويمكن تلمس هذا المعنى في المثل المضروب في القرآن الكريم لنفسية الموحد في مقابل تشتت وتوزع المشرك قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر، الآية: 29).

إن المشرك تتجاذبه قوى متعددة فإذا هو منقسم النفس بينها حائراً مترددا لا يدري أيهاً يجب، بينما الموحد مجموع النفس يتجه بكليته نحو وجهته الواحدة مطمئن البال، وفي إشارة إلى هذا المعنى يقول الندوي متحدثاً عن عقيدة التوحيد وآثارها في النفس الإنسانية. " فأغناه ﷺ بعقيدة صافية، نقية سهلة سائغة، حافزة للهمم باعثة للحياة... فتغير العالم كله في نظره بهذه المعرفة الجديدة والاكتشاف الجديد وصار مصوناً، عن كل نوع من العبودية والرق، وعن كل رجاء وخوف من المخلوق وعن كل ما يشنت البال ويشوش الأفكار فقد شعر بوحدة في هذه الكثرة " ¹.

كما أن من معاني وحدة النفس وجمعيتها توحيد الوجهة والقصد، فإذا أعمال الإنسان كلها كبيرها وصغيرها وجليلها وحقيقها ما كان دينياً ودينيوياً، فردياً أو جمعياً، كله منحرف في سلك واحد هو طلب مرضاة الله وطلب وجهه الكريم، وكل ما يرد على الإنسان من مقاصد متعددة يردّها إلى المقصد الأصلي الكلي، وحينئذ ستكون أعمال العبد موحدة لا ينتابها التشويش والتقسيم بين ما هو لله وما هو لغيره، وما هو للدنيا وما هو للآخرة إلى غير ذلك من الثنائيات، وبذلك تتحول جميع أعمال العبد - حتى المباحة منها - عبادة وطاعة لله ما دام الباعث عليها واحداً والمقصود واحداً.

وقد اعتبر الشيخ الندوي أن أعظم هدية جاءت بها البعثة المحمدية اعتبارها أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء والقصد الذي يضمّره في قلبه، وهو ما عبر عنه الشارع "بالنية" واعتبر كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله هو وسيلة التقرب إلى الله، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة مهما كان نوعه، ولو كان تحقيقاً لمطالب النفس، كطلب رزق أو استمتاع بتسليّة مباحة أو حياة زوجية.

وبالعكس من ذلك فكل عبادة أو جهاد أو أي عمل ديني، يعتبر عملاً دنيوياً إذا تجرد من طلب رضا الله، قد يعود وبالاً على صاحبه. ²

يرى الندوي أن مآثرة النبي ﷺ أنه ملأ الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا وجعل هذين المتنافرين المتباعدين، الذين عاشا في خصام دائم وعداء سافر يتعانقان ويتآلفان في سلام ووثام.

1- الندوي، السيرة النبوية، (مصدر سابق)، ص472.

2- المصدر نفسه، ص483؛ الإسلام وأثره في الحضارة، (مصدر سابق)، ص90.

ويسمى الرسول ﷺ رسول الوحدة الذي أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحارين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب، والعطف على البشرية وأعلن قوله تعالى: ﴿ وَمَنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (البقرة، الآية: 201)، وقوله أيضا: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۗ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام، الآية: 162-163)، يقول الندوي: "إن حياة المؤمن ليست مجموع وحدات متفرقة متضادة، بل هي وحدة تسيطر عليها روح العبادة والاحتساب ويقودها الإيمان بالله، والإسلام لأوامره، وهي تشمل شعب الحياة كلها... إذا تحقق الإخلاص وصحت النية... فدل ذلك على أنه رسول الوحدة والوئام والانسجام، إنه قضى على نظرية الانفصال بين الدين والدنيا فجعلها كلها عبادة".¹

2-1-5: سعة المجال المعرفي:

إن مصير العقل في حركته للكشف عن المعرفة محكوم إلى حد كبير في إصابته الحق والصواب بمقدار سعة دائرة النظر لمجال البحث والتأمل، فكلما كانت المعطيات أوسع كان إدراك الحقيقة أقرب، وكلما كانت دائرة النظر أضيق، والمعطيات أقل، كلما تخلف جزء من الحقيقة، فإذا أحكام العقل ناقصة، أو خاطئة.

إن حركة العقل إذا اقتصر بحثها عن المعرفة فيما هو محسوس أسقطت كثيرا من الحقائق الوجودية التي هي في نطاق عالم المادة نفسه، فضلا عن الحقائق الغيبية التي هي أساس هذا العالم المحسوس بوجوداته، وظواهره والمتحكمة فيه، وهذا ما وقعت فيه الحضارة المادية الغربية المعاصرة التي قطعت صلتها بالدين وتعاملت مع الإنسان بوصفه مادة فيزيائية وكيميائية، وتجاهلت بعده الروحي والخلقي فقتلته معنويا، وكذلك حينما تعاملت مع الحياة على أساس أنها الحقيقة الأولى والأخيرة وأنه لا حياة بعدها، وبالتالي اعتبرتها فرصة وحيدة على العاقل أن يستغلها أحسن استغلال وينتهب فيها أكبر قدر من المسرات والشهوات دون اعتبار المسؤولية الأخروية، فشقي الإنسان في مجموعته بهذه النظرة الضيقة للحياة وللإنسان.

ومن جهة أخرى يطالعنا التاريخ بأخبار مدنيات ركزت على المعقولات، وأعلت مكانتها، وأعطت العقل ضوءا أخضر، وحرية مطلقة يخوض غمار البحث والتنقيب عن كل حقيقة، حتى ولو لم يكن

1- الندوي، السيرة النبوية، (مصدر سابق) ص484. بتصرف؛ وانظر أيضا: الندوي، روائع إقبال، (مصدر سابق)، ص180 وما بعدها.

يملك أولياتها، بل هو على جهل تام بمبادئها، كبداية هذا العالم ونهايته، وحقيقة الحياة وأهميتها، فحرمت الإنسانية خيرا كثيرا.

ومن جهة ثالثة فهناك المدينة الإشرافية التي كانت مصر القديمة، وبلاد الهند مسرحا لها والتي تعنى أساسا بالمعارف الروحانية وما فوق الطبيعية وتهمل المعقولات والمحسوسات، بل تعتبر الحواس والعقل والقياس والاستقراء، والبرهان والاستدلال، والنقد والتحليل لا يفيد شيء منها في معرفة الحق واليقين في قليل أو كثير، بل يقف حاجزا منيعا وحجابا صفيقا في العثور عليه، ولا بد من المشاهدة لحصول الحقيقة على وجه اليقين، ولا يمكن لهذه المشاهدة أن تتحقق إلا إذا أميتت الحواس الظاهرة والفكر¹، فحرمت البشرية في ظل هذه المدينة ثمارا طيبة ونعما كثيرة خلقها الله لعباده إن تطرف أصحاب كل نزعة إلى نزعتهم جعل مدنيت العالم جزرا منعزلة عن بعضها لا رابط بينها ولا تكامل.

وإن النظرة التوحيدية وحدها قادرة على نظم المعقولات، والحقائق الميتافيزيقية في نظرة كونية منسجمة تزيل بها كل تعارض، وتصادم باعتبارها آيات الحقيقة المطلقة، وبذلك يفسح أمام الباحث عن الحقيقة مجال رحب يشمل ما هو محسوس، وما هو غير محسوس وبذلك يتوفر له أكثر ما يمكن من المعطيات، فإذا أحكامه ونتائج بحثه أقرب إلى اليقين والحقيقة.

يقول الأستاذ عبد المجيد النجار في هذا المعنى: "وبخاصية الشمول هذه انتهى التحضر الإسلامي إلى إبداعات معرفية مشهودة، جمعت بين الإبداع في العلوم الطبيعة وبين الإبداع في العلوم الإنسانية والروحية، وليس استيعاب التراث العلمي والفلسفي القديم، ونقله إلى الناس إلا مآثرة إسلامية متأية بشمول النظر في الفكر الإسلامي"².

لقد كانت سعة مصادر الدراسة والتأمل، وتنويع وسائل العلم، والبحث ملحظا للشيخ الندوي، نوه به، ونبه عليه كأثر من آثار عقيدة التوحيد في الحياة وفهم الكون يقول: "وقد نوع القرآن وسائل العلم ومصادر الدراسة والتأمل، ودعا إلى التفكير في الأنفس والآفاق، وفي ماضي الأمم والمجتمعات، والتوصل بكل ذلك إلى نتائج ذات قيمة عميقة الأثر بعيدة المدى في المصير الإنساني"³.

1- الندوي، بين الدين والمدينة، (مصدر سابق)، ص 27.

2- النجار، الإيمان بالله، (مرجع سابق)، ص 185-186.

3- الندوي، دور الإسلام الإصلاحي، (مصدر سابق)، ص 50.

2-1-6: وحدة المعرفة:

إن من مقتضيات التصديق بوحداية الخالق، العلم بأن كل ما يقع في الكون؛ إنما هو خلقُ الله لعباده وبمشيئته، ووفق سنته في تدبير الكون، فالله سبحانه مبدأ كل شيء وإليه غاية كل شيء، إن وحدة الخالق تعنى وحدة القانون الذي يسير عليه الكون، ومظهره النظام والاتساق الذي تلوح آياته في هذا الكون الفسيح. ذلك ما يساعد الإنسان على رد الكثرة الأفعالية إلى الوحدة يقول الأستاذ عبد المجيد النجار: " وإذا رُئي الكون موحدًا في قانون سيره وانقلابه، فإن هذا سيورث معنى من الوحدة في تفسير الأحداث ترد به الكثرة من الظواهر المتنوعة إلى السبب الموحد، ويتخذ من ذلك المبدأ مبدأً للفهم تفسر به الأحداث لتعرف حقيقتها، أما لو رُئي الكون وأحداثه شتاتًا ينتمي كل قسم منه إلى مدبر، فإن ذلك يجعل العقل يتيه في معرفة الأسباب الحقيقية التي تحكمه ويسقط حينئذ في الخرافات والأساطير يفسر بها أحداث الكون."¹

لقد كان هذا الأثر المعرفي لعقيدة التوحيد حاضرًا في فكر الندوي - رحمه الله - وعبر عنه مرارًا وأبرزه وأبرز قيمته العلمية يقول الندوي: " وإن الأثر العقلي الأول الذي يترتب عن هذه العقيدة على الإنسان هو أن العالم كله تابع لمركزية ونظام واحد، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ترابطًا ظاهرًا، ووحدة في القانون، ثم بعد هذه العقيدة يستطيع الإنسان أن يأتي بتفسير كامل للحياة، وأن يقوم فكره وعلمه في هذا الكون على حكمة وبصيرة."²

ويبين رحمه الله القيمة العلمية والدينية والأثر النفسي لهذه الرؤية التوحيدية بقوله: " فيعثر بذلك على المركز الذي يربط به الوحدات المبعثرة في هذا العالم، فيتراءى له هذا الكون وحدة لا تبعر فيها ولا تناقض، ولا فوضى فيها ولا تنافس، ولا توجد فيه مناطق مستقلة متناكرة متحاربة، إنما مملكة منظمة واحدة تديرها إرادة قاهرة رحيمة واحدة، قال تعالى: ﴿الَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (المزمل، الآية: 9)، يتخلَّص بذلك من جميع أقسام الوثنية والثنوية وعن الأوهام والخرافات وسلطان الأساطير والروايات... ويترفع عن الخضوع لغير فاطر الكون ومدبره..."³.

1- النجار، عبد المجيد، الإيمان بالله وأثره في الحياة، (مرجع سابق)، ص 191.

2- الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق) ص 104-105. والإسلام وأثره في الحضارة (مصدر سابق). ص 22. ودور الإسلام الإصلاحي، ص 47.

3- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص: 21. محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 3، ص 364.

ويكشف الشيخ عن الأثر السلبي لغياب هذه الرؤية على الفكر والحياة، مبررا سبب ذلك، مستعرضا جانبا من تاريخ الفكر الإنساني في اليونان والهند وإيران فيقول: "السر في وجود التفاوت الفاحش، والفجوة العميقة السحيقة بين العلم والعمل والنظر والسلوك.. وفي انتشار الفوضى المنهجية والعقائدية، والتوزع بين المذاهب والآراء، وفي وجود وحدات علمية متناقضة حيناً، متناثرة أحيانا، مجردة من وحدة تربطها، وتخضعها لقوة قاهرة، أو إرادة قاصرة أو غاية مشتركة فاضلة، هو انقطاع آخر خيط كان يربط هذه الشعوب والبلاد بالنبوات"¹.

ثم يشيد الشيخ بعقيدة التوحيد ودور الإسلام العظيم، وجهده الريادي في تبديد تلك النظرة المشتتة التجزيئية المتناقضة للعلم والكون فيقول تحت عنوان **العشور على الوحدة في الظواهر الكونية**: "وكان من أكبر معطيات النبوات في الزمن السابق وأكبر حسنات الإسلام في الأخير، أنه دل على الوحدة التي تربط بين وحدات العلم... فاستطاع بفضل القرآن والإيمان أن يكتشف الوحدة التي تربط الوحدات بعضها ببعض وهي معرفة الله تبارك وتعالى... وكانت تبدو الوحدات الكونية -من الظواهر والحوادث والمتغيرات- متناقضة متضادة توقع الإنسان في حيرة واضطراب، وقد تؤدي إلى الكفر والإلحاد، كما تؤدي إلى الطعن والاعتراض على الخالق ومدبر الكون، فدل العلم الإنساني المؤسس على الإيمان والقرآن على الوحدة التي تجمع بين هذه الوحدات الكونية وهي إرادة الله الغالبة وحكمته الباهرة"².

ولم يفت الندوي بيان الأثر المعرفي للرؤية التوحيدية في التعامل مع الحياة الإنسانية، وإلى قيمة هذه النظرة وأثرها الإيجابي، ويذكر الشيخ بأن من المنن التي ساقها الله تعالى على يد رسوله محمد ﷺ: **"الجمع بين الدين والدنيا وتوحيد الصفوف المتنافرة والمعسكرات المتحاربة"**³.

ويشرح كيف قسمت المسيحية الحياة الإنسانية إلى قسمين متنافرين، بينهما هوة كبيرة وحاجز سميك، معسكر لرجال الدين وآخر لرجال الدنيا، وما نتج عن هذا الانفصال النكد من صراع بينهما انتهى إلى قطيعة كبيرة من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية للدين وإيثار الدنيا مما فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللا دينية التي وقع فيها الغرب ومن دان له في الفكر والعلم والثقافة.⁴

1- الندوي، دور الإسلام الإصلاحي، (مصدر سابق)، ص30 وما بعدها.

2- المصدر نفسه، ص 48-49.

3- ينظر: الندوي، السيرة النبوية، ص481.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص 481 وما بعدها؛ وروائع إقبال، ص 183؛ والإسلام وأثره في الحضارة، ص86.

كما أن من وجوه وحدة المعرفة توحد جميع وسائل المعرفة والإدراك في انفتاح الإنسان على الكون والتطلع إلى إدراك حقائقه، فإذا كل وسائل الإدراك متآلفة يعزز بعضها بعضا في معرفة الحقيقة في أبعادها ومستوياتها المختلفة، فلا الحواس تلغي العقل ولا العقل يلغي الوحي؛ وإنما يتضافر الكل في سبيل الوصول إلى الحقيقة.

يقول الأستاذ النجار: "وكذلك إذا رثيت منافذ الإدراك من وحي وعقل وحس موحدة بتدبيرها من قبل الله الواحد، فإنها حينئذ ستكون متساندة في البحث عن الحقيقة يقوم كل منها بدور مكمل للدور الذي يقوم به الآخر، وذلك في غير ما تعارض يلغى فيه أي منها طريقا للمعرفة، بل هو التكامل الذي يقوم فيه كل بدور يتكشف به جزء من الحقيقة، حتى إذا ما تمت الأدوار تكشفت الحقيقة كاملة".¹

وقد كان هذا المعنى حاضرا عندما ناقش الندوي المدنيات الثلاث الحسية والعقلية والإشراقية، وبين عدم كفايتها لإدراك جانب مهم من الحقائق الوجودية وضرورة الاعتراف بالنبوة كمصدر لنوع من المعارف لا يغني فيها ذكاء العقل، ولا مشاهدات المرتاضين، وبخاصة فيما يتعلق بمعرفة الخالق سبحانه، وعلم مرضاته، ومبدأ الإنسان ومصيره، والغاية من خلقه، ومكانته.

فهو مع اعترافه بدور الحواس في مجالها، وإقراره بدور العقل، والانتفاع به في القضايا الدينية والدينية، واعترافه بالمسلك الكشفي الإشراقي كحاسة لها مدركاتها الخاصة، إلا أنه يؤكد - باعتباره دارسا لتاريخ الحضارات - عدم كفاية هذه الوسائل، وعجزها عن الإجابة عن الأسئلة الهامة الأساسية التي تثور في نفس كل إنسان، وكلما حاول الإنسان حلها على أساس تلك القوى بمعزل عن الوحي مُني بالإخفاق.²

وكان ما يبينه من حضارة على أساس تلك الإجابة معوجا منحرفا، ليستخلص من تلك النتيجة ضرورة تكميل تلك الوسائل بالنبوة، وهو ما يوفر مبدأ تنتظم على أساسه وترتبط بجله جميع وحدات العلم. وهو ما يقف عليه الدارس في المنتج المعرفي المتكامل المتألف الذي تولد في رحاب الحضارة الإسلامية.

يقول الأستاذ النجار: "وعلى هذا النحو من وحدة المعرفة بنيت العلوم الإسلامية كلها، فبدت على سعتها وراثتها وتنوعها وحدة متآلفة يظاهر بعضها بعضا أو يفضي بعضها إلى بعض، ما كان ناشئا بالخصوصية الإسلامية وكان مقتبسا من التراث الإنساني، ويستوي في ذلك ما كانت طبيعته

1- النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، (مرجع سابق)، ص 192.

2- ينظر: الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 11 وما بعدها.

سمعية وما كان حسياً أو عقلياً. وما تم ذلك إلا بتكوين الذهنية الإسلامية على مبدأ التوحيد المعرفي المتأني من التوحيد الإيماني الذي سلك قدرات الإنسان المعرفية في خيط واحد، وهو ما جعلها تتجه إلى الله الواحد في كل ما تروم من الحقيقة.¹

3-2- أبعاد التوحيد في المستوى الاجتماعي:

لا تقتصر الآثار الطيبة للتوحيد على الحياة الفردية، بل تتعداها إلى حياة الجماعة المؤمنة، المنتظمة شؤونها على أساسه؛ إذ ينعكس على كل جوانبها، من تمتين آصرة الأخوة بين أفرادها، والمساواة بينهم، إلى معاني الاتحاد والقوة، والتكافل بين أفراد المجتمع، إلى غير ذلك من ثمار طيبة، وسنحاول فيما يلي جمع شتات ما تناثر من أفكار الشيخ الندوي في هذا الموضوع، وتنسيقها وعرضها في صورة واضحة المعالم.

3-2-1: الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية:

إن الإيمان بتوحيد الخالق والتحقق به على الوجه الأكمل من شأنه أن ينعكس ألفة وترابطاً وانسجاماً بين الأفراد الذين يعتقدون هذه العقيدة، ويصنع رابطة ووحدة قوية بين معتنقيه تكون هي الأصل في العلاقة بينهم، خلافاً للمجتمعات غير المؤمنة به، والتي قد تتوحد على أساس من المصالح المادية أو القوميات العرقية أو اللغات المحلية التي سرعان ما تتفكك، فإذا الصراع والتدابير سمة أساسية لذلك المجتمع.

إن التوحيد إذا كان عقيدة مشتركة بين معتنقيه فإنه يغذي فيهم الفكر والسلوك برؤية واحدة لحقيقة الإنسان ووظيفته، وحقيقة الحياة، ما يعمل على تقليص أسباب الفرقة والتدابير بين أبناء المجتمع. لقد كان هذا البعد من أبعاد التوحيد حاضراً بقوة في كتابات الشيخ أبي الحسن، أصل له، وتبته عليه، وأكد على ضرورة الوعي به وجني ثماره الطيبة.

لقد أكد الشيخ الندوي على أن من المآثر الجليلة، والمنن الباقية التي حملتها يد النبوة الكريمة إلى البشرية مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة بين البشر، فقد أعلن النبي الكريم ﷺ بعد قرون من الظلام الدامس والصمت المطبق إعلانه الثائر، المدهش: "أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى"². وبين الشيخ رحمه الله الأساس المتين الذي بنيت عليه هذه الحقيقة بقوله: "وهذا الإعلان يتضمن إعلانين هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام، وعليهما قام السلام في

1- النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، (مرجع سابق)، ص193.

2- الندوي، السيرة النبوية، (مصدر سابق)، ص473.

كل زمان ومكان وهما: وحدة الربوبية ووحدة البشرية، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين الجهة الأولى - وهي الأساس - أن الرب واحد، والجهة الثانية أن الأب واحد قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء، الآية: 1)، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات، الآية: 13).¹

وباعتباره دارسا للتاريخ، يستعرض منه ما يؤكد فكرته، ويبرهن عليها وهي أن التاريخ الإنساني خارج إطار عقيدة التوحيد عرف تفريقا بين البشر، وتمييزا بينهم وتفضيلا لعائلات وسلالات، كتفاوت ما بين الإنسان والحيوان، والحر والعبد مثلما حدث في الهند، وإيران والصين.² كما حذر رحمه الله من تمزيق وحدة الأسرة الإنسانية على أساس اللون أو الوطن أو النسب أو الثروة واعتبر ذلك تراثا جاهليا يشقي الإنسانية ويزعزع أمنها واستقرارها.³

ويرفض الشيخ أنواعا من الوحدات المصطنعة قامت على غير أساس التوحيد، ولم ترم إلى الغاية التي رمى إليها، ولم يقر إلا بوحدين حقيقتين اعتبرهما أكثر نفعا وخيرا للبشرية وهما:

الوحدة الإنسانية، والوحدة الإيمانية.

أما الوحدة الإنسانية فتعني أولا: أن البشرية كلها أبناء أب واحد وهو آدم عليه السلام، فيرجع الوجود الجسمي الطيني إلى شخص واحد مهما اختلفت الألوان والأجناس، وتنوعت اللغات واللهجات وتناوت الديار، وثانيا: وحدة الرب الخالق الرزاق.

يقول الندوي رحمه الله: "فإن هاتين الوحدتين تربطان الإنسان بعضه ببعض ربطا موثقا، وتجعلان البشرية المنتشرة في الآفاق وحدة مترابطة، وتجعلان بني الإنسان إخوانا متعاونين متماسكين من ناحيتين: ناحية أصرة الأبوة وناحية الربوبية، هذه هي الوحدة الإنسانية الحقيقية الواقعية التي أعلن عنها النبي الأعظم سيدنا ﷺ من خلال خطبته العالمية.."⁴

1- الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة، (مصدر سابق)، ص 37.

2- انظر: الندوي، السيرة النبوية، ص 474-475؛ والإسلام وأثره في الحضارة، (مصدر سابق)، ص 41 وما بعدها.

3- الندوي، حديث مع الغرب (مصدر سابق)، ص 22؛ والطريق إلى السعادة والقيادة، (مصدر سابق)، ص 54-55.

4- الندوي، الطريق إلى السعادة والقيادة، (مصدر سابق)، ص 37.

كما ميز الشيخ بين الوجدتين السابقتين، والوحدة على أساس العقيدة عقيدة توحيد الله وإفراده بالعبودية والربوبية، وهي العقيدة التي جردها خاتم النبيين محمد ﷺ في القرن السادس المسيحي حيث آخى بين المهاجرين والأنصار والأوس والخزرج من أهل المدينة وأقام بينهم صلة أخوة قوية، وأزال كل أسباب الفرقة والعداوة يقول الندوي رحمه الله: "ولا أعرف أنه أقيمت هناك أخوة فيما قبل أو أوجدت أصرة—في مثل هذا التنسيق والدقة والوضوح على مجرد أساس الوحدة في العقيدة والغاية قامت هذه الأخوة فيما بين المؤمنين المخلصين، الذين كانوا يؤمنون بالوحدة الإنسانية والوحدة الربانية، وكانوا يتمتعون بالثبات على وحدة العقيدة، ووحدة الهدف وكان ذلك قوة جديدة أنشئت لإنقاذ العالم المنهار وتخليص الإنسانية من بؤسها وشقوتها".¹

وكان نتيجة شيوع هذه العقيدة أن عاش الناس المساواة البشرية وتحرروا من أشكال التمييز، لا يفرقهم لون أو وطن ولا قومية أو نسب.

ومن صور هذه المساواة أن الدين الإسلامي كان حقا مشاعا وثروة مشتركة لجميع الشعوب وليس محتكرا لعائلة أو سلالة، كشأن بني لاوي في اليهودية أو البرهمية من الهنود، فقد برز في العلوم الإسلامية عدد كبير من غير العرب كالإمام البخاري والفارابي وابن سينا والجويني والغزالي وغيرهم حتى انتهت إليهم رئاسة العلم والفتيا والفقهاء والحديث والكلام حتى قال ابن خلدون: "من الغريب الواقع: أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر".²

وينتخب الندوي - رحمه الله - شهادات لكبار المستشرقين والباحثين يعترفون فيها بدور الإسلام في إقرار مبدأ المساواة البشرية وتطبيقه عمليا في المجتمع، وشيوع هذا المبدأ في المجتمع الإنساني حتى صار مبدأ عالميا.³

ومن ناحية أخرى حذر الشيخ من كل وحدة مزعومة تقوم على أساس اللغة، أو الإرث الحضاري الإنساني؛ لأن ذلك يغذي العصبية، ويذهب أمن المجتمعات، وتراثها العلمي والأدبي والثقافي الذي تكون في آلاف السنين.

1- الندوي، الطريق إلى السعادة والقيادة، (مصدر سابق)، ص42.

2- نقلا عن: الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة (مصدر سابق)، ص 38 وما بعدها.

3- أنظر تفصيل هذه الشهادات: الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، ص46 وما بعدها.

يقول الشيخ: " تشتد الحاجة إلى إحكام هذه الوحدة الكريمة، الوحدة الإسلامية لأنها هي وحدها رسول الأمن والسلام، وقادرة على البناء والإصلاح، وهي وحدها التي تجمع ولا تفرق، تؤاخي ولا تعادي، ترحم ولا تقسو، تبني ولا تهدم وقد أمتن الله علينا بهذه النعمة الجليلة ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران، الآية: 103).¹

3-2-2: التوحيد المحرر:

قد تتوارد على الذات الفردية عوامل داخلية أو خارجية تتسلط عليها، فتستعبدها وتذلها فإذا هي مسلوقة الإرادة، مقيدة المشيئة تحتاج إلى محرر يرفع عنها التقييد في التفكير، أو الرأي والتعبير أو الفعل، كذلك قد تتسلط على المجتمع قيود تعيق حركته على السعي للنهوض والتعمير، وقد تكون تلك القيود مفروضة على المجتمع من خارجه، كالاستعمار الأجنبي بأشكاله المختلفة، أو من داخله كالاستبداد السياسي، أو الخضوع لأعراف وموروثات تراكمت عبر الأجيال والقرون فإذا هي موجهة للفكر والسلوك، مانعة من التفكير الحر المستقل والعمل البناء.

وكما يعمل التوحيد على تحرير الأفراد على مستوى الفكر والإرادة والفعل، فإنه كذلك يحرر المجتمع من كل القيود التي تشل الإرادة الجمعية للأمة، وتعطل طاقاتها في تحقيق المقاصد العليا ذلك أن شيوع الرؤية التوحيدية في أفراد المجتمع يجعلهم يحتكمون في كل شؤونهم إلى أمر الله وحده، ويتمردون على كل ما يعارضه، فلا يكون مجال لارتهاق إرادتهم الجمعية لأي كان؛ إنما هو الخضوع والاحتكام لإرادة الله وحكمه، يقول الندوي - رحمه الله - مؤكدا هذه الحقيقة، متحدثا عن الصحابة الكرام:

"وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأعمال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع، لا يخضعون لسلطان ولا يقرون بنظام، يسيرون على الأهواء ويركبون العمياء ويخبطون خبط عشواء فأصبحوا الآن في حضيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها، واعترفوا لله بالملك والسلطان، والأمر والنهي، ولأنفسهم بالعبودية والطاعة المطلقة، وأعطوا من أنفسهم المقادة واستسلموا للحكم الإلهي استسلاما كاملا... وإذا دخلوا في الإسلام فلا افتيات في الرأي، ولا نزاع مع القانون الإلهي، ولا خيرة بعد الأمر، ولا مشاققة للرسول، ولا تحاكم إلى غير الله، ولا إصدار عن الرأي، ولا تمسك بتقاليد وعادات ولا ائتمار بالنفس.²

1- الندوي، الطريق إلى السعادة والقيادة، (مصدر سابق)، ص 56.

2- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 96.

فقد حررتهم العقيدة من الخضوع لغير الله سواء كان هذا الخضوع لهوى من داخل النفس أو لموروث ما يجعله قيذا جماعيا يمنع المجموع من تطوير الحياة والارتقاء بها بما يجد من معطيات تفرزها حركة الحياة المتجددة لقد أكد الندوي مرارا وفي العديد من المواضع من كتبه على الوظيفة التحريرية للتوحيد ويورد قصة ربيعي بن عامر ومحاورته لقائد الفرس ميرزا فعل العقيدة الجديدة، في المجتمع الجديد.¹

كما استخدم شهادات التاريخ، وفيها قصة يزد جرد ملك الفرس لما خرج هاربا من عاصمته بعد سقوطها، وقد دخل بيتا بسيطا وطلب ماء، فعافه ورده لأنه كان في كأس متواضعة ما اعتاد على مثلها، بل كان لهؤلاء السادة جيوش من الخدم والطهارة، وما لا يوصف من المتاع، ويعلق الشيخ الندوي على الواقعة بلسان ربيعي بن عامر: " أنتم عبيد لأنكم تحتاجون إليهم أكثر مما يحتاجون هم إليكم... أما نحن فلسنا عبيدا لشهواتنا، لسنا عبيدا لوجباتنا، لسنا عبيدا لملابسنا التي نلبسها، لسنا عبيدا للخدم والحشم... نحن أحرار نتجول في الصحراء ونعيش كما نشاء..."²

كما نبه الشيخ على الطاقة التحريرية للتوحيد من الأهوال والمخاطر، وحتى الموت، وملا القلوب شجاعة وإقداما واستهانة بالحياة في سبيل القيام بالواجب، وقدم عددا من الوقائع المختارة من التاريخ الإسلامي كدليل عملي على فعل العقيدة في واقع حياة سلفنا وكيف كانت نتيجة ذلك، فتحا ونصرا وعزة وتمكينا للإسلام في أرض الله.³

3-2-3: التوحيد ومبدأ التكافل الاجتماعي:

إن المقصود بالتكافل الاجتماعي هو قيام أفراد من المجتمع بسد حاجات البعض الآخر، والتعاون فيما بينهم، لمنع التخلخل في العلاقات الاجتماعية، فيسند الضعفاء من قبل الأقوياء ويعطي الأغنياء الفقراء ويؤكفل بالمرضى، وتتاح فرصة التكوين والعمل، حتى ينتهي الأمر بتكوين جماعة مؤمنة قوية فاعلة، لا مكان فيها لسواقط الأفراد والطبقات الذين يعيشون على هامش الحياة، مهدوري القيمة، معطلي الطاقات؛ إنما ينخرط الجميع في سلك الكرامة الإنسانية، ودائرة الاعتبار، وينال حظه من الكفاية وفرصته في القيام بواجب التنمية والتعمير.

إن إشاعة الرؤية التوحيدية في أفكار ومشاعر المؤمنين كفيل بتحقيق معنى التكافل الاجتماعي؛ لأن استشعار وحدانية الله تعالى في الخلق تملأ المؤمن بمشاعر الأخوة بين جميع أفراد النوع الإنساني

1- ينظر القصة وتعليق الندوي عليها في: الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق) ج 3، ص 172.

2- ينظر: المصدر نفسه، ج 3، ص 173-174.

3- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 94-95.

عامة، كما أن استشعار وحدة الدين التي تربط بين المؤمنين تملأ القلوب بمشاعر الولاء والنصرة والمحبة، فإذا المرء بدافع من الرؤيتين يعامل الآخرين على أساس أنهم إخوة له في الإنسانية وإخوة له في الدين، فكل ما يقع لهم، كأنما وقع له، فإذا به متفاعل إيجاباً مع قضاياهم وشؤونهم، وتمتد مشاعره بالرغبة في إيصال الخير للكافة وكرهية ودفع الأذى عن الجميع.

وبالتأمل في عدد من آيات القرآن الكريم التي تدعو إلى الإيمان بالله، وتوحيده يمكن ملاحظة اقتراحها بالدعوة إلى التكافل والتضامن مع اليتامى، والمساكين والمحرومين، حفظاً لكرامتهم وعوناً لهم على أعباء الحياة واعتبار ذلك من القربات، والمنجيات عند الله التي لا تقل عن درجة العبادات الشعائرية.¹

كما أن أحاديث الرسول الكريمة طافحة بهذه المعاني، فضلاً عن الخبرة العملية التي عاشها الرعيل الأول، والتي تزخر بشواهد عجت بها كتب السير والتراجم.²

لقد كان هذا البعد من أبعاد التوحيد حاضراً في أعمال الندوي -رحمه الله- -فها هو حين استعرض المآثر الخالدة والمنن الباقية التي ساقها الله للبشرية على يد النبي ﷺ يبين أن من الأهداف العليا للنسوة تنمية قوى الإنسان الباطنية ومداركه الروحية للوصول إلى درجات القرب واليقين، والحث على خدمة الإنسانية والإيثار والتضحية والوصول بذلك إلى مكان لا تصل إليه الملائكة المقربون.

وتلك هي سعادة الإنسان الحقيقية ونهاية كماله، ومعراج روحه ويقول الندوي في موضع آخر: "وعني النبي العربي ﷺ بتربية هذا الإنسان وتحريك مواهبه واستعداداته... وأثار فيه رغبة غريبة ونهامة عجيبة لإرضاء الرب والتقرب إليه ببذل النفس والنفيس والتفاني في حبه وطاعته، وفي محبة خلقه، وخدمتهم وإزالة المكروه عنهم، وما يضرهم في الدنيا والآخرة وإيثارهم عن نفسه"³.

كما أكد على أن التوحيد الإسلامي اعتبر البشرية أسرة موحدة كنفس واحدة، تلتقي على أب واحد وأم واحدة، واعتبر الخلق عيال الله وأن أحبهم إليه أنفعهم لعياله.⁴

ويقف الندوي مع التجربة الإسلامية في مجتمع المدينة، وبالضبط بعد هجرة النبي ﷺ وآله وسلم وكيف آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار على أساس المواساة بالمال والبيوت والمتاع، ويبيّن أن هذا الإخاء والتضامن بين المؤمنين كان مقدمة لنهضة أمة ذات دعوة ورسالة، تنطلق لصياغة عالم

1- ينظر: في ذلك: سورة الفجر الآيات: 17 - 30؛ وسورة البلد، الآيات: 11-20.

2- الندوي، السيرة النبوية، (مصدر سابق)، ص 485.

3- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 23.

4- المصدر نفسه، ص 22.

جديد قائم على عقائد صحيحة معينة، وأهداف صالحة منقذة للعالم من الشقاء والتناحر، وعلى علاقات جديدة من الإيمان والإخاء المعنوي والعمل المشترك¹.

إن القلوب المؤمنة لما فهمت هذه العقيدة وتشربتها عطرت بأنفاسها العالم، وأحالت شقاء الإنسانية وبؤسها إلى راحة وسعادة، وقد ظهرت هذه المواصلة، والحدب في طبقات متعددة من الأمة، من السلاطين والأمراء حيناً، ومن التجار والأثرياء حيناً آخر، ومن غيرهم من أصناف الناس، غير أن من تحققوا بهذه الحقيقة أكثر من غيرهم، وقاموا بهذا الدور أحسن قيام، وفي أعصر مختلفة وفئات متنوعة، هم الريانيون من رجال التصوف، الذين شادوا الربط والزوايا وجعلوها محاضن للفقراء والمساكين والمشردين والعجزة، يجدون فيها الرعاية والعناية وقد أشاد الندوي بهذا الدور، وبيّن مآثر المشايخ الريانيين ودور زواياهم التي كانت مأوى الآلاف من الناس يجدون فيها طعامهم وشرابهم ومرافق حياتهم².

لقد أشاد الندوي بعمق نظرة هؤلاء الصوفية ومجالسهم الروحية التي أنشأت في الناس حب الإنسان مهما كان دينه وثقافته، وحثت على خدمته وإيصال النفع إليه، ومشاركته الهموم والآلام، وبيّن أن منطلقهم كان العمل بالحديث الشريف: "الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله"³. وينقل الندوي من أقوال المشايخ ما يعزز به قناعته، ويدعم به رأيه من ذلك مثلاً ما نقله عن الشيخ نظام الدين: "لا شيء أغلى وأحب يوم القيامة من المواصلة وجبر القلوب المنكسرة وإدخال السرور على أصحابها"⁴.

ويبين الندوي بوضوح شديد كيف كانت هذه الرؤية سبباً في أن جرحى القلوب كانوا يجدون بلسماً لهمومهم وأحزانهم في هذه الزوايا، وكيف كانت قلوب المشايخ تفيض عليهم حبا وعطفاً، ويجدون في رحابهم كل ما افتقدوه من راحة البيت وأنس الأجابة، وينقل من شهادات التاريخ ما يشهد أن زوايا هؤلاء الصوفية كانت دوحات وارفة الظلال في بلاد الهند استراح في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون⁵.

1 الندوي، السيرة النبوية، (مصدر سابق)، ص 198.

2- الندوي، ربانية لا رهبانية، (مصدر سابق)، ص 99-100.

3- الطبراني، في المعجم الكبير، ج10، ص86. وقال الألباني ضعيف ينظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، رقم الحديث 1900، ط1. الرياض: مكتبة المعارف، 1992م، ج4، ص372-373. ويرى الشيخ الألباني أن الحديث روي بطريق آخر "خير الناس أنفعهم للناس"، وهذا الجزء من الحديث صحيح.

4- المصدر نفسه، ص 102.

5- الندوي، ربانية لا رهبانية، (مصدر سابق)، ص 102.

وليس التكافل بين الأفراد والجماعات مقصوراً على الجوانب المادية؛ وإنما يتعداه إلى الجوانب النفسية والروحية. إن شعور الإنسان بأخوته الإنسانية للناس جميعاً يجعله يتواصل شعورياً معهم بكرهية كل شر يؤذيهم، ومحبة كل خير فيه نفعهم ذلك ما يجعله يتمنى الهداية لجميع الخلق، ويسعى بكل ما أوتي من أجل إيصال الهدى والنور إليهم، ويتلهف لاستقامتهم على سواء الصراط ويتوجع لما يتخبطون فيه من شقاء معنوي؛ ذلك ما جعل سلفنا يوقفون حياتهم على الدعوة إلى الله، ويسعون لإنقاذ الإنسانية ويضحون بأوقاتهم، وراحتهم من أجل سعادة الآخرين.

في هذا المعنى كتب الندوي رسالته "الإنسانية تنتظركم أيها العرب" التي بيّن فيها أن العالم قد اتخم في جانب المعلومات والآلات ونتائج العقل الإنساني، ولكنه يشكو فراغاً في القلب المخلص المؤمن، فراغاً في العقل الواعي المؤمن، فراغاً في التألم للبشرية، لذلك فالإنسانية تستغيث ورثة النبوة أن يمدوها بالإيمان القوي، والثقة بالله والتوحيد الخالص النقي، والإيمان بكرامة الإنسان وشرفه، وتمثل الندوي الشعب الهندي والشعوب المسيحية، وشعوب إفريقيا مادة يد الاستغاثة ورافعة صوتها النابع من أعماق النفس فيقول على لسانها: يقول لكم إلى متى أيها العرب، إلى متى أيها السادة تنتظركم تغيبوننا وتبلون غلتنا، وتشبعون جوعتنا، وتنقذوننا من هذه البرائن الوحشية من برائن الجهالة، من برائن عبادة النفس، من برائن عبادة المادية فهذا يتطلب منكم ذلك الإيثار وتلك التضحية، وذلك الزهد، وذلك الاستنكاف من الجري وراء المادية، ووراء المظاهر كما فعل أسلافكم؟!¹.

إن الدارس لتراث الندوي يلحظ بكل وضوح هذه النزعة الإنسانية، ويلمس حرصه وتأمله لآلام البشرية، ودعوته المتكررة إلى إغاثتها ونجدها واعتبار ذلك غاية ومقصداً من مقاصد الدين، وكل ذلك راجع إلى عمق فهمه لرسالة الإسلام الذي اعتبر كتابه الخالد أن النفس الإنسانية واحدة قال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة، الآية: 32).

1- الندوي، الإنسانية تنتظركم أيها العرب !!!، ط1. لكتاؤ: منشورات الجمع الإسلامي العلمي الهند، 1999م، ص13.



المبحث الثالث:

الإنسان في رؤية أبي الحسن الندوي



تمهيد:

إن نجاح أي مذهب اجتماعي، أو حركة إصلاحية مرهون إلى حد كبير برؤيته للإنسان وتقديره لقيمته، والغاية من وجوده، فالإنسان هو الموضوع الأساس الذي تعالجه تلك المذاهب والحركات، وهو ما يتطلب المعرفة الصحيحة بحقيقته في أبعادها المختلفة، حتى يتسنى اختيار أحسن الخطط والمعالجات التي تثمر رقيا للإنسانية، وتحقق الخير والسعادة.

وفي المقابل حينما تُختار أنماط سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية على تقدير خاطئ لحقيقة الإنسان؛ فإن النتيجة تكون الفشل.

وسواء في ذلك المذاهب التي تعتبر الإنسان بعدا روحيا فقط، ليست المادة فيه إلا شرا وعائقا دون تحقيق الرقي الروحي، وهو ما وقعت فيه المذاهب الإشرافية، أو تلك التي اعتبرته بعدا ماديا صرفا، غاية وجوده الرفاه المادي، ومصيره الفناء الأبدي، كما تقرره المذاهب المادية المعاصرة، وهو ما آل بالأولى إلى القعود عن تعمير الأرض، واكتشاف كنوزها وخيراتها والانتفاع بها، وأدى بالثانية إلى إشقاء الإنسانية أفرادا ومجتمعات.

إن المتأمل فيما أفرزته الحضارة الغربية المعاصرة، والتي تعتبر أفضل ممثل للمدنية المادية المنكرة للبعد الروحي للإنسان، يلحظ صورا متعددة لهذا الشقاء، كالخوف المرضي الذي أدى إلى تكديس هائل لمختلف الأسلحة، وكالقلق النفسي، والانتشار المفرط للمخدرات بأنواعها، والانتحار الذي يعبر عن حالة من الفراغ الروحي الكبير، وما عرفه العالم من حربين عالميتين مدمرتين ذاق العالم كله ثمارهما المرة. ذلك ما دفع العقلاء من أبناء هذه الحضارة إلى انتقاد أسسها، ورؤيتها المختلة للإنسان، وما أسس على هذه الرؤية من مذاهب مختلفة، فظهرت اتجاهات جديدة تطالب بمراجعة هذه التصورات، وتؤكد على أن الدين ليس إحدى نتائج التطور التاريخي، بل هو قانون سماوي يقرر مصير الإنسان، وتنادي بالنظر إلى العلم لا من ناحية تطبيقاته العملية فقط، ولكن من جهة دلالاته الروحية.¹

هذه الحركة الروحية دلت عليها طائفة من عناوين الكتب التي تناولت الإنسان، واهتمت بطبيعته ومكانته، وقدره ومصيره موقنة بأن الوصول إلى إدراك أوضح لماهية الإنسان أمر على جانب من الأهمية في هذا العصر الذي يشهد اضطرابا كبيرا في اتجاهات السياسة ونظم الاجتماع ومذاهب الأخلاق.

1- ينظر: جلال العشري، العقاد والعقادية، ط 1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1994، ص 69.

منها مثلاً كتاب رالف بارتون "إنسانية الإنسان"، وكتاب "الإنسان ذلك المجهول" لـ"الكسيس كاريل"، وغيرها من الكتب التي اتخذت الإنسان موضوعاً لها، من حيث مكانته في العالم الحاضر، ومن حيث صلته بالله تعالى، وعلاقته بمحيط بيئته وبالمجتمع وبالجماعة الإنسانية بوجه عام.¹ وفي مقابل هذه الجهود للفكر الغربي، لم يلاحظ في عالمنا الإسلامي المعاصر ظهور دراسات تأصيلية لنظرية في الإنسان تنبثق من تعاليم الإسلام، وتكشف عما فيه من مصادر لفلسفة إنسانية أصيلة وإن كانت ثقافتنا الإسلامية وما أثمرته من حضارة مؤسسة على تصور إسلامي أصيل لحقيقته ولكنه تصور سار في الأذهان، ومتضمناً في المعتقدات، لعل سبب غياب مثل تلك النظرية راجع إلى عدم وجود دواعي موضوعية.

إن الفكر الإسلامي المعاصر يواجه منذ عقود مذاهب مادية عاتية، متسلحة بفكر فلسفي متكامل يؤسس عليه مشاريع وبرامج مختلفة تنظم على أساسها الحياة الغربية، ولم يقتصر انتشارها على العالم الغربي؛ وإنما تغلغت في كامل ديار الإسلام، ذلك ما يحتم على المفكر المسلم تأسيس نظرية مكتملة البنيان حول الإنسان قائمة على حقائق العقيدة الإسلامية، تكون مرجعاً لكل المشاريع الإصلاحية، التعليمية، الاقتصادية والسياسية.

وفي سبيل تأسيس هذه النظرية وُجدت كتابات لعدد من المؤلفين، حاولوا إبراز حقيقة الإنسان، ومكانته وغاية وجوده من بينها ما كتبه محمد إقبال على الإنسان الكامل، وما عرف به من "نظرية الذاتية" وتأكيداً على المكانة المرموقة للشخصية المسلمة، وتحذيره من كل ما يضعف هذه الذات، وضمّن أشعاره هذه الرؤية وخاصة ديوان "أسرار الذات" و"رموز نفي الذات".

وما كتبه عباس محمود العقاد في "الإنسان في القرآن" الذي أكد فيه على أن كل ما أنتجه المفكرون بخصوص رؤيتهم لحقيقة الإنسان لا يمكن أن يطاول ما قرره القرآن يقول في مقدمة كتابه "ونحن ندعي في هذه الصفحات أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة في الإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم إلى يستوحونها من كتابهم، وأن القرن العشرين سينتهي بما استحدثت من مبادئ ومذاهب وأيديولوجيات، ولا ينتهي ما تعلمه أهل القرآن من القرآن".²

وما كتبه عائشة عبد الرحمن في "مقال في الإنسان"، وكذلك البهي الخولي في "آدم عليه السلام" ومرتضى مطهري في "الإنسان والقرآن" وكتاب "الإنسان والكون في الإسلام" لأبي الوفاء الغنيمي

1- ينظر: جلال العشري، العقاد والعقادية، (مرجع سابق)، ص 40.

2- عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، ط2، بيروت: دار الكتاب العربي، 1969، ص 11.

التفتازاني، وما كتبه الأستاذ عبد المجيد النجار في محاولته التأصيلية "الإنسان في العقيدة الإسلامية"¹ وإسهامها في تحقيق هذا الغرض وإشاعة لهذه الرؤية ومشاركة في هذا المشروع، نحاول أن نستجلي ما في تراث الشيخ أبي الحسن الندوي من معالم أساسية في الموضوع.

1- دواعي اهتمام الندوي بقضية الإنسان:

يلحظ الباحث في تراث الندوي -رحمة الله عليه- متمثلاً في كتبه ومحاضراته وكلماته التي يلقيها، اهتماماً لافتاً بقضية الإنسان، فقد تناوله بالبحث والبيان في عشرات المواضيع من كتبه، وفي مناسبات عديدة خلال رحلاته الدعوية، ويشعر الباحث بأن هذا الاهتمام كان مقصوداً بالأصالة وليس أمراً طارئاً عرضياً؛ إذ هو بالإضافة إلى كثرة المواطن التي تناول فيها قضية الإنسان في كتبه، فإننا نجدته يؤصل رؤاه ويدعم موقفه بشواهد من القرآن والحديث وسير الأعلام من تاريخ المسلمين سواء من الصحابة أو التابعين أو كبار العلماء، من العرب ومن العجم ولا يترك فرصة إلا ويرد على ما يخالف هذه الرؤية من الثقافات الأخرى.

ويمكن حصر الدواعي التي دفعت الندوي إلى الاهتمام بهذه القضية في الآتي:

1-1 - معاصرة الندوي للهجمة الغربية في عنفوانها وحادثة سنها وشدة تأثيرها على الإنسان المسلم متسلحة بكل سلاح من نظام تعليمي وأدب عصري مشبع بالروح المادية، وهيمنة عسكرية... أفقدت الإنسان المسلم عزته، وجعلته يشعر بالهزيمة النفسية، ويعاني مركب النقص، وهو ما لا يليق بمكانته ودوره في العالم، فاستدعى ذلك منه أن يولي هذه القضية عناية واهتماماً كبيرين من خلال جهده الإصلاحية ينفذ ما تراكم على الشخصية المسلمة من هوان ويشر بصورة الإنسان الحقيقية باعتباره خليفة الله في الأرض، كي يتجاوز المسلم شعوره بالنقص ومن ثم يسعى لتحقيق رسالته التي خلقه الله من أجلها.

1- وهو مشروع من خمس حلقات صدرت منه الحلقة الأولى تحت عنوان "مبدأ الإنسان"، والحلقة الثانية تحت عنوان "قيمة الإنسان" يقول عنه في مقدمة كتابه الأول "مبدأ الإنسان": "ولسنا معتبرين هذه السلسلة ذات الحلقات الخمس في شرح الحقيقة العقديّة للإنسان، إلا فاتحة متواضعة لمشروع طموح في تأسيس فرع عقدي خاص بالإنسان يتأصل في هداية الوحي، ويستقوي باستدلال العقل ليكون موجهاً لكل ما يتعلق بالحياة الإنسانية من المعارف والعلوم من جهة، وليطاول من جهة أخرى الفكر الفلسفي الذي يتحدى في قضية الإنسان التقدير الإسلامي، ويوجه بالتالي العلوم والمعارف وجهة مخالفة للوجهة الإسلامية، فيحدث بذلك في الواقع الثقافي والتربوي للمسلمين ضرراً بليغاً... ويتضافر الجهود وبتنضيج الأفكار وإثرائها ومراجعتها يمكن أن يستوي هذا الفرع من فروع علم العقيدة كما نريد أن يكون شجرة نافعة للمسلمين في تحفزهم للشهود الحضاري بإذن الله.

1-2- لعل من عوامل اهتمام الندوي بقضية الإنسان ما طبع عليه الشيخ -رحمه الله- من طموح وسمو نفس، وما رُيَّ عليه في عائلته من علو الهمة وكمال الخلق، إضافة إلى شرف النسب، ويمكن التماس هذا المعنى مما كتبه الندوي نفسه في كشفه عن سبب إعجابه بشعر محمد إقبال يقول: " إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو: الطموح والحب والإيمان، وقد تجلّى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته أعظم مما تجلّى في شعر معاصر، ورأيت نفسي قد طبعت على الطموح وسمو النفس وبعد النظر والحرص على سيادة الإسلام، وتسخير هذا الكون لصالحه والسيطرة على النفس والأفاق...." ¹.

1-3- من الممكن في تقديري أن يعود اهتمام الندوي -رحمه الله- بهذه القضية راجع إلى منزعه الصوفي الذي جعله يعي عمق حقيقة الإنسان التي هي الجلى الأكبر للصفات الإلهية والمرآة الصادقة التي تجلت فيها آياته، ولعل ما كتبه الشيخ الندوي حول مولانا جلال الدين الرومي وشدوه في شعره بكرامة الإنسان وقيمته ومركزه يعبر عما في نفسه ويتناغم مع فكرته. ²

1-4- الغيرة الدينية على عقائد وحقائق ومفاهيم الإسلام الثابتة الأبدية من أن يطالها التغيير والتحريف، فقد عرف عنه -رحمه الله- صلابته في الدين، وحرصه على صيانة هذه الحقائق الدينية، وهو ما يشهد به نقده الموضوعي الصريح للأستاذ المودودي والشهيد سيد قطب في كتابه "التفسير السياسي للإسلام" وردة على القاديانية، وردة على الشيعة الإمامية في موقفهم من الصحابة عليهم الرضوان.

ولا شك أن المنظور الغربي المادي للإنسان يختلف جذريا عن المفهوم الإسلامي في حقيقته ومكانته ومهمة وجوده ومصيره. ولا يخفى أن هذه الفلسفة قد تسللت إلى ديار الإسلام بوسائل متعددة، ونافت الرؤية الإسلامية، مما استوجب رد الأمور إلى نصابها وإحقاق الحقائق وإعلائها، خاصة وهي قطيعات دينية نطق بها القرآن وبينتها السنة المطهرة.

1-5- وأخيرا يمكن أن يكون ما يعانيه المسلم خصوصا والإنسان عموما من سحق وطحن في واقع الحياة، وهدر لقيمه بفعل التصوف الأعجمي والاستعمار الغربي وما تلاه من أنظمة استبدادية قد يكون ذلك من بواعث الشيخ -رحمه الله- على الاهتمام بهذه القضية.

1- الندوي، روائع إقبال، ط1، بيروت: الدار الشامية 1999، ص09.

2- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ط11، الكويت: دار القلم، 1999م نص 298-299

جدير بالتذكير أن الشيخ الندوي أولى عناية خاصة لمباحث: أهمية الإنسان وكرامته، ووظيفته، ومصيره، دون التركيز على قضايا مبدأ الوجود الإنساني، والماهية والوجود، مثلما درج عليه الكتاب المعاصرون.

وسنحاول فيما يلي استجلاء معالم رؤيته في هذه القضية بعون الله وتوفيقه.

2- أهمية الإنسان:

يقرر الندوي في البداية أن جميع الديانات، وجميع الثقافات متفقون على أن الإنسان هو أعلى شيء على وجه الأرض، مهما كان دينه وعرقه وطبقته وكفاءته ومهنته، سواء كان صالحاً أو غير صالح، نافعا أو غير نافع؛ لأنه من صنع الله يقول: " إن إنسان كل دين، وإنسان كل بلد وإنسان كل جالية، وإنسان كل عنصر.. وإنسان كل مهنة مهما كان نوعها، كان صالحاً أو غير صالح، كان نافعا أو غير نافع هو صنع الله، وهو عبارة عن رحمته، ولا أستطيع أن أستعمل له كلمة (القطعة الفنية الرائعة)، ولكن هل يمكن أن يتصور أي قطعة فنية رائعة أروع من هذا الإنسان؟"¹ ويؤكد أن مصير العالم كان ولا يزال مربوطاً بناصية الإنسان، فإذا وجد الإنسان الحقيقي وفقد كل ما يعتز به العالم من كنوز وجمال، لم تكن الخسارة فادحة وكان وجود الإنسان الحقيقي عوضاً عن كل فائت، وإذا حُيّر من يهيمه أمر العالم بين الإنسان من غير شيء، وبين كل شيء من غير الإنسان لاختار الراشد العاقل الإنسان من غير تردد، فالإنسان هو الذي خلق له العالم وبسببه نال هذه القيمة والشرف".²

وإن هذا العالم الواسع المليء بالأسرار والعجائب، والجمال الباهر إذا قيس بأسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها وكنوزها ودفائنها، وإلى سعة القلب الإنساني وتُعد أغواره، وإلى سمو الفكر الإنساني وسعة آفاقه وإلى لوعة الروح الإنسانية وقلقها، كان هذا الكون الواسع أمامه قطرة من بحر؛ أو ذرة في صحراء قفر، وغاب في سعة القلب الإنساني وأعماقه كما تغيب الحصاة الصغيرة في البحار العميقة الزاخرة يقول: " إن الجبال تتضاءل أمام إيمانه الوثائق الراسخ، وإن النار لتتطفئ وتَحْرِقُ نفسها أمام حبه الولوع الوهاج، وإن البحار لتتخجل أمام دمعة طاهرة انحدرت من عين الإنسان خشيةً لله أو رحمةً على ضعيف أو ندامة على تفریط، إن الإنسان إذا تجلّى جمال سيرته وحسن خلقه، ورقة عاطفته أزرى بكل جمال في هذا العالم، وبهر كل حسن في هذا الكون، إنه واسطة

1- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج3، ص197.

2- الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص95.

العقد وبيت القصيد وأعظم آية من آيات الخلاق المبدع الحكيم الذي خلقه في أجمل صورة وأكمل سيرة وأحسن تقويم¹

يرى الشيخ الندوي أن كل ما في العالم من ثروات وكنوز لا يمكن أن تساوي الإنسان الحقيقي المملوء قلبه باليقين والحب، والعطف والإخلاص المتحلي بالأخلاق الفاضلة، ويقدم الخدمة المخلصة لبني جنسه ولا يريد عليها جزاء ولا شكورا يقول: " إن الإنسان إذا عرف نفسه وطلب قيمته عجز العالم عن مساومته، وإذا اتسع وأرخى لعزيمته وخواطره العنان، وأرسل النفس على سجيتها ضاق هذا العالم وانضوى حتى أصبح قفصا صغيرا لا هواء فيه ولا نور، إنه لا تسير أعماقه ولا يبلغ أغواره، ولا يحاط بأسراره ولا تكتنه حقيقته....."².

وينعى الندوي على فلسفات خاطئة، وحكومات مستبدة، وديانات محرفة استهانتها بالإنسان والخط من قيمته وقدره وشرفه وجهلها بما خصه الله به من مواهب عظيمة وقوى جبارة، وذهولها عن أن هذا المخلوق الشريف الذي " قد خلق ليكون خليفة رب العالمين في هذا العالم الفسح ووصيا عليه، وأخضع له هذا الكون، وما كان سجود الملائكة لأول البشر إلا إشارة لهذا الخضوع، فإنهم هم الذين يتصرفون في هذا الكون بأمر الله، ويبلغون رسالته، فإذا خضعوا فقد خضع له الكون بالأولى"³.

ويشيد -رحمه الله -بالمكانة السامقة التي نالها الإنسان بالإسلام ورفع فيه إلى مقام الخلافة، واعتبر أعز موجود في الكون وأعلى جوهر في هذا العالم وليس شيء أشرف وأكرم، وأجدر بالحب، وأحق بالحفاظ عليه من هذا الإنسان الذي خلق له العالم، وهو خلق لله وحده قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، الآية: 29).

ويعتبر الشيخ أنه ليس أبلغ في الدلالة على سمو الإنسانية والتقرب إلى الله تعالى بخدمتها والعطف عليها من حديث مسلم الذي أخرجه في صحيحه عن أبي هريرة (ض) عن النبي ﷺ قال: "إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: ابن آدم مرضت فلم تعطني! قال: يارب! كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أنه

1- الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 96.

2- المصدر نفسه.

3- الندوي رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج 299/1

استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني! قال: يا رب! كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت: أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟¹.

يعلق الشيخ على هذا الحديث بقوله: "هل يتصور إعلان أوضح وأفصح بسمو الإنسانية وعلو مكانة الإنسان من هذا الإعلان الذي جاء في دين شعاره التوحيد؟ وهل فاز الإنسان بهذه المكانة السامقة والشرف العالي في أي ديانة وفلسفة في العالم القديم والحديث؟"².

3- طبيعة الإنسان:

خلافا للفلسفات المادية التي اختزلت الإنسان في بعده المادي واعتبرته حيوانا راقيا غايته المتعة واللذة ونهايته الفناء، يقرر الندوي -رحمه الله- أن الإنسان روح وجسد، وأن الروح تجذبه إلى أصلها العلوي، فتثير فيه الأشواق والطموح والعزوف عن الماديات والشهوات؛ وأما الجسد فيجذبه إلى أصله الذي منه خلق فيثير فيه سلطان الشهوات "إن الإنسان جسم وروح، وقلب وعقل وعواطف وجوارح"³، ويدعو الشيخ -رحمه الله- إلى الموازنة بين حاجات القلب وحاجات الجسد، وإن كانت المدنية المعاصرة تولي اهتماما كبيرا للجسد وتهمل القلب، وإن الراحة الكبرى والحقيقية في راحة القلب"⁴.

ويؤكد الشيخ أن الشرائع قد جاءت تراعي جميع حاجات الإنسان باتزان، فلم تتعامل معه بوصفه عقلا مجردا؛ وإنما بوصفه عقلا وقلبا وجسما وروحا، يقول وهو يتحدث عن الحج ودوره في تغذية روح المسلم وتلبية أشواقه: "فصلة الإنسان بربه ليست صلة قانونية عقلية صرفة، يقوم بواجباته ويدفع ضرائبه ويخضع أمامه ويطيع أوامره وأحكامه، إنما هي صلة حب وعاطفة كذلك يرافقها ويتحكم فيها حنان وشوق وهيام ولوعة"⁵. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُجِبُّونَهُمْ كَحِبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة، الآية: 165).

1- رواه مسلم بن الحجاج، في صحيحه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي - بيروت، دط، د ت، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، رقم الحديث: 2569، ج4، ص1990.

2- الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، (مصدر سابق)، ص54.

3- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص115.

4- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص122-123.

5- الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق) ص211.

ويولي الشيخ مسألة الاتزان بين الجانبين أهمية كبيرة لأن أي طغيان لأحدهما على الآخر يؤدي إلى نتائج وخيمة، فإذا تغلبت الروح على الجسد سقط المجتمع فيما سقط فيه الأوائل من الرهبانية ورفض الطبيات ومعاداة الجسم، وانساق المجتمع كله إلى الانهيار؛ وأما إذا تغلب الجسد فسوف تنطفئ شعلة الروح، وتتضخم المعدة على حساب العقل والضمير، وهنا تصبح الغايات الحيوانية أسمى الغايات. يقول الشيخ: "ولذلك كان -أي الإنسان- مجموعاً من روح وجسد، فالروح هي التي تجذبه إلى أصلها ومنبعها وتذكره بمنصبه ومركزه وغاياته ومهمته، وتفتح فيه الكوة إلى العالم الذي انتقل منه وتثير فيه الأشواق والطموح، وتبعث فيه الثورة على المادية الكثيفة... والجسد هو الذي يجذبه إلى أصله ومركزه وهي الأرض بكثافتها وتبلدها وثقلها وسفالتها... فإذا ضعف سلطان الروح أو زال حكمها وتقلص ظلها، وملك الجسد زمام الحكم، استرسل الإنسان في لذاته وشهوته، ورتع فيها رتع البهائم السائمة وجرَّ بها جنونا... وتخطى حدود العقل والعرف.. وانصرفت همته وذكاؤه إلى التفنن والإسراف.... فيصبح وهو في أوج مدنيته وحضارته كحمار الطاحون، أو كثور الحرث يدور بين المطعم والمرحاض، لا يعرف سوى ذلك مبدأً ومعاداً¹.... وصدق الله إذا يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد، الآية: 12).

ويستطرد الندوي القول في كشف طبيعة هذا الإنسان، فيرى بأنه فطر على أضداد ومتناقضات، فهو ضعيف يجب القوة، فقير يجب الغنى، خاضع لقانون الموت، ولكنه يجب الخلود، متعرض للأمراض والآفات، ولوع بالصحة والسلامة، هلوع جزوع، ولوع طموح، حاجاته ومطامعه أكثر من أنفاسه وأطول من حياته، وأوسع من أن يسعها هذا العالم المحدود يعقب الشيخ على هذه الخصال بالقول: "وفي هذا التناقض الغريب، والصراع العنيف وفي هذا الطموح البعيد والحرص والنهامة والطلب والاستزادة سر شرفه وكرامته واصطفائه وخلافته، وبه استطاع أن يتسلم الأمانة التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان وبه استحق الخلافة في هذه الأرض ووصل إلى أسمى مكان تحسُّدُهُ عليه الملائكة المقربون"².

وهو كذلك مفطور على الحنان والحب أبداً، قد تضعف هذه العاطفة حيناً، ولكنها لا تموت ولا يجرمها بتاتا إلا من حرم الإنسانية، فهو مخلوق قوي العاطفة رقيق الشعور حنون، يندفع إلى الجمال

1- الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق)، بتصرف 162-163.

2- المصدر نفسه، ص 17.

أو الكمال اندفاعا لا يوجد عند غيره من المخلوقات، تشهد بذلك أخبار العشاق والمتيممين وأخبار العارفين المحبين.

يجب الرفعة والعلو، والقوة والغلبة، والاستكبار، ولكنه في الوقت ذاته مفطور على التواضع والخضوع، يشهد تاريخ الديانات على خضوعه أمام كثير من مظاهر الطبيعة، ويشهد الواقع على تواضعه وخضوعه أمام الحكام والسلاطين وكبار الأغنياء والموسرين، والعباقرة المبدعين، والعلماء والمفكرين خضوعا فيه كثير من الوله والهيام وكثير من التقديس والتأليه.

ولكن رغم هذا التقدير ورغم عمق هذه النظرة للحقيقة الإنسانية، فقد غزت العالم أجمع مذاهب مادية ونظريات فلسفية تزري بالإنسان، ونظرا لخطورة هذه النظريات الوافدة وآثارها، وخاصة نظرية النشوء والارتقاء- التي اعتبرت الإنسان قد انتقل من مرحلة إلى مرحلة في إطار تطور من الحيوانية إلى أن وصل إلى الإنسانية، - وقف الندوي موقفا حاسما مفندا هذه النظرية مبينا الأساس الفلسفي الذي قامت عليه وهو اعتبار أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية، وبغير أن تتدخل فيه قوة غير طبيعية، وأن علة الكون السنن الطبيعية، وأن الموجودات ترتقي من مراتب الحياة الأولى إلى مراتبها العليا بعمل طبيعي تدريجي عار من العقل والحكمة، وأن الإنسان وسائر أنواع الحيوان ليس من صنع صانع حكيم، بل هو نتيجة نوايس طبيعية انتهى بها، التنازع للبقاء. يقول-رحمه الله-: "إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل في المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارها العلمية واضحة، بل كان هذا دينا جديدا يهدم الدين القديم من الأساس ويحل محله، فلا غرابة إذا اضطرب لها رجال الدين وحسبوا لها كل حساب، وخافوا على مصير الدين في أوربا".¹

ويستطرد الندوي في بيان تأثير هذه النظرية العميق في الأفكار والسلوك وتفسخ الأخلاق وتردي الإنسانية فيقول: " وكان تأثير هذه النظرية بعيدا عميقا في الأفكار والحضارة والأدب والسياسة تراه وتلمسه في أخلاق الناس، وفي نزعات الرجوع إلى العهد الذي كان الإنسان يعيش فيه على الفطرة عاريا حرا، وفي تعيين المثل الأعلى الكامل للإنسان وفي جميع الأعمال والأخلاق التي لا تصدر إلا على التسليم أن الإنسان إنما هو حيوان راق".²

أما عن تأثيرها في الاهتمامات والأذواق فيقول: "فكان بمقتضى هذه النظرية الطبيعية أن أصبحت اللذة والمتعة هي الغاية العليا والمقصد الرئيسي للحياة".³

1- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 193.

2- المصدر نفسه.

3- الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 62.

وهو ما يفسر التهالك على المال والإنتاج والتجارة دون ضوابط، وما انجر عنه من ويلات عرفتها البشرية.

4- تكريم الإنسان:

من المعلوم أن الإسلام كرم الإنسان وأعلى مكانته، وقد صرحت بذلك آيات عديدة منها قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الاسراء، الآية: 70) وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين، الآية: 4).

وقد كرمه عند ما أمر الملائكة بالسجود للإنسان الأول آدم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص، الآيتان 71-72). ويقول سبحانه منبها عباده على شرف هذا المخلوق بما سخره له من مخلوقات تخدمه دون ملل ولا كلل: قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم، الآية: 33).

وفي ضوء هذه الآيات الكريمة يمكن الحديث عن تكريم الإنسان في جوانب ثلاثة - الخلق - وحسن التقويم - والتسخير.

4-1- تكريم الإنسان من جهة الخلق:

اهتم القرآن الكريم بخلق الإنسان الأول، آدم عليه السلام، وورد الإعلام بقصته في مواضع متعددة من القرآن، يظهر من هذا الاهتمام، الاحتراف بهذا المخلوق الجديد في جوانب متعددة، من أبرزها:

- ما أخبر به الحق تعالى من توليه خلقه بيديه، دون سائر المخلوقات كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (ص، الآية: 75).
- ولا شك أن هذا الإعلان يحمل من مظاهر التكريم، وسمو المكانة وشرف هذا المخلوق، ما يدل على أن الإنسان محل عناية الله الخاصة. وأنه المخلوق الأثير لديه.

- ومن جوانب هذا التكريم أيضا ما أخبر به سبحانه من اختصاص هذا المخلوق بعنصر شريف في تكوينه هو عنصر الروح، وإضافته إلى الله تعالى تنويها بهذا الشرف والكرامة.

كما أن من مظاهر شرفه وتكريمه أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له، وإلى المعنيين معا تشير الآية الكريمة: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص، الآية: 71-72).

ومن صور التكريم الإنساني إعلان أنه يخلق صابي الفطرة نقياً، مبرأ من الخطيئة، لا يحمل ذنب أبيه، وليس مثقلاً بجريرة غيره، يرتفع بأمانة التكليف إلى أعلى عليين، ويسقط بها إلى أسفل سافلين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ (التين، الآيات: 4-6)، وهو في الحالين إنسان كامل الإنسانية قابل للهبوط بعد العثرة، قابل للتوبة بعد الخطأ، فيه من الإمكانيات الهائلة والاستعدادات الكبيرة ما يبلغ به أعلى درجات اليقين ومراتب الكمال، يقول الندوي: "هناك أعلن النبي ﷺ بكل قوة وصراحة أن فطرة الإنسان كاللوح الصافي الذي لم يكتب عليه بعد، ويمكن أن ينقش فيه، ويجر فيه أجمل تحرير، وأن الإنسان يستهل حياته بنفسه، ويستحق الثواب والعقاب والجنة والنار بعمله، وهو غير مسؤول عن عمل غيره.. بل مسؤول عن عمله فحسب؛ وأنه مثاب ومشكور على سعيه، قال تعالى: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النجم، الآيات 38-41). هذا الإعلان أعاد للإنسان ثقته المفقودة بفطرته ومواهبه الطبيعية وانطلق إلى الأمام بعزم قوي، وحماس زائد، وعاطفة جياشة ليصنع مصيره ومصير الإنسانية¹.

كما شرح الشيخ -رحمه الله- كيف أن اعتقاد خطيئة الإنسان بالميلاد في النصرانية، وإلزامها تابعها بالكفارة والفداء، يفقد الإنسان ثقته بنفسه ومواهبه وإرادته، ويضعف في عينه قيمة عمله، ويجعله معتمداً على غيره، خلافاً للتصور الإسلامي الذي يعلن نقاوة الفطرة الإنسانية وصفاءها².

ويتوسع الندوي في شرح امتدادات هذه العقيدة في الإنسان، وكيف كان أكثر أفراد النوع الإنساني مصابين بسوء الظن بفطرتهم الإنسانية السليمة، ملاحظاً ما كانت عليه الديانات الهندية القديمة من اعتقاد لعقيدة تناسخ الأرواح التي ترى أن الإنسان مضطر لا محالة لنيل العقوبة على ما قدمته يدها في حياته الأولى، لذلك لا بد من ظهوره في صورة حيوان خسيس أو إنسان شقي معذب. وهنا يبين -رحمه الله- المنّة العظيمة التي جاء بها الإسلام ونبيه الكريم ﷺ وهي اعتبار الأخطاء والذنوب ليست إلا فترة عابرة يقع فيها الإنسان بجهله وقصر نظره حيناً، وبإغواء الشيطان والنفس أحياناً أخرى، يجلوها الاعتراف بالخطأ والندامة عليه، والعزم الأكيد على عدم العود، وذلك دليل شرف الإنسان وأصالة معدنه وهو ميراث أبيه آدم عليه السلام³.

1- الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة، (مصدر سابق)، ص 80.

2- ينظر: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 47.

3- ينظر: الندوي، السيرة النبوية، (مصدر سابق)، ص 478-481.

ويؤكد -رحمه الله- على أن مفتاح القلوب المقفلة- النبي ﷺ -وضع مفتاحه النبوي على الضمير الإنساني المقفل فانتبه، وعلى شعوره الميت فانتعش وعاش، وتحولت النفس الأمانة بالسوء إلى نفس لوامة ثم إلى نفس مطمئنة، لا تسيغ الباطل ولا تتحمل الإثم¹.

وييسط الشيخ-رحمه الله- القول في تعرية جوانب الكرامة الإنسانية، فبين ما وهبه الله للإنسان من اهتمام كبير أحيط به في هذه الدنيا من مولده إلى موته، وما رافقه من تنظيمات واسعة تسير حياته، وما وهب من وسائل تحقق أغراضه ومن أهمها التأمل في " نظام الدلالة والهداية الدقيقة والإلهام الفطري الحكيم الذي يكتنفه في جميع مجالات الحياة².

يبين الشيخ أن من أبرز مظاهر التكريم الإنساني، ما خلق عليه من استعداد للمعرفة بواسطة القوى والطاقات المختلفة كالحواس والعقل، "وما تعليم الأسماء الذي خص به من دون الملائكة إلا رمز لهذا الاستعداد الفطري ومظهر من مظاهر الخلافة ومفتاحا من مفاتيح الاتصال بهذا الكوكب الذي منح إمارته والتصرف فيه"³.

ويذكر الشيخ أن من أعظم المنح التي جاء بها الإسلام دعوته إلى استخدام العقل والانتفاع به في التفكير والاستنتاج وربط المسببات بالأسباب، ودم تعطيل ما وهب الله الإنسان من صلاحية التأمل فيما حوله، والإعراض عن آيات الله في الأنفس والآفاق، والبلاد والأمم وما مضى من عبر في حياة الأمم، وما ظهر من نتائج الأعمال والأخلاق على مستوى الأفراد والأمم، ويدلل على أن نتيجة ذلك كانت في الأمة المسلمة زيادة على الاهتداء إلى الحقيقة الكبرى، ما ظهر من نشاط فكري عالمي في كل مجال من مجالات العلوم والصناعات لازالت شواهدا قائمة في العالم كله⁴.

ويؤكد الشيخ إبداع المسلمين في مجال العلوم والمعارف، والمشاركة في الحضارة الإنسانية العالمية بفعل هذه العقيدة حتى نبغ مشاهير كثر، ذاع صيتهم وعم أثرهم يقول: "إنني أستطيع أن أدعي في ضوء دراستي للتاريخ أن المسلمين لم يقوموا بتأسيس دول واسعة كبيرة فحسب؛ بل كانوا يمتازون بالعناية بالعلوم والبراعة في الفنون... ولم يحصر المسلمون دائرة علومهم في العلوم الدينية فحسب؛ بل

1- ينظر: الندوي، الطريق إلى المدينة، (مصدر سابق)، ص 47.

2- ينظر: الندوي، بين الدين والمدينة، (مصدر سابق)، ص 73.

3- ينظر: الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق)، ص 22.

4- ينظر: الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة، (مصدر سابق)، ص 109-112.

أبدوا براعتهم في علوم حديثة كثيرة، وخدموها خدمة جليلة كالجغرافيا والطبيعة والهندسة والطب والكيمياء والتاريخ والنباتات...¹.

4-2- تكريم الإنسان من جهة حسن التقويم:

كرم الله النوع الإنساني بأن خلقه على صورته، ويتجلى هذا التكريم في عدة مظاهر نبرز منها:

4-2-1- مظهر التكريم بالحرية والمسؤولية:

من مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان ما فطره عليه من إرادة حرة، يختار بها ما يريد من الأفعال والتصرفات دون إكراه ولا إجبار قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ^طفَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ^ع﴾ (الكهف، الآية: 29)، قال أيضا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان، الآية: 3). وبها يتمكن من القيام بما أسند إليه من مهمة الخلافة في الأرض. هذه عقيدة من عقائد الإسلام، وحقيقة كبرى من حقائقه، وتحفة من تحفه امتن بها على الإنسانية جمعاء.

لذلك نجد الندوي -رحمه الله- في أكثر من موضع من كتبه يرد على نفاة الحرية الإنسانية القائلين بالجزرية المحضة، ويؤكد على أن الإنسان مفطور على الحرية والاختيار؛ إذ بهما يصح توجيه الأمر والنهي والتكليف بالشرائع، ويعتبر أن الحرية مقوم أساسي لحقيقة الإنسانية في الإنسان، وأنه من المعيب نسبة الجبر إلى المخلوق.²

لكن هذا المصطلح البراق الذي تغنى به الشعراء، وناضل من أجله الدعاة والمصلحون، والقادة الفاتحون كثيرا ما يساء فهمه، ويظلم به الإنسان نفسه، لذلك اعتنى المفكرون والمصلحون ببيان حقيقته وأهميته وآثاره وخطورته.

وسنحاول فيما يأتي من سطور بيان موقف الندوي -رحمه الله- في هذه القضية.

يقرر الشيخ -رحمه الله- كعامة العقلاء أن الحرية الإنسانية هبة إلهية كريمة وأنه ليس أذل وأخزى من العبودية لغير الله ^عوَعَلَى³.

ولكنه يرى أن الحرية الحقيقية لا تقوم إلا على العبودية لله الواحد؛ لأن هذه العقيدة تحده من الاستجابة لنوازه النفسية ومطالبة الجسدية، فلا تتحكم فيه النفس وأهواؤها، فيتحرر من عبودية الشهوات والمادة، ويتعامل معها على أنها وسائل لا غايات.

1- ينظر: الندوي، محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج3، ص366.

2- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، 285/1.

3- ينظر: الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، 208/3.

ويقدم الندوي نموذجاً من التاريخ الإسلامي، وهو نموذج ربيعي بن عامر في بلاط رستم قائد الفرس حينما خاطبه بقوله: "بأن الله ابتعثنا لنخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ويعقب على هذا القول بأن المسلمين المدفوعين بعاطفة الحذب على الإنسانية جاءوا لتخليصكم من القفص الذهبي إلى أجواء الحرية المتزامية اللامتناهية، "فقد استعبدتكم العادات والالتزامات واستعبدتكم الأسباب والتسهيلات، واستعبدكم الترفيه والتسليية، واستعبدكم المغنون واستعبدكم طهاتكم وطباخوكم... فأما نحن فلسنا إلا عبيد الله فأتينا لنخرجكم من هذه العبوديات التي لا يحصيها إلا الله"¹.

ويركز الندوي هذه المعاني فيقول: **إن الحرية واحدة؛ أما العبوديات فلا آخر لها ولانهاية، كما النور واحد والظلمات كثير**².

ويؤكد الشيخ -رحمه الله- في مواضع أخر هذه الحقيقة التي امتلأ بها كيانه من أن الإيمان بالله والعبودية له وحده يتولد عنها تحرر الإنسان في نفسه، وشعوره بكرامة أخيه الإنسان ورفعته، فلا يرضى في حال من الأحوال أن ينتقص بني جنسه، أو يستعبدهم ويتغلب عليهم، فيذلهم أو يهينهم، ويعود إلى التاريخ الإسلامي، ويستدعي منه قصة القبطي المصري الذي اشتكى إلى عمر بن الخطاب فعل ابن حاكم مصر عمرو بن العاص، ويستدل بقوله عمر - رضي الله عنه - متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً³.

وليست الحرية التي يؤمن بها الشيخ حرية مطلقة من كل قيد يتصرف بها الإنسان كما يشاء، ولكنها حرية مسؤولة اكتسبها بوصفه خليفة لله في الأرض، ينفذ أمره ويتقيد بأحكام ربه، إن كل ما سخر للإنسان من مواهب وطاقت وإمكانات للانتفاع بها في هذا الكون؛ إنما مصدره الخلافة الإلهية، وإن كل ذلك بالنيابة لا بالأصالة.

ويقدر الشيخ أن أكبر انحراف وقع في خط التقدم الأوربي هو الغفلة عن هذه الحقيقة، فتصرف الإنسان الغربي ككائن مستقل يحكم هذا الكون، ويسخره لأغراضه الشخصية أو القومية ما أفرز ألماً كبيراً وشقاء طويلاً⁴.

1- الندوي، محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 2، ص 478؛ والإسلام والغرب، (مصدر سابق)، ص 20.

2- المصدر نفسه، ج 2، ص 479.

3- الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 113.

4- ينظر: الندوي، دور الإسلام الإصلاحي الجذري في مجال العلوم الإنسانية. (مصدر سابق)، ص 56، وينظر أيضاً: محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 3، ص 368-369.

ويعتبر اتباع النفس وتحكيمها، والتحرر المطلق من كل الشرائع هو الجاهلية الحقيقية، والصواب أن يعتبر الإنسان نفسه عبداً لله مكلفاً ومسؤولاً أمامه، عليه اتباع شرائع الأنبياء¹.

ويبين الشيخ آثار هذه العقيدة في جانب مهم من جوانب الحياة الإنسانية، وهو الجانب المتعلق بالثروة، فيعتبر أن المال مال الله، وأن الإنسان مستخلف فيه، لا يتصرف فيه برأيه مطلقاً، بل هو أمين فيه يتصرف به عن أمر مستخلفه، ويقدم الشيخ نماذج مما فعله سلف هذه الأمة أمثال الصديق وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين².

وبوحي من هذه العقيدة ناضل الندوي في بلاده الهند نضالاً مريراً للدفاع عن الوجود الإسلامي والخصوصية الإسلامية أمام التيار الجارف الذي سعى لهندكة المجتمع كله دون اعتبار للأقليات والإثنيات الأخرى، ولا عجب في ذلك فهو خير خلف لسلفه الذين جاهدوا بكل وسيلة ضد الاحتلال الإنجليزي ومشاريعه المختلفة سواء بالمقاومة المسلحة، أو المقاومة السياسية، أو المقاومة العلمية والفكرية.

فقد قام -رحمه الله- بالاتصال المباشر بكبار المسؤولين في البلاد، ونبه على خطورة الفهم الخاطئ للحرية التي أدت إلى سفك دماء ألوف الأبرياء ونهب أموالهم، وانتهاك أعراض نسائهم³.

واستطاع -رحمه الله- بحكمته ومثابرتة الحصول على كثير من المكاسب للهنود المسلمين، والعمل على تجنيب المجتمع الهندي ككل ويلات الطيش والتعصب الديني والفتن التي أطلت برأسها مراراً. كما حذر -رحمه الله- من الاستخدام السيء للحرية في الفكر، والتعبير من أن تكون وسيلة لانتهاك المقدسات، كسب الدين والأنبياء، والاستهزاء بهم أو الطعن في القرآن، أو الوقوع في أعلام الأمة⁴.

وفي تمثل آخر للحرية الإنسانية، يتبنى الندوي فلسفة إقبال الثائرة على القيود الجغرافية والوطنية والقومية، ويدعو المسلم أن يكون حراً طليقاً عالمياً آفاقياً، كل بلد وطنه، وكل أرض أرضه، لا ينحصر في جهة ولا يتقيد بحدود⁵.

1- ينظر: الندوي، الإسلام من جديد، (مصدر سابق)، ص 127.

2- ينظر: الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق)، ص 94.

3- ينظر: الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج 3، ص 205.

4- ينظر: الندوي، الحضارة الغربية الوافدة، (مصدر سابق)، ص 38.

5- ينظر: الندوي، روائع إقبال، (مصدر سابق)، ص 153-154.

4-2-2- مظهر التكريم بالمساواة الإنسانية:

نظر الإسلام إلى البشرية كأسرة واحدة بل كنفس واحدة يقول النبي ﷺ: "كلكم لآدم وآدم من تراب"¹ فلا تمييز بين أفراد النوع الإنساني على أساس عنصر أو لون أو وطن قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات، الآية: 13)، وبذلك يعلن الإسلام مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية.

يقرر الندوي باعتباره دارسا للتاريخ أن المجتمع البشري كان موزعا بين أمم وقبائل وقوميات ضيقة، وتفاوت طبقي هائل، كتفاوت ما بين الإنسان والحيوان، والحر والعبد، ولم يكن يعرف الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية حتى أعلن النبي ﷺ هذا الإعلان الخطير الذي لم يكن أقل من زلزال هائل عنيف. "أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا عجمي على عربي... إلا بالتقوى"².

واستعرض الندوي -رحمه الله- جانبا من تاريخ الهند وإيران والصين والعرب ومصر القديمة، مبرزا ما كان عليه المجتمع الإنساني من تمايز طبقي وتفاوت رهيب بين مكوناته³، بل إن الندوي -رحمه الله- يعتبر أن من أعظم المنح الإلهية التي جاءت بها النبوة الخاتمة إعلان المساواة البشرية، وفي هذا المعنى يقول: "أما الإسلام فقد أعلن مبدأ المساواة البشرية في لفظ صريح مفهوم ليس فوقه صراحة وليس فيه تحفظ، وجعل التفاضل بالتقوى والفضائل المعنوية فقط، وينقل اعتراف بعض كبار المستشرقين المنصفين بهذا الدور الريادي للإسلام⁴، بل إنه يعتبر أن ما صار اليوم مألوفاً من اعتقاد حقيقة هذا الإعلان الهائل من المجتمع الإنساني حتى صار حقيقة يومية عادية تنادي بها اليوم المؤسسات السياسية والاجتماعية عبر العالم ومنها: ميثاق حقوق الإنسان الذي حملت لواءه الأمم المتحدة، اعتبر ذلك بفضل الدعوة الإسلامية وجهود المصلحين والمرين⁵.

1- رواه الترمذي في سننه، مصدر سابق، أبواب المناقب، باب فضل الشام واليمن، رقم الحديث 3956، ج6، ص229، وقال هذا حديث حسن صحيح.

2- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الارناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ، رقم الحديث: 23489، ج38، ص474. قال المحقق: إسناده صحيح.

3- ينظر: الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة، (مصدر سابق)، ص36.

4- المصدر نفسه، ص47-52.

5- ينظر: الندوي، السيرة النبوية، (مصدر سابق)، ص474.

4-3- تكريم الإنسان من جهة تسخير الكون له:

لما خلق الله الإنسان لغاية عظمى جعل قوامه البدني والروحي قابلاً لإبجاز هذه المهمة، وهياً له من عوامل النجاح ما يقدر به على تحقيق دوره المطلوب ومن ذلك ما ذلله الله تعالى من المخلوقات الكونية العظيمة ونواميسه الدقيقة، فقد روعي فيه تيسير استغلاله واستثماره من قبل الإنسان، وهو ما نطقت به آيات كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَعَاتَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلُولٌ كَقَارٌ ﴿٣٤﴾﴾ (إبراهيم، الآيات: 32-34). وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجنائية، الآية: 13).

وقد كان هذا التسخير الذي حفل القرآن الكريم بالحديث عنه مثار اهتمام وعناية من المفسرين والعلماء، وهو ما كان ملحظاً لابن رشد، حتى اعتبره دليلاً على وجود الخالق وحكمته، أدل من أدلة المتكلمين وأقرب إلى الاستساعة وروح القرآن¹.

لقد كانت هذه القضية محل اهتمام الشيخ الندوي، وأخذت منه جهداً بيانياً مهماً ظهر في عدد من مؤلفاته وفيما يلي محاولة عرض لخلاصة رؤيته في الموضوع.

يرى الإمام الندوي - باعتباره رجلاً قرآنياً منه يصدر، وإليه يعود - بأن الله تعالى شرف هذا الإنسان بأن يكون خليفة له في الأرض، وأنه هو الغاية من هذا الخلق لأجله خلق العالم، وهو القطب الذي يدور² حوله رحى الكون، وتحسده الكائنات، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات، فكل ما في العالم خلق له، وروعي في خلقه أن يلبي حاجات هذا المستخلف حتى يحقق عمارة الأرض وعبادة الخالق، لقد سخر له البحار والأنهار، وسخر له الشمس والقمر، وسخر له الليل والنهار، وآتاه من كل ما سأله بلسان المقال أو بلسان الحال³.

1- ينظر: ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، بإشراف: محمد عابد الجابري، ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998م، ص118.

2- الندوي، رجال الفكرة والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج1، ص300.

3- الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص13.

وبيّن -رحمه الله- أن الكون كله خاضع لهذا الإنسان، وما كان سجود الملائكة لآدم إلا إشارة لهذا الخضوع فإنهم هم الذين يتصرفون في هذا الكون بأمر الله، ويبلغون رسالاته، فإذا خضعوا فقد خضع له الكون بالأولى¹.

ويؤكد الشيخ على أن هذا التسخير ينبغي أن يوجه لخدمة المبادئ الصالحة ويتقيد فيه الخليفة بأحكام ربه، ويشعر فيه بالمسؤولية أمامه، ولا يتصرف فيه كما يشاء، ويسخره لأهوائه وأغراضه الشخصية أو القومية. يقول -رحمه الله- معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة، الآية: 31)، "فدل ذلك على أن كل ما اتصف به النسل الإنساني من صلاحيته للعلم الذي يحتاج إليه في هذا الكون ويستخدمه لصالحه، وكل ما يربطه من صلة بهذا العالم المادي، وكل ما وهب من طاقة وإمكانية للانتفاع بهذا الكون والطبيعة والحياة؛ إنما مصدره هو الخلافة الإلهية إن كل ذلك بالنيابة لا بالأصالة وكل ذلك خاضع لمنصب الاستخلاف"²

ويقرر -رحمه الله- أن هذا الإنسان الخليفة كلما كان وثيق الصلة بالله، أيده الله ونصره، وأجرى على يديه من الأحداث التي تبدو معارضة لنظام الكون، تخرق فيها نواميسه حتى تكون في صف عباد الله المؤمنين، ويقدم دليلاً على ذلك المعجزات التي أيد الله بها رسله³، وما وقع لأصحابه ﷺ في جهادهم⁴.

ويعرض الندوي نموذجاً تطبيقياً قرآنياً للإنسان الموفق الذي سخر ما وهبه الله من إمكانات لأغراض نبيلة وغايات شريفة، ولم يتصرف بتلك القوى الكونية والمواهب الإلهية لأهوائه وشهواته، يقول: " هذه سيرة الإنسان القوي العليم الذي يسخر القوى الكونية والمادية، ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل، ويوسع فتوحه ومغامراته وهو في كل ذلك، وفي أوج قوته وسلطته وسيادته وتسخيره للقوى والأسباب، مؤمن بربه خاضع له، مؤمن بالآخرة... رحيم بالإنسانية والأمم الضعيفة، حام للحق... يستخدم كل قوته وجهده ومواهبه... لخدمة الإنسانية وتكوين المجتمع الصالح، وإعلاء كلمة الله، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة

1- الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج 1، ص 299، والطريق إلى المدينة، (مصدر سابق)، ص 72.

2- الندوي، دور الإسلام الإصلاحي، (مصدر سابق)، ص 57.

3- الندوي، بين الدين والمدينة، (مصدر سابق)، ص 82.

4- الندوي، إلى الإسلام من جديد، (مصدر سابق)، ص 25-26.

الله، سيرة مثلها سليمان بن داود - عليهما السلام - في عصره، ومثلها ذو القرنين في عصره، ومثلها الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون في عصورهم¹.

ومن جهة أخرى يؤكد الشيخ -رحمه الله- أن تسخير الكون للإنسان ليس فقط للانتفاع المادي بثرواته وكنوزه وقواه؛ وإنما سخر له أيضا لغاية كريمة هي معرفة الله تبارك وتعالى المعرفة الصحيحة. يقول -رحمه الله-: "إننا حين نسرح النظر في الكون، ونرى سعته وعظمته وصنعبته وحكمته وسعة قوانينه التي تحكمه واعتدال عناصره، وتناسب أجزائه وتعاون بعضها مع بعض، لا يقبل عقلنا السليم أن يفرض أن هذا الجهاز العظيم البديع ظهر إلى الوجود من غير صانع، ويسير بلا سائق، ليس له غرض ولا غاية، وسوف ينتهي بنفسه"².

وفي تأمله لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور، الآية: 35)، يعلق بأن هذه الآيات تحدثنا عن هذا الكون الذي نعيش فيه، ونهيم به حبا وغراما، فهو المجلى الذي ظهر فيه سر الحياة وسر القوة والحركة والنشاط وسر الجمال الفاتن ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا هو النور الذي فاض على هذا العالم، فأضاء الكون، وأشرقت الأرض بنور ربها.

إن هذا النور قد عم الكون شرقه وغربه وبره وبحره وسهله وجبله وحيوانه وجماده، ولكن لا يهتدي إليه إلا من فتح الله بصيرته، وشرح صدره للإسلام فعرف الله معرفة صحيحة، وتوصل من الكون إلى فاطر الكون، فكر في هذا العالم بنور من ربه، فوصل إلى النتائج الصحيحة. والاهتداء إلى هذا النور والسعادة لا ينالها إلا من أدركته العناية الإلهية والهداية الربانية³.

5- وظيفة الإنسان:

جاء الإعلام الإلهي عن خلق الإنسان مرفوقا ببيان المهمة التي أنيط به القيام بها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، الآية:

1- الندوي، الصراع بين الإيمان والمادية، (مصدر سابق)، ص 109-110..

2- الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 73، وينظر أيضا: النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 147.

3- الندوي، تأملات في القرآن الكريم، ط2، دمشق: دار القلم 1999، ص 63-65.

30). بل إن تسمية هذا المخلوق الجديد في سياق هذا الإعلام جاءت بحسب وظيفته وهي الخلافة، وذلك ما يدل على التنويه بشرف هذه الوظيفة وعلو شأنها، وشرف المكلف بها.

وقد ورد في القرآن عدد من الآيات تؤكد هذه الحقيقة الكبرى منها قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص، الآية: 26).

وقوله في شأن قوم موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف، الآية: 129).

انطلاقاً من هذه الآيات وأمثالها ذكّر الندوي مرارا كثيرة قراءه ومخاطبيه بهذه الحقيقة، حافزا لهم على استذكار مركزهم ومعرفة وظيفتهم وشرفهم.

ففي عرضه لآراء جلال الدين الرومي التجديدية في عصره ينتقي من آثاره ما يؤكد هذه الحقيقة؛ من أن "الإنسان خليفة رب العالمين في هذا العالم الفسيح، وأن له الوصاية على هذا العالم، وأن الكوكب كله خاضع له"¹.

ويدلل -رحمه الله- على هذه الحقيقة التي غفل عنها كثير من الناس بأن خلق الإنسان وما أحيط به من الاهتمام والتنظيمات الواسعة التي ترافقه في حياته، وتيسر مهمته في كل خطوة يخطوها باستعراض الوسائل المنتشرة على وجه الأرض لتحقيق رغباته، وحينما نتأمل وسائل المعرفة والهداية التي خص بها نوقن بأن هذا الإنسان المحتفل به لم يخلق عبثاً، ولم يترك سدى؛ وإنما خلق لغاية عظمى وهدف أسمى².

وفي سياق بيان منن النبوة الخاتمة على الإنسانية، أكد الندوي على أن النبي ﷺ عني بفتح بصيرة الإنسان عن نفسه، ليدرك حقيقته، وأنه خليفة الله في هذا العالم، نفخ فيه من روحه وجعله موضع سره ومستودع أمانته، خلقه في أحسن تقويم، وخصه بأفضل تكريم، وخلع عليه لباس النيابة والوصاية وألبسه تاج الكرامة والإمامة، وخلق له ما في الأرض جميعاً، وخلق له نفسه وأسجد له ملائكته³.

1- الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج 1، ص 299.

2- ينظر: الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 73.

3- ينظر: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 22.

وخلافة الإنسان في الأرض تعني أن يكون وصياً¹ على هذه الأرض أمينا على خيراتها وطاقاتها، بل الأهم من ذلك أن يكون أمينا ومسؤولا على الخلق كلهم؛ لأن دينه يفرض عليه الاهتمام بأمور الناس وأخلاقهم ومصيرهم، ويعتبر الناس جميعا خلق الله وعباله وأمانته²، عليه تنفيذ مراد الله وتطبيق أحكامه فيها، وتحقيق غاية العبادة³ التي كلف بها هذا الإنسان.

يرى الشيخ-رحمه الله- أن الإنسان قد رشح لمنصب الخلافة لمناسبة قوية بمستخلفه، وهي اتصافه بأشباح أخلاقه وظلال صفاته من سمو ونزاهة وصمدية وغنى ورحمة وكرم، ورأفة وبر وصبر وحلم، وقوة وقهر وأمن وسلام، وبعبارة جامعة بخلقه على الصورة الإلهية.

وكذلك لمناسبة بينه وبين المكان الذي تولى فيه الخلافة، فأخذ خصائصه وطبائعه وافتقاره إلى ما أودع الله فيه من خيرات وطيبات، فوضعت فيه شهوة الطعام والشراب، وركبت فيه الغريزة⁴. كما أن هذا الكون بكل ما أودع الله فيه من خيرات وطاقات وقوانين وسنن، كأنما هو لباس فصل على قد قامت هذا الإنسان ومقامه متناسبا تماما معه.

وكذلك ما أهّل الإنسان لهذه الخلافة الإلهية، هو ما اتصف به من صلاحية للعلم واستعداد للمعرفة، ذلك ما يحتاج إليه في هذا الكون، ويستخدمه لصالحه، وكذلك ما وهب من طاقات وإمكانات للانتفاع بما في هذا الكون وتسخيرها لصالحه⁵.

ويزيد الشيخ في شرح المؤهلات التي استحق بها الإنسان الخلافة بقوله: " لقد استحق الخلافة بما تركبت عليه طبيعته من أضداد ومتقابلات، فهو ضعيف يجب القوة والغلبة، فقير يجب الغنى خاضع للموت والفناء محب للخلود والبقاء، حاجاته ومطامعه أكثر من أنفاسه وأطول من حياته وأوسع من أن يسعها هذا العالم المحدود، وفي هذا التناقض الغريب والصراع العنيف، وفي هذا الطموح البعيد والحرص والنهامة، والطلب والاستزادة سر شرفه وكرامته واصطفائه وخلافته، وبه استطاع أن يتسلم الأمانة التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال، وبه استحق الخلافة في الأرض، ووصل إلى أسمى مكان تحسده عليه الملائكة المقربون"⁶

1- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج1، ص299.

2- الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج2، ص143، وحديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص20-21.

3- ينظر: الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق)، ص161.

4- المصدر نفسه، ص62.

5- الندوي، دور الإسلام الإصلاحي، (مصدر سابق)، ص57.

6- ينظر: المصدر نفسه، ص17.

ويؤكد الندوي -رحمه الله- على أن النبوة الرحيمة جاءت في فترات عديدة، وأماكن متباينة، لتُعد هذا الإنسان وتؤهله لتحقيق الغاية التي خلق لها، وهي العبادة والوصول إلى الكمال المطلوب الذي هُيئ له وهي الولاية، وإكمال المهمة التي أهبط لها في الأرض وهي الخلافة¹، وكل ذلك بمنهاج العبادة الذي يزوده بشحنات روحانية إيمانية، يحفظ بها اعتداله في الحياة ويقاوم بها مغريات الشهوة. ويتخلق ببعض أخلاق الله، وينال منها نصيباً يسمو به إلى آفاق الملأ الأعلى، وتسرح به روحه في ملكوت السموات والأرض².

وينبئ الندوي -رحمه الله- على أن هذا الاستخلاف -بالإضافة إلى شرفه- فإنه يحمل صفة المسؤولية أمام الله، فإن هذا الإنسان المستخلف، عليه أن يتذكر دائماً وهو يتصرف فيما سخره الله له من خيرات ومواهب، وما فتح به عليه من علوم ومعارف ومهارات عليه أن يتذكر أنه ليس مالكا حقيقيا، مطلق اليد يتصرف بحرية مطلقة، بل عليه أن يعي جيدا أنه مستخلف، مقيد بأمر مستخلفه وتوجيهه يسير في ضوء تعاليمه ويتقيد بأحكام ربه، مجزى على عمله، محاسب على سوء تصرفه وأنانيته، معاقب على تفريطه وإفراطه، ومعاتب على استعباده لبني جنسه، واستبداده فيهم، فهو رهن إشارة وطوع أمره يقول الشيخ: " أريد أن ألفت انتباهكم إلى هذه الحقيقة الأساسية، أنه لا يجوز لنا أن ننسى أن الإنسان ليس إلا خليفة، استخلفه الله تعالى في الأرض... إنَّ عليه أن يحقق مرضاة الله ومشيعته، وأن يقوم بأداء حق الخلافة. إن الله ذكر تعليم الأسماء لآدم بعد ذكر استخلافه، وفي سياقه، الأمر الذي يدل دلالة صريحة على أنه مأمور باستخدام علمه كخليفة³"

ويلح الندوي على خطورة هذه النظرة، ويبين مدى فداحة الخسارة التي منيت بها الإنسانية يوم ذهل الإنسان أو تناسى أنه خليفة، وأنه أمين على هذه الأرض، وليس مالكا المطلق، ولا يحق له استخدام خزائنها الظاهرة والباطنة بمحض الهوى والتشهي، ويؤكد على أن أعظم جهالة ظهرت على مسرح الإنسانية يوم تناسى الغرب هذه الحقيقة، فكانت أكبر عثرة في تاريخ العلم والاكتشاف ما أدى إلى انحراف كبير وويلات عظيمة⁴.

إن شعور الإنسان بأنه ليس إلا خليفة كفيل بأن يقوم اعوجاجه، ويثبتته على الصراط المستقيم ويحول بينه وبين التصرفات العشوائية التي يملئها الهوى، والتي لا تجني البشرية منها إلا ثماراً مرّة.

1- ينظر: الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق)، ص165.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص166.

3- ينظر: الندوي، في مسيرة الحياة، (مصدر سابق)، ج2، ص203.

4- ينظر: الندوي، دور الإسلام الإصلاحي، (مصدر سابق)، ص57.

وفي تفسيره لسورة التين وعند قوله تعالى: ﴿فُرُودًا رَدَدْنَا أَسْفَلَ سَفَلِينَ﴾ (التين، الآية 5)، يبين الندوي ارتكاس هذا المخلوق المكرم الذي كان من جنسه الأنبياء المكرمون، والصدّيقون والشهداء والصالحون نتيجة الجهل بهذه الحقيقة كيف انحط بعض أفراده بأعمالهم حتى صاروا أرذل من الحيوانات والحشرات، وكيف مسخت فيهم الإنسانية، وانكست الفطرة، فظهر منهم من اخترع من الجرائم والمآثم ما لا يخطر على قلب بهيمة وسبع، ومنهم من ابتكر أشنع أساليب القتل والفتك بالإنسان وآلات الدمار، ومنهم من تفنن في تصميم أزياء الخلاعة والعري والتهتك ما تحجل منه البهائم.

وقد بلغ هذا الإنسان في القساوة وسفك الدماء خصوصا إنسان القرن العشرين ما لم يبلغه سبع أو حشرة، ولا يصدق هذه الآية، ويؤمن بها عن بصيرة إلا من شهد، أو قرأ تاريخ أوروبا المعاصر¹. وفي مقابل هذه الصورة القائمة لهذه النماذج البشرية الغافلة عن حقيقتها، الذاهلة عن وظيفتها - بسبب قطع صلتها بالدين - يعرض الندوي نماذج راقية من خريجي مدرسة النبوة، وكيف تجلت فيهم معاني الأمانة وكيف تصرفوا فيما استخلفهم الله فيه بكل مسؤولية، سواء كانت هذه الخلافة في نفس أو مال أو حكم، أو علم أو دعوة².

وأخيرا لا شك أن معرفة الإنسان بهذه المهمة الوجودية التي كلف بها كما مرّ بيانه من شأنها أن تضيء قيمة حقيقية على الحياة الإنسانية، وتفتح أمام صاحب هذه العقيدة آفاقا واسعة وأهدافا عليا، وتجعله أكثر إثمارا ونفعا وبعدا عن كل معاني الدونية والشعور باليأس والإحباط التي يعاني منها الإنسان المعاصر، وتخلق فردا قويا متفتحا على الحياة راغبا في التعمير، وهو ما تحتاجه أمتنا المسلمة في هذا العصر وكل عصر.

6- مصير الإنسان:

أجمع أهل الديانات السماوية على أن الموت ليس فناء يصبح الإنسان بموجبه معدوما، بل هو انتقال إلى عالم آخر موجود بالفعل، يحى فيه الإنسان حياة برزخية، ثم يبعث ليحيى حياة جديدة، وينتقل إلى عالم أرحب، ويرى خلاله نتيجة سعيه في هذه الدار، ويجازى على ما عمله، وقد اهتدى إلى هذه الحقيقة نخبة من المفكرين من غير أهل الملل والشرائع السماوية ورائدهم في ذلك ما توصلوا إليه بنظرهم السليم من ضرورة أن يكون لهذا العالم خالقا، وضرورة أن يكون حكيما عدلا، ولما

1- ينظر: الندوي، تأملات في القرآن الكريم، (مصدر سابق)، ص 105-106.

2- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم، (مصدر سابق)، ص 112 وما بعدها؛ والأركان الأربعة، (مصدر سابق)، ص 94 وما بعدها، وريانية لارهبانية، (مصدر سابق)، ص 98-105.

شاهدوا ظالمين ومظلومين درجوا قبل أن يقتص لبعضهم من بعض، قام لديهم دليل العقل على أن عدل الخالق يقتضي وجود حياة أخرى يتم فيها حكم الله تعالى العادل بين عباده¹. لكن وجد من أنكر هذه العقيدة في القديم، وقد حاورهم القرآن ورد أوهامهم، وقدم جملة من الدلائل على إمكان وقوع البعث، كقياس الإعادة على البدء، وضرب المثل بإحياء الأرض بعد موتها وغير ذلك.

وقد عرف العالم المعاصر انتشارا واسعا لهذا الإنكار خاصة في البلاد الغربية نتيجة القطيعة عن الدين واستيلاء النزعة المادية التي لا يصدق أصحابها إلا ما يقع تحت الحواس والتجربة، فحكموا بلسان القال أو الحال أن الفناء الأبدي هو مصير الإنسان²، أما في العالم الإسلامي، فحتى وإن كان أصل الإيمان بهذه العقيدة موجودا ومقررا، إلا أن ضعفه في وعي الإنسان وضعف تأثيره على السلوك لأسباب عديدة كان داعيا لعدد من العلماء والمفكرين يبحث هذه القضية، والتأكيد عليها، والتدليل على وقوعها، وبيان آثارها ومن هؤلاء الشيخ أبي الحسن الندوي الذي أولى الحديث عن الدار الآخرة والمصير الإنساني أهمية خاصة، وبين كيف أثر الإيمان بهذه العقيدة في الأنبياء - عليهم السلام - وفي أتباعهم.

لقد أكد الندوي - رحمه الله - مرارا على أن الإيمان بالآخرة وما يتمثل فيها في سعادة دائمة أو شقاء دائم، وما أعد الله فيها للمؤمنين المطيعين من جزاء وثواب، وللكفار والعصاة من عقاب هو الحافز الحقيقي للأنبياء - عليهم السلام - ولأتباعهم على الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، وبذل النصيحة لعباده وخدمتهم، واعتبره أعظم حافز، وأقوى سلطان على نفوسهم من كل الحوافز الأخرى، وقد أنتج هذا الإيمان رجالا تعلقوا بالآخرة وخلودها، وهانت عليهم الدنيا، وتجلى لهم قصرها وتفاهتها، فزهدوا فيها واتخذوها مطية لمرضاة الله³.

لقد كان الإيمان بالحياة الآخرة ورجاء السعادة فيها، والخلاص من عذاب النار، والحصول على رضا الله، سببا في بلوغ كثير من المؤمنين من مختلف طبقات الأمة من الخلفاء والأمراء والعلماء والدعاة والتجار والصناع وغيرهم في جميع العصور مرتبة من المثالية لم تبلغها أمة من الأمم.

1- ينظر: عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ط 15. دمشق: دار القلم، 2010م، ص 571.

2- ينظر: محمد المبارك، نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ط 2 بيروت: دار الفكر 1981، ص 151 وما بعدها.

3- ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء في القرآن، (مصدر سابق)، ص 43-44.

إن هذه العقيدة جعلت المؤمن يستهين بمشاق الحياة، ويأخذ من ملذات الدنيا نصيباً دون أن تستغرقه، فهو في حال ذكر دائم لربه ولقائه يرجو حسن العاقبة عنده، وينظر إلى الموت على أنه رحلة خلود لا موت بعده، ونعيم لا كدر فيه.

إن هذه النظرة لمصير الإنسان ذات أثر خطير في توجيه سلوك الفرد، وفي تكوين المجتمع كان نتيجتها ازدهار الحضارة في جميع مناحيها المادية مع ارتقاء الحياة الروحية والأخلاقية، وذلك هو التوازن البديع الذي لا يعرف في التاريخ إلا في رحاب الدين الصحيح والوحي المعصوم.

وفي سبيل شرح هذه الحقيقة، والتدليل عليها، يبين الندوي -رحمه الله- أن ما فطر عليه الإنسان من أشواق وطموح ومطالب روحية عالية مضمرة في هذه النفس، لا تجد لها كفاء في هذه الحياة المحدودة، فيموت الإنسان ولم يحصل منها إلا على النزر اليسير، فكيف يمكن إذن فهم هذا التفاوت بين ما فطر عليه الإنسان من هذه المطالب الروحية العالية من تطلع إلى السعادة، وشوق إلى البقاء والخلود، ونهامة للعلم والمعرفة، وبين ما يتحقق منها بالفعل في هذه الدار؟

يجيب الندوي على هذا التساؤل بأن الحياة الحقيقية لهذا المخلوق المكرم ليست هذه الحياة بل هي حياة خالدة أبدية ليست الحياة الدنيا بالنسبة إليها إلا قطرة في بحر، إنها حياة البقاء والخلود التي تتحقق فيها السعادة الحقيقية، وتنال فيها المطالب العالية، يقول الندوي في هذا المعنى: "وإن الإنسان ليحمل في رأسه طموحا لا يشبع، وهمة لا تقف، وروحا في جسمه لا تني، وقلبا في جنبه لا يطمئن، فلا يروي غلته ولا يشبع جوعته هذا العالم الضيق المتثاقل، وأن طاعته وعصيانه لأوسع من أن يستوفي ثوابها أو عقابها في هذا العالم المحدود، فلتزم له حياة خالدة، وعالم لا يعرف الثغور والأطراف، ليست هذه الحياة إلا قطرة من يم إذا قورنت بالحياة الآخرة، وليس هذا العالم إلا شبحا؛ إذا قوبل بالعالم الآتي، ذلك هو الإيمان بالبعث والحياة الأخرى..."¹.

وفي عرضه لآراء جلال الدين الرومي العقدية وقد اعتبره -مفكرا مبتكرا ومؤسسا لعلم كلام جديد- اختار الندوي من كلامه ما يؤكد به هذه الحقيقة من أن الموت ليس نهاية، بل هو مقدمة لحياة خالدة باقية، وعيشة سعيدة راضية، ومقدمة لرقى دائم وازدهار مستمر. وإن الله الكريم الجواد المطلق لا يسلب عبده نعمة إلا ويعطي أكبر منها، فلا يسلب هذه الحياة الضعيفة إلا ويعطي حياة أوسع منها وأبقى وأجمل وأفضل.²

1- ينظر: الندوي، الطريق إلى المدينة، (مصدر سابق)، ص 73-74.

2- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج 1، ص 283-283.

ويختار من المثوي قول الرومي: "لماذا هذا الإشفاق من الموت، ولماذا هذا الفرار من الأجل... فإذا تشبثت بحالة وعضضت عليها بالنواجذ، وأصررت على أن تبقى فيها، وأبيت الانتقال منها إلى حالة أخرى بقيت على بدايتك، ولم تصل إلى أوج الإنسانية، وقمة الكمالات العلمية والروحانية. إنك لم تنل البقاء إلا عن طريق الفناء، فلماذا تفرّ يا هذا من الفناء الجديد الذي هو مقدمة للبقاء الجديد المزيد، ولماذا تشبث بهذه الحياة وتلتصق بها مع أنها تخلف حياة لا زوال لها ولا خوف فيها ولا حزن؟"¹

ومن جهة أخرى وفي تحليله للشمار المرّة التي أنتجتها شجرة الحضارة الغربية المعاصرة، يؤكد على أن من أكبر الخسائر التي منيت بها البشرية بطلان الحاسة الدينية وفقدان تأثيرها وسلطانها على القلوب والأفكار، فلم تعد الأسئلة المتعلقة بالمصير الإنساني ذات أهمية، وأخلت مكانها لأسئلة مادية أهم؛ مما أفلت القلوب والعقول، وسد جميع منافذ الفكر أمام كل دعوة دينية أو تذكير، مصداقا لقول الحق سبحانه: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ﴾ (النمل، الآية: 66).²

ذلك ما أدى إلى شقاء الإنسان، ودفعه إلى التهلك المذل على الدنيا وشهواتها واعتبارها فرصة وحيدة عليه ألا يدخر جهدا في سبيل تحصيل متعتها؛ مما أدى إلى امتهان الإنسان وظلمه والاعتداء عليه في نفسه ووطنه ومقدراته.

وقد اعتبر الشيخ أنّ الإيمان بالمصير والبعث مصل واق من التهلك على الدنيا وعبادة الشهوات ومحاربة لليأس والتشاؤم، وفتح باب عريض للأمل في حياة أرحب وأسمى.

ولا شك أنه حين يستقر في قلب الإنسان ووعيه، بأن هذه الحياة الدنيا المحدودة ما هي إلا مقدمة لحياة أوسع وأكمل، وأن مصيره في الأخرى مرتبط بما يكسبه في الأولى؛ فإن ذلك من شأنه أن يحفزه إلى العمل المثمر البناء الصالح، وإلى خدمة الإنسانية والحدب عليها والسعي إلى الرقي الإنساني الممكن، والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يؤذي الإنسان من ظلم أو جهل، ذلك ما يجد من تعلق الإنسان المذموم بهذه الدار واعتبارها فرصة وحيدة يتهلك على كل ما فيها، فتستعر نار الفردية والأنانية ويشقى المجتمع، وتتعذب الإنسانية.

وأخيرا، وبعد هذه الرحلة الفكرية مع الشيخ الندوي للوقوف على رؤيته حول موضوع الإنسان ابتداء بدواعي اهتمامه بهذه القضية، إلى بيان أبرز معالم هذه الصورة من أهمية الإنسان وموقعه في

1- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق)، ج 1، ص 284.

2- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 232 وما بعدها.

الكون، إلى تحديد الموقف من طبيعته التكوينية، إلى إبراز جوانب التكريم الإلهي للإنسان، وتسخير الكون له وبيان الوظيفة الوجودية التي خلقه الله من أجلها، وانتهاءً بمصير الإنسان. لاشك أن هذه الرؤية للإنسان في قيمته وكرامته وما خصه الله به من وظيفة دون أجناس المخلوقات الأخرى، وما ابتلاه به من مسؤولية على أساس الحرية، والجزاء في دار الخلود. ولا شك أنه متى استقرت هذه الرؤية في فكر المسلم، وتغلغت في نفسه، حررتة من كل شعور بالضعف، ومركب النقص وملأته بالقوة والإقدام على الإعمار، وبدلت اهتماماته من سفاسف الأمور إلى معاليها، ومن صغائر الغايات والمقاصد إلى أشرافها وأعلاها. وهو ما تستحقه أمتنا في حاضرها لتغير ما بأنفسها حتى يغير الله ما بها، وحتى تتأهل لأداء دورها الرسالي ووظيفتها التي خلقها الله لها.



المبحث الرابع:

رؤية الندوي لعقيدة ختم النبوة



تمهيد:

عرفت الهند خلال القرن السادس عشر الميلادي عددا من الحركات التي تدّعي النبوة منها: حركة ذكرى التي أسسها (ملا محمد) عند انتهاء الألف الأول من الهجرة في بلوچستان عام 1569م، وعدّه أتباعه أفضل الرسل وخاتم النبيين، وابتدعوا كلمة جديدة إزاء كلمة التوحيد وهي (لا إله إلا الله. نور باك محمد مهدي رسول الله). واعتقدوا كفر من يؤدي الشعائر، ورأوا وجوب الحج إلى جبل مراد بدل البلد الحرام.

والحركة الروشنائية التي أسسها بايزيد الأنصاري (1525-1572م)، وقد ادّعى أنه كان مخاطبا بالإلهامات وأكرمه الله بالنبوة وبنزول جبريل عليه.

والحركة المهديّة التي أسسها محمد بن يوسف الجونبوري (1469-1504م) الذي غلا أصحابه فيه، وبالغوا في تعظيمه حتى ساووه بالأنبياء والمرسلين، بل فضّلوه عليهم أحيانا ووصلوا به مرتبة النبي الخاتم¹.

كما عرفت إيران أوائل القرن التاسع عشر ظهور حركتين دينيتين متعاصرتين، تدعيان عدم انقطاع النبوة والرسالة، ويعتقد أتباعهما النبوة والعصمة في مؤسسيهما، وهاتان الحركتان هما البابية²، والبهاائية³.

كما عرفت الهند في نفس الفترة تقريبا ظهور حركة مماثلة ولعلها أشد خطرا، هي حركة القاديانية، وإذا كان الأدعياء القدماء قد قضوا وماتت دعواتهم فإن الشأن يختلف مع الأدعياء المحدثين.

وقد كان لنشاط هذه الحركات المحموم، ونشر دعاياتهم وبث أفكارهم أكبر الخطر على المجتمع الإسلامي، ذلك ما أفزع الغيارى من علماء الإسلام، وقوّى عزمهم على مقاومة هذه الحركات، والرد على دعايتها وكشف زيوفها، وانخرط في هذا الجهاد العلمي عدد من علماء المسلمين، وخاصة الهنود، قيضهم الله تعالى لينفوا عن هذه العقيدة تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وطموح المتزعمين، نخص

1- ينظر في تفصيل هذه الحركات وتراجم أصحابها: الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج1، ص 40-48.

2- البابية: نسبة إلى الباب على محمد الشيرازي (المولود عام 1819 م) والذي ادّعى أنه باب الإمام الغائب الذي ينتظره طوائف الشيعة. ظهرت حركته في إيران للاستعداد النفسي والذهني لظهور الإمام الغائب، ولنشاط الاستعمار الروسي الذي هدف إلى إثارة القلاقل والبلبلّة في صفوف المجتمع الإيراني. و للبابية عقائد وعبادات باينوا بها الإسلام وخالفوا ما جاء في مصدره. ينظر: محمد حمدي زقروق، الموسوعة الإسلامية العامة، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 2003، ص: 255-256.

3- البهاائية: نسبة إلى بهاء حسين علي المازنداري، دعم البابية في أول نشوئها وبعد هلاك الباب ادعى أنه هو "القائم" وما كان الباب إلى مهدا له، ثم ادّعى النبوة وأحيرا الربوبية. من كتبه "الإتقان" و "الأقدس". قدم خدمات جليلة للمؤسسات اليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزي. ينظر: محمد حمدي زقروق، الموسوعة الإسلامية العامة، (مرجع سابق)، 296-297.

منهم بالذكر الشيخ أبا الحسن الندوي، الذي كانت له صولات مع هؤلاء المدعين، وسنحاول في هذا المبحث بعون الله وتوفيقه الكشف عن جهوده في الرد عليهم وتزييف آرائهم، لكن يجدر بنا قبل ذلك بيان مفهوم ختم النبوة عنده، وأهمية هذه العقيدة وآثارها الجليلة على المدينة.

1- مفهوم ختم النبوة:

إن ختم النبوة عند الندوي يعني نهاية تلقي البشرية العقائد والشرائع، وما تتوقف عليه سعادتها في الدنيا، ونجاتها في الآخرة، والاكتفاء بما تلقاه النبي محمد ﷺ وحيًا عن طريق الروح الأمين جبريل خاصة، والملائكة عامة.

أما العلوم الوجدانية، والحكم والمعارف والأخبار التي تُلهَمها النفوس الزكية، وأصحاب الرياضات والمجاهدات والغواصون في العلوم والحقائق، وما قد يسمعه بعض الناس من نداءات غيبية فليست عنده من النبوة في شيء، وقد ثبت ذلك حتى لغير المسلمين واستفاض، وإنكاره من المكابرة، ويرى الشيخ أن ذلك ليس دليلاً للهداية، فضلاً عن النبوة والرسالة، ويستدل لذلك بما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في مناقب عمر: "لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمي منهم أحد فعمر" ¹.

كما ينقل الندوي من كلام المحققين ما يؤكد به رأيه، من ذلك: ما صرح به الشيخ محي الدين بن عربي (م 638 هـ) بأن إلهام الأولياء وأصحاب الرياضات محصور في العلوم والأخبار، لا في الأحكام والشرائع وما كان من ذلك فلا يعتمد عليه ولا يعبأ به أصلاً ².

يقول الشيخ ابن عربي: "... لأن الملك لا ينزل بوحي على قلب غير نبي أصلاً، ولا بأمر إلهي جملة واحدة؛ فإن الشريعة قد استقرت، وتبين الفرض والواجب والمندوب والمباح والمكروه، فانقطع الأمر الإلهي بانقطاع النبوة والرسالة؛ ولهذا لم يكتب رسول الله ﷺ بانقطاع الرسالة فقط لئلا يتوهم أن النبوة باقية في الأمة فقال عليه السلام: "إن النبوة والرسالة قد انقطعت فلا نبي بعدي ولا رسول" ³.

وتأكيداً على هذا المعنى يقول في موضع آخر: "فما بقي للأولياء اليوم بعد ارتفاع النبوة إلا التعريف، وانسدت أبواب الأوامر الإلهية والنواهي فمن ادعاها بعد محمد ﷺ فهو مدع..." ⁴.

1- رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب تحت رقم: 3486.

2- ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 112-113.

3- محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، بيروت: دار صادر. (د ت) ج 3، ص 38.

4- المرجع نفسه، ج 3، ص 39.

كما دعم الندوي رأيه بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أورده في كتاب "النبوات" ونقل منه الآتي: "فهؤلاء المُحدثون الملهمون المخاطبون يُوحى إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب وإلهام، وليسوا بأنبياء معصومين في كل ما يقع لهم؛ فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إيجاء الرب، بل من إيجاء الشيطان؛ وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء..."¹

2- أهمية عقيدة ختم النبوة عند الندوي:

عند تتبع ما كتبه الندوي بشأن أهمية عقيدة ختم النبوة يمكن الوقوف على نقطتين مهمتين: **أولاهما:** اعتباره أن هذه العقيدة هي إعلان تكريم الإنسانية بتجاوزها مرحلة الطفولة وبلوغها سن الرشد ومرحلة النضج والكمال واستغنائها عن موجه جديد، واكتفائها بالنبي الخاتم الذي فتحت معه صفحة جديدة حوت الاعتقاد الصحيح، والتشريع القويم والغايات النبيلة، وطوت بذلك صفحات الشقاء الذي عرفته في الماضي بالتباس الأمور، واختلاط الحق بالباطل بسبب المتنبيين الأذعياء.² إن عقيدة ختم النبوة هي سد لأبواب التحريف الذي يمكن أن تواجهه الأمة من الأذعياء، وحصن منيع يحفظ عليها دينها الذي أعلن القرآن كماله، وتمام النعمة به.

وثانيتهما: اعتباره أن هذه العقيدة هي حارس الأمة الأمين الذي يحفظ عليها وحدتها الدينية بوحدة التشريع والتوجيه وسد كل المنافذ التي قد تنافس القيادة المحمدية للأمة مما يفتح باب الشقاق والتنازع بين أفرادها؛ إنما عنده الحارس الأمين من الفوضى الفكرية والدينية التي كانت الأمم السابقة فريسة لها، واستطاعت بفضل هذه العقيدة أن تقاوم كل المؤامرات التي تعرضت لها وأرادت تمزيق وحدتها.³

3- أدلة الندوي على ختم النبوة:

ساق الندوي جملة من الأدلة لإثبات عقيدة ختم النبوة، منها ما هو نقلي، ومنها ما كان عقليا، نوجزها في الآتي:

3-1: أدلة الندوي النقلية على عقيدة ختم النبوة:

استعرض الندوي جملة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تقوم دليلا على ختم النبوة بمحمد ﷺ نذكر منها:

1- ابن تيمية، النبوات نقلا عن: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص113.

2- المصدر نفسه، ص139.

3- الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص52.

3-1-1: الأدلة من القرآن:

صرّح القرآن الكريم بوضوح شديد بكون نبينا محمد ﷺ هو آخر الأنبياء والمرسلين. كما تضمن آيات أقل صراحة، يفهم منها المتمرس بأساليب العربية ودلالاتها ختم النبوة على سبيل الاستنزام، فمن النوع الأول قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ¹ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب، الآية: 40). ويعلق الندوي على الآية بأنه ليس في لغة العرب وغناها كلمة أدل على مفهوم الإنهاء والإكمال من كلمة (الخاتم)، ولا يعرف العرب للختم معنى غير ما أراده القرآن من أن رسول الله ﷺ هو آخر الرسل وخاتم الأنبياء الذي لا نبي بعده¹.

أما من النوع الثاني فمثل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ² ذَلِكَ فُسُوقُ الْيَوْمِ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أُضْطَرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة، الآية: 3). يرى الندوي رحمه الله بأن القرآن قد صرح بلسان عربي مبين لا غموض فيه بأن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال والوفاء بحاجات البشر، والصلاحية للبقاء والاستمرار، وذلك من أكبر الدواعي لإنهاء سلسلة النبوات والرسالات السماوية بمحمد ﷺ².

3-1-2: الأدلة من السنة:

لم يكتف الندوي بالاستدلال على عقيدة ختم النبوة بما جاء في القرآن صريحا، أو ما استنبطه من دلالات تستلزمها الآيات؛ وإنما أورد جملة من الأحاديث الصحيحة التي يصرح فيها النبي الكريم ﷺ ويؤكد في وضوح وتفصيل لا مزيد عليه بأنه خاتم النبيين والمرسلين نورد بعضها:

الحديث الأول: ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلف نبي، وأنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء " ³.

1- الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 114.

2- المصدر نفسه، ص 119.

3- متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم الحديث 3268، ج3، ص1273، وأخرجه مسلم، كتاب الإمامة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول، رقم الحديث 1842، ج3، ص1471.

الحديث الثاني: وروى عنه أيضا أن النبي ﷺ قال: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثّل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"¹

الحديث الثالث: قول النبي ﷺ: "فضّلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون."²

الحديث الرابع: قول النبي ﷺ: "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي"³.
الحديث الخامس: ما رواه جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال: "أنا محمد أنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، أنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي"⁴.

2-2: الأدلة العقلية:

لم يقتصر الندوي على ما قدّمه من أدلة قرآنية وحديثية، بل أورد كذلك جملة من الأدلة العقلية، يؤكد من خلالها على انقطاع سلسلة النبوات، وختمها بنبينا محمدا ﷺ فنختار منها ما يلي:

أ- سكوت القرآن عن بعثة نبي جديد:

من المعلوم عند كل مسلم أن القرآن يعني بكل ما ينفع الإنسان في الدنيا والآخرة، ويحذره من كل ما يضره ويعرضه لسخط الله، ولا يترك شيئا مما في معرفته سعادة الإنسان إلا بيّنه وأوضحه، لكن مع ذلك لم يتحدث عن ظهور نبي جديد أو رسالة مستأنفة في قابل العصور، فدل ذلك على أنه لا نبي بعد محمد ﷺ لأنه من غير المعقول أن يترك كتاب الإسلام ورسوله الناس في عماية وظلام وجهالة وحيرة ولا يبشرهم بحدث كبير ونبأ عظيم كظهور نبي جديد.⁵

يقول الندوي: "فالكتاب الذي يذكر الشيء الكثير من أشراف الساعة والحوادث التي تحدث في آخر الزمان، ويتحدث عن الدخان وعن الدابة ويأجوج ومأجوج، كيف لا ينبئ عن نبي يبعث في

1- رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، رقم الحديث 3535، ج4، ص186.

2- رواه مسلم، في صحيحه، (مصدر سابق)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: 523، ج1، ص371.

3- رواه الترمذي في سننه، (مصدر سابق)، أبواب الرؤيا، باب ذهب النبوة وبقيت المبشرات، رقم الحديث: 2272، ج4، ص103.

4- رواه الإمام مالك بن أنس، في الموطأ، كتاب أسماء النبي ﷺ باب رقم: 01 أسماء النبي ﷺ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار الكتاب المصري بالاشتراك، ج2، ص1004.

5- ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص134.

هذه الأمة أو غيرها، وبهيبى العقول والنفوس - التي تنفر عن كل جديد وتفر من التكاليف والمسؤوليات - للترحيب به وقبول دعوته والانضواء تحت رايته "1.

ب- عقيدة ختم النبوة تكريم للإنسانية:

يرى الندوي أن من الأدلة على عقيدة ختم النبوة وصول الإنسانية إلى مرحلة النضج وخروجها من الإطار الضيق الذي عاشت فيه قرونا طويلة، وتهيأت لتدخل مرحلة جديدة من العلم والمدنية، والتعارف والوحدة وتسخير الكون وطاقتها، كما تهيأت للخروج من نظام الأسر والقبائل، والشعوب والأقاليم إلى الإنسانية الواسعة، والهداية العامة، ويقتبس الشيخ من كلام محمد إقبال ما يؤكد به هذه الفكرة، يقول إقبال: "إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إنهاء النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا إلى الأبد على مقود يقاد منه، وأن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو، إن إبطال الإسلام للرهبنة، ووراثة الملك، ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية، كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة"2.

إن الرسالة الخاتمة مدّت الإنسان بما ينبغي أن يكون عليه في عقيدته وشرعت من الأحكام، والشرائع والعبادات، وأوضحت له من مبادئ، وقوانين ما تكتمل به سعاداته في الحياة الدنيا والآخرة. واستنهضت فيه عقله، ودفعته إلى البحث والنظر لاستنباط ما يلائم حياته من خلال تلك المبادئ العامة التي أقرتها، إن معنى ذلك أن الإنسان لم يعد بحاجة إلى رسالة جديدة، بل عليه أن يوظف مواهبه ويطوّر فهمه ويعمّق إدراكه ويشق طريقه في هذه الحياة في ضوء رسالته الخاتمة.

يقول الندوي في هذا المعنى: "إن الاعتقاد بانتهاء النبوة يبعث في الإنسان روح الطموح والتقدم، ويحثه على بذل مواهبه ويعيّن المجال السليم لكفاحه وجهوده. ولولا عقيدة ختم النبوة لفقد الإنسان ثقته بنفسه وبقي في ريب دائم، وظل شاخصا ببصره إلى السماء بدلا من أن ينظر إلى الأرض... ووقع فريسة المتنبئين على الدوام"3.

من خلال ما تقدم يظهر جليا أن الشيخ الندوي يولي عقيدة ختم النبوة أهمية بالغة، وحرصا شديدا لذلك لم يكن مستغريا صرامته في الرد على من تناول عليها، وادّعى مقامها بوجه من الوجوه.

1- ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 135.

2- محمد إقبال، تجديد التفكير الديني، تر: عباس محمود (مرجع سابق)، ص 149-150.

3- الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 130.

وفي ما يلي محاولة للكشف عن جهوده في الرد على طائفتين عرفنا بتجاوز عقيدة حتم النبوة وكان لهما تأثير كبير ولا يزال وهما: القاديانية والشيعية الإمامية¹.

4- جهود الندوي في الرد على القاديانية:

أدرك الندوي شدة خطورة الحركة القاديانية على الإسلام واستمالتها لكثير من المثقفين ورجال الدولة، في الهند وباكستان، وفي أرجاء كثيرة من العالمين العربي والإسلامي، لذلك فزع لهذه الفتنة كما فعل سلفه من قادة الفكر في شبه القارة الهندية، واستجاب لأمر شيخه العارف "عبد القادر الرأبي بوري" بتأليف كتاب بالعربية يعرف من خلاله بالقاديانية وعقيدتها وتاريخها، ويثري به المكتبة العربية التي لم يعرف علماءها بعد حقيقة هذه الديانة²، واستعرض المكتبة القاديانية على وسعها وركاكة أسلوب كتابتها، وألّف كتابه "القادياني القاديانية". واعتبر هذا العمل حاجة ماسة من حاجات العصر، وواجب الوقت، ودفاعاً عن كرامة الرسالة المحمدية الأخيرة ومنافحة عن عرض محمد ﷺ وفيما يلي محاولة لإبراز جهوده في الرد على القاديانية ونقدها.

4-1: عوامل نشوء وانتشار القاديانية:

يمكن تقسيم عوامل نشوء وانتشار القاديانية في نظر الندوي إلى عاملين هما:

4-1-1: عامل داخلي: ويتمثل في الاضطرابات الفكرية والثورات النفسية في الشرق الإسلامي عموماً، والهند خصوصاً، فقد عرفت الصراع بين الحضارتين الغربية والشرقية، والثقافتين الحديثة والقديمة وبين الديانتين المسيحية والإسلام، وقد كان لإخفاق ثورة الهند الكبرى عام 1857م ونكبة المسلمين وهزيمتهم، ولنشاط القسس في إضعاف الثقة بالإسلام وزعزعة العقيدة، أبرز الأثر في نفوس الجيل الناشئ، واستولى على المسلمين القنوط والتذمر والقلق، ويحس الناس من إصلاح الأوضاع بالأساليب العادية الطبيعية، كما كثر الحديث عن الفتن، ونهاية الزمان، وكثرت التنبؤات والإلهامات. وكانت بنجاب أكبر الأقاليم حذاً من هذا القلق الفكري، وضعف العقيدة والعلم، وفقدان الثقافة الإسلامية الصحيحة وكانت أكثر تهيؤاً لكل ثورة فكرية ودعوة متطرفة.

1- أما البهائية فلم يولها كبير عناية لأنها حسب رأيه أعلنت بصراحة استقلالها عن الإسلام وبالتالي لم تلبس على الناس أمرها، وإن أشار بوضوح إلى خطورة منهجها القائم على تأويل الكلمات الشرعية الإسلامية المتواترة تأويلاً لا يقوم على اللغة والمنطق، وإنكار الحقائق الغيبية. كما أشاد بالغيرة الدينية التي أبداها الإيرانيون في رفض هذه الحركة وإدانتها، ومنعها منعا قانونياً، والحكم بمروق أتباعها من الإسلام. ينظر: الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق) ص133، وأيضاً: الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق) ج1، ص138، الندوي، إسمعيات، ط1. دمشق: دار ابن كثير، 2002م، ص61؛ الندوي، من نهر كابل إلى نهر اليرموك، طبعة أنقرة: دار الهلال، 1974، ص83.

2- الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص13-14.

فكان هذا المناخ الملائم والبيئة المناسبة عاملاً مساعداً ومشجعاً لدعوة المرزا "غلام أحمد" الطموحة والتي تهيأ لها من الظروف، والأوضاع والرعاية ما ساعدها على النمو والانتشار.

4-1-2: عامل خارجي: وتمثل في الاستعمار الإنجليزي لشبه القارة الهندية، وإحكام قبضته عليها، وهو ما اقتضى خلق التناقضات والانقسامات بين سكان الهند، وبالأخص المسلمين منهم الذين أبدوا مقاومة عنيفة للاستعمار الإنجليزي، فتبنت الحكومة الإنجليزية هذه الدعوة واحتضنتها وحمتهها وشجعتها، وقد قامت هذه الأخيرة بأدوارها أحسن قيام، والتي كان منها؛ الحكم بتحريم الجهاد والثورة على الإنجليز، والإشادة بفضلهم.

والندوي لا يتجنى على القاديانيين بل ينقل من كلام مؤسسها نفسه ما يؤكد به هذه الحقيقة، يقول المرزا غلام أحمد: "لقد نشرت خمسين ألف كتاب ورسالة وإعلان في هذه البلاد، وفي البلاد الإسلامية، تفيد أن الحكومة الإنجليزية صاحبة الفضل والمنة على المسلمين، فيجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة إطاعة صادقة، وقد ألفت هذه الكتب في اللغات الأردية والعربية والفارسية، وأذعتها في أقطار العالم الإسلامي حتى وصلت وذاعت في البلدين المقدسين، مكة والمدينة، وباكستان وبلاد الشام ومصر وأفغانستان، وكان نتيجة ذلك أن ألقع ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التي كانت من وحي العلماء الجامدين، وهذه مأثرة أتباهى بها، يعجز المسلمون في الهند أن ينافسوني فيها".¹

وقد سمى "غلام أحمد" أسرته ونفسه بقلمه "غرس الإنجليز" يقول: والمأمول من الحكومة أن تعامل هذه الأسرة التي هي من غرس الإنجليز أنفسهم ومن صنائعهم، بكل حزم واحتياط وتحقيق ورعاية، وتوصي رجال حكومتها أن تعاملني وجماعتي بعطف خاص ورعاية فائقة".²

هكذا تيسر للمرزا "غلام أحمد" المحيط المناسب والبيئة المساعدة والمشجعة، ووجد من الحكومة الإنجليزية كل ترحيب ودعم، وسارت القاديانية في طريقها حتى أصبحت ديانة مستقلة، ومشكلة تهدد العالم الإسلامي، وهو ما يتوجب كشفها ونقدها بأسلوب علمي هادئ، وصيانة المجتمع الإسلامي من أباطيلها وتحريفاتها.

1- المرزا غلام أحمد، نقلا عن: الندوي، ترشيد الصحوة الإسلامية، ط3، القاهرة: دار السلام، 1993، ص 127.

2- المرزا غلام أحمد، تبليغ رسالة، نقلا عن: الندوي، (مصدر سابق)، ص 128.

5- النقد العلمي للقادياني والقاديانية:

سلك الندوي في نقده للقاديانية مسلكين أساسيين: تركّز الأول منهما على فحص شخصية المرزا "غلام أحمد" وسيرته مقارنة بسيرة الأنبياء، والدعاة الربانيين، والعلماء العاملين، والملوك الصالحين؛ أما المسلك الثاني فيعني بدراسة مضمون ما جاء به المرزا من أحكام وماوقفه من مواقف، وبيان انحرافاتهما ومخالفتها للمنطق السليم ودلالات اللغة، والمعهود مما توارثته الأمة خلفا عن سلف.

5-1: نقد شخصية القادياني:

من المقرر في علم العقائد أن من دلائل النبوة، وآيات صدق مدّعيها حسن السيرة وكمال الخلق، والبعد عن السواقط الأخلاقية والسلوكية، فمن اتصف بكمال الخلق وشرف السيرة وعُرف بذلك بين قومه ردحا من الزمن، كان أبعد عن التهمة، وأقرب إلى الصدق في دعواه، ومن كان على النقيض من ذلك، كان أبعد عن الرجولة والشهامة، فضلا عن التتويج بالنبوة والرسالة.

وقد طبق الندوي هذه المنهجية في نقد المرزا "غلام أحمد" وتتبع سيرته، وأخباره من خلال مکتوباته، ومكتوبات أصحابه ليحكم عليه من خلالها.

وقد أبرز الشيخ جوانب ثلاثة من حياة المرزا غلام تقوم دليلا على عدم صدقه في دعواه نوجزها

فيما يلي:

5-1-1: حياة البذخ والترف والإسراف:

عاش المرزا غلام أحمد فقيرا خاملا لا يسترعي انتباهها، وبدأ يتدرج في دعوته من مؤلف مدافع عن الإسلام، إلى زعيم روحي، ثم ظهوره في مظهر "المسيح الموعود"، إلى ادّعاء النبوة، فأقبلت عليه الدنيا وانهالت عليه الهدايا وأغدقت عليه الأموال، وكان كل ذلك من طريق الزعامة الدينية، ومن جيوب الفقراء وأوساط الناس، فكيف كانت سيرته في هذه الأموال وكيف صار بعد أن فتحت عليه الدنيا؟.

وقبل أن يقوم الشيخ الندوي بالإجابة عن هذه التساؤلات، استعرض نماذج من حياة النبي ﷺ والدعاة المخلصين وعباد الله الصالحين من أتباع الرسول ﷺ في أدوار عديدة من التاريخ، لم يزد هم إقبال الدنيا إلا زهادة وإيثارا للآخرة وكان شعارهم في حياتهم مقالة نبينهم ﷺ "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة"، وقد كانت هذه الحياة الزاهدة، وهذه الاستقامة ووحدة الحياة في الفقر والغنى، والضعف والقوة برهانا على صدق النبوة المحمدية حتى عند المرزا "غلام أحمد" نفسه الذي يقول في براهين أحمدية: "ولما انتصر الإسلام بعد مدة مديدة... لم يقن رسول الله ﷺ مالا ولم يدّخر كنزا، ولم

يرفع بناء ولم يشيّد قصرًا، ولم يميل إلى ترف، أو بذخ، ولم ينتفع بما آتاه الله من مال أو جاه، بل أنفق كل ما جاءه على اليتامى، والمساكين والأرامل والمديونين، وما شبع من طعام قط"¹.

ثم يعرّج الندوي على حياة القادياني في ضوء هذا المصباح ليكشف فرقا هائلًا بين حياته الأولى وحياته الآخرة التي كانت أشبه بحياة السياسيين من الترف واتباع الشهوات.²

يريد الندوي أن يؤكد من خلال هذا التفاوت في السيرة وعدم الوحدة في حياة المرزا "غلام أحمد"، وانقلاب سلوكه وتعاطيه مع الدنيا، وشهواتها أن ذلك يقوم دليلاً على كذبه في دعواه ومخالفته للمعهود من حياة الأنبياء وخلفائهم.

5-1-2: البذاءة والإقذاع في القول:

من المعلوم أن الأنبياء الكرام قد اصطفاهم الله تعالى من أزكى الأصلاب، وأطهر الأرحام، وتولى رعايتهم وتأديبهم، وقد تواتر عنهم حسن الخلق، من صدق الحديث، وعفة اللسان، وقوة الصبر، والاحتمال لما يلاقونه من أذى، وقد نقل رواة السير من شمائل رسول الله ﷺ روايات كثيرة تدل على كمال خلقه، وطهارة قوله وعفة لسانه.

كما أن المحفوظ من توجيهاته ﷺ التي تدعو إلى حسن الخلق لا تحصى كثرة، كما تخرّج على يديه الكريمتين رجال بلغوا درجة الكمال الإنساني والسمو الخلقي، يتزين بذكر خصالهم الزمان، وهكذا يكون الأنبياء فإنهم مبعوثون لتزكية النفوس، وتطهيرها وتربيتها وتلك وظيفة من وظائفهم.

يقارن الندوي بين ما كان عليه الأنبياء من سمو في الخلق، وبين ما كان عليه المرزا من بذاءة في القول وسلطة في اللسان، وكل ذلك من خلال مكتوباته التي أبدى فيها هجاء مقذعا للمخالفين من الصالحين، والعلماء المعاصرين له، ليبين الندوي للقارئ الفرق الجوهرية بين النبي الحقيقي والمدّعي. ونورد بعضاً من أقوال المرزا التي كتبها بيده - وباللغة العربية حتى لا تنتهم بالتحريف في الترجمة كما يقول الندوي - كدليل على هذه البذاءة والفحش في القول، والفجور في الخصومة.

توجه المرزا إلى جماعة من صفوة علماء الهند علما وصلاحا في شخص أحدهم وهو الشيخ "محمد حسن البتالوي" بالقول: " فمنهم شيخك الضال الكاذب نذير المبشرين، ثم "الدهلوي عبد الحق" رئيس المتصلفين، ثم سلطان المتكبرين الذي أضع دينه بالكبر والتوهين، ثم "الحسن الأمروهي" الذي أقبل علي إقبال من لبس الصفاقة، وخلع الصداقة، واعتلقت أظفاره بعرضي، ومخلبه بثوبي كالكلاب،

1- المرزا غلام أحمد القادياني، براهين أحمدية، نقلا عن: الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 90.

2- ينظر تفصيل النصوص التي تؤكد هذا المعنى في المصدر نفسه، ص 90-94.

ونطق بكلم لا ينطق بمثلها إلا شيطان لعين، وآخرهم الشيطان الأعمى والغول الأغوى يقال له "رشيد الجنجوهي"¹ وهو شقي "كالأمروهي"²، ومن الملعونين"³.

أما من إقذاعه المنظوم فنختار ما توجه به إلى عالم جليل هو الشيخ "سعد الله اللدهيانوي" وكان قد رد عليه، فهجاه بقوله:

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| ومن اللئام أرى رجیلاً فاسقاً | غولاً لعیناً نطفة السفهاء |
| شكس خبیث مفسد ومزور | نحس یسمى السعد فی الجهلاء |
| آذیتنی حیثاً فلست بصادق | إن لم تمت بالخرزی یا ابن بغاء |

وفي ضوء هذه المقارنة تتجلى حقيقة المزرا، وأخلاقه وبذاءة لسانه، وتعرّيه عن الحلم وضبط النفس مع مخالفه وهو ما يكفي المنصف للحكم عليه وعلى دعواه.

يعلق الندوي بعد أن ساق جملة من أقوال المزرا بالقول⁴: واعتقد أن هذه النماذج تكفي لتصوير شخصيته ونفسيته، ويستطيع الإنسان أن يحكم؛ هل رزق هذا الرجل نصيباً من أخلاق أتباع الأنبياء، والأشراف من الناس فضلاً عن الأنبياء أنفسهم – صلوات الله وتحياته عليهم – وهل تتفق هذه السيرة مع المنصب الذي كان يتظاهر به ويدعيه⁵.

3-1-5: ممالأة الظالمين ومعاونتهم:

من المعلوم أن بريطانيا العظمى غزت عدداً من بلاد الإسلام، ومنها الهند التي كانت مملكة يحكمها المسلمون، وثار المواطنون الأحرار لمقاومة هذا العدوان، لكن الإنجليز بدعائهم وحسن نظامهم استطاعوا إخماد تلك الثورة، وعاثوا في البلاد فساداً، ينشرون الإلحاد والخلاعة، وانبت القسس والرهبان يبشرون بالمسيحية، والنيل من الإسلام ومبادئه وتعاليمه، وبذلك عاشت الهند ثورة حقيقية على القيم الروحية والخلقية التي جاء بها الأنبياء، ونزلت بها الصحف السماوية، ومن المعروف في تاريخ الرسالات وسير الأنبياء أنهم كانوا دائماً حرباً على الظالمين والمفسدين بعيدين عن تأييدهم ومساعدتهم

1- كان آية باهرة ونعمة ظاهرة في التقوى وإتباع السنة النبوية والعمل بالعزيمة من أهم مؤلفاته: "تصفية القلوب"، و"إمداد السلوك"، (ولد سنة 1244هـ وتوفي عام 1323هـ) ينظر في ترجمته: عبد الحي الحسني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، أو المسمى، ب"نزهة الخواطر"، (مرجع سابق)، ج8، ص1229-1231.

2- الشيخ الصالح عبد الباري بن ظهور الله أحد مشايخ الجشئية، توفي عام 1226هـ، ينظر في ترجمته: عبد الحي الحسني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، أو المسمى، ب"نزهة الخواطر"، (مرجع سابق)، ج8، ص998.

3- الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص110.

4- ينظر هذه الأقوال بتمامها في: الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص108 - 111.

5- المصدر نفسه، ص111.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (سورة هود، الآية: 113). وجاء في حديث الرسول ﷺ: "إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"¹.

ولكن المرزا - كما يؤكد الندوي - يعمل بعكس وصايا القرآن الواضحة وروح الدين وبالعكس من أسوة الأنبياء والمرسلين وخلفائهم فهو يمدح أكبر فراعنة عصره - الإنجليز - ويحرص على تأييدهم ويتملقهم في أسلوب سافر يترفع عنه صاحب ضمير ومبدأ، فضلا عن خلفاء الأنبياء، فضلا عن الأنبياء أنفسهم، ولا يضيّع فرصة ولا مناسبة للثناء العاطر على هذه الحكومة، ولا ينسى التذكير الدائم بنسخ الجهاد، ووجوب طاعة ولي الأمر ونشر ذلك في الهند وفي الأقطار الإسلامية. وقد نقل الندوي جملة من النصوص الصريحة التي تؤكد هذا المعنى أكتفي بإيراد واحد منها². يقول المرزا غلام أحمد: "لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها وقد ألّفت في منع الجهاد ووجوب طاعة ولي الأمر - الإنجليزي - من الكتب والإعلانات والنشرات ما لو جُمع بعضها إلى بعض لمأ خمسين خزانة. وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ومصر والشام وتركيا، وكان هدفي دائما أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة، وتمحي من قلوبهم قصص المهدي السفاك، والمسيح السفاح، والأحكام التي تبعث فيهم عاطفة الجهاد، وتفسد قلوب الحمقى"³. وهكذا يكشف الندوي بأسلوب المقابلة بين ما كان عليه النيّون، وخلفاؤهم من غيرة على الحق وثورة على الباطل ومواجهته، وبين ما قدمه القادياني من خدمات جليلة للإنجليز، وشق عصا المسلمين، وتخذيّل عدد منهم عن مقاومة المستعمر، ليخلص إلى أن هذه المواقف تنافي، وتناقض ما تواتر من سير الأنبياء والمرسلين، وتبين شذوذ هذا المدعي وإفككه.

5-2- نقد مضمون القاديانية ووظيفتها:

لم يكتف الندوي بنقد سيرة القادياني، والحكم عليه من خلال المسلك السلوكي والأخلاقي، وإنما توجه بالنقد لما جاء به المرزا من أحكام وآراء، وفحصه في ضوء المنطق السليم. ويمكن تقسيم هذا العمل النقدي إلى قسمين رئيسيين: أحدهما يتعلق بتسليط الضوء على فحوى هذه الآراء والمعتقدات والتصورات، وبيان خطورتها.

1- رواه الترمذي، الجامع الكبير، أبواب الفتن، تح: بشار عواد معروف، رقم الحديث: 2174، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996م، ج4، ص45. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

2- للاطلاع على هذه الأقوال، ينظر، الندوي، القادياني والقديانية، (مصدر سابق)، ص98-105.

3- المرزا غلام أحمد، ترياق القلوب. نقلا عن: الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص99.

أما ثانيهما فيتعلق بالجانب الوظيفي للقاديانية، وموقفها إزاء ما كان يعانيه العالم الإسلامي وما كان بحاجة إليه ومدى استجابة هذه الحركة له، وسنحاول فيما يلي بيان القسمين بإيجاز:

5-2-1: النقد المضموني:

لم ينظر الندوي إلى القاديانية وما جاءت به كعقيدة شاذة من عقائد المسلمين أو كطائفة انخرقت عن الجادة، وفارقت السواد الأعظم في عقيدة دينية أو رأي علمي، كما نظر إليها العقاد مثلاً¹؛ وإنما اعتبرها ديناً مستقلاً إزاء دين الإسلام، وأتباعها أمة إزاء الأمة المحمدية.

إن الدين عنده ليس مجرد عقيدة وعمل، ولكنه -مع ذلك- عقلية وعاطفة، وشعائر ومراكز روحية، وأسلاف وتاريخ، وفيه غذاء ومددا لكل ناحية من تلك النواحي، وتلبية لكل حاجة من تلك الحاجات، وكل دين سماوي أو نظام وضعي يضاهي الدين، فإنه يشغل تلك النواحي ويغذيها. طبق الندوي هذا المقياس على القاديانية فوجدها أشبه بديانة مستقلة منها بطائفة أو مذهب أو مدرسة فكرية، فقد لاحظ أنها تشغل جميع نواحي الحياة الدينية، وتغذيها بغذائها الخاص، وتزاحم الإسلام في كل شيء، وتريد أن تحل محله في العقيدة والفكر والعاطفة.

فهي مثلاً تساوي بين قبر سيد المرسلين في المدينة ومدفن المرزا "غلام أحمد" في قاديان، وتجعل منها مدينة مقدسة الثالثة كمكة والمدينة -إن لم تتفوق عليهما- وتجعل قصدها بالزيارة يساوي الحج.² كما اتخذ القاديانيون تقويمًا يخصهم بعد المرزا يتصل بحوادث حياته³، ويساوون في الفضل بين أصحاب النبي ﷺ وبين "رفقة المرزا غلام أحمد"⁴.

كما انتقد الندوي القاديانية في إنكارها عقيدة ختم النبوة التي حفظ الله بها هذا الدين من غائلة المبتدعين وفتنة المتنبئين، وحرس بها الأمة من الفوضى الفكرية والدينية وحفظ بها وحدة الأمة.

وكان من نتيجة هذا الادعاء وقوع بلبلة فكرية وفوضى دينية، وتنازع بين الأفكار، وتوزع العالم الإسلامي بين جهات مختلفة، وفتح الباب لمدعين آخرين. يقول الندوي: "لقد فتح المرزا غلام أحمد باب النبوة على مصراعيه وقال: "إن إتباع النبي ﷺ يمنح كمالات النبوة، وإن العناية بذلك والاهتمام

1- يرى العقاد أن المرزا غلام أحمد كان يعتبر نفسه مجدد القرن الرابع عشر للهجرة، ولم يثبت عنه ادعاء النبوة، وينقل من كلامه ما يؤكد ذلك، وبعد وفاته انقسم أتباعه إلى فريقين: فريق يسمى الأحمديّة ويؤمنون بإمامته ولا يؤمنون بنبوته، وفريق يسمى القاديانية وهم القائلون بنبوته، وأعاب على الحركة دعمها للمستعمر، وتسببها في إضافة نحلة جديدة. ينظر: عباس محمود العقاد، الإسلام في القرن العشرين، القاهرة: مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، 2013، ص 100-103.

2- الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 124-125.

3- المصدر نفسه، ص 125.

4- المصدر نفسه، ص 123.

به ينحت الأنبياء الجدد ويخلقهم"، وقال نبجله وخليفته المرزا بشير الدين محمود: "لقد اعتقدوا أن كنوز الله قد نفذت، ما قدروا الله حق قدره، إنكم تتنازعون في نبي واحد، وأنا أعتقد أنه سيكون هناك ألف نبي بعد محمد ﷺ"¹.

ويؤكد الندوي على الآثار الدينية والاجتماعية الخطيرة التي تنجم عن القول بعدم ختم النبوة بقوله: "وظهر رجال في مختلف أرجاء العالم الإسلامي يرفعون راية النبوة يكفرون الذين لا يقبلون دعوتهم... فلا ينتج ذلك سوى بلبلة فكرية وفوضى دينية، واصطدام بين الأفكار، وتوزع العالم الإسلامي بين جبهات مختلفة، وتقع هذه الأمة التي جاءت لمحو كل عصية من اللون والجنس والوطن، وإنشاء الأخوة الإسلامية فريسة التفريق والتكفير والعصبيات الدينية"².

ويكشف الندوي عن موقف القاديانيين من المسلمين الذين لا يؤمنون بنبوة غلام أحمد ويورد كلامهم من مصادرهم ليؤكد خطورة هذا الادعاء ونتائجه، ينقل الشيخ عن بشير الدين محمود نبجل القادياني وخليفته قوله: "إن كل مسلم لم يدخل في بيعة المسيح الموعود سواء سمع باسمه أو لم يسمع، كافر وخارج من دائرة الإسلام"، ويؤكد الشيخ أنهم يعاملون المسلمين في باكستان على هذا الأساس فلا يصاهروهم ولا يصلون خلفهم ولا يصلون على أمواتهم، ويعتقدون أن الحج الذي أُدِّي قبل القاديانية حج باطل وهذه كلها نتائج النبوة الجديدة وطبيعتها"³.

هكذا يعري الندوي هذه الدعوة ويكشف عن وجهها الكالح، وكيف تعمل على تمزيق وحدة المسلمين وتقطع أواصر الأخوة الإسلامية وتفتح أبواب الفتن واللبلة الفكرية على المجتمع المسلم. ومن وجوه نقده لعقائد القاديانيين وآرائهم محتجهم في إلزام الأمة بما لم يلزمها به الشرع، وهو جعل المكالمات، والمخاطبات الإلهية شرطا لصحة الديانة، ونتيجة طبيعية للاستقامة، والدين الذي لا يتيح لأتباعه ذلك إنما هو دين باطل وميت، ودين شيطاني يقود إلى جهنم، إن أتباع أي دين إذا لم يتشرفوا بالمخاطبات الإلهية إنما هم في جهل وغواية"⁴.

يرى الندوي أن القادياني باشرطه هذا الشرط قد تجنى جناية أخرى على الدين الذي جعله الله يسرا، فعقده المرزا وحصره في دائرة ضيقة، وكلف بما يصعب الحصول عليه. والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة الآية: 158)، ويقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي

1- الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 134.

2- المصدر نفسه، ص 136.

3- المصدر نفسه، ص 79.

4- ينظر الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 157.

أَلَدِينٍ مِنْ حَرَجٍ ﴿ (الحج، الآية: 78)، ويقول سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة، الآية 286).

يرفض الندوي اعتبار المخاطبات الإلهية شرطا لمعرفة الله والنجاة وعلامة الصدق، ويقرر أن ذلك لا يلائم طبائع، ومواهب أكثر الناس مهما بالغوا في المجاهدات والرياضات، كما أن فريقا آخر قد يوجد لديه الاستعداد الفطري للإلهامات غير أنهم لا يجدون سعة في وقت لهذه المجاهدات، أو توفيقا فيها.

ويؤكد الندوي أن دين الله الذي جاء لفلاح البشرية جميعا خاصتهم وعامتهم يرفض هذا الشرط الصعب للوصول إلى الله والحصول على رضاه، وهو ما لا يقدر عليه إلا العدد الضئيل من الناس ويستدل الشيخ بعدد من الآيات القرآنية التي يرد فيها صفات المفلحين من عباد الله وليس من بينها اشتراط المخاطبات والمكالمات الإلهية¹.

وينبه الشيخ على أن الدين بالعكس من ذلك، حين اعتبر الإيمان بالغيب، والتصديق بما لا يدركه العقل والحواس اعتمادا على الخبر الصادق علامة على التقوى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ الْمَرْءُ ذَلِكَ أَلْكَتَبُ لَا رَبِّ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (البقرة، الآيات: 1-3).

ويحاكم الندوي قراءه إلى المنطق السليم بقوله: "فإن اعترفنا بقول المرزا في جعله الوحي الإلهي شرطا للمعرفة، والنجاة لما بقيت حاجة إلى هذا الإيمان بالغيب، ولكن القرآن يكرر هذا المفهوم في كل حين"².

ثم يحاجج الندوي القاديانيين بشهادة التاريخ، ومقتضاها أن تاريخ الصحابة الكرام محفوظ بين أيدينا، وهم جماعة كبيرة تلقت من التربية النبوية المباشرة ما لم يتشرف به غيرها، ومع ذلك لم يدع أحد أن هذا العدد الكبير من هذه الجماعة المقدسة، وصل إلى درجة الإلهام والمخاطبات فضلا عن غيرهم³.

ثم يوجه الندوي نقدا آخر لهذا الحكم فحواه: ما السبيل إلى اليقين بأن هذه المكالمات والإلهامات وحي من الله وليست صدى لبيئة مدعيها وتتأثر من أهواء نفسه، وبوحي من مفروضات ثقافة عصره؟ فلا دليل قطعي يعزز تلك الكشوفات ويؤكددها، بل إن المطلع على تاريخ الفكر الإنساني

1- على سبيل المثال: صدر سورة المومنون. وأواخر سورة الفرقان.

2- الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 141.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص 141 وأيضا: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 157.

القديم ليقطع يقينا أن من تلك المشاهدات الروحية والمكالمات الإلهية ما كانت صدى للدعوى الفلسفية والعقائد الوثنية القديمة¹.

ثم يحكم الندوي بأن مكالمات المرزا نفسه ليست إلا نتيجة لبيئته وتربيته وهواجس قلبه، وصورة لمجتمع المنحط السافل الذي نشأ فيه وقام بدعوته، كما أن معظم تلك المكالمات ليس مصدرها الوحي الإلهي وإنما هو الحكم السياسي السائد في الهند آنذاك².

وما الخدمات الجليلة التي قدمها المرزا للحكومة الإنجليزية - وقد اعترف بها شخصيا مرات عديدة - إلا أكبر دليل على صحة هذا الكلام.

ومن وجوه نقد الندوي للقاديانية؛ بيانه تحريفاتهم لمعاني النصوص، وإنكار التوارث المعنوي، وتأويل الكلمات الشرعية المتواترة تأويلا لا يقوم على اللغة، والقياس والمنطق، وقد أورد من هذه التأويلات ما يقارب العشرين آية، في كتابه حول القاديانية، ونسبها إلى أمير الجماعة في لاهور³، ثم عقّب عليها بقوله: "ونقتصر على هذه الطرائف التفسيرية التي تدل على عقليته واتجاهه، وعلى فراره من كل ما يطلب الإيمان بالغيب وبالقدرة الإلهية، وعلى التلاعب باللغة ولفظ القرآن، وأن هذا الكتاب بقي لم يفهم منذ نزل، وكان لغزا من الألغاز، وكان أبعد الناس عن فهمه الصحابة والسابقون الأولون الذين نزل بلغتهم. وما هذه التفسيرات المتطرفة إلا نسخة صادقة لتفسيرات الباطنية والإسماعيلية في العهد الماضي"⁴.

هذه بعض الصور التي تناولها الندوي بالنقد لما جاء به القادياني من قضايا، نحسب أنه وفق فيها، وأما اللثام عن وجوه خطورتها، ونصح لأمتة ورسالة نبيه محمد ﷺ.

وبقي نقد أخير يتعلق بدور القاديانية ووظيفتها في فترة تاريخية حرجة مرت بها الأمة وماذا كان عطاؤها فيها؟ وهو ما سنحاول معرفته تاليا.

1- الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 143.

2- المصدر نفسه.

3- هو محمد علي اللاهوري، أمير الجماعة الأحمدية، وهو صاحب ترجمة القرآن للإنجليزية، لم يكن يعتقد نبوة المرزا، وكان يراه مصلحا ومجددا، أبدى الندوي استغرابه من موقفه هذا، مع الإشادة بجهوده. ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء، ص 161، والقادياني القاديانية، (مصدر سابق)، ص 148.

4- المصدر نفسه، ص 159-160 بتصرف يسير. وستكون لنا وقفة مع هذه النقطة في الفصل التالي.

5-2-2: النقد الوظيفي:

إن الحكم الموضوعي على حركة معينة، أو مذهبٍ ما، لا يكون صحيحاً إلا بعد تقييم عطاءاته. فكلما كان مردوده إيجابياً، وذو أثر طيب، تنقلص معه الآثار السيئة، كان أدعى إلى تميمه وقبوله، وكلما كانت الآثار المترتبة عنه خطيرة والنتائج سيئة أدى ذلك إلى إدانته والحكم بقصوره، وهذا عين ما قام به الندوي في محاكمة الحركة القاديانية وإنتاجها.

استعرض الندوي الواقع الديني والخلقي والعلمي للأمة نهاية القرن التاسع عشر ورسم لنا هذا المشهد:

- واقع يعاني أزمات دينية أبرز ملامحها شيوع الشرك السافر، وعبادة القبور والأضرحة، والاستغاثة بغير الله، والبدع الفاشية، وذلك ما يتطلب مصححاً دينياً شجاعاً، يحارب الجاهلية في المجتمع ويدعو إلى التوحيد الخالص والسنة البيضاء.

- أزمة خلقية عنيفة بتأثير الحضارة المادية الجديدة كادت تودي بالمجتمع المسلم إلى التحلل الاجتماعي والتفسخ الأخلاقي، وشاع فيه عبادة المادة والتهالك على الشهوات والخضوع للقوة، والتقليد الأعمى للسلادة الأجانب، وذلك ما يتطلب مصححاً اجتماعياً حكيماً، يسعى بكل جد ليحفظ على الأمة شخصيتها وكرامتها، ويقودها إلى تحقيق رسالتها.

- كما أن من ملامح هذا المشهد، أزمة علمية حقيقية، تمثلت في فشو الأمية والجهل المطبق في أكثر طبقات المجتمع، وفي فجوة واسعة بين طبقتين مثقفتين، تشبعت إحداها بالثقافة العصرية وجاهلت بالإسلام وشريعته ونظمه وتاريخه، وجمدت ثانيتهما على ثقافة تقليدية مقطوعة الصلة بالعصر، فكانت الحاجة ماسة إلى حركة علمية قوية، تعنى بنشر العلم الصحيح وتنقيف الأمة والتقريب بين الطبقتين المتنافستين، وإلى حركة واسعة في التأليف والترجمة والنشر، وإلى إنتاج واسع في الأدب الإسلامي العصري.

- كما كان من حاجات هذا العصر - بل من أعظمها في نظر الندوي - دعوة دينية قوية على منهج النبوة والدعوة الإسلامية الأولى، تجدد الإيمان وتقاوم فتن العصر الجديد ومغريات الحياة الجديدة، وقوى الكفر والمادية الجديدة.

ثم يتساءل الندوي بعد ذلك: ما كان عطاء القادياني في هذه الساعة العصبية والأزمات المتعددة؟ وقبل الإجابة عن هذا التساؤل، يشيد الشيخ بجهود مباركة وإسهامات وافرة لرجال التجديد والإصلاح الذين قاموا بواجبهم، ومثلوا دورهم في مراحل عديدة من تاريخ الإسلام، وفترات لا تقل

خطورة عن هذا العصر، من غير دعوة منهم إلى إسلام جديد، أو نبوة جديدة، أو تكفير لعامة المسلمين، فنفعوا من غير ضرر، وخدموا من غير خطر، ولم يزيدوا الأمة افتراقاً وتشتتاً.

ثم أحاب الندوي عن التساؤل السابق، وأماط اللثام على عطاءات المرزا ونتائج دعوته بقوله: "في هذه الساعة العصبية التي كان فيها العالم الإسلامي في اضطراب عظيم ظهر المرزا غلام أحمد" ووقف في الهند وركز فكره، وكرس علمه وقلمه على موضوع واحد، وعلى قضية واحدة، "رفع المسيح ونزوله"، وصرح أنه أعظم أهدافه، وعلى إلغاء الجهاد، وتنكية الحكومة الإنجليزية، وإطرائها، والدعوة إلى الإخلاص لها، ومكث طول حياته يجول في هذا الموضوع، ويدور حوله، ويبدئ ويعيد فيه، ولو جردت كتبه، ومؤلفاته من هذا البحث لبقيت أوراق معدودة لا قيمة لها¹.

ثم استعرض الندوي نتائج تلك الدعوة وآثارها، فلم تكن سوى زيادة تفریق للأمة التي كانت فريسة الاختلافات والنزاعات الدينية من قبل، وتكفير من لا يؤمن بها. وزادت الفرق الإسلامية الموجودة أصلاً، فرقة تزيد عليهم في الضلال والبعد عن المسلمين، وهكذا كان عطاؤه مشكلة جديدة لا يزال المسلمون منها في تعب وبلاء.

إضافة إلى أن سعيه لم يكن الإصلاح الديني أو العلمي؛ وإنما كان يبني لنفسه مجداً شخصياً، أسس لنفسه وأسرته إمارة روحية أرستقراطية، ونشر الفوضى الفكرية التي لا تزال مصدر اضطراب ولم يكن أبداً همهم نشر الإسلام والدعوة إليه؛ وإنما كانت عنايته مصروفة إلى المسلمين، وإثارة الشكوك فيهم².

ونختم هذا المبحث بعبارة بليغة للعلامة محمد إقبال تلخص -على وجازتها- كل ما ذكر، يقول: "إنه يتحدث عن مقام الأولياء والعظماء؛ وإنما كان مريداً صادقاً للسلطة الإنجليزية؛ إنه يعتقد أن بهاء الإسلام ومجده في حياة العبودية، وأن سعادة المسلمين في أن لا يزالوا محكومين أذلاء، إنه كان يعد حكومة الأجانب رحمة إلهية، لقد رقص الرجل حول الكنيسة ومضى لسبيله"³.

1- الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 166.

2- المصدر نفسه، ص 167.

3- المصدر نفسه، ص 106.

6- جهود الندوي في الرد على الشيعة الإثنا عشرية:

تناول الندوي جملة من عقائد الشيعة وآرائها بالنقد وعلى رأسها عقيدتهم في القرآن الكريم، وموقفهم من الصحابة الكرام، ومغالاتهم في أهل البيت النبوي - عليهم السلام -، ومنها مسألة الإمامة والعصمة وهي ما ستكون موضوع دراستنا، لما لها من صلة مباشرة بهذا المبحث.

6-1: عقيدة الشيعة في الأئمة كما يصورها الندوي:

قدّم الندوي تعريفاً للأئمة عند الشيعة الإثنا عشرية مستخلصاً من كتبهم الموثوقة، أبرز فيه صفاتهم وخصائصهم والامتيازات التي يتمتعون بها.

فهم معيّنون من عند الله نصاً، وهم معصومون كالنبي ﷺ عن كل خطأ أو نسيان، وعن المعاصي ظاهراً وباطناً، وهم طاهرون مطهرون، وإن منزلتهم تساوي منزلة رسول الله ﷺ، وتفوق منزلة الأنبياء الآخرين، فضلاً عن جميع الخلق، تظهر المعجزات على أيديهم، يتمتعون بعلم ما كان وما يكون، علمهم محيط بما يتعلق بالشرعية، لا يتدّ عنه شيء، يحصل لهم تلقائياً بواسطة العلم اللدني، تعرض عليهم أعمال العباد في ليلهم ونهارهم، وإن الملائكة تتردد عليهم ليل نهار، وفي كل ليلة جمعة يكرمون بالمعراج، وينزل عليهم كتاب من الله كل عام، وذلك ليلة القدر، ولهم الخيار في تحليل الأشياء وتحريمها، الموت في سلطتهم، ويملكون الدنيا والآخرة يعطون من شاءوا ما شاءوا¹، وحجة الله لا تقوم على خلقه بدوئهم، ومعرفتهم شرط للإيمان، والمؤمن بهم من أهل الجنة وإن كان ظالماً فاسقاً فاجراً. عددهم إثنا عشر، أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم محمد بن الحسن العسكري الذي تعيّب في سرداب في "سُرّ من رأى" قبل وفاة أبيه بعشرة أيام، وهو الآن على قيد الحياة، وسيبقى حياً إلى يوم القيامة وسيخرج في الوقت المناسب ويحكم العالم كله.

ويضيف الندوي بأن هذه العقيدة الغالية ليست ذات اعتبار في عصر ما قبل العلم والتحقيق، والفكر والدراسة فحسب، ولا قبل الثورة الإسلامية حينما كان الشيعة يعيشون في نطاقهم المحدود فقط؛ وإنما تسلسلت واتصلت في علماء الشيعة وقادتهم إلى هذا العصر؛ فإنها من العقائد الأساسية حتى اليوم.

ولتأكيد هذا الحكم ينقل الندوي عن الخميني في كتابه "الحكومة الإسلامية" بالنص قوله: "فإن للأئمة مقاما محمودا، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيرتها جميع ذرات الكون، وإن

1- هذا تعريف مركب ملتقط من كتب الندوي: صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية، ط3، الدوحة: مطبعة الأهلية، 1978، ص 79. الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج3، ص 170؛ وأيضاً: الندوي، المرتضى في سيرة أمير المؤمنين علي بن طالب عليه السلام، ط3، دمشق: دار القلم، 2012، ص 280.

من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث، فإن الرسول الأعظم والأئمة عليهم السلام كانوا قبل هذا العالم أنوارا فجعلهم الله بعرشه محققين، وجعل لهم من المنزلة، والزلفى ما لا يعلمه إلا الله " ¹.

إن المتأمل في التعريف السابق ذكره لأئمة آل البيت، وملاحظة الخصائص، والامتيازات التي أضافها الشيعة إليهم يلحظ شططا كبيرا وغلوا سافرا لا يوافق عليه غيرهم، وقد كان للندوي ملاحظات جوهرية وصریحة بشأنها، أعرب عنها في مناسبات عدة، نبحت منها ما يتعلق بموضوعنا، وهو الاعتقاد الغالي في الأئمة ووصفهم بالعصمة وتلقي العلم الإلهي كالأنبياء، والتصرف في الأحكام التشريعية، مما يجعل مفهوم خاتمية النبوة لاغيا، ويفتح بابا عريضا للتبديل والتغيير ويعرض الدين للتحريف، وقد أولى الندوي هذه القضية أهمية بالغة وبذل في سبيلها جهدا كبيرا وهو ما سنحاول بيانه.

2-6: دوافع هذه العقيدة كما يراها الندوي:

يرجع الندوي الدوافع التي أدت إلى تبني هذه العقيدة إلى عامل نفسي مدعوم بإجراءات طبيعية ويتمثل هذا العامل في طبيعة تقديس الأسر المالكة والحاكمة، أو الأسر القائمة بالقيادة الروحية والدينية في الماضي، كما هو الشأن في اليونان، وإيران، والهند، والصين. ²

يقول الندوي: "إن عقيدة الإمامة الغالية التي تصل حدودها وأبعادها إلى تقديس السلالات والبيوتات وتألّيها يعكس عليها معتقدات إيران القديمة، فقد كانت السيادة والقيادة الدينية في قبيلة (ميديا) ثم انتقلت إلى قبيلة (المغان)، وكان الفرس يعتقدون في طبقة الكهنوت أنهم ظل الله على الأرض، ولم يخلقوا إلا لخدمة الإله، ولا بد للحاكم أن يكون من هذه القبيلة، فإن ذات الإله تتجسم فيه" ³.

وينقل الندوي شواهد لبعض الدارسين لتاريخ الإسلام من ذلك قول أحمد أمين في "ضحى الإسلام" يقول فيه: "وتشيع قوم من الفرس خاصة، لأنهم مرنوا أيام الحكم الفارسي على تعظيم البيت المالك وتقديسه، وكأن دم الملوك ليس من جنس دم الشعب، فلما دخلوا الإسلام نظروا إلى

1- الخميني، الحكومة الإسلامية، نقلا عن: الندوي، المرتضى في سيرة أمير المؤمنين علي بن طالب عليه السلام، (مصدر سابق)، ص 283.

2- المصدر نفسه، ص 280.

3- المصدر نفسه، ص 283 - 284 بتصرف يسير.

الني نظرة كسروية، ونظروا إلى أهل بيته نظرهم إلى البيت المالك، فإذا مات النبي ﷺ فأحق الناس بالخلافة أهل بيته " ¹.

وبضيف عوامل مساعدة لهذا الدافع تتمثل في إغراءات طبيعية في صالح كثير من الناس منها:

- التخلي عن المسؤولية الفردية والاعتماد على أسرة أو أفراد أو فرد يمثل هذه الأسرة.
- تركيز الثقة والخضوع في أسرة واحدة، أو فرد واحد أيسر بكثير من الخضوع لشريعة تشتمل أحكام كثيرة، أو لعلماء كثيرين.
- إمكان استغلال هذه الأسرة أو الفرد أو تزعم هذه الرئاسة الدينية لتحقيق مآرب شخصية أو جماعية أو سياسية ². ويتغلب هذا المستغل على مشكلات كثيرة ويطوي مسافات بعيدة في وقت قصير وسعي قليل، واستفاد بذلك دهاة السياسيين والمؤسسين للحكومات والأجناد في الماضي، وجاءت عقيدة الإمامة عند الشيعة الاثنا عشرية تحقق هذه الأغراض البعيدة في يسر وسهولة وفي لون ديني وصبغة قدسية " ³.

3-6: مناقشة الندوي لعقيدة الشيعة في الأئمة:

يمكن الجزم بأن مرتكزات المشروع الفكري للندوي يتجلى في تأكيده على مركزية الرسول ﷺ في حياة الأمة، واعتباره مصدر القيادة الوحيد ومركز الهداية والتوجيه، ومحور العلاقات القلبية والانقياد الفكري، وإلحاحه على كونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ومنير سبل السالكين، ونفي كل مشاركة له في النبوة والتشريع، واعتقاد العصمة في أحد غيره، وما دعوته السافرة لتقوية الصلة الروحية والعقلية والعاطفية بالنبي ﷺ والحب العميق له. وإيثاره على النفس والولد التي تطفح بها كتبه ورسائله إلا أبرز شاهد على ذلك. وهنا يتبادر إلى أذهاننا التساؤل التالي: لماذا هذا الإلحاح المستمر والتأكيد المتواصل على هذه القضية؟ ولماذا كل هذا الجهد البياني والنقاش العلمي الذي تشهد به مکتوباته؟ ⁴.

1- أحمد أمين، ضحى الإسلام، (مرجع سابق)، ج 3، ص 209.

2- للتفصيل أكثر في دور الدافع السياسي في ادعاء النبوة ونشوء الفرق والجماعات. ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 143. الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 2، ص 143. الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 167-168.

3- ينظر: الندوي، المرتضي، (مصدر سابق)، 280.

4- تناول الندوي هذه القضية بالدراسة والبحث بدرجات متفاوتة من الإيجاز والتوسع في: الندوي، القادياني والقاديانية، صورتان متضادتان، النبوة والأنبياء، النبي الخاتم والدين الكامل، المرتضي في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ورجال الفكر والدعوة، وغيرها.

والذي يبدو جواباً مقنعاً على هذه التساؤلات هو أن الشيخ الندوي باعتباره دارساً لتاريخ الملل والأديان والشعوب لاحظ أن لتعدد مراكز القيادة في الأمم وخضوعها لسلسلة غير متناهية من الموجهين والمشرعين أثراً على سلامة الدين ووحدة الأمة واجتماع شملها ومدى ارتباط ذلك كله بأهمية عقيدة ختم النبوة¹.

ثم إن اهتمام الندوي بهذا الموضوع ليس من سوانح الأفكار والخواطر، أو الترف الفكري؛ وإنما هو استجابة لتحديات حقيقية واقعية عاصرها الندوي وعاش آثارها ممثلة في الديانة البهائية والحركة القاديانية، وفي المذهب الإمامي الذي تجدد نشاطه وقوي أثره بعد الثورة الإسلامية في إيران، ومدى افتتاح قطاع عريض من الناس برموزه. وفي ضوء هذا التوضيح الذي يضع مساهمة الندوي في سياقها الفكري نبدأ عرض مناقشة الندوي للشريعة الأمامية.

6-3-1- مسوغات عقيدة ختم النبوة في رؤية الندوي:

في إطار خطته الإقناعية بأهمية عقيدة ختم النبوة وآثارها الجلية، يبدأ الندوي محاولته النقدية بإبراز مبررات التمسك بهذه العقيدة، وحشد الأدلة العقلية، والنقلية المثبتة لها. ليسد الباب نهائياً أمام المدّعين، ويحصّن من لم تتعمق دراسته، ويرسخ يقينه بعد من أن يكون ضحية سهلة للطامحين، وهي محاولة يمكن أن نصلح عليها الجهد البنائي، والذي يمكن إيجازه في النقاط التالية:

أ- كمال الدين ووفاءه بحاجات البشر يقتضي ختم النبوة:

شاءت إرادة الله العليم الحكيم تكريم البشرية بدين خاتم خالده، كامل تام في العقائد والشرائع والتعاليم الخلقية الفردية والاجتماعية، حاوياً الأسس الصالحة لبناء مجتمع صالح وحضارة رشيدة. يبلغ فيها الفرد ذروة الكمال، ويحقق أهدافه الصالحة، ويجمع بين خيري الدنيا والآخرة، من غير أن يجد عائقاً يحول دون تحقيق مطالبه الفطرية، أو عجزاً في التشريع يمنع من مسيرة الحياة، وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة، الآية: 3). إن هذا النص الواضح، الصريح في دلالاته يعلن بكل قوة بأن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال، والوفاء بحاجات البشر، والصلاحية للبقاء والاستمرار، ولا يقبل العقل السليم أن يدخل عليه نسخ، أو تغيير أو يحتاج إلى نبي جديد².

ب- عموم الرسالة المحمدية واستغناؤها عن التعديل والتطوير يعني عن كل نبوة جديدة: كانت الرسالات السابقة للإسلام محدودة في شعب، أو مختصة بإقليم، فالديانة اليهودية ديانة مغلقة، ولم

1- ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 141 وما بعدها.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص 119-121.

تفتتح يوماً ما على العالم، ولم يكلف اليهود تبليغ رسالتهم إلى الأمم. ويدل الأسلوب الذي كتب به العهد القديم أنه يدور حولهم، وتندر الإشارة فيه إلى غير سلالتهم.

وكذلك دعوة المسيح -عليه السلام- كانت خاصة ببني إسرائيل، وقد صرح عليه السلام أنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني إسرائيل الضالة، ولما لفت أحد تلامذته نظره إلى أحد من غيرهم قال " إنني لست ذلك الرجل الذي يعطي خبز الأولاد للكلاب "

أما أمر الديانات الشرقية كالبرهية وما شاكلها فأذهى وأمرّ، فقد كانت تعتبر غير الآريين والبراهمة أنجاساً تعاملهم معاملة الكلاب¹.

لقد كانت هذه الرسائل الخاصة والمحدودة تقتضي نبوة جديدة تسعف البشر بين حين وآخر وإقليم وآخر.

كما كانت التعاليم والشرائع لدى هذه الأمم تتطلب تعديلات اقتضاها تغيّر الزمان، والمكان، والأحوال والظروف، إذ كانت تحتاج إلى التسهيل حيناً، وتحليل ما حرمه الغلاة، أو تحريم ما أحله المتوسعون المترفون أحياناً أخرى، قال تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (آل عمران الآية: 50). وبظهور الدين الخاتم انتهى الموجبان لكل نبوة متجددة. أما الموجب الأول فقد انتهى بعموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب جميعاً، واعتبار هذا الدين ثروة مشتركة بين جميع الأمم والأجناس ليس فيه احتكار لطبقة أو جنس، وسبل الترفي فيه متاحة لكل من يدفع ضريبة التضحية والجهاد والاجتهاد. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف، الآية 158)، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سأ، الآية: 28) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان، الآية: 1)

أما الموجب الثاني المتعلق بالحاجة إلى التغيير والتسهيل، أو التحليل والتحريم، فقد صرح القرآن بأن هذه الشريعة سهلة سمحة، توافق الفطرة المستقيمة، والعقول السليمة في كل زمان ومكان ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة، الآية: 185). ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج، الآية: 78)، وأعلن أن كل ما كان يرهق العباد ويكدر عليهم

1- ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 121 - 123.

صفو حياتهم ويجعل الدين عبئا ثقيلا قد جاءت النبوة الخاتمة الأخيرة فأزالته وألغته، قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف، الآية: 157).

وبالتالي فإن المنطق السليم يتعاقد مع نصوص الوحي ويقضيان ختم النبوة والأنبياء بمحمد ﷺ وعدم الحاجة لنبوة مستأنفة.

ج- حيوية الدين وقوة إنتاجه للعارفين وأصحاب اليقين والمصلحين، ضمان لصيانة الدين من التحريف، ويغني عن كل نبوة جديدة.

إن من شعب النبوة في كل عصر وحين، تزكية النفس البشرية وتطهيرها، وتحليلتها بالأخلاق الفاضلة، والوصول بها إلى مراتب اليقين وأعلى درجات القرب والوصول، من أجل ذلك كانت تترادف النبوات، كلما خبا أوار نبوة، توقدت أخرى، إلى أن أكرم الله البشرية بهذا النبي الخاتم على فترة من الرسل، فكانت شخصيته أقوى شخصيات الرسل، وكانت صحبته هي الإكسير الأعظم الذي يحوّل العداء الشديد حبا وتفانيا، والبعد عن الله والوحشة منه قريبا منه وأنسا به، وكانوا يُنقلون في لحظات من الشك في الدين والظن والتخمين إلى أعلى درجات الإيمان واليقين، وكان وجوده ﷺ في أمته أقوى سبب للاتصال بالله، وقطع منازل القرب والولاية، وكذلك أكرمها بهذا الدين الزاخر بالحياة والقوة والجدّة، المتكفل بجميع السعادات الدنيوية والأخروية والذي يبلغ الإنسان بالعمل به في جد وعزم وإخلاص ما قدر له من درجات القرب والسمو والكمال، والوصول إلى درجات ليس فوقها إلا النبوة.

ويبين الندوي دُرَج هذا المعراج الذي يستغني به المسلم عن نبوة جديدة، وهو كفيل بإذن الله بإسعاف كل متوجه صادق يقول: " وحسبنا الكتاب المعجز الخالد الذي يتدفق بالحياة والقوة، والصلاة التي تزخر بالقوة والحيوية كذلك، ولها من الفضل والتأثير في ربط الصلة بالله والوصول إليه، وقطع منازل القرب والولاية ما ليس لشيء آخر في الدين، وبهما وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة في كل عصر وجيل إلى مكانة في الإيمان واليقين، والعلم والمعرفة والريانية والروحانية والقرب والولاية لا يصل إليها ذكاء الأذكياء وقياس العقلاء والحكماء، ولا يزالان يفيضان النمو والحياة والروحانية الصافية في نفوس هذه الأمة وأجيالها، وتستغني بهما عن نبوة جديدة وبعثة جديدة " ¹.

كما أن هذا الدين الخاتم ينطوي على قوة حافزة على الثورة على كل ما يخالفه وينحرف به عن الجادة، باعثة على تحدي ومحاربة قوى الشر والريزية، والدعاة إلى الإفساد والإلحاد والإنكار على

1- الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق)، ص 147-148 بتصرف يسير.

البدع والخرافات والفتن والضلالات مهما كلف ذلك من حسارة، وظل ينشئ في كل ناحية من نواحي العالم، وفي فترة من فترات التاريخ من يحمل راية الجهاد والتجديد ويقود حركة الإصلاح والدعوة. وتاريخ التجديد والإصلاح متصل الحلقات لا ترى فيه ثغرة، يتعاقب فيه العلماء المصلحون والربانيون المخلصون الذين ينفخون روحاً جديدة في الأمة وينفون عن الدين انتحال المبطلين وتحريف الغالين وتأويل الجاهلين، ويغنون عن كل نبوة جديدة وقد بشر النبي ﷺ بأن الله يقيض لهذه الأمة كل قرن من يقوي صلتها بهذا الدين فقال: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها "1.

د- حفظ القرآن من التحريف ووفائه بحاجات البشرية ينفي كل حاجة إلى نبوة جديدة:

استعرض الندوي تاريخ الصحف السماوية ومصداقيتها في ميزان العلم والتاريخ، وبيّن كيف تعرضت للتحريف والتبديل، وقدم على ذلك أدلة تاريخية وشهادات لنقاد الكتب المقدسة، ثم قام بمقابلة تلك الصحف بالقرآن الكريم ليبين أن شأنه يختلف كل الاختلاف عن جميع الكتب، وبيّن أن الله تعالى تكفل بحفظه وسلامته من كل تحريف وتبديل وزيادة ونقص فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ (فصلت، الآيتان: 41-42).

وكذلك تكفل بسلامته من ضياع نصه، ومحوه من الذاكرة وارتفاعه من الصدور، كما وقع لغيره قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ (الحجر، الآية: 9). وهي كفالة بحفظه وبقائه وانتشاره، ومدارسته إلى آخر ما في كلمة "حفظ" من المعاني.

ثم عرض جانبا من اهتمام المسلمين وتعلق قلوبهم به ومدى رعايتهم له عبر التاريخ، وكيف تم تدوينه ونسخه في عهد الصحابة باحترافية عالية، لم يلحقها أي كتاب على وجه الأرض، وساق من شهادات المستشرقين وعلماء الغرب المحققين - مع كونهم لا يؤمنون أنه وحي من الله - ما يشهد على صحة نقله وانتهائه بنصه إلى سيدنا محمد ﷺ².

1- رواه أبو داود. في السنن، كتاب الملاحم، رقم الحديث 4291، من حديث ابن وهب، تح: شعيب الأرنؤوط، ط. بيروت: دار الرسالة العالمية 2009م، ج6، ص349، والحديث صححه السخاوي ينظر: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ورقم الحديث 238، تح: محمد عثمان الخشت، ط1. بيروت: دار الكتاب اللبناني 1985م، ص203.

2- ينظر: الندوي، المدخل إلى الدراسات القرآنية، ص 135-138. وينظر: الندوي، النبوة والأنبياء، ص 131-134.

ليقرر في الأخير النتيجة المنطقية لذلك كله بقوله: " إذن لم تعد حاجة إلى نبوة جديدة، تزيل الالتباس، وتميز بين الحق والباطل، وتبين كذب المفتري، ولا إلى صحيفة تحمل محل هذه الصحيفة المنسوخة التي عبثت بها الأيدي، واعتدى عليها المعتدون"¹.

هـ- حفظ سيرة النبي ﷺ وفيها القدوة الدائمة للأجيال تغني عن كل هداية جديدة:

لما كان رسول الله ﷺ هو القدوة الصالحة للبشر جميعا على اختلاف الزمان والمكان، اتجهت عناية الله إلى حفظ أخباره وصفاته وأخلاقه، ووجه الله القلوب إلى تقصي كل تفاصيل حياته والاعتناء بها وتوثيقها، وقد تجلت هذه العناية في المكتبة الكبيرة التي ألفت في حديثه وسيرته وشأئله ودقائق أموره وأحواله كما لم تحظ به أي شخصية أخرى في العالم.

إن هذا العمل الضخم لم يكن مجرد مصادفة ولا وليد عمل شخصي ورغبة ذاتية؛ إنما هو تقدير العزيز العليم ليتحقق العمل في كل عصر وجيل بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: الآية: 21)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران، الآية: 31)، وحتى لا يكون لمثل هذا بانقراض الآثار وانقطاع الأخبار عذر في ترك الإلتساء والاعتداء.

وهكذا تظهر حكمة الله تعالى في حفظ سيرة نبيه، وخلودها حتى تكون في متناول المقتدين في كل حين، خلافا لسير غيره من الأنبياء والمرسلين الذين كانت نبوتهم محدودة في فترة زمنية خاصة. وهذا مؤشر قوي يدل على خلود هذه الشخصية، وبقيتها ملهمة دائما وأبدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كما أن ما ورد في القرآن من كريم صفاته، وما ورد في تكريم الله له، وما فرض من آداب وأحكام في التعامل معه، كل ذلك يدل بدلالة العقل وسلامة الذوق أنها نعوت نبي قد بعث للأجيال كلها وللعصور كلها، وأن شمس رسالته لا تقبل الكسوف، وأن نجمه لا يقبل الأفول، ولا شك أن بعثة نبي - ولو لم يأت بشريعة جديدة - تتنافى مع الحكمة الإلهية في هذا الثناء العاطر، والوصف البالغ لسيدنا محمد ﷺ وربط الأمة ربطا وثيقا بهذا النبي الكريم وتعاليمه وأسرته، وأصحابه وأهل بيته، ولا شك أن النبي الذي يبعث بعده أو يدعي النبوة يحول بين الأمة ونبينا الأول، أراد ذلك أو لم يرد، ويضعف صلتها به ﷺ شعر بذلك أم لا يشعر، وتلك طبيعة الأشياء وخاصة الفطرة البشرية"².

1- الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 134.

2- المصدر نفسه، ص 118-119.

وكثيراً ما كان الندوي - رحمه الله - يردد كلمة حكيمة للعلامة محمد إقبال ويشيد بدقة نظره. يقول إقبال: "إننا نعتقد أن الإسلام دين أوحى الله تعالى به، ولكن وجود الإسلام كمجتمع وأمة يتوقف على شخصية سيدنا محمد ﷺ واعتقاد أنه آخر الرسل وخاتم النبيين، وهو خط التحديد الدقيق بين الدين الإسلامي والديانات الأخرى"¹.

إن هذه المسوغات التي قدمها الندوي تقوم كأساس نظري صلب يتخذ مقدمة لنفي أي مبرر لنبوة جديدة بعد سيدنا محمد ﷺ أرادها حصناً للجيل المسلم المعاصر كي لا يكون فريسة سهلة للأدعياء.

6-3-2: بيان الآثار السلبية لاعتقاد استمرار النبوة:

ذكرنا سابقاً أن خطة الندوي في الدفاع عن خاتمية النبوة تركزت على أساسين:

الأول منهما اصطلاحاً عليه "الجهد البنائي" وقدم فيه مسوغات خمسة، يمكن اعتبارها مقدمة نظرية صالحة للإقناع بحتم النبوة لمن توفر له سلامة القصد وحالفه التوفيق الإلهي.

أما الأساس الثاني فيتمثل في كشفه عن الآثار الخطيرة التي تقع للأمة والمدنية جراء الاعتقاد الخاص في الأئمة - عليهم السلام - الذي ينسف عقيدة ختم النبوة، ويمكن أن نصلح على هذا العمل "الجهد الهدمي" وهو ما سنحاول إبراز أهم معالمه بإذن الله وتوفيقه.

- عقيدة ختم النبوة صيانة للدين من التحريف، وادعاء استمرارها فتح لباب البلبلة الفكرية والاضطرابات العقائدية:

إن اعتقاد وحدة النبي ﷺ وخاتمته، وحفظ الكتاب الذي جاء به، تصون الدين وتحفظه، وتنفي عنه كل ما يمكن أن يعكر صفاءه، لذلك سجل الندوي ملاحظات قوية على الشيعة الإمامية، خاصة بعد تجدد نشاطها بفعل الثورة الإسلامية في إيران وشتى معتقداتها وافتتان البعض بها.

ويمكن تركيز الملاحظات المتعلقة بهذه الناحية في الآتي:

● الغلو الزائد في الأئمة وإضفاء صفات ووظائف الربوبية، ومشاركة الألوهية²، إن ما يعتقدده الشيعة في الأئمة من صفات علمية وقدرات تكوينية، تخضع لها ذرات الوجود تناقض التوحيد العلمي الذي جاء به الإسلام، كما أنها تناقض التوحيد العملي وذلك بتوجيه عاطفة العبودية والإنابة والتقديس والتمجيد إلى غير الله، وهو ما حذر منه النبي ﷺ ويتجلى ذلك بوضوح في مشاهد الأئمة التي تنافس

1- الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 160-161.

2- ينظر: الندوي، صورتان متضادتان (مصدر سابق)، ص 80-83، والندوي، أسمعيات، إعداد: عبد الماجد الغوري، ط 1، دمشق: دار ابن كثير، 2002، ص 61 وما بعدها.

المساجد وتتفوق عليها¹. وكمثال واقعي آخر سرد الندوي جملة من صور التقديس الذي يتخطى حدود الشريعة ويتجلى فيه الخضوع الزائد للخميني نتيجة الهالة القدسية التي صنعتها عقيدة الإمامة الغالية واعتقاد العصمة والقداسة التي تسمو على البشرية، ثم قابلها بما استفاض واشتهر مما كان عليه رسول الله ﷺ من التواضع والعبودية، وكرهية التميز، والمبالغة في المدح والإطراء، ثم قال: "وكان هذا الفارق الكبير نتيجة العقائد التي يدين بها الجيل الإسلامي الأول وبالعكس مما يدين به الجيل الإيراني الذي نشأ في ظلال عقيدة الإمامة والعصمة، والتقديس لقادته الدينيين والأئمة المعصومين، ولا تزال فيه رواسب الطبيعة الإيرانية القديمة الغالية المتطرفة والجاهلية الزرادشتية الفارسية"².

● تعريض أحكام الدين وأركانه كالصلاة والصيام والحج للتعطيل والتصرف من قبل الإمام أو نائبه إذا رأى ذلك في مصلحة الحكومة³.

● ادعاء تحريف القرآن بالزيادة والنقص وثبوت التلاعب فيه وهو الكتاب الخالد الذي تعهد الله بحفظه. وأحال الندوي على جملة من المصادر الشيعية المعتبرة التي أكدت ذلك⁴.

- خطورة ادعاء النبوة على الوحدة الدينية وإحداث البلبلة الفكرية والصراع المذهبي:

إن ادعاء النبوة كان دائماً فاتحة اضطراب ديني يؤول إلى تفريق المسلمين وتمزيق وحدتهم، ويتوزع المجتمع الإسلامي بين جبهات مختلفة وتقع الأمة التي جاءت لحو كل عصبية وإنشاء الأخوة الإسلامية فريسة التفريق والتكفير والعصبية الدينية⁵.

- جناية عقيدة استمرار النبوة (أو الإمام المنتظر) على الشعور بالمسؤولية، وقوة مقاومة

الفساد:

يرى الندوي أن اتصال سلسلة المصلحين والمجددين يرجع إلى اعتبار الأمة -وخاصة العلماء- نفسها مسؤولة عن إقامة الحق والعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الدين الخالص دون التطلع إلى مصلح غيبي، ويعلل الندوي سر تمسك الأمم والطوائف المسلمة وغير المسلمة - التي تمسكت بمثل هذه العقائد، ولم تعتبر نفسها مسؤولة ولا مكلفة بمحاربة الباطل وقوى الشر، وعاشت في عالم الخيال والأمان والأحلام قروناً طويلة، واستسلمت للأوضاع الفاسدة،

1- ينظر: الندوي، أسمعيات، (مصدر سابق)، ص 62-63، الندوي، من نهر كابل إلى نهر اليرموك، (مصدر سابق)، ص 85-88.

2- الندوي، المرتضى، (مصدر سابق)، ص 289.

3- المصدر نفسه، ص 285.

4- ينظر: الندوي، صورتان متضادتان، (مصدر سابق)، ص 75-78.

5- ينظر: الندوي، القادياني والقاديانية (مصدر سابق)، ص 136، لندوي، النبوة والأنبياء (مصدر سابق)، ص 160.

وأخلدت إلى الدعة والتواكل - يعلل ذلك باعتماد هذه الطائفة أو تلك على شخصية غامضة مقدسة، لديها من علوم الأسرار، والصلة الخاصة بالله ما ليس لغيرها، ستفاجئ العالم بظهورها في وقت مناسب، وتقلب الأوضاع، وخير مثال لهذا الاعتقاد والاعتماد، ما يعتقد به الشيعة الإمامية في الإمام الغائب كما يرى الندوي¹.

- إضعاف ثقة الإنسان بنفسه:

تغرس عقيدة ختم النبوة ثقة الإنسان بنفسه وتغرس فيها الطموح والرقى، ذلك ما يحفز على التقدم في مضمار العلم والمدنية ويعتمد على قدراته الخاصة ومواهبه التي أكرمها الله بها في البحث والتجربة.

أما بقاء الإنسان متطلعا إلى قوة غيبية يعول عليها في الرقي بواقعه وإصلاحه، فلا يؤدي إلا لتعطيل القوى والطاقات المودعة في الجليل البشري وضمورها، والقعود عن كل نقد حر وتفكير بناء، وإهدار لنعمة الذكاء الإنساني والشجاعة في الشعوب.²

- إضعاف الصلة بالرسول ﷺ:

إن الرسول ﷺ هو شمس الله الساطعة على العالمين، ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب، الآية: 45)، وهو رحمته العامة، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، الآية: 107)، وهو القدوة الكاملة، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب، الآية: 21) وقد جاء وصفه في الكتاب العزيز بصفات لا يرقى إليها مخلوق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُثْ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ أَوْفَى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَظِيمًا﴾ (الفتح، الآية: 10)، أوجب الله طاعته فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء، الآية: 80) وفرض تعظيمه وتوقيره بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفتح، الآيتان: 8 - 9)، لذلك تفانى الصحابة في محبته حبا خالصا عميقا، يفوق كل حب للمال والنفس والأهل والولد، وتسلسل هذه الحب في الأمة، وظهر في التفاني بخدمة

1- الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص151. الندوي، القادياني والقاديانية (مصدر سابق)، ص130.

2- ينظر: الندوي، المرتضي، (مصدر سابق)، ص 284، الندوي، النبوة والأنبياء (مصدر سابق)، ص153. الندوي،

محاضرات في الفكر والدعوة في الإسلام، (مصدر سابق) ج1، ص 546.

حديثه، ونصرة ملته، والحذب على أمته، كما ظهر في كثرة الصلاة والسلام عليه، وفي روائع قصائد المديح التي جادت بها قرائح المحبين في كل العصور ولا تزال. ولا شك أن ظهور نبي بعده أو مدّح للنبوّة يحول بين الأمة ونبئها ويُضعف صلتها به، وقد لاحظ الندوي أن عقيدة الشيعة في الأئمة أثرت على صلة هذه الطائفة بالنبي ﷺ مما حوّل تيار الحب والعاطفة والحماس، والاندفاع إلى الأئمة الإثني عشر، وقد تجلّى ذلك في مجال التأليف والتصنيف والأدب والشعر، وشد الرحال إلى المشاهد والهيام بها، وأصبح الولاء للأئمة والحب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابنه الحسين هو شعار هذه الطائفة ودثارها قد ملأ كل فراغ في العقيدة والعاطفة والحماس¹.

ضمّن الندوي هذا المعنى في رسالة وجهها إلى الإمامية بعنوان "اسمعي يا إيران"، ودعاهم إلى التفكير من جديد في هذه المسألة وذكرهم بأن أئمة أهل البيت كانوا خلفاء الرسول ﷺ في الدعوة إلى التوحيد والدين الخالص وكانوا أشدّ غيرة على هذا الدين الذي جاء به جدهم وسيدهم ﷺ، ولا بد للتقريب بين أهل السنة والشيعة من توجيه تيار المحبة والتعظيم إلى النبي ﷺ الذي هو ملتقى كل المسلمين.

- الطعن في نتائج جهود النبي ﷺ التربوية:

أكد الندوي في مواضع عدة من كتبه على هذه القضية وجعل لها قيمة علمية وأهمية دعوية واعتبرها نقداً منهجياً موضوعياً لرؤية الشيعة في الصحابة، وأمّهات المؤمنين، واعتبرها خطوة أساسية في طريق التقريب بين أهل السنة والشيعة.

يقرر الندوي أن العقلاء في كل زمن اعتادوا مقياسه صدق الدعوة، وفضل تعاليمها، وقوة تأثير صاحبها بكثرة ما تفرزه تلك الدعوة من نماذج رائعة، وأمثلة كاملة، وهذا هو مقياس المعلمين والمرتبين وحذاق الصناعات، فكلما كان إنتاجهم كثيراً ونجاحهم كبيراً، اعترّف لهم بالإمامة والتفوق؛ وأما إن كان إنتاجهم ضئيلاً، ونجاحهم قليلاً، أو ضاعت جهودهم في تلاميذهم، اعتبر هؤلاء الأساتذة مخفقين في مهمتهم فاشلين في تربيتهم.

ويطبق الندوي هذا المقياس على نتائج جهود النبي ﷺ التربوية؛ وهم أصحابه الكرام وأزواجه، ويستعرض الندوي جانباً مهماً من سيرتهم وأخلاقهم وعباداتهم وجهادهم، ويذكر بالروايات

1- للتوسع في هذه المسألة ينظر: الندوي، النبوة والأنبياء (مصدر سابق)، ص 118-119، الندوي، صورتان متضادتان (مصدر سابق)، ص 84-87، الندوي، أسمعيات، (مصدر سابق)، ص 65-66. أيضاً: الندوي، من نهر كابل إلى نهر اليرموك، (مصدر سابق)، 89-91.

المعتمدة، وينقل شهادات حتى غير المسلمين من الدارسين المنصفين، ليثبت نجاح الدعوة المحمدية، وكثرة عطائها وجودته وقيمتها¹.

ثم يقابل هذا الموقف بموقف الشيعة الإمامية التي تنظر إلى القضية نظرة معاكسة تماما، تخدم الجهود التي قام بها النبي ﷺ في مجال التربية والتوجيه، وتثبت له إخفاقا وفشلا لم يواجهه مصلح ومرّب مأمور من الله ومؤيد من السماء، بل هي تهمة للنبي الله عليه السلام².

إنها تقدم صورة كالحة لهذا الجيل الذي لم تثمر فيه التربية النبوية إلا جحودا للنعمة، وجفاء وغدرا، وعبادة للنفس وحبا للجاه، والدخول في كل مؤامرة، والتحريف للمقدسات. ولم تثمر المدرسة النبوية ومجهوداتها الجبارة طيلة ثلاثة وعشرين سنة إلا أشخاصا قليلين، لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، هم فقط من ظلوا متمسكين بالإسلام بعد وفاة النبي ﷺ وأما الباقون فقط قطعوا صلّتهم بدينهم ونبيهم³.

يؤكد الندوي أن الشيعة قد اتخذت هذه النظرة القائمة شعارا لها منذ مؤسسها الأول إلى الإمام الخميني، ثم بيّن خطورة هذه النظرة على الدعوة إلى الإسلام ولفت إلى أنها تقف حاجزا سميكا دونها وتكون حجة بيد المنكرين لهذا الدين⁴.

- الاعتقاد الغالي في الأئمة ووكلائهم يصنع المستبدين:

إن اعتبار الإمامة ولاية إلهية مطلقة، وإضفاء هالة من القداسة على منصبها، تسمح لمن يتمتع بها التحكم في مصير أمة بأسرها أو بلاد بأسرها، وربما توريطها في كارثة لا خلاص لها منها، ويرى الندوي أن ذلك ينطبق على الشعب الإيراني، ويتجلى فيه بوضوح الطاعة العمياء والخضوع الزائد لآية الله الخميني الذي قاد إيران إلى حرب مع العراق جرت على البلدين خسارة عظيمة⁵.

- إنتاج طبقة من العاطلين الذين يستغلون الثروات:

يرى الندوي أن تمييز أسرة بالحكم واحتكارها للقيادة الدينية الروحية والسياسية قد جر على الشعوب شقاء كبيرا، من صوره الاستغلال الفظيع لموارد البلاد وثرواتها، يقول الندوي: "وعلاوة على ذلك تنشأ طبقة من العاطلين والبطالين الذين يعيشون على عطايا الشعب، ويستغنون عن كد اليمين

1- بسط الندوي القول في هذه المسألة في: صورتان متضادتان، (مصدر سابق)، من ص12 إلى ص54، وهو ما يعد مؤشرا على اهتمامه البالغ بالموضوع، بل هو المقصد الأصلي لتأليف الكتاب.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص59.

3- المصدر نفسه، من ص54-57.

4- ينظر: الندوي، من نهر كابل إلى نهر اليرموك، (مصدر سابق)، ص92 وما بعدها.

5- ينظر: الندوي، المرتضى، (مصدر سابق)، ص285-287.

وعرق الجبين، وتنتشر البطالة والكسل، والإخلاق إلى الراحة في الطبقات العلمية والدينية، نتيجة ارتكاز المنصب الكهنوتي أو البابوي أو الإمامي، في أسر وعوائل خاصة، وتداس حقوق طبقات كادحة من الفلاحين والصناع والتجار ورجال الحرب بالأقدام، وتنشأ طبقة لا تحرك في سبيل كسب المعيشة لها ولعيالها ساكنا، ولا تريق قطرة من عرق، وترفه وتبذخ على حساب الطبقات الكادحة والعاملة¹.

وأخيرا وكخلاصة لهذا المبحث نختتم بهذه السطور التي جمع فيها الندوي ما تبدد في هذا المبحث من أفكار وهي آخر ما دجّته يمينه في كتابه الأثير لديه " النبوة والأنبياء " يقول: " والحاصل أن عقيدة انتهاء سلسلة النبوءات، وتعليم البشر العقائد والشرائع عن طريق الوحي والملائكة والروح الأمين، وما تتوقف عليه نجاتهم في الآخرة، على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب العربي الهاشمي القرشي - عليه ألف ألف صلاة وسلام - وانقطاع النبوة والأنبياء بعده، وكونه خاتم الرسل، وموضح السبل، وإمام الكل، من أجل مواهب الله تعالى ونعمه على هذه الأمة، ورحمة بالإنسانية الممزقة وترقية لها، وتوفير لجهودها وطاقتها، من أن تضع في غير سدى، وفيما لم تكلفه، وجامعة لشمّل هذه الأمة المحمدية، حافظة لوحدها وأصالتها وقوتها، باعثة لثقتها بنفسها، وصلاحية دينها وخلوده، واعتبارها نفسها مسؤولة عن اتجاه العالم وموقفه ومصيره، حافزة على الإصلاح والتجديد، والجهد في سبيل الله في كل زمان ومكان، وهو الأساس المتين الذي يقوم عليه البناء الإسلامي، كمجتمع وأمة، ورسالة خالدة"².

1- ينظر: الندوي، المرئضي، (مصدر سابق)، ص 289.

2- الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 162.



المبحث الخامس:

صيانة المفاهيم الدينية من التحريف



تمهيد:

تشكل المفاهيم عنصراً أساسياً في تأليف وبناء أي حقل معرفي، والمعرفة الدينية هي أحد الحقول المعرفية المكونة للنسق المعرفي العام لأي حضارة، ومن ثم فالمفاهيم الدينية هي اللبنة الرئيسية في تكوين المعرفة الدينية، وأي خلل أو تحريف فيها يصيب هذه المعرفة بالعطب وتنجر عنه آثار وخيمة عند أصحاب هذه المعرفة.

فما هي مدلولات هذه المفاهيم؟ وهل هناك ضرورة معرفية لتوضيحها؟ وهل يصيبها تحريف في المعنى كغيرها من المفاهيم؟ وكيف السبيل لصيانتها من ذلك؟

1- معنى المفهوم:

1-1 لغة: المفهوم اسم مفعول من فهم، ويدور في المعاجم اللغوية حول المعاني الآتية: "المعرفة، العقل، العلم" جاء في لسان العرب لابن منظور: "

1-2 الفهم: معرفتك الشيء بالقلب، فهمه فهما وفهامه: علمه، الأخيرة عن سيبويه، فهمت الشيء عقلته وعرفته..."¹

وفي مقاييس اللغة لابن فارس: "الفاء والهاء والميم علم الشيء كذا يقولون أهل اللغة...."² وفي القاموس المحيط للفيروز أبادي: "فهمه كفرح فهما: علمه، عرفه بالقلب"³

1-3 - اصطلاحاً:

إن المفهوم بمعناه المنطقي هو مجموع الصفات أو الخصائص الموضحة لمعنى كلي⁴ فمفهوم الإنسان مثلاً بالمعنى الأرسطي مؤداه أنه كائن ناطق، وما صدقاته هي: أحمد، علي، عمر... وسائر أفراد الناس. والمفهوم كما يعرفه صلاح إسماعيل متحدثاً عنه بصيغة الجمع (المفاهيم) هو: "المعاني العقلية الكلية أو الأفكار العامة المجردة، وأبرز الأمثلة لها هي: الحرية والعدالة والمساواة والحق والخير والجمال"⁵. والمفاهيم عنده أيضاً قد تكون محددة الدلالة إلى حد كبير وهي مفاهيم العقيدة مثل: التوحيد، النبوة، الإيمان، الشرك...

1- ابن منظور، لسان العرب، ط3. بيروت: دار صادر، 1414هـ، ج12، ص459.

2- ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ط. دمشق: دار الفكر، 1979، ج4، ص457.

3- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث، ط3. دمشق: مؤسسة الرسالة، 2009، ص1146.

4- إشراف إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، ط. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية مصر، 1983 م، ص189.

5- صلاح إسماعيل، دراسة المفاهيم من زاوية فلسفية، مقال منشور في مجلة إسلامية المعرفة، ماليزيا، العدد: 8، أبريل 1997، ص11.

2- بنية المفاهيم:

تتألف بنية أي مفهوم من مجموعة من العناصر المكونة له، ولا تتساوى هذه العناصر من حيث الأهمية والبناء، فهناك عناصر أساسية وأخرى مكملتها. ويمكن توضيح ذلك بالإفادة من فكرة تصنيف أنواع المعنى في علم الدلالة، إذ ميز علماء الدلالة بين المعنى الأساس والمعنى الإضافي، فالمعنى الأساس أو المركزي هو الذي يمثل العامل الرئيس في الاتصال اللغوي، والمعبر الحقيقي عن أهم وظائف اللغة وهي التواصل ونقل الأفكار¹

أما المعنى الإضافي فهو: "المعنى الذي يملكه اللفظ عن طريق ما يشير إليه إلى جانب معناه التصوري الخالص"².

وهذا المعنى زائد على المعنى الأساسي، ويتغير بتغير الثقافة أو الزمن أو الخبرة.

ولإبراز أهمية هذا التحليل لبنية المفهوم نأخذ مثالا على ذلك:

الصلاة: هيئة عبادة خاصة، فيها قيام وركوع وسجود وقراءة وتسليم، وهي صلة عميقة فريدة بين العبد والرب³ (معنى أساسي مركزي).

الصلاة: وسيلة، ذريعة، تدريب، تمرين...⁴ (معاني إضافية فرعية) فبمجرد إطلاق لفظ الصلاة يتبادر للذهن المعنى الأصلي لها. لكن لدى من أرادوا تكريس المعاني الفرعية بنقلها إلى المركز وتهميش الدلالة الأصلية لها جعلوا للصلاة مفهوم الوسيلة والذريعة، وهمشوا الدلالة الأصلية؛ فبتحليل بنية مفهوم الصلاة إلى دلالاته الأصلية منها والفرعية يتوضح المفهوم، ويدرك الإدراك الدقيق والصحيح، ويجتنب اللبس ويتفادى الخلاف.

3- توضيح المفاهيم ضرورة معرفية:

إذا كان لتحليل بنية المفهوم تلك الأهمية وذاك الأثر- كما أسلفنا- فإن لتوضيح المفهوم ضرورة معرفية ومنهجية؛ إذ يكشف عما تتعرض له المفاهيم في حالة تخلف الأمة حضاريا وظهور الصراع بين الحضارات وممارسة الغزو الثقافي للأمم الغالبة على الأمم المغلوبة، يكشف توضيح المفاهيم عن التبادل في المراكز بين ما هو أساس فيها (المفاهيم) وما هو فرعي، هذا التبادل اصطلاح عليه " الحراك

1- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط: 6، 2006، ص 36.

2- المرجع نفسه، ص 37.

3- أبو الحسن الندوي، التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب، ط 2. القاهرة: دار آفاق الغد، 1980، ص 35. و الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق)، ص 15.

4- المصدر نفسه، ص 104.

المفهومي" يقول فيه صلاح إسماعيل: "مؤداه أن بعض المفاهيم تتبادل المراكز فيما بينها بحيث يصبح الفرعي مفهوما أصليا يحتل مركز الاهتمام، ويحدث ذلك بقصد في أحيان كثيرة، ويكون نتيجة من النتائج المترتبة عن الغزو الثقافي...."¹

إلى جانب ظاهرة "الحراك المفهومي" التي تكشف عنها عملية توضيح المفاهيم، تكشف هذه الأخيرة أيضا عن ظاهرة أشد خطرا هي ظاهرة "الاحتلال المفهومي" التي تبدأ بتشويه دلالات المفاهيم الأصلية، ثم تفرغ شيئا فشيئا من محتواها، ثم يعاد ملء المفهوم بالدلالات المرادة"².

ولتوضيح هذه الظاهرة نأخذ الأمثلة الآتية: هناك من يفسر لفظة الطير في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنزَلْتُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ يَكْتُمُ السِّرَّ الَّذِي أُتِيَ بِهِ﴾ (سورة آل عمران، الآية: 49) على طريق الاستعارة بأنهم رجال يستطيعون أن يرتفعوا من الأرض وما يتصل بها من أشياء وأخلاق، ويطيروا إلى الله؛ فإن الإنسان يستطيع بنفخ النبي ﷺ أن يتجرد من الأفكار البشرية السافلة ويخلق في عالم الروح³.

فانظر ما بين دلالة مفهوم الطير الأصلي ودلالته المفسر بها أعلاه من تباعد وتناهي فما الذي يجمع بين الطير ككائن حي ينتمي إلى نوع محدد من الحيوانات التي لها جناحان، ورجال ككائنات حية عاقلة لا تطير. وإنما الذي يفسر على هذا النحو، أراد تشويه الدلالة الأصلية، وتفريغها من محتواها، ثم ملء المفهوم بالدلالات المقصودة والمرادة من قبله لغاية مبيته، (الابتعاد عن التصديق بالغيبيات والمعجزات).

ولزيادة توضيح معنى الاحتلال المفهومي نأخذ مثلا من أمثلة المفاهيم المستعملة لدى بعض الحدائين العرب وعلى رأسهم محمد أركون، الذي يحاول زحزحة المفاهيم عن دالاتها الأصلية ليحل مكانها دلالات أخرى تخدم غرضه وغايته من زعزعة اليقين والقناعة لدى المسلمين بدليل قوله: "كل تغيير يطرأ على الإشكاليات التقليدية أو مقارنة جديدة للمشاكل المطروحة، تحل محل المقاربات السابقة، وتلغيها أو تزحزحها عن مكانها"⁴.

فيأخذ مثلا مصطلح الوحي ويميز فيه بين مستويين: مستوى الكلام الإلهي الأزلي اللانهائي المحفوظ في أم الكتاب، ومستوى الوحي المنزل على الأرض المتجلي والمرئي والمعبر عنه لغويا فيقول: "إن المبادئ السابقة التي عدّناها تعني ضمينا وجود تعايش بين مستويين من مستويات الوحي،

1- صلاح إسماعيل، دراسة المفاهيم من زاوية فلسفية، (مرجع سابق)، ص13.

2- المرجع نفسه.

3- أبو الحسن الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص154.

4- محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، تر: هاشم صالح، ط2. الدار البيضاء: المركز الثقافي في العربي، ص30.

وكثيرا ما يخلط بينهما في التعبير الشائع الأكثر من غيره: أي كلام الله نقول ذلك على الرغم من أن القرآن نفسه يلح على وجود كلام إلهي، أذلي لا نهائي محفوظ في أم الكتاب، وعلى وجود وحي منزل على الأرض بصفته الجزء المتجلي والمرئي والممكن التعبير عنه لغويا والممكن قراءته وهو جزء من كلام الله اللانهائي بصفته إحدى صفات الله¹.

فالملاحظ أن التعريف الذي وضعه علماء العقيدة والقرآن الكريم للوحي تمت إزاحته والمتمثل في: "إعلام الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر"²

ومناقشة مفهوم الوحي من خلال مستوياته بتزليل "الوحي" منزلة "الموحي به" ثم الاعتراف بالكلام الإلهي الأزلي... كوجود ميتافيزيقي. والاهتمام بالوحي المنزل على الأرض بإبراز ماديته (المتجلي، المرئي...)، وإبراز تاريخيته من خلال لفظة "المعبر عنه لغويا" إذ اللغة ترتبط بالزمان والمكان، وبذلك يصل أركون إلى غايته من إثبات دنيوية الوحي، وتاريخيته ونزع هالة التقديس والتعالوي عنه³.

وإذا ذهبنا إلى غيره من الحدائين أمثال "نصر حامد أبو زيد" و"علي حرب" وغيرهما نجد الاستراتيجية نفسها متبعة في تحريف المفاهيم عن دلالاتها الأصلية، فنصر حامد أبو زيد ليثبت تاريخية الوحي، أو النص الديني يقول: «إن النص في حقيقته وجوهه منتج ثقافي، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاما، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقا عليها، فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية، ويعكر من ثم إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص. إن الإيمان بالمصدر الإلهي للنص ومن ثم لإمكانية أي وجود سابق عيني في الواقع والثقافة أمر يتعارض مع تحليل النص من خلال فهم الثقافة التي ينتمي إليها»⁴.

ويوضح أكثر ما يعنيه بقوله: «والمصدر الإلهي لتلك النصوص لا يلغي إطلاقا حقيقة كونها نصوصا لغوية بكل ما تعنيه اللغة من ارتباط بالزمان والمكان التاريخي والاجتماعي، وما هو خارج

1- محمد أركون، القرآن من تفسير الموروث إلى التحليل الخطاب الديني، تر: هاشم صالح، ط2. بيروت: دار الطليعة، 2005، ص 22.

2- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط بيروت: دار الفكر (د.ت). ج1، ص63.

3- ينظر: كيجل مصطفى، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، ط1. الجزائر: منشورات الاختلاف 2011، ص162.

4- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ط5. المركز الثقافي العربي، 2000، ص24.

اللغة وسابق عليها أي الكلام الإلهي في إطلاقه لا يمت لنا نحن البشر بصلة بالإضافة إلى أننا لا نمتلك الأدوات المعرفية، ولا الإجرائية لإخضاعه للدرس»¹.

فتؤشل نصر حامد أبو زيد بآلية التاريخية وذوبانه في طروحاتها وتغليبها جعله "يصطنع لنفسه منطلقات تتوزع في إفراغ المفاهيم لمضامينها وإعادة تعبئتها بشحنات ليست من قبيل المصّب الإسلامي"².

وعلى نفس المنوال يفسر علي حرب ظاهرة الوحي في كتابه "نقد الحقيقة" فيقول: «المتعالي لا يتجلى إلا في التاريخ، والمقدس لا يظهر إلا عبر الدينوي، والوحي بما هو كلام الله لا يقرأ إلا بلغة مخصوصة، والوحي الإسلامي إنما نطق به عربي على مقتضى لسان العرب أي بحسب ترتيبهم لوجوه الكلام، وبحسب طريقتهم في إنتاج المعنى واستعمال الدلالة، أي بحسب قوانين الخطاب عندهم فهو إذن خطاب عربي فضلا عن أن حيثياته أو بالأحرى إحدائياته أي أسباب نزوله تحيل دوماً إلى أن أحداثاً وممارسات تقع في هنا والآن، وإلى ذوات مشدودة إلى الزمان والمكان وهنا أناسية الوحي وزمنيته»³.

وهكذا نرى أن كلا من "الحراك المفهومي" و"الاحتلال المفهومي" يمثل تحريفاً للمفاهيم تكشف عنه عملية توضيح المفاهيم التي تسعى إلى «تبيين الوظيفة التي يقدم بها المفهوم وموقعه من النسق المعرفي الذي ينتمي إليه، كما أنها تكشف عن هذا الانحراف الذي يصيب المفاهيم»⁴.

لذا كان لزاماً التنبيه على التحريف في حال وقوعه، بل الوقاية منه قبل ذلك، بالاحتكام إلى الآليات التراثية (النحوية، البلاغية، الأصولية...) في فهم وضبط دلالات المفاهيم المدروسة، حتى لا يقع الباحث في التراث أو قارئه في الوهم والغلط عند قراءته للتراث فضلاً عن قراءته للنص الديني، لذا نجد الأستاذ طه عبد الرحمن ينعي عن بعض أصحاب القراءات المعاصرة⁵:

- 1- جهلهم بحقيقة التراث روحاً ومنهجاً، وقلة اطلاعهم على معارفه، وضعف استئناسهم بمقاصده.
- 2- عدم التمرس في استخدام الآليات العقلانية المنقولة، فضلاً عن الإحاطة التامة والكافية بتقنياتها وإجراءاتها.

1- نصر حامد أبو زيد، النص والسلطة والحقيقة، ط4. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000، ص 92.
 2- الياقوت بن تومي، مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبو زيد، ط1. الجزائر: منشورات الاختلاف، 2011، ص 240.
 3- علي حرب، نقد الحقيقة، ط2. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1995، ص 77.
 4- صلاح إسماعيل، دراسة المفاهيم من زاوية فلسفية، (مرجع سابق) ص 14.
 5- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، (د.ت)، ص 10 وما بعدها.

ويقترح طه عبد الرحمان بعض الأسس والقواعد للقراءة المنتجة نذكر منها¹:

1- ينبغي للقراءة أن تعني بآليات النص التراثي اعتناءها بمضامينه، وأن تتوسل هذه الآليات في فهم تلك المضامين.

2- ينبغي إجراء النقد والتمحيص الكافيين لكل آلية مقتبسة من تراث أجنبي قبل تنزيلها على التراث الإسلامي حتى نتيقن كفايتها الوصفية أو التفسيرية.

4- تحريف المفاهيم:

قبل مناقشة مفهوم "تحريف المعنى" نوضح مغايرته لمفهوم "تغير المعنى"؛ إذ تغير المعنى هو ظاهرة طبيعية تعزى دلالات اللغة، تحظى بالقبول عند الجماعات اللغوية، والجامع اللغوية، والهيئات العلمية. تنتج هذه الظاهرة عن أسباب رصدتها علماء اللغة من أهمها:

1- ظهور الحاجات الجديدة: حيث يلجأ أصحاب اللغة إلى الكلمات القديمة التي توارت أو كانت مقبورة في المعاجم، فيحيون بعضها ويطلقونها على المخترعات الحديثة، فتستعمل كلمات قديمة لمعان جديدة، فيحدث تغير المعنى مثل: القاطرة، السيارة....²

2- العوامل النفسية والاجتماعية³: تمنع اللغات بعض الكلمات ذات الدلالات البغيضة أو التي توحى بشيء مكروه، فتبعدها وتستعمل بدلا منها كلمات أخرى، فتكون الكلمة المستبعدة في إطار كلمات "اللامساس" على حين توصف الكلمة المفضلة بأنها من كلمات التلطف التي تؤدي إلى تغير المعنى. ومن أمثلة ذلك كلمة مرحاض أو كنيف يستعمل بدلا عنها دورة المياه أو التواليت... ومن الواضح أن تغير المعنى يترتب عليه تغيير المفاهيم؛ نظرا لأن المفاهيم التي تعبر عنها بألفاظ أو مصطلحات هي في جوهرها معان مجردة⁴ وهي لذلك عملية طبيعية لا غبار عليها.

أما تحريف المعنى: "فيحدث تحقيقا لمقاصد معينة ولأغراض فكرية ومعرفية عند من يمارسه"⁵ ولتوضيح ذلك نضرب مثلا بمفهوم العقل: فالاتجاهات المادية في العلم والفلسفة تذهب إلى أن خير طريقة للبحث في العقل، هي إظهار كيفية انبثاقه من المادة، فالعقل عندهم لا يزيد على أن يكون عضوا ماديا.

1- طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، ط1. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2011، ص 20.

2- ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ط2. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1963، ص146.

3- المرجع نفسه: ص 141-142.

4- صلاح، إسماعيل، دراسة المفاهيم من زاوية فلسفية، (مرجع سابق)، ص 36.

5- المرجع نفسه، ص37.

بينما مفهوم العقل في التصور الإسلامي للمعرفة لا يزيد على أن يكون وسيلة من وسائل الإدراك وأن هناك مصدرا آخر من مصادر المعرفة هو الوحي وأنه لا تعارض بينهما في الإسلام، بل هما يتكاملان.

ومما يساعد على التعامل الصحيح والدقيق مع المفاهيم¹:

1- معرفة المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للألفاظ التي تعبر عن المفاهيم، ولا تساعد هذه المعرفة في الكشف عن الدلالات المتنوعة للمفهوم في حالة التعامل العادي الذي يتغيا البحث عن الحقيقة فحسب؛ وإنما تساعد أيضا في الكشف عن عمليات التلبس والتحريف الدلالي التي قد يتعرض لها المفهوم موضوع البحث.

2- تحليل البنية الدلالية للمفاهيم والتمييز بين العناصر الأساسية والعناصر الفرعية في هذه البنية، وهذا التمييز يساعد على إدراك الفرق بين التغير الدلالي الطبيعي وتحريف دلالة المفهوم سواء عن طريق التضيق أو التوسيع أو أية صورة أخرى.

3- يجب على أصحاب الفكر إظهار التحريف الدلالي والتنبيه عليه؛ لأن المفهوم الذي حرفت دلالاته يفسد بقية المفاهيم في النسق المعرفي كما تفسد الثمرة المعطوبة ما حولها من ثمرات صحاح. وبناء على القاعدة الثالثة من قواعد التعامل الصحيح والدقيق مع المفاهيم عامة والمفاهيم الشرعية على وجه الخصوص اعتبر الندوي صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف مجالا رئيسيا وجبهة حاسمة من جبهات العمل الإسلامي².

5- جهود الندوي في حفظ الدين من تأويلات المتحرفين:

لم يكتف الندوي بالدعوة نظريا لهذا العمل، بل ساهم عمليا في التنبيه على التحريف الدلالي الذي طال بعض المفاهيم الدينية قديما وحديثا في صورتيه الاحتلال والحراك المفهومين متمثلا في تأويلات الباطنية، وتأويلات المتكلمين المسلمين وبخاصة المعتزلة، - قديما- وتأويلات بعض النحل المعاصرة كالكادانية، كما نبه على التحريف المفهومي الذي وقعت فيه بعض فصائل الحركة الإسلامية بتفسير الإسلام تفسيرا سياسيا مثلما ظهر في كتابات مؤسس الجماعة الإسلامية "أبي الأعلى المودودي" ومن تغذوا على فكره وتأثروا به، ك "سيد قطب" - رحمة الله - ورائد الندوي في ذلك

1- صلاح، إسماعيل، دراسة المفاهيم من زاوية فلسفية، (مرجع سابق)، ص38.

2- ينظر: الندوي، ترشيد الصحوة الإسلامية، (مصدر سابق)، ص82؛ والندوي، حاجة البشرية إلى معرفة صحيحة ومجتمع إسلامي، ص: 61.

الحديث الشريف الذي طالما رددته وهو قول النبي ﷺ: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين"¹.

وفيما يلي محاولة لإبراز جهود أبي الحسن الندوي في صيانة المفاهيم الدينية والكشف عن تلاعبات المتلاعبين وتأويلات الجاهلين نصنفها إلى ما يلي:

5-1- تحريفات الباطنية:

استعرض الندوي في سياق حديثه عن الغزالي وجهوده في خدمة حقائق الدين، عمله الرائد والتجديدي وهو فضح الباطنية، وأبدى رأيه الواضح في منهجيتهم في التعاطي مع النصوص الشرعية والتلاعب بدلالاتها ومخالفة تواترها المعنوي.

يرى الندوي أن فتنة الباطنية مؤامرة على النبوة المحمدية قام بها أفراد، وأمم فقدوا سيادتهم ومصالحهم بانتشار الإسلام، ولم يعودوا يطمعون في استرداد شيء من ذلك بالمقاومة المسلحة، أو طامعون طامحون في السلطة، تمنيهم الباطنية بالوصول إلى غاياتهم، فتمالاً الفريقان على الكيد للإسلام، وتعاليم النبوة بطريقة هادئة لا تزعج المسلمين ولا تثيرهم.

إنهم علموا أن النظام الديني كله في عقائده وأحكامه قائم على كلمات وألفاظ تدل عليه وتعبّر عن حقائقه، وقد تعينت معاني الكلمات ومفاهيمها وتواتر ذلك في الأمة واستفاض، وصار معروفاً تتوارثه الأجيال فكل من كلمات: "النبوة"، "الرسالة"، و"الجنة"، و"النار"، و"الصلاة"، و"الزكاة"، و"الحج" كلمات يفهم منها مفاهيم خاصة لا يختلف فيها اثنان، كما أن الحقائق الدينية ظلت محفوظة تتناقلها الأجيال المتعاقبة دون أن تمتد إليها يد التحريف فكلمة "الصلاة" مثلاً إذا أطلقت تصورها المسلم في ذهنه، وفهم منها تلك العبادة الخاصة التي فيها قيام وركوع، وسجود وتلاوة وتسليم وغير ذلك مما يدخل في هيئة الصلاة، وهكذا سائر الحقائق. لقد علم الباطنية أن الصلة القائمة بين الكلمات ومعانيها هي الأساس الذي يقوم عليه البنيان الفكري والعملية للدين في حياة المسلمين، ولهذا الصلة بين تلك المصطلحات ومعانيها تعود الوحدة الدينية والفكرية التي يمتاز بها المسلمون، وعن طريقها يرتبطون بماضيهم، وبمصادرهم "فإذا انقطعت هذه الصلة بين الكلمات والمعاني وأصبحت لا تدل على معنى خاص، ومفهوم معين، أو تسرب الشك والاختلاف إليها، أصبحت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة، وساغ لكل أحد أن يقول ما شاء، ويروج على كثير

1- الحديث رواه البيهقي في السنن وفي دلائل النبوة، وفي إسناده بقية، إلا أنه روي من طرق أخرى كما قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة، ونقل فيه تصحيح الإمام أحمد لهذا الحديث. ينظر: ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، تح: عبدالرحمن قائد، ط1. جدة: منشورات المؤتمر الإسلامي، دار عالم الفوائد، ص462-467.

من العامة وأشبه العامة، بل الخاصة، وعمت الفوضى العقلية والدينية وذلك ما يريدون ومنه يدخلون"¹.

وبالفعل فقد قامت منهجيتهم على محاولة قطع تلك الصلة بين الألفاظ ومعانيها باعتبار أن لظواهر النصوص الشرعية بواطن خفية لا يدركها إلا الخواص، واعتبارها رموزا وإشارات يدركها الغواصون وانطلقوا في تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم، وفسروا تلك الكلمات والحقائق بما شاءوا دون ضابط ولا قانون.

وأورد الندوي جملة من تأويلاتهم الفاسدة² التي وصلت لحد اعتبار ظاهر النص متناقضا معوجا، واعتبار أهله أهل كفر وشرك، وصولا إلى إعلانهم أن أهل الأسرار والحقائق، من أئمتهم يعطلون ظاهر الشريعة، وينسخونه³.

لقد اعتبر الندوي هذه المنهجية في التعامل مع النص الديني القائمة على إنكار المفاهيم الدينية التي توارثتها الأمة، وتفسيرها حسب الأغراض والأهواء بمعزل عن الآليات التي وضعها العلماء عبر تاريخ الأمة الطويل اعتبرها هدمًا للدين ونقضا لأسسه يقول: «لقد نصبوها ألغاما ينسفون بها البناء العظيم الذي أقامه محمد ﷺ وخلفاؤه، والذي لا يزال يؤوي هذه الأمة العظيمة في مشارق الأرض ومغاربها، ويؤسسون على أنقاضه هيكلًا دينيًا جديدًا»⁴.

ولا يكفي الندوي بإطلاق هذا الحكم على الباطنية القديمة التي ظهرت في التاريخ وابتليت بها الأمة، ولكن يوسع دائرته ليشمل كل من أنكر هذا التواتر المعنوي، والتوارث اللفظي وتلاعب بالمصطلحات الشرعية ومفاهيمها قديما وحديثا ويصف عملهم هذا بأنه ثورة على النبوة المحمدية⁵. ويشيد الندوي إشادة كبيرة بشخصية الغزالي وجهوده العلمية، التي كان من أهمها كسر شوكة الباطنية وإزالة مهابتها من النفوس، وإعادة الثقة إلى القلوب بالعقيدة والاعتماد على مصادر الدين الأصيلة يقول: "ولم يكن في العالم الإسلامي في القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها -الباطنية- والكشف عن أسرارها ونقض ما بنت عليه دعوتها من الغزالي لجمعه بين التضلع من الفلسفة والوقوف

1- الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج1، ص 134.

2- المصدر نفسه، ص 135-136.

3- المصدر نفسه، ص 137.

4- المصدر نفسه، ص 137.

5- الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج1، ص 138.

على لب التصوف وعلم الباطن، ولا تصافه بالغموض في حقائق الأشياء والتعمق في العلوم، وتلك بضاعة الباطنية التي تتبجح بها"¹.

إن اهتمام أبي الحسن بالنزعة الباطنية وإبراز تأويلاتها الفاسدة والإشادة بالعمل التجديدي المجيد الذي قام به الغزالي وأدى إلى كساد بضاعتها وانحسار حدودها، يعكس مدى حرصه على بقاء المفاهيم الدينية غضة طرية بعيدا عن كل تلاعب، وهو ما يحفظ للدين أصالته وللأمة استمراريتها.

1-2- التأويل الكلامي:

سبق أن ذكرنا أن الندوي يلح إلحاحا شديدا على أن حقائق العقيدة تُتلقى من الوحي، ولا قدرة للعقل على معرفتها استقلالاً، ولا الإحاطة بمعانيها، لأنه لا يملك أوليات معرفتها ومبادئها، وإنما عليه التحقق من صدق النبي ﷺ، ثم الثقة به في كل ما يأتي به من معلومات ويخبر عنه من حقائق.

انطلاقاً من هذه القناعة نظر الندوي للتراث الكلامي والفلسفي في الإسلام وحاكم مخرجاتها خاصة ما يتعلق بالصفات الإلهية التي توسع بعض المتكلمين في تأويلها إلى حد يقترب من إنكارها خاصة مع المعتزلة الذين عرفوا بالإسراف في تمجيد العقل، يقول الندوي: "لقد كان هذا الاتجاه العقلي الذي ترعمه المعتزلة والذي كان يقوم على تمجيد العقل وتأليهه وإخضاع النظام الديني بما فيه من عقائد وحقائق - بل إخضاع الذات والصفات والأفعال الإلهية له، وعلى قياس الغائب على الشاهد - إتجاهاً خطراً على الإسلام، وفتح باب فساد عظيم في المجتمع الإسلامي"²، واستغرب الندوي من علماء المسلمين الذين أكرمهم الله بالرسالة المحمدية والكتاب المحفوظ كيف يخضعون للفلاسفة وآرائهم كأنها حقائق ومسلمات ولووا أعناق الآيات القرآنية، وأولوها تأويلاً شديداً حتى تطابق ما تقرر في الفلسفة اليونانية في جانبها الإلهي. يقول: "وكان أكثر ما دهوا به وأوتوا من قبله هو (اللوامز الفاسدة) التي يجب أن ينزه عنها (واجب الوجود)، ففروا من إثبات كثير من الأسماء والصفات والأفعال، لأنها يلزم منها ما يختص بالحدث ويثبت ما به الجسم وما يتنزه عنه (القديم)، كل ذلك قياساً على الإنسان، وعلى تجاربهم المحدودة، إذ لا يتصور ولم يجرب وجود هذه الصفات إلا بهذه اللوازم، وفاتهم أنها صفات إلهية يمكن وجودها بغير هذه اللوازم، وهكذا مال فريق منهم إلى

1- الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 1 ص 173. ويشير الندوي فيه إلى أن الغزالي ألّف عدة كتب في الرد على الباطنية منها "حجة الحق" و"مفصل الخلاف"، و"قاصم الباطنية" ذكرها الغزالي في "جواهر القرآن" ولكنها مفقودة والكتاب الوحيد المطبوع هو "المستظهري" الذي ألفه بطلب من الخليفة المستظهر بالله. نشر منه قسماً كبيراً المستشرق "جولد زيهر" 1916. ينظر: الغزالي، جواهر القرآن، ط 3. البلدة: قصر الكتاب، ص 39.

2- الندوي، رجال الفكر والدعوة، ج 1، ص 94.

نفي الصفات، وكان أحسنهم حالا من تأولها أو فسرها تفسيرا كاد يؤدي إلى التعطيل، وفاتت أو كادت تفوت حكمة الصفات"¹.

ومما يدل على رفضه الإسراف في التأويلات الكلامية إشادته بآراء أحمد بن تيمية في العقيدة وتحمسه لها، فبعد عرضه لموقف ابن تيمية في الأسماء والصفات القائم على التنزيه والإثبات، ورفض التأويل في الصفات الخبرية، واعتبار دلالتها حقيقة لا مجاز فيها، وبالتالي رفض كل تأويل² يقول: "ثم إنه أثبت بالدلائل أن المتكلمين المتأخرين، اندفعوا بتأثير الفلسفة اليونانية وشيء من المغالاة في التنزيه إلى تأويل هذه الصفات تأويلا بعيدا عن حقيقة اللغة، وفهم الصحابة ونصوص الحديث بعدا شائنا مس حدود النفي والتعطيل، إنهم ابتعدوا في ذلك عن مذهب السلف من العلماء وأئمة السنة والمتكلمين المتقدمين أنفسهم، حتى جعلوا يتكلمون عن السلف ما يزري بعلمهم"³، وحمل الندوي على هؤلاء المتكلمين وجراءتهم واتهمهم بالجهل بمكانة السلف وقلة العلم بما كانوا عليه بقوله "وأين فروخ فلاسفة اليونان والمثقفون على فتات مائدة الهنود والفرس من ورثة الأنبياء المتقدمين، وخلفاء الرسل، وحمل الكتاب والسنة في المعرفة الإلهية وتفهم الأسماء والصفات"⁴.

كما أشاد الندوي في الإطار نفسه بجهود الإمام الدهلوي في بيان العقائد الإسلامية، وشرحها وعرضها وفق منهج السلف الأولين من الصحابة والتابعين، ورفض التأويلات البعيدة التي كانت سائدة في عصره حتى عطلت الذات الإلهية عن كل معنى ووصف، وغالى الناس في الاستخفاف بمسلك السلف ومنهجهم.

اعتبر الندوي هذا العمل الذي قام به، خدمة جلييلة وإحدى مآثره، وأعماله التجديدية الاجتهادية⁵. ونورد هنا نصا للإمام الدهلوي يكشف فيه عن مذهبه في الصفات الإلهية، يقول: "اعلم أن الحق -تعالى- أجل من أن يقاس بمعقول أو محسوس أو يحل فيه صفات كحلول الأعراض في محالها، أو تعالجه العقول العامة أو تتناوله الألفاظ العرفية، ولا بد من تعريفه إلى الناس ليكملوا كمالهم الممكن لهم، فوجب أن تستعمل الصفات بمعنى وجود غاياتها لا بمعنى وجود مبادئها، فمعنى الرحمة إفاضة النعم لا انعطاف القلب والرقعة، وأن تستعار ألفاظ تدل على تسخير الملك لمدينته،

1- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص 113.

2- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج2، ص44-45.

3- المصدر نفسه، ج2، ص46.

4- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج2، ص46.

5- المصدر نفسه، ج4، ص130-133.

لتسخيره لجميع الموجودات إذ لا عبارة في هذا المعنى أفصح من هذه، وأن تستعمل تشبيهات بشرط أن لا يقصد إلى أنفسها، بل إلى معان مناسبة لها في العرف... وقد أجمعت الملل السماوية قاطبة على بيان الصفات على هذا الوجه، وعلى أن تستعمل تلك العبارات على وجهها، ولا يبحث عنها أكثر من استعمالها، وعلى هذا مضت القرون المشهود لها بالخير، ثم خاض طائفة من المسلمين في البحث عنها وتحقيق معانيها من غير نص ولا برهان قاطع¹.

إن إبراز هذه المواقف والاحتفاء بها والإشادة بأصحابها تعكس رؤية الندوي وموقفه الثابت في هذه المسألة، وقد أظهره ودافع عنه من خلال قامات علمية كبيرة، وكم توارى الندوي خلف شخصياته التي اختارها وعبر عن أفكاره من خلالها.

5-3- تأويلات القاديانيين وموقف الندوي منها:

وقف الندوي من القاديانية موقفا صارما واعتبرها دينا إزاء الدين الإسلامي وثورة حقيقية على النبوة المحمدية، وبابا عريضا للفوضى الفكرية، والدينية وشقا لعصا المسلمين، وكان من جملة وقفاته معها موقفه من تلاعبات زعمائها بالنصوص الدينية وتأويلاتها الفاسدة التي لا تنضبط بقوانين اللغة، والمنطق ولا بالمتواتر من معانيها عن سلف الأمة.

في سياق نقده "للمرزا غلام أحمد" عرض الندوي بعضا من هذه الشذوذات، منها مثلا: **تأويل كلمة دمشق**. لما ادعى المرزا أنه هو المسيح الموعود نبهه تابعه نور الدين محمود أن الحديث النبوي ينص على نزول المسيح بدمشق، وأنه متواجد بقاديان، فكيف يقنع المسلمين بذلك؟. فجعل المرزا يراوغ ويدعي أن كلمة دمشق إنما استعملت استعارة وأن قاديان، مشابهة لدمشق إلى غير ذلك من تلاعباته².

ومن تأويلاته أيضا حين اعترض عليه خصومه بأن أحاديث نزول المسيح قد جاء فيها أن المسيح ينزل وعليه رداءان أصفران، فقال: "المراد بالرداء الأصفر العلة، وقد جاء في حديث أن المسيح ينزل وعليه رداءان أصفران وهذا شأنني فإنني أعاني علتين: إحداهما في مقدم جسمي وهو الدوار الشديد... والعلة الثانية في أسفل الجسم وهي كثرة البول"³.

وبعد عرضه لجوانب آخر من تحريفات المرزا غلام أحمد علق الندوي قائلا: "ويسترسل في تأويل الآيات والنبوءات والكلمات الواردة في الأحاديث ويعتبرها مجازات واستعارات، ويحاكي في ذلك

1- أحمد شاه ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995 ج1، ص122.

2- ينظر: الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص64.

3- المصدر نفسه، ص65.

الباطنية الأولين والذين كانوا يتطرفون في تأويل المصطلحات الدينية والكلمات الشرعية المتواتر لفظها ومعناها ومفاهيمها ويتوصلون بذلك إلى فتح باب الإلحاد والفساد، والفوضى على مصراعيه والعبث بالدين ويعقول الناس¹.

وفي إطار تقييمه للقاديانية، وتقديم دلائل إدانتها يقدم الندوي جملة من التأويلات البعيدة لأمر الجماعة في باكستان "محمد علي اللاهوري"² والتي لا يشهد لها عقل ولا نقل. لقد غلب عليه تفسير المعجزات والأمور الغيبية تفسيرات تتفق والنواميس الطبيعية والتجارب، ويبالغ في التأويل ولو أدى ذلك إلى التعسف، وهو أسلوب من أساليب إنكار الغيبيات والفرار مما يتطلب الإيمان والثقة بالرسول ﷺ³.

عرض الندوي قرابة عشرين آية أولها "محمد علي اللاهوري" تأويلات غريبة بعيدة، نختار منها على سبيل المثال: تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (البقرة، الآية: 60)، فسرها بقوله: "المراد أن الله تعالى أمر موسى بالمسير إلى جبل خاص والانتقال بجماعته إليه حيث وجد اثنتي عشرة عينا ضرب عليها فصائل بني إسرائيل خيامها وأحببتها"⁴، ومنها تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ (البقرة، الآية: 63)، ليس المراد أن الله رفع هذا الجبل على رؤوسهم مثل الظلة لا يستقر على الأرض بل المعنى أنكم كنتم في المنخفض من الأرض وكان الجبل يطل عليكم"⁵.
ومنها أنه أنكر ولادة المسيح من غير أب، وذكر أن ذلك ليس من عقائد الإسلام، وأن مريم كانت متزوجة بيوسف النجار وأن المسيح ولد بطريق عادي مألوف⁶.

1- ينظر: الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 67.

2- ولد محمد علي اللاهوري في عام 1874 بقرية موار التابعة لإقليم البنجاب بالهند، وتوفي في 13 أكتوبر 1951 بكراتشي الباكستانية والرجل له عدة مؤلفات منها ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية وكتاب حقيقة الاختلاف، وكتاب حياة محمد، وكتاب الدين الإسلامي ينظر في ترجمته: الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 144. وينظر أيضا: غالب عواجي، فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، ط4. جدة: المكتبة العصرية الذهبية، 2001م، ج1، ص 846-851.

3- الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 150.

4- المصدر نفسه، ص 152.

5- المصدر نفسه،.

6- ينظر الندوي المصدر نفسه، ص 154؛ ينظر: بقية التأويلات في: المصدر نفسه ص 150-159.

ثم عقب الندوي بعد سرده لتلك النماذج بقوله: "ونقتصر على هذه الطرائف التفسيرية التي تدل على عقليته واتجاهه، وعلى فراره من كل ما يطلب الإيمان بالغيب، وبالقدرة الإلهية التي وسعت كل شيء وعلى التلاعب باللغة ولفظ القرآن، وتدل دلالة واضحة على أن هذا الكتاب الذي نزل بلسان عربي مبين، والذي وصفه الله باليسر والوضوح ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (القمر، الآية: 17).

لم يفهم منذ نزل، وبقي لغزا من الألغاز، وسرا من الأسرار ثلاثة عشر قرنا، وكان من أبعد الناس عن فهمه، وأبخسهم نصيبا فيه هم الصحابة والسابقون الأولون الذين نزل بلغتهم وخاطبهم القرآن، وسلف هذه الأمة، وما هذه التفسيرات المتطرفة إلا نسخة صادقة لتفسيرات الباطنية والإسماعيلية في العهد الماضي¹.

5-4- تأويلات التجديدين وموقف الندوي منها:

واجهت أمتنا المسلمة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي الحضارة الغربية الفتية المسلحة بتفوقها العلمي والتقني، وخضعت كثير من بلاد الإسلام للاستعمار الأوربي وغزوه الفكري، ذلك ما دفع قادة الرأي والفكر إلى محاولة تحليل واقع الأمة ومعرفة عللها وتوصيف الحلول للخروج من دائرة التخلف والهيمنة الاستعمارية.

وقد تنوعت مقاربات المفكرين والسياسيين بين طروحات محافظة على الأصول ومتفتحة على الوسائل ومتطلبات العصر، وكانت مقاربات أخرى أكثر تحررا وحتى انفلاتا. ويعتبر السيد "أحمد خان" أحد ممثلي الاتجاه الثاني فقد كان صاحب مدرسة فكرية تميزت بالدعوة إلى تقليد الحضارة الغربية، والخضوع لأسسها المادية واقتباس العلوم العصرية بحذافيرها، وقام بمحاولات التوفيق بين القرآن وأحكام الإسلام وما وصلت إليه الحضارة الغربية من معلومات وآراء، وتكلف في ذلك تكلفا شديدا.

لقد وقف الندوي من تجربة السيد أحمد خان موقف الناقد المنصف فأثنى على الجوانب الإيجابية²، وكشف عن مواطن الضعف فيها، ويمكن اعتبار خضوع فكرة أحمد خان للنظرة المادية الغربية وحماسه في التوفيق بينها وبين حقائق الإسلام والتكلف الشديد في ذلك من أبرز مآخذ الندوي على تجربته، يقول الندوي: "وأصبحت نظرتة مادية بحتة تخضع للقوى الطبيعية والسنن الكونية - كما يفهمها- خضوعا زائدا، ويخضع لها عقيدته ويؤول على أساسها القرآن تأويلا يبلغ به حد

1- الندوي، القادياني والقاديانية، (مصدر سابق)، ص 159-160.

2- ينظر: الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 72.

التحريف والعبث بأصول العربية واللغة والنحو، والتواتر والإجماع، فصار يفسر القرآن تفسيراً يخرق فيه الإجماع وينقض به اللغة ويثير العجب والإنكار في الأوساط الدينية والعلمية¹ ويستفيض الندوي في بيان خطورة هذا الاتجاه على الدين فيقول: " وقد كان هذا الاتجاه المادي المتطرف والإسراف في تمجيد العقل والمبالغة في سلطانه وحدوده، وإخضاع إرادة الله وقدرته لقوانين الطبيعة وقوانين هذا العالم، والجرأة على تفسير وتأويل معاني القرآن تأويلاً جريئاً، قد فتح باباً للفتنة والتحريف والإلحاد في آيات الله والفوضى في الدين والعقيدة التي انتشرت في العصر الأخير² ويجعل الندوي من الأسباب المهمة في انتشار القاديانية وذيوع أفكارها وقبول آرائها المتطرفة، المناخ الفكري الذي هياها أحمد خان بما شاع فيه من تأويلات بعيدة للنصوص وتطويع قسري لها حتى تتوافق مع آراء الغربيين، ذلك ما هيا النفوس للاقتناع بمثلاتها مما جادت به قرائح القاديانيين، وقد كان خليفة القادياني وعقله الأول نور الدين محمود من كبار المعجبين بآراء أحمد خان في التفسير والتأويل.

مع ملاحظة أن الندوي يرى أحمد خان وحركته من أن تكون الرحم الفعلي الذي تولدت منه القاديانية كما يفهم من كلام محمد البهي³، بل إن أحمد خان أنكر على مؤسس القاديانية إدعاءه النبوة وعارضه⁴.

ويعتبر الندوي أن الاتجاه التجديدي على نحو ما يفهمه السيد أحمد خان وبمارسه، له أنصار في أكثر من مكان، ومن رموزه في البلاد العربية "محمد عبده" يقول الندوي: "وكان محمد عبده على ما له من حسنات في الدفاع عن الإسلام، وإصلاح مناهج التعليم، وتقريب الدين إلى الجيل الجديد، كان من رواد الدعوة للملاءمة بين الإسلام وبين الحياة في القرن العشرين والتقدير الزائد للقيم الغربية، ومحاولة التطبيق بينها وبين الإسلام، والحرص على تفسير الفقه الإسلامي وأحكام الشريعة تفسيراً يتناسب مع مطالب المدنية الجديدة، والجيل الجديد، يقرب في ذلك كثيراً إلى السيد أحمد خان في الهند وتتجلى هذه النزعة في تفسيره وفي فتاواه وفي كتاباته، وكل من جاء بعده من دعاة التجدد اقتبس من علمه واغترف من بحره⁵.

1- ينظر: الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 68.

2- المصدر نفسه، ص 69.

3- ينظر: محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط6، بيروت: دار الفكر، 1973م، ص 45-46.

4- الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 69.

5- المصدر نفسه، ص 95.

6- التفسير السياسي للدين وموقف الندوي منه:

لاحظ الندوي أن اهتمام بعض الدعاة الإسلاميين بالشأن السياسي، اتسم بالمبالغة والإفراط حتى كاد يجعل غاية الإسلام الأولى ومقصده الأكبر، إقامة الحكومة الإلهية في الأرض، وراح في سبيل تأكيد هذه القناعة والتأصيل لها يفسر عددا من كلمات القرآن - التي يشكل بعضها أساسا في بيان الدين الفكري، ككلمات - الإله والرب والدين والعبادة- يفسرها تفسيراً سياسياً، ويخرج بها عن دلالاتها الأساسية المعروفة المألوفة التي توارثتها الأمة جيلاً عن جيل، بل ويصرح أن معانيها لم تعد تفهم على النحو الذي كانت تفهم به وقت نزول القرآن، وترتب عن ذلك خفاء معظم تعاليم القرآن وغياب روحه السامية وفكرته المركزية¹.

لاحظ الندوي أن جيلاً من الشباب اعتمد في فهمه للدين، وتدوقه له على هذه الكتابات دون سواها مما ألفه الراسخون في العلم، " فخاف أن تنشأ طبقة أو مجتمع فيه عدد كبير من الشباب الأذكياء المثقفين العاملين لمجد الإسلام من أصحاب الهمة العالية، والنظر البعيد والإيثار وروح التضحية في خدمة الإسلام والمسلمين على منهج يختلف عن المنهج الإسلامي الأول في الروح والدوافع النفسية والعقلية، والأهداف والغايات، والمثل والقيم ويضعف ما جاهد له الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ من إخلاص الدين لله والعمل للآخرة، وروح الإيمان والاحتساب... ويتحول هذا الكفاح إلى مجرد عملية تنظيم جماعي أو محاولة للحصول على الحكم والسلطان للمسلمين"².

فاضطر الندوي إلى التنبيه على هذا الخطر، وبيان خطأ هذه القراءة لمصطلحات القرآن وأهدافه، واعتبر نفسه حلقة من سلسلة طويلة من المصلحين الذين يراقبون الفهم الجديد والعروض المتجددة للدين، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وجاء عمله النقدي هذا تلبية لدواعٍ حقيقية، تتمثل في دفع الآثار البادية لطروحات أبي الأعلى المودودي ومن تأثر بكتاباتة وهي غاية جليلة لم يزل أهل العلم يقومون بها وهو ما يسميه الندوي بالحسبة العلمية المخلصة النزينة. والملاحظ على أسلوب الندوي النقدي مع هؤلاء الهدوء والأدب الجم وتظهر عليه روح الإخلاص في النصيحة لدين الله، والشفقة عليه أن يصيبه ما أصاب الأديان قديماً من التحويل والتبديل.

ولا بد في البداية من التنبيه على أن الندوي -رحمة الله- لا يرفض العمل السياسي ولا يدينه أو يدعو إلى القطيعة معه، بل هو على قناعة تامة بضرورة السعي لإقامة حكومة تنفذ أحكام الله

1- ينظر: أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، ط5، الكويت: دار القلم، 1971، ص 3-10.

2- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص 19-20.

وحدوده بين البشر تقيم الدين وتحفظ الأمن وترعى شؤون الناس، ولا تسمح بوجود واقع يفتن فيه الناس عن دينهم، يقول:

والحصول على هذه السلطة والقوة، والجد والاجتهاد في سبيله مطلوب من المسلمين بالآيات القرآنية والنصوص القطعية، ولا يجوز الإهمال فيه والتقصير عنه في حال من الأحوال، وقد زخر القرآن والحديث بالتحذير من النتائج الوخيمة المشؤومة المترتبة على ترك هذا الركن الإسلامي العظيم في صورة انطماس معالم الدين وزوال شعائره وذل المسلمين وهوانهم وعبوديتهم وإلغاء الحدود الإلهية والأحكام الشرعية والفوضى والاضطراب في الحياة، من أجل ذلك أولت الشريعة الإسلامية إقامة نظام الإمارة والخلافة أهمية بالغة حتى جعلت الحياة بدونها حياة جاهلية¹

ولكنه في الوقت نفسه لا يعتبر هذا الأمر على أهميته وجلالة شأنه - مقصد الدين الأعظم وهدفه الأول، ولا يسوغ تفسير الدين ومصطلحاته تفسيراً سياسياً، ولا يخرج عن كونه وسيلة عظيمة لغاية أعظم.²

إن معالجة الندوي لهذا التوجه قديمة نسبياً تعود بدايتها إلى العقد الرابع من القرن العشرين، فقد كان يبيث ملاحظاته وتوجيهاته في بعض محاضراته ورسائله دون أن يسمى أصحاب الكتابات الذين يقصد أفكارهم بالنقد، ويمكننا رصد تطور هذه الأطروحة عند الندوي في مکتوبات أربعة قبل ظهورها صريحة واضحة أخيراً في كتابه "التفسير السياسي للإسلام" أما الكتابات الأربعة مرتبة حسب صدورها فهي التالية:

أ- "بين الجباية والهداية": وهي رسالة كتبها الندوي لأحد ملوك العرب في أواخر الأربعينات من القرن الماضي، عبر فيها الندوي عن رأيه في الغاية والمقصد من الوصول إلى الحكم والسلطة واعتباره أن ذلك إنما هو ثمرة الدعوة، ونتيجتها وليست غاية تقصد ابتداءً فالغاية التي تقصد هي الدعوة إلى الله وربط العباد بخالقهم، وإلهاب جذوة الإيمان في قلوبهم وجعلها تطفح بالحب والحنان، وتركيز نفوسهم وتربيتهم يقول: "وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة كما تأتي الأمطار بالخصب والزرع، وكما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر، فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الإسلامية"³.

1- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص 135 - 136.

2- المصدر نفسه، ص 137.

3- أبو الحسن الندوي، بين الجباية والهداية، ط. لكتاوا: مكتبة الإسلام، الهند، (د.ت)، ص 5.

وهذا تعريض بأطروحة المودودي الذي يرى أن هدف تكوين الجماعة الإسلامية، وغايتها الأولى إقامة الحكومة الإلهية في الأرض.

ب- "أريد أن أتحدث إلى الإخوان" وهي محاضرة ألقاها الندوي في مصر عام 1951م كان موضوعها سمات دعوات الأنبياء والدعائم التي تقوم عليها، بث من خلالها رؤيته لأهداف الدعوة وقصد الوصول للسلطة، والحكم وتقريباً كرر ما ذكره في رسالة "بين الجباية والهداية" من أن دعوات الأنبياء وخلفاءهم لم تكن تهدف الحصول على الحكومة وإنما يمكنهم الله منها كجائزة لتحقيق أهداف الدين وتنفيذ أحكامه وتغيير المجتمع وتوجيه الحياة وفي هذا المعنى يقول: "امتازت دعوة الأنبياء وجهودهم بتجردها من التفكير في المنافع المادية والثمرات العاجلة، فكانوا لا يبتغون بدعوتهم، وجهادهم إلا وجه الله، وامتنال أوامره، وتأدية رسالته، تجردت عقولهم، وأفكارهم من العمل للدنيا ونيل الجاه، وكسب القوة لأسرتهم، أو أتباعهم والحصول على الحكومة حتى لم يخطر ذلك ببال أصحابهم، وأتباعهم وكانت الحكومة التي حصلت لهم في وقتها، والقوة التي كانت لهم في دورها لم تكن إلا جائزة من الله، ووسيلة للوصول إلى أهداف الدين، وتنفيذ أحكامه، وتغيير المجتمع، وتوجيه الحياة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَدْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج، الآية: 41). ولم تكن هذه الحكومة قط غاية من غاياتهم أو هدفاً من أهدافهم، أو حديثاً من أحاديثهم، أو حلماً من أحلامهم إنما كانت نتيجة طبيعية للدعوة والجهاد كالثمرة التي هي نتيجة طبيعية لنمو الشجرة وقوة إثمارها"¹.

وبعد أسطر يزيد الندوي الأمر توضيحاً وإفصاحاً ويوجه مستمعيه إلى ملاحظة الفرق في النفسية والهمة لدى الداعي لاختلاف الدوافع فيقول: "وفرق كبير أيها السادة بين الغاية التي تقصد والنتيجة التي تظهر، ويظهر هذا الفرق في نفسية العامل، والساعي فالذي يقصد الحكومة يتوانى ويقعد إذا لم ينلها، أو انقطع أمله فيها ويشغل بها عن الدعوة، ويطغى إذا نالها، وخطر على كل جماعة تتكون عقليتها بحب الحكومة والسعي لها أن تقعد عن الجهاد في سبيل الدعوة أو تنحرف، وتزيغ في قصدها لأن أساليب الوصول إلى الحكومة تخالف أساليب الدعوة"².

1- أبو الحسن الندوي، أريد أن أتحدث إلى الإخوان، ط3، رائي بريلي: دار عرفات للتربية والتعليم، الهند، 1989م، ص31-

2- الندوي، أريد أن أتحدث إلى الإخوان، (مصدر سابق)، ص 33-34.

ج - "النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم" وهو في أصله محاضرات قدمها الندوي في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام 1963م.

صرح الندوي بأفكاره المعارضة لتفسيرات المودودي دون تسميته، خصص محاضرة بعنوان "سمات النبوة وخصائص الأنبياء" تحدث فيها عن الحاجة إلى دراسة القرآن المجردة عن التأثيرات الخارجية والآراء السياسية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية يقول: "ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء السابقين لكل ما يستحسن، مجرد عن كل تقليد وعن كل تطبيق، فالعصور تتبدل، وقيم الأشياء ودرجاتها تتغير وتتبدل، وترتفع وتنخفض، وما حدث في عصر من نظرية، أو مصطلح لا يجوز أن يسلب على عصر سابق، أو جيل سابق، فضلا عن القرآن الذي هو كتاب سماوي خالد فإنه لا يخضع لعصر ولا يخضع لفكر، ولا يخضع لفلسفة فكرية أو سياسية، وعلوم الإنسان ونظرياته كتيب مهيل من رمل يتناثر وينسط، وينضوي ويمتد، لا يصلح عليه البناء، ولا يجوز أن ينزل عليه القرآن من منزلته العالية السماوية ومن أساسه المحكم الأبدي"¹.

وتحدث فيها عن فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته ومنها أنهم كانوا لا يفهمون من معنى الإله والرب والعبادة، والدين إلا هذه المفاهيم الدينية، وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم، ومنهاج كلامهم لا يختلف فيه اثنان"².

وقدم في هذه المحاضرة نصيحة ووصية لطلبة الجامعة اعتبرها عصارة تجاربه ودراساته مفادها ألا يفهم من كتاباتهم، وتوجيهاتهم، وعرضهم للإسلام أن المسلمين طيلة هذه القرون كانوا في جهالة عن فهم دينهم وفهم كتابهم ومصطلحاته لأن ذلك يعني أن هذا الكتاب بقي مطويا على غرته وانقطعت الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة، وذكرهم بأن هذا الأسلوب في التفكير قد يتجه إليه بعض الكتاب والمفكرين "وذلك لاشك نتيجة ما نالته المعاني السياسية والمؤسسات السياسية والتنظيمات في عصرنا من الأهمية بتأثير النظم الحديثة والثقافات الحديثة، وكل من يسعى لمجد المسلمين ويطمح إلى سؤددهم وصلاح أحوالهم، ويريد أن يسود النظام الإسلامي، ويقوم الحكم الإسلامي في جميع أقطار المسلمين قد يقع في هذا التفريط والإفراط، ولا شك أنها غايات سامية يجب أن يجند لها المسلمون والدعاة والمفكرون منهم بصفة خاصة مواهبهم وطاقاتهم، ولكن يجب عليهم كذلك أن لا

1- الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، (مصدر سابق)، ص32.

2- المصدر نفسه، ص29.

يخضعوا القرآن لهذه الغاية، والنصوص الداعية إلى هذه الغايات، الحائثة عليها، وافرة كثيرة لا يحتاج معها إلى هذا التأويل"¹.

كما تضمنت هذه المحاضرة فقرات تنبه على خطورة الشرك في العبادة وكيف ركز الأنبياء على هذه القضية وأولوها الأهمية البالغة، ولا يسوغ اعتبار هذا العمل قضية هامشية من الجاهلية الأولى الساذجة، وفي هذا الكلام تعريض واضح بطروحات الأستاذ المودودي وسيد قطب رحمهما الله.

د- أما الكتاب الرابع فهو " الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة" وهو رد غير مباشر على طروحات المودودي، قصد المؤلف من خلاله عرض أركان الإسلام العملية للجيل المسلم الجديد كما تفهم من نصوص الكتاب والسنة، وكما فهمها المتقدمون وعبروا عنها في كتبهم، لا كما يفهمونها اليوم كوسائل إلى غاية أخرى، نتيجة الخضوع للمناهج والفلسفات السياسية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية السائدة اليوم، يقول الندوي في تصدير كتابه المذكور: " وقد توارثت هذه الأمة فهم معاني العبادات وحقيقتها ومقاصدها كما توارثت أوضاعها وأشكالها وأحكامها وآدابها، وتوارثت العمل بها من غير انقطاع أو فترة أو جهالة أو غفلة حتى وصل إلينا هذا الدين، متواترا متصلا، في المعاني والأشكال والمقاصد والهيئات، فليس لأحد في هذا العصر أن يبتكر لركن من هذه الأركان مفهوما لم تعرفه هذه الأمة في عمرها الطويل، أو يلبسه لباسا مستوردا من الخارج أو مستعارا من أجنبي"².

ويذكر أن مما حفزه على تأليف هذا الكتاب، رغم أمراضه التي يعانيتها ومسؤولياته المرهقة، ما كان يراه من إخضاع هذه الأركان ومقاصدها بجراءة كبيرة للفلسفات العصرية السياسية الاقتصادية، حتى كادت هذه الأركان تفقد حقيقتها في عقول من آمن بهذا التفسير "وكاد معنى الإيمان والاحتساب يضيع من بين هذه التعبيرات المادية والتفسيرات العصرية، وكاد التفكير المادي يطغى على روح العبادة والإخلاص، فكان ذلك بحيث يشعر أصحاب هذا الفكر أو لا يشعرون؛ خطرا كبيرا على الأمة وطليلة تحريف كبير في فهم المعاني الدينية والمقاصد الشرعية"³.

ه- أما الكتاب الخامس الذي تناول فيه الندوي هذه القضية بشكل مباشر وواضح، وسمى فيه أصحاب هذا التوجه، وسمى كتاباتهم تصریحا، وتميز ببسط القول والتوسع في البيان فهو كتاب "التفسير السياسي للإسلام"، وقد صدر عام 1978م، وفور صدوره أرسل مؤلفه نسخة منه إلى

1- الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، (مصدر سابق)، ص42.

2- الندوي، الأركان الأربعة، (مصدر سابق)، ص6-7.

3- المصدر نفسه، ص8.

الأستاذ المودودي، مع رسالة اعتذار عن هذا النقد الذي لم يكن رائده فيه إلا الإخلاص للدين، والنصيحة للمسلمين¹.

وجه الندوي في هذا الكتاب ملاحظاته النقدية التي دارت حول تفسيرات الأستاذ المودودي وسيد قطب للإسلام تفسير سياسيا، ومحاولة تأويل المصطلحات القرآنية الأربعة بما يخدم هذا التوجه، بعيدا عن الدلالات الأصلية التي توارثها علماء الأمة، ودلت عليها اللغة، وتكمن خطورة هذا العمل في أنه يفتح الباب على مصراعيه أمام المتأولين للتوسع في هذا العمل مما يعرض حقائق الإسلام ونصوصه للتحريف.

كما بيّن الندوي الآثار المترتبة على هذا التفسير، والتي لاحظ طلائعها على من تشكل تصورهم للإسلام من خلال تلك الكتابات، يقول الندوي: " ولم يُقدم المؤلف إلى هذا البحث إلا حين عرف وعاش كثيرا من الذين تخرجوا في المدرسة الفكرية التي تقوم على كتابات الأستاذ المودودي وحدها، وتعتمد على فهمه للدين وتفسيره له... لا يدنون في ثقافتهم الدينية وفهمهم لحقيقة الدين لمدرسة دينية أخرى.. وأفزعته اتجاهات فكرية، وفهوم وتفسيرات للدين بدت طلائعها في الحديث والكتابة، والفكر والتأليف، والعمل والتطبيق"².

6-1- تفسير المودودي وسيد قطب في الميزان:

قبل عرضه للمحاذير التي خشى وقوعها وتمكّنها كأثر للتفسيرات السياسية للإسلام، عمد الندوي إلى وضع قارئه في سياق هذه العملية التأويلية بسرد فقرات متعددة من كلام الأستاذين المودودي وسيد قطب اقتبسها من كتب عديدة لهما،³ يفهم منها التركيز على الحاكمية، واعتبارها جوهر الألوهية والربوبية كأثر لتضخم الجانب السياسي في فكر الأستاذين المودودي وسيد قطب، ودون الدخول في عملية تتبع تفصيلي لهذه الكلمات وتأويلاتها بالرجوع إلى كتب اللغة والتفسير، اكتفى الندوي بتحفظ إجمالي على هذه الفهوم واهتم أكثر بإبراز آثار هذه القراءة ونتائجها الفكرية والنفسية، ويمكن تركيز ما أخذ الندوي في النقاط التالية:

1- إدانة الأمة بعدم فهم كتاب ربها، والتصوير القائم للتاريخ الإسلامي وحركات الإصلاح.

2- تنميط العلاقة بين الرب والعبد، واعتبارها صلة حاكم بمحكوم وملك برعية.

1- ينظر: الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص 20.

2- المصدر نفسه، ص 18-19.

3- المصدر نفسه، ص 63-75.

3- تسوية شرك الاعتقاد والعبادة بشرك الحاكمية، بل وتفوقه عليه، والنظر إلى دعوات الأنبياء عليهم السلام في محاربه نظرة قاصرة.

4- اعتبار العبادات والشعائر وسائل لتحقيق غايات سياسية.

5- إدانة التصوف ورجاله بالخموم والبطالة والاستسلام.

وفيما يلي محاولة لتسليط بعض الضوء على كل نقطة من هذه النقاط الخمس:

6-2- إدانة الأمة بعدم فهم كتاب ربها والتصوير القاتم للتاريخ الإسلامي وحركات

الإصلاح:

شرح المودودي معاني المصطلحات القرآنية بخلفية طغى عليها الروح السياسية، وتبين له بعد مدارسته للقرآن أن هدفه الأول، وغايته القصوى؛ تحقيق الحاكمية الإلهية، وسلطته التشريعية في الأرض، وحكم في هذا السياق على أغلب علماء الأمة بعد القرون الثلاثة الأولى بالجهل الصريح، والضلال في فهم معاني هذه المصطلحات وفوات دلالاتها الحقيقية، ونقل هنا مقتطفاً من كلام المودودي يصرح فيه بشيء من هذا المعنى، يقول: "ولكنه في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعاني الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات، تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن، حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلك الكلمات الأربع عما كانت تتسع له، وتحيط به من قبل، وعادت منحصرة في معان ضيقة محدودة ومخصوصة بمدلولات غامضة مستبهمة"¹.

ويقول في صراحة أكثر ووضوح أتم " فمن الحق الذي لا مرأى فيه أنه قد خفي على الناس معظم تعاليم القرآن، بل وغابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية، مجرد ما غشي هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حجب الجهل، وذلك من أكبر الأسباب التي قد تطرق لأجلها الوهن والضعف إلى عقائدهم وأعمالهم على رغم قبولهم دين الإسلام وكونهم في عداد المسلمين"².

رد الندوي هذا الحكم بقوة وبين مخالفته للحقائق العلمية والعقيدة الدينية، وبين أن الأمة ظلت تتوارث الكلمات ومعانيها ومفاهيمها معا من جيل إلى جيل، واستدل بعدد من الآيات القرآنية الكريمة التي تصف الكتاب بالإبانة كقوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ (يوسف، الآيات: 1-2)، وكقوله تعالى في مطلع سورة الحجر: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۝﴾ (الحجر، الآية: 1). ونحو قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَاهُ

1- أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في ضوء القرآن، (مرجع سابق)، ص9.

2- المرجع نفسه، ص11.

لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ (الشعراء، الآيات: 192-195)، إلى غير ذلك من الآيات ثم علق عليها بقوله: " وهل يسوغ لعاقل أن يعتقد أن ذلك الكتاب الذي نص القرآن مرارا وتكرارا وفي قوة وشدة وإلحاح على إبانته ووضوحه وكونه سهلا سائغا للفهم، عجز عن تفهيم مصطلحاته الأربعة التي يدور حولها نظامه الاعتقادي والعملية والدعوي، وتقريب معانيها الحقيقية ومفاهيمها الأصلية إلى العقول والأذهان"¹. كما استدلل بجملة أخرى من الآيات التي يصف فيها الحق سبحانه كتابه بالإحكام نحو قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ وَتُرُ فَصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (هود، الآية: 1). وبعد نقله أقوال المفسرين في شرح معنى الإحكام عقب بقوله: " إن هذه الصفات والنعوت، هي الأخرى تنافي الفكرة القائلة بأن العديد من الحقائق القرآنية ظلت خافية على الناس لمدة طويلة"².

ثم بين -رحمه الله - أن هذا التفكير يناقض صريح القرآن الذي وعد الله فيه بحفظه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر، الآية: 9)، فإن الوعد بالحفظ يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق، فلا خير في كتاب يبقى لا يفهم ولا يعمل به، كما استشهد الندوي بكلام علامة الهند "أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي" في معرض حديثه عن قول الله تعالى: ﴿تُرِ إِانَّ عَلَيْنَا بَيَانُهُ﴾ (القيامة، الآية: 19)³.

ثم عقب الندوي على ذلك بقوله: "إذا فبعد هذا الوعد الإلهي المؤكد الصريح المتمثل في ﴿تُرِ إِانَّ عَلَيْنَا بَيَانُهُ﴾ لا مساغ للقول بأن الكلمات القرآنية الجذرية التي لا يمكن الوصول إلى مفاهيم القرآن، ومعانيه الحقيقية، وأحكامه ومطالبه المرادة بدونها، بقيت قرونا طويلا غير مفهومة، منظوية على معانيها، ولا يعني هذا الاعتقاد إلا نقضا للآية الكريمة السالفة الذكر في مفهومها ومعناها ومقتضاها"⁴.

1- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص38.

2- المصدر نفسه ص40.

3- المصدر نفسه، ص41.

4- المصدر نفسه.

وأطب -رحمه الله- في بيان أن الأمة لم تقع فريسة الجاهلية العامة والضلالة الشاملة¹، وسرد عددا من النصوص الشرعية التي تنفي الضلال العام عن الأمة، وعضد هذا الموقف بنقل أقوال عدد من كبار العلماء تؤكد هذه الحقيقة التاريخية².

ومن جهة أخرى استنكر الندوي على المودودي تصويره القائم للتاريخ الإسلامي، الذي بدا له سلسلة متصلة الحلقات من الجهل والانحطاط، عقلت الأمة خلاله عن أن تلد مجددين كاملين³.

وقف الندوي طويلا عند أثر هذا التفكير، وكشف عن خطورته على الشباب المثقف الذي لم تتح له فرصة الدراسة الواسعة والعميقة للتاريخ الإسلامي العلمي، الفكري والإصلاحي، وأبرز أثر لهذا التوجه هو التشكك في خلود رسالة الإسلام، وأبدية تعاليمه وصلاحيته الأمة لصنع الرجال والعباقرة، والغض من كل ما تحقق عبر تاريخ الإسلام الطويل من مآثر وأجساد، وجهود ومحاولات مستمرة في مجال الإصلاح والتجديد، فيؤدي ذلك إلى زعزعة ثقته بمصير الإسلام ويقع إلى حد ما فريسة مركب النقص واليأس، ويخيل إليه أن تربة الإسلام لا تصلح للإنبات⁴، وإذا تمكن هذا الشعور من النفس كان أكبر عائق يحول دون كل محاولة للنهوض والإصلاح.

وأشار الندوي إلى أن هذا الأسلوب في الدراسة قد استخدمه المغرضون الطامحون في بناء مجد لهم، على أنقاض التاريخ الإسلامي والفكر الإسلامي، ومع تبرئته المودودي من هذا القصد والنية، لكن نتيجته واحدة فيما يرى الندوي، وما هو يصرح بذلك في قوله: " لكن مهما كان ذلك عن خلوص نية وحسن طوية فإن نتيجته السلبية الطبيعية لا بد أن تتحقق، وذلك ما يقتضيه المنطق السليم وطبائع الأشياء وقانون الأسباب والمسببات في الكون"⁵.

كما نبه الندوي على أن هذا المحذور من نتائج فكرة المودودي، ليست مجرد هواجس قد تسنح للخطا، بل هي تصورات قامت بالفعل في أذهان من ربوا على كتابات الأستاذ المودودي ومشاعر متغلغلة في وجدانهم لاحظها الندوي في أحاديثهم وكتاباتهم، يقول الندوي كاشفا عن هذا الأثر: " قد بلغ بهم اليأس من تاريخ الإسلام وماضي المسلمين ومآثرهم العلمية، والفكرية فيما بعد القرون الثلاثة الأولى، حتى تضاءلت أمامهم الشخصيات الإسلامية العملاقة، وقلت قيمة الجهود التي بذلت في سبيل النهوض بالإسلام والمسلمين، وإدالة هذا الدين من الجاهلية في الماضي، وقيمة المآثر

1- ينظر: الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص 42 وما بعدها.

2- المصدر نفسه، ص 42-45.

3- المصدر نفسه، ص 58.

4- المصدر نفسه، ص 52-53.

5- المصدر نفسه، ص 62.

العلمية التي تحلى بها تاريخ الإسلام الفكري والعلمي، وازدانت بها المكتبة العالمية، وآمن كثير منهم - وصرح به بعضهم - أن فكرة الإسلام المنسقة، أو التصور الإسلامي الكامل لم يعرض إلا في هذا الزمن الأخير عن طريق دعوة الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية وبقلم مؤسسها في الثلاثينات من القرن العشرين¹.

ولعل من المفيد في هذا السياق الإشارة إلى أن الأستاذ سيد قطب قد سار في بعض كتاباته في هذا الاتجاه، وحكم أحكاماً قاسية على التاريخ الإسلامي ورآه بمنظار أسود، وهذا أحد المآخذ التي سجلها عليه الأستاذ يوسف القرضاوي².

6-2- تنميط العلاقة بين الرب والعبد واعتبارها صلة حاكم بمحكوم، وصلة رسمية خالية

من الروح:

تحفظ الندوي على ما يفهم من كلام المودودي من كون الصلة بين الله والعبد هي صلة الحاكم بالمحكوم والملك بالرعية، وذلك كأثر لإعلاء جانب الحاكمية، واعتبارها الأصل من بين أسماء الله الحسنى وصفاته، فتتحول هذه الصلة إلى صلة رسمية ضيقة محدودة، يقول الندوي: " والواقع أن صلة الخالق والمخلوق والعبد والمعبود هي أشمل وأوسع وأعمق وأدق بكثير من صلة الحاكم الأمر والمأمور، والسلطان والرعية، وقد لهج القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته في بسط وتفصيل وأسلوب شيق جميل، لا يدلان أبداً على أن المطلوب من العبد هو الإيمان بمجرد حاكميته المطلقة، والإذعان لسلطته العليا، وأن لا يشرك آخرين معه في سلطته"³.

ثم بين الندوي أن كثرة الأسماء والصفات الإلهية التي زخر بها القرآن تتطلب في صراحة أن يحب العبد ربه، ويتفانى في طلب رضاه، ويلهج بذكره في كل حين، وأن يخاف بطشه وقهره، وأن يلتجئ إليه في كل حال ويتطلع إلى جماله وكماله باذلاً في سبيله كل نفس ونفيس وغال ورخيص.

واتهم الندوي أصحاب هذا الاتجاه في التفسير - بأسلوب لبق - بعدم فهم حقيقة الصفات، وحقيقة العلاقة بين العبد وربه، وعرض - من خلال أسلوب المقابلة - كيف تجلى الإيمان بهذه الصفات في حياة الأنبياء، ولا سيما خاتمهم محمداً ﷺ وكيف تجلى ذلك في حياة أتباعه وورثته، ثم فسر تلك العلاقة بقوله: " وكان ذلك كله ناشئاً من أنهم لم يكونوا يؤمنون بالله كالحاكم الأعلى

1- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص63.

2- ينظر: يوسف القرضاوي، ابن القرية والكتاب، ط1، القاهرة: دار الشروق، ج3، ص63.

3- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص78.

والسلطان الأعظم فحسب، بل كانوا يرونه بجانب كونه معبودا وربما؛ محبوبا حقيقيا وموضع الحب الأصيل ومنتهى الجلال والجمال والفضل والكمال"¹.

6-3- التسوية بين شرك الاعتقاد والعمل وشرك الحاكمية:

وقف الندوي عند نتيجة ثالثة خطيرة- حسبه- يقتضيها تضخيم الحاكمية في فهم الألوهية، وهو ما يمكن تسميته بشرك الحاكمية، وتقديمه على شرك العبادة والاعتقاد مما يوحى بتهوين أمره، واعتباره من الجاهلية الأولى الساذجة شاهده قول المودودي: " فالذي يعتقد أن أمر كائن ما من دون الله مما يجب إطاعته والإذعان له بغير سلطان من الله فإنه يأتي من الشرك بمثل ما يأتي به الذي يدعو غير الله ويسأله وكذلك الذي يدعى أنه مالك الملك والمسيطر القاهر، والحاكم المطلق بالمعاني السياسية فإن دعواه هذه كدعوى الألوهية"².

لقد فهم الندوي من هذه العبارة أن الشرك في الحكم والإشراك في العبادة يتساويان، وأن طاعة أحد والخضوع لحكمه بالمعاني السياسية شرك كشرك من يعبد أحدا غير الله، أو يتقدم إليه بالدعاء أو يتقرب إليه بالنذر والذبح، ويبيّن المحذور من هذا الفهم بقوله: " ومن يقصر مطالعته على هذه المقالات والكتابات وحدها، ويعيش فيها ويتنفس في جوها ويتغذى بها عقليا وفكريا، تتأكد في نفسه أولية الإشراك في الحكم وأهميته -طبيعيًا- وتتضاءل عنده شناعة الإشراك في العبادة، والاعتقاد في أحد بأنه موضع العبادة والاستغفار، والتضرع والدعاء والسجود والخضوع، وما إلى ذلك من مظاهر غاية التعظيم والتقديس، أو يرى ذلك من خصائص الجاهلية القديمة البدائية"³، واستفاض الندوي في بيان خطورة هذا المسلك ومخالفته لدعوة الأنبياء التي كان هدفها الأول في كل زمان ومكان هو تصحيح العقيدة في الله، وتصحيح صلة العبد بربه، وإخلاص الدين لله وإفراده بالعبادة، والتأكيد على أنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعوة والنسك وحده⁴، واعتبار ذلك الركن الأساس في الدعوات الدينية وحركات الإصلاح إلى يوم القيامة؛ أما مظاهر الجاهلية الأخرى كالطاعة لغير الله، والتحاكم إلى غير الله وقبول التشريع غير الإلهي، وتسليم حكومة لا تقوم على النيابة عن الله، وعلى أحكامه، فكل ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ويأتي بعده، ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجلي المتقدم ذكره، وأهميته، وأن يوضع في الهامش من مناهج دعوة أو جهاد، أو يساوى بينه

1- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص78.

2- ينظر: المودودي المصطلحات الأربعة، (مرجع سابق) ص31-32.

3- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص85.

4- المصدر نفسه، ص85-94.

وبين معاني الطاعة والحكم السياسية، ويحكم عليها حكما واحدا، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التي ولى عصرها وانقضى دورها"¹.

كما نقل الندوي في هذا المقام نصوص مشابهة لسيد القطب رحمة الله من "معالم في الطريق" و"في ظلال القرآن" تحمل نفس الفكرة، منها على سبيل المثال: قوله: "إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر في صورة من الصور... أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور"².

ويعلق الندوي على هذا النص لسيد قطب بقوله: "ومن يجعل الحاكمية أخص خصائص الألوهية وفكرتها المركزية فإنه يعتبر -طبيعيًا- التحاكم إلى قانون من القوانين البشرية في أي شأن من شؤون الحياة مخالفة للدين وإشراكا في الحاكمية، الذي يرادف عند هؤلاء السادة الإشراف في الألوهية والربوبية"³.

والحق أن التضخيم لمبدأ الحاكمية أدى إلى نتائج خطيرة جدا منها تكفير الحكام والشعوب المسلمة بسبب احتكامها إلى قوانين وضعية بدلا من أحكام الشريعة الإسلامية، وفي هذا المناخ الفكري نبت الفكر الجهادي، الذي كلف الأمة الكثير⁴.

ولا بأس من إيراد شهادة لأحد رموز ومنظري الحركة الإسلامية المعاصرة وهو الدكتور يوسف القرضاوي، يميظ فيها اللثام على هذا الجانب من فكر سيد قطب، يقول: وأخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة في هذه المرحلة لسيد قطب هو ركونه إلى فكر "التكفير" والتوسع فيه، بحيث يفهم قارئه من ظاهر كلامه في مواضع كثيرة ومتفرقة من "الظلال" ومما أفرغه في كتابه "معالم في الطريق" أن المجتمعات كلها قد أصبحت "جاهلية"، وهو لا يقصد بالجاهلية جاهلية العمل والسلوك فقط، بل "جاهلية العقيدة" إنها الشرك والكفر بالله، حيث لم ترض بحاكميته تعالى، وأشركت معه آلهة أخرى استوردت من عندهم الأنظمة والقوانين والقيم والموازن والأفكار والمفاهيم واستبدلوها بشريعة الله وأحكام كتابه وسنة رسوله ﷺ⁵.

1- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص93.

2- سيد قطب، معالم في الطريق، ط10. القاهرة: دار الشروق، 1983م، ص81.

3- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص71.

4- ينظر: في نقد الحاكمية عند سيد قطب: السيد أسامة الأزهرى، الرد المبين على من تلاعب بالدين، ط2. أبو ظبي: دار الفقيه، 2015م، ص17 وما بعده.

5- يوسف القرضاوي، ابن القرية والكتاب، (مرجع سابق) ج3، ص58-59.

وقد تولى الرد على هذا الاتجاه في التفكير نخبة من العلماء والمفكرين زيادة على المرحوم أبي الحسن الندوي منهم وحيد الدين خان في كتابيه "خطأ في التفسير" والتفسير السياسي للدين "ومرشد الإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبي في "دعاة لا قضاة" وسالم علي البهنساوي في "الحكم وقضية تكفير المسلم" وغير هؤلاء.

ولعل من المفيد في هذا المقام الإشارة إلى أن بعض محيي المودودي وسيد قطب وأنصار فكرة الحاكمية لم تقنعهم هذه الردود وراحوا ينسبون إلى بعض هؤلاء الأعلام عدم الفهم والتطرف في المواقف¹.

4-6-4- تفرغ الدين من أبعاده الروحية:

أخذ الندوي على تفسيرات المودودي تركيزها مفهوم العبادة في الطاعة والانقياد والوفاء والولاء، لاعتبار السلطة جوهر الألوهية مما يؤدي إلى إضعاف شأن العبادات وتهوينها في القلوب، وإفراغها من هيئاتها الباطنية، والشأن أن القرآن الكريم وأحاديث الرسول الكريم ﷺ ترغب فيها وتنوه بشأنها وتدعو إلى التنافس فيها، وتثني على المكثرين منها الوالعين بها، وتندد بالراغبين عنها والمقصرين فيها يقول الندوي: "وطبعا بدت له الشعائر التعبدية في درجة ثانوية، وبدا له الانهماك والتوغل فيها والمداومة عليها، نتيجة الجهل لروح الدين ورمز عهد الانحطاط، وأخذت فكرته ودعوته هذه شدتها وحدتها حتى جعلت أسلوبه الكتابي يتسم - لدى الحديث عن الفكرة المركزية للعبادات وروحها وجوهرها، التي لا يتجاسر أحد من أهل العلم أن ينكر أهميتها في حد ذاتها- بما يشبه الاستخفاف بتلك العبادات المشروعة، والإكثار من الصلاة والذكر، وهناك يتحول أسلوبه عن أسلوبه الكتابي الهادئ، إلى الأسلوب الإنشائي الهادر"².

وينقل الندوي من كلام المودودي ما يشعر بالتهوين من العبادات والشعائر وما يعتبره، فهما خاطئا لها ميرزا جانب الأخذ بالتكاليف الشرعية وتطبيقها في الحياة وإطاعة السيد في أمره، ثم يرد الندوي على هذا التوجه بما مضمونه أن أئمة الدعوة والإصلاح عبر تاريخ الأمة الطويل عنوا بالتحذير من التهاون بالأحكام العملية الشرعية، ورغبوا فيها وحثوا على ضرورة المحافظة عليها، "لكنهم لم يتخذوا قط أسلوبا يتسم بالاستهانة بقيمة الاشتغال بهذه العبادات والأذكار، والإكثار من التسبيح والتحميد والتلاوة، ولاسيما في هذا العصر الذي طغت فيه المادة على الروح، وبدأت تقل تلقائيا أهمية الإكثار

1- ينظر مثلا: صلاح عبد الفتاح الخالدي، في ظلال القرآن في الميزان، ط1، الجزائر: شركة الشهاب، 1986، ص، 156-157-179-185. حيث رد على الندوي والهضيبي واعتبر أحكامهما متطرفة.

2- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص95-96.

من العبادة والذكر، وأصبح الأسلوب المادي والسياسي يفرض سيطرته على الحياة، فكم كان يتحتم التحفظ، وملاحظة الدقة، والحكمة لدى الحديث عن مثل هذا الموضوع الدقيق الحساس في مثل هذا الوضع المكهرب"¹.

يرى الندوي أن هذا المنهج من التفكير - خاصة عند من يقتصرون في معلوماتهم الدينية على هذه الكتابات - سيؤدي حتما إلى إضعاف صلتهم بالله، وتتضاءل في أعينهم معاني الحب الإلهي وطلب مرضاة الرب سبحانه وتعالى، والسعي للفلاح الأخروي لصالح الهدف الأبرز، وهو إحداث الانقلاب الإسلامي وتأسيس الحضارة البشرية على الأسس الإسلامية، وهو ما يفرغ الدين من مضامينه الروحية ويحوّله إلى أنساق فكرية جافة تشبه الأنظمة السياسية والاقتصادية السائدة التي لا تخاطب في الإنسان إلا فكره.

ونقتبس هنا فقرة لناقد آخر لفكر الأستاذ المودودي، يؤكد من خلالها على نفس الفكرة، يقول تحت عنوان التدين النظري: " فالإسلام من منظور هذا التفسير نظرية انقلابية شاملة... إن كافة النظريات الانقلابية هي مجموعة كلمات تفتقر إلى أساس روحاني، لذا فهي رائجة في الكتابات والخطابات غير أنها لا تمس روح الإنسان، ولا تكون جزءا من تفكيره ولا تؤثر في كيانه الداخلي"².

ثم يقول في وضوح أكثر معربا عن نتيجة هذا الاتجاه في التفكير: " وهكذا حين أصبح الإسلام نظرية كغيره من النظريات؛ فإنه بات لا يقدم لأصحابه سوى بحوث نظرية دون أن يحرك كيانهم الداخلي أو يخلق في نفوسهم الشوق الروحاني أو يعرفهم بكيفية الاقتراب من الله وهي الزاد الأكبر للإنسان في هذه الدنيا"³

كما أخذ الندوي بشدة على المودودي اعتباره الأركان الأربعة للإسلام (الصلاة، الصوم...) وسائل وذرائع إلى غاية أخرى وهي تأسيس الحكومة الإلهية، ونقل عنه قوله " هذه هي الغاية التي من أجلها فرض الإسلام عبادات الصلاة والصوم والزكاة والحج، والتعبير عنها بالعبادة لا يعني أنها هي العبادة ليس غير، بل معنى ذلك أنها تعد الإنسان لتلك العبادة، فكأنها مقررات تدريبية لازمة لها"⁴.

بين الندوي أن القرآن الكريم ينص على أن الحكومة هي الوسيلة وأن إقامة الصلاة هي الغاية واستدل بقول الله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا

1- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص98-99.

2- وحيد الدين خان، خطأ في التفسير، (دون بيانات النشر)، ص247.

3- المرجع نفسه، ص247.

4- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص104.

بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ^٢ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ (الحج، الآية: 41)، ثم يقدم شهادة السيرة المحمدية وكيف كان النبي ﷺ ينزل الصلاة منزلة عالية في قوله وفعله¹، وكل ذلك يدل على أنها لم تكن مجرد وسيلة، بل تعتبر حجر الزاوية في نظام الدين كله يؤخذ العبد عليها ويحاسب يوم القيامة إن قصّر أو أهمل، ثم يكشف الندوي عن الأثر النفسي لهذه الرؤية للعبادات بقوله: "ومن نتيجة هذا الأسلوب في التفكير أنه يجعل المرء لا ينبعث في نفسه الشعور بالصلة القلبية بالعبادات، ولا يتحرك لإنشاء الروح والكيفية الباطنية فيها، ولا تثور في قلبه عاطفة الحصول على صفة الخشوع والخضوع والإخبات، والاستحضار ودوام الذكر والإخلاص، والإيمان والاحتساب، ولا يرى الحاجة إلى هذه الكيفيات الباطنية والأخلاق الإيمانية والإحسانية، ولا يحسب حساباً لقيمتها وغنائها فضلاً عن أن يفكر في الحصول عليها والتفوق فيها"².

6-5- إدانة الاتجاه الصوفي بالبطالة والاستسلام:

من المآخذ الهامة التي نبه عليها الندوي، والتي تعتبر نتيجة طبيعية لاعتبار روح الإسلام وهدفه الأول إقامة الحكومة الإلهية في الأرض والنظر إلى باقي مكونات الدين كقضايا جزئية هامشية حكم المودودي على التصوف ورجاله بالبطالة والاستسلام، والفرار من معترك الحياة، وعدم السعي لإقامة الدين، والانسحاب من ميدان الكفاح والنضال، والتراجع عن معركة الحق والباطل، بل التفاهم مع القوى الباطلة وممالاتها، فضلاً عن الاستسلام والخضوع لها³، يقول المودودي: "هل هناك دليل واقعي في الكتابات الصوفية على أن هؤلاء الشيوخ -الذين تنتمي إليهم هذه المناهج الصوفية - كانوا يضعون في اعتبارهم ((إقامة الدين)) بأوسع معانيها، وهل هناك دليل على أنهم إنما اتخذوا هذه المناهج من أجل تخريج الرجال لهذا الغرض، وهل قام الرجال المتخرجون فيها- ولو مرة- بهذا العمل"⁴. استغرب الندوي هذا الحكم الذي آمن به المودودي -كحقيقة بديهية لا تقبل الجدل والنقاش- وعرضه على حقائق التاريخ ووقائعه الثابتة، وأدانه وبيّن خطأه من خلال مسلكين: أولهما؛ شهادة من كلام المودودي نفسه، وثانيهما؛ شهادة التاريخ.

1- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص 105-107.

2- المصدر نفسه، ص 109.

3- المصدر نفسه، ص 112.

4- المودودي، رسائل ومسائل، نقلاً عن الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص 113.

أ- ما أورده المودودي ذاته في كتابه "موجز تجديد الدين وإحياءه" أثناء حديثه عن جهود السيد أحمد بن عرفان الشهيد و"إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي"¹ الإصلاحية وجهادها لإقامة الدين، وهي جهود اعترف بها المودودي وأثنى على أصحابها؛ فعقب الندوي على شهادته بقوله: "وها هنا يمكن أن نتساءل- بكل أدب واحترام-: أفلم يكن الهدف الذي من أجله قام السيد أحمد وصاحبه العلامة إسماعيل ابن عبد الغني الشهيدان بهذه المحاولات كلها، أو لم يكن ما أحرزه من نجاح في إصلاح الأخلاق والسلوك، وإحداث التغيير الهائل في الحياة، وإعداد الرجال للجهاد، والقيام بالجهاد وفق المبادئ الإسلامية الأصيلة، وتأسيس نظام الحكم المرضي لدى الخالق مالك الملك، وإقامة الحكومة التي كانت على نموذج الخلافة في عصر الراشدين، أفلم يكن ذلك كله محاولة (إقامة الدين) وهل قام بهذه المآثر إلا أولئك الذين كانوا أئمة في التزكية والإحسان يدعون إلى الربانية الصافية، والتربية الروحية البعيدة عن كل بدعة وخرافة"².

وتوسع الندوي رحمه الله في بيان أن الجهاد المقدس لا يستطيع أن يقوم به حق القيام، إلا من تحرر من عبادة النفس والهوى، وتخلص تماما من أمراض الجاهلية كحب الدنيا والتعلق بها، وكرهية الموت، وامتلاً قلبه بالحنين والشوق إلى لقاء الله، والفوز برضاه، واعتبار ذلك هو السر فيما يرى من شخصيات فذة قوية على رأس كل حركة جهادية³.

ب- قدم الندوي نماذج عديدة من التاريخ الإسلامي للقادة الروحيين الذين أسعفوا الأمة في أشد ساعاتها حرجا من أرباب المجاهدة ورجال الحب واليقين منهم عبد القادر الجيلاني وخلفاؤه⁴، وإمام الطريقة المجددية أحمد السرهندي⁵ والأمير عبد القادر الجزائري (1808-1883م) الذي قارع الفرنسيين سنوات عدة وأثنى على شجاعته وبطولته مؤرخو الغرب أنفسهم وهو أحد الأفراد الأفاضل في هذا المشرب.

1- ينظر: هذه النصوص في الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص 114-116.

2- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص 116-117.

3- المصدر نفسه ص 117-119.

4- ينظر: الندوي، ربانية لا رهبانية، (مصدر سابق)، ص 22؛ الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 1، ص 248-260.

5- ينظر بطولته وجهاده في الندوي، رجال الفكر والدعوة، أحمد السرهندي، (مصدر سابق)، ج 3، الباب السابع، جهود الإمام الدعوة الصامتة في توجيه الدولة إلى الإسلام من جديد ص 265 وما بعدها.

كما تحدث الندوي عن جهود شيوخ الطريقة النقشبندية في ساحة الجهاد والإصلاح منهم الإمام "شامل" الذي حارب الروس نحو خمس وثلاثين سنة¹.

وذكر بجهاد الطريقة السنوسية ورجالها في ليبيا، منهم "أحمد الشريف السنوسي" الذي حارب الإيطاليين ثلاثة عشر سنة كاملة² وعمه "المهدي" الذي كان يعدّ العدة ويربي مريديه على الفروسية فضلا عن الاهتمام بأعمال البناء والزراعة والغرس³.

كما أشار إلى أئمة التصوف في الهند كالسيد "أحمد بن عرفان" الشهيد الذي خصص له كتابا بعنوان "إذا هبت ريح الإيمان" كما ذكر بجملة من الأعلام الذين جمعوا مع الريانية الصافية؛ والجهاد في سبيل الله والإعداد له والتضحية بالنفس، والنفيس في سبيل الله؛ نترك المجال للشيخ الندوي متحدثا عن بعضهم بقوله: "وقد استمر هؤلاء الشيوخ من بعدهم في الجهاد في سبيل الله، فرأينا الشيخ الكبير، الحاج "إمداد الله المهاجر المكي"، والحافظ "ضامن الشهيد محمد قاسم النانوتوي" - مؤسس دار العلوم ديوبند- ومولانا "رشيد أحمد الكنكوهي"، يقاتلون الانجليز، ويستشهد "ضامن" في ساحة الجهاد، ويضطر "إمداد الله" إلى الهجرة، ويضطر "النانوتوي" و"رشيد أحمد الكنكوهي" إلى التستر والخفاء مدة من الزمن، وكان "أحمد الله شاه"، و"لياقت علي" من المشايخ الكبار الذين قادوا الجيوش لقتال الانجليز في ثورة 1858م الكبرى، وتولوا كبرها، واستشهد بعضهم، وقتل بعضهم شنقا. ثم جاء بعدهم "محمود حسن الديوبندي" الذي لُقّب بحق "شيخ الهند" وأعدّ عدته لجهاد الإنجليز، وأراد إنشاء حكومة مستقلة في الهند، فيها الأمر والنهي للمسلمين، ودفعه طموحه وهمة إلى الاتصال بتركيا والانسجام معها في خط الثورة والجهاد... وكان على قدمه تلميذه النجيب المجاهد "حسين أحمد المدين" -رحمه الله- الذي أبلى بلاء حسنا في قيادة الثورة على الانجليز وحركة الاستقلال في الهند⁴.

بل إن الندوي رحمة الله يطرح الموضوع بشكل معاكس لما طرحه المودودي، ويحاول إثبات أن على رأس كل حركة للجهاد والتضحية شخصية روحية قوية، ويطلبه بنبرة فيها شيء من التحدي أن يقدم مثلا واحدا لمحاولة إقامة الدين تحققت على يد شخصية بعيدة عن أصحاب تزكية النفس والعناية بالباطن والصلة العميقة بالله تعالى، يقول الندوي: "وها هو تاريخ الإسلام والمسلمين الماضي بين

1- الندوي، ربانية لا رهبانية، (مصدر سابق)، ص124-125.

2- المصدر نفسه، ص126.

3- المصدر نفسه، ص128-129.

4- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص132-133.

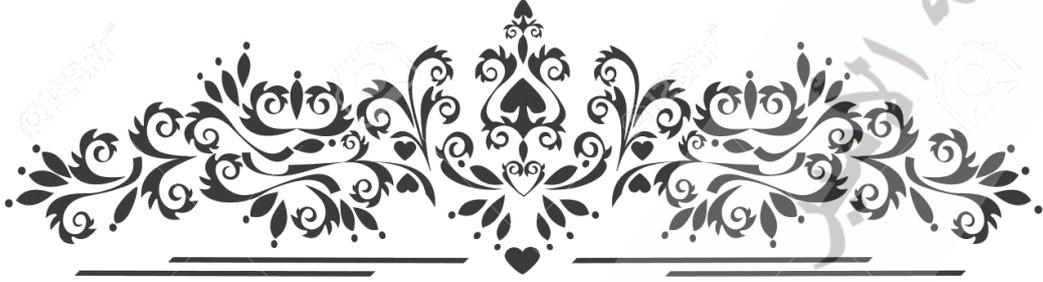
أيدينا نعرفه نحن، والأستاذ المودودي وكثير من رجال العلم والثقافة والدراسة، فليدنا أحد على حركة جهاد وكفاح وإصلاح، كان قائدها وليد مجرد ذكائه ودراسته، ومعلوماته ومطالعاته وتأمله وإمعانه، ما مسته يد تربية دينية روحية، ولا تزكية ربانية قوية"¹.

وخلاصة القول: إن أبا الحسن الندوي استشعر خطر القراءة السياسية للدين، وتضخيم شأن الجانب السياسي من الإسلام وجعله قطب الرحى ومركز الدائرة، وتفسير الإسلام في روحه ومقاصده على أنه نظام حكم، وإفراغه من أبعاده الروحية وتحويله إلى أنساق فكرية جامدة وتفسير مصطلحات القرآن الأساسية بما يخدم هذا الاتجاه، فاعتبر ذلك تحريفا للدين في روحه ومقاصده، وهب لصيانتها فكانت له مأخذ على هذا التوجه وبالأخص نتائجه النفسية والفكرية أهمها: اختزال علاقة المسلم بربه في جانب الطاعة والخضوع وإهمال جانب المحبة والخشية والإنابة، وتسوية شرك الاعتقاد، والعبادة بشرك الحاكمية وربما تفوق هذا الأخير عليها، وتوسيل العبادات والشعائر مما يؤدي إلى تهوين شأن العبادة في القلب وإضعاف جانبها الباطني الكيفي، وأخيرا إدانة الاتجاه الصوفي بالخمول والبطالة والاستسلام وعدم السعي لإقامة الدين.

لقد تفاعل الندوي إيجابيا مع هذا التحدي فبيّن المحاذير بكل صراحة رغم ما بينه وبين مؤسس الجماعة الإسلامية وقيادتها من المحبة والتقدير، ورغم ما قد تثيره - وقد أثارته فعلا- من ردات فعل، ولكن الغيرة الدينية وروح المحبة لهذا الدين أبت إلا القيام بهذا الواجب وبيان الحق كما يراه ويعتقده. والحق أن الندوي قد فتح هذا الباب مبكرا- في حياة مؤسس الجماعة- وتبعه فيه آخرون ولعل الحاجة لا تزال ماسة لتعميق هذا البحث في ظل التجاذبات الفكرية المعاصرة بشأن ما يسمى "بالإسلام السياسي" أو حتى الحركات الجهادية بدءا بـ"التكفير والهجرة" وانتهاء بـ"الدولة الإسلامية" في العراق والشام "داعش".

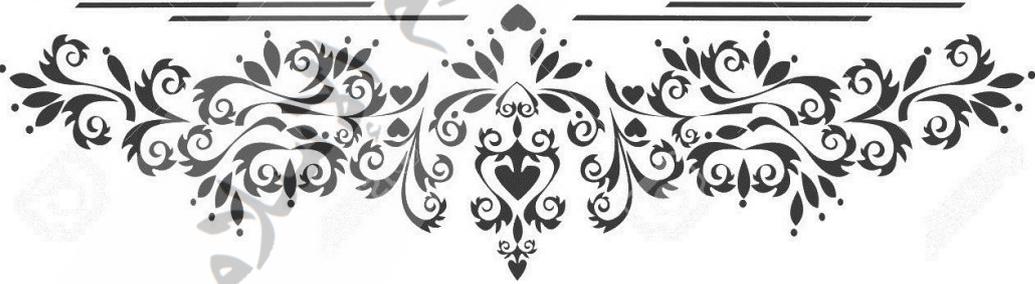
والله الموفق لحسن الفهم وخير العمل، ولا حول ولا قوة إلا به.

1- الندوي، التفسير السياسي للإسلام، (مصدر سابق)، ص120.



الفصل الثالث:

آراء الندوي في مواجهة التحديات الخارجية





المبحث الأول:

جهود الندوي في نقد الحضارة الغربية



تمهيد:

تصدى كثير من الكتاب والمفكرين لدراسة الحضارة الغربية وتحليل عناصرها وبيان الأسس التي تقوم عليها، وتوجيه سهام النقد لأصولها ونتائجها، واتسعت دوائر هذه الأبحاث والدراسات لتضم عددا كبيرا من الباحثين سواء من العالم الإسلامي أو من خارجه، نذكر منهم: محمد إقبال، أبي الأعلى المودودي، ومحمد أسد، والمهتدية مرهم جميلة، والكاتب الفرنسي المسلم الذائع الصيت، عبد الواحد يحيى، وسيد قطب ومحمد البهي وغيرهم، ممن قاموا بجهد مشكور في كشف عوار هذه الحضارة والتنبيه على أخطارها، خاصة وقد صارت حضارة عالمية لم تدع بلدا إلا وقد غزته في حاضرة أو بادية، بل لم تدع بيتا ولا كوخا ولا سهلا ولا جبلا.

ونستطيع القول بكل ثقة أن الشيخ أبا الحسن الندوي كان أحد هؤلاء الأعلام البارزين الذين عنوا بهذه المشكلة، بل يصح القول أنها قطب الرحي ومركز الدائرة في مشروعه الفكري وترجع إليها كل كتبه ومقالاته ومحاضراته¹ وفيما يلي محاولة لبيان جهود أبي الحسن في نقد هذه الحضارة مقسمة إلى ستة محاور نتعرف عليها بإذن الله.

1- دواعي اهتمامه بقضية الحضارة الغربية:

يمكن تركيز أسباب اهتمام الندوي بالحضارة الغربية في سببين رئيسيين يعتبر كل ما بعدهما فرعاً عنهما وهما: الردة الفكرية الواسعة الذي عرفها العالم الإسلامي والآثار الفادحة الواقعة على الإنسانية عامة بفعل هذه الحضارة.

1-1 - الردة الفكرية:

ويعني بها الندوي ما واجهه العالم الإسلامي من غزو فكري غربي حمل إلى الشرق فلسفات ونظريات حديثة إلحادية قامت على أساس إنكار الدين، والحقائق الغيبية والوحي والنبوت وإنكار الشرائع السماوية، منها ما تبحت في علوم الحياة كالداروينية، ومنها ما تتصل بالأخلاق، ومنها ما تدور حول علم النفس، ومنها ما موضوعها الاقتصاد والسياسة، إلى غير ذلك من هذه الفلسفات التي مهما اختلفت في ألوانها وأهدافها وأسسها، فإنها جميعا تلتقي في النظرة المادية المحضة للإنسان والكون، دون اعتبار لمبدأ سام، ولقد أغارت هذه الفلسفات على العالم الإسلامي من أقصاه إلى

1- خصص الندوي لهذه القضية عدة كتب ورسائل منها: ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين، والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، وحديث مع الغرب، والإسلام والغرب، الصراع بين الإيمان والمادية، بين الدين والمدنية، المسلمون تجاه الحضارة الغربية، أحاديث صريحة في أمريكا، الحضارة الغربية الوافدة وآثارها في الجيل المثقف. ولا تخلو كتبه ورسائله الأخرى من إشارة إلى هذه القضية تصريحاً أو تلويحاً.

أقصاه وغزت الأسر والبيوتات، والجامعات والثانويات وسائر المؤسسات، واكتسح هذا الفكر العقول، وصرت لا ترى -إلا من عصم الله -غير من يدين بهذه الديانات الجديدة ويسجد لأوثانها، فتبليت الأفكار وتلوثت، وهاجت الشهوات واستحكمت، وسرى في الأمة مركب النقص، والإيمان بالأجنبي وحضارته، واحتقار الذات والتهاون؛ بل والاستهزاء بأعزّ نعمة وأجلّها وأكبر منّة وأعظمها منّ الله بها على البشرية، نعمة هذا الدين الخالد والرسالة الخاتمة، فكان واجب الوقت وجهاد الساعة أن يتمخض الغيورون على هذا الدين ويسخّروا كل جهدهم وذكائهم، وما حباهم الله به من مواهب من أجل إبطال سحر هذه الحضارة وكسر طلسمها، وإعادة الثقة بالنبوة المحمدية، والرسالة الربانية وتفيؤ ظلها الطيبة، وكان الندوي - رحمه الله - ممن تجندوا لهذه المهمة وندروا لها حياتهم وهو معنى من معاني الشعور بالوصاية على هذا الدين وهذه الأمة.

1-2- إغاثة الإنسانية الملهوفة:

نظر الندوي - وهو المؤمن المتشبع بقيم الإسلام وروحه، البصير برسالة الإسلام ودوره - إلى الإنسانية في ظل هذه الحضارة التي ملكت أسباب القوة، والقدرة على الإنتاج والتنظيم المحكم، وهي تكابد ويلاط القلق الدائم، والفراغ الروحي الهائل، والسامة التي نهاية لها، والتشاؤم والحيرة والأثرة التي ولدت الجشع والشح والصراع، وقسمت العالم إلى معسكرات متحاربة متدابرة، أدّت إلى اختراع أفنك الأسلحة وأشدها تدميراً وافتعال الحروب والنزاعات التي يهلك فيها الحرث والنسل من أجل ترويج السلع وإرواء ظمأ الربح الذي لا حدود له، ورأى أن دور المسلم هو المنقذ الوحيد لهذه الإنسانية المعذبة، والوصي عليها؛ ذلك لأن رسالته هي الرسالة الأخيرة للإنسانية، هاته الرسالة التي ما جاءت إلا لتعرف الإنسان بحقيقته وإمكاناته، ووظيفته في هذه الحياة، وتحرره من أنواع العبوديات وتخرجه من الظلمات إلى النور وتعرفه بفاطر السموات والأرض، وتصله به، وينعم في رحابها بالأمن والطمأنينة والمساواة والتعاون.

إن الندوي يؤمن إيماناً واثقاً بأن هذه الأمة هي الأمة التي اختارها الله للإمامة والقيادة، بما حباها الله من مقومات ومواهب. وما قررت شريعته من نظرة سامية للإنسانية، وما فرضته من شفقة عليها، ووجوب إغايتها والتقرب إلى الله بخدمتها، وهذا هو منصب وراثته النبوة الذي تتلاشى أمامه جميع الألقاب والمناصب والمكاسب المادية، والسلعة الغالية التي لا يخسر من يشتريها ولو ضحى بنفسه في سبيلها.

لذلك حرص الندوي حرصاً أكيداً على أن ينال نصيبه من هذا الميراث، فوجّه رسائل عديدة إلى أمم مختلفة.¹ ووقف موقف الداعية الإسلامي الجسور الذي لا يخجل من أن يلعب دوره، كما وجه رسائله إلى الشباب المغترب في بلاد الغرب كي يحافظ على شخصيته ويقوم بدوره في التعريف بالإسلام بكل أسلوب وبكل اعتزاز، كما أعاب على المستشرقين - مع اعترافه بجهودهم - دورهم السالب في تشويه الإسلام وحجبه، وتقصيرهم في تجسير الهوة بين أممهم والإسلام، وكان بإمكانهم تقديم خدمة جليلة للبشرية.

2- جذور ومصادر الحضارة الغربية عند الندوي:

يرى الندوي أنه لا يمكن الحكم الصحيح على الحضارة الغربية، ونقدها نقداً موضوعياً وعلى بصيرة، إلا بعد التعرف على أصولها ومواردها، لذلك وجدناه قبل قيامه بهذه العملية النقدية مهّداً للموضوع ببيان الجذور التي تستمد منها.

يرى الندوي أن الحضارة الغربية المعاصرة ليست وليدة القرون المتأخرة التي تلي القرون المظلمة كما يتوهم كثير من الناس، بل يرجع تاريخها إلى آلاف السنين، فهي سليلة الحضارة اليونانية والرومانية وورثتهما فيما خلفتاه من نظام سياسي، وفلسفة اجتماعية، وتراث عقلي وعلمي، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما.² فقد أخذت عن الأولى الخصائص التالية:

- أ- الإيمان بالمادى المحسوس وعدم الاكتراث بما لا يقع تحت الحس.
- ب- ضعف الدين وقلة الخشوع.
- ت- الاهتمام الزائد بالحياة الدنيا ومنافعها ولذائدها.
- ث- النزعة الوطنية، وحب الوطن وانتقاص غيرهم من الشعوب وممارسة التمييز ضدهم ومعاملتهم معاملة سيئة.³

وأخذت عن الثانية بالإضافة إلى - الإيمان بالمحسوس والغلو في تقدير الحياة، وضعف الدين والاستخفاف به والتعصب للقومية - الاعتداد بالقوة، والاحترام الزائد لها لحد العبادة والتقديس،

1- وجه الندوي رسائل في الموضوع إلى قادة الفكر والرأي في أمريكا وألمانيا في كتابه: حديث مع الغرب، ورسائل مماثلة إلى الإنجليز في كتابه الإسلام والغرب.

2- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 157.

3- المصدر نفسه، ص 157-161.

وروح الاستعمار والعدوان على الشعوب وتلك خصيصة التي يتميزون بها بين الأمم¹، كما أخذوا عنهم الانحطاط الخلقي الذي بلغوا فيه أسفل الدرجات.²

كما كان من سوء حظ أوربا، ومن سوء حظ من دانوا لها بعد ذلك، أن خضعت للنصرانية المحرفة التي تم مسخها بالوثنية الرومية في فجر تاريخها، والتي تقضي بفساد الفطرة الإنسانية وعدم الثقة بصلاحية الإنسان، وكان لنظام الرهينة المتطرف المصادم للفطرة المزهد في حياة الكفاح والنضال، أبلغ الأثر في النفور من الدين.

ومن جهة أخرى كان للحرب التي دارت رحاها بين العلم والكنيسة مدة طويلة دور في اشمئزاز الغرب من هذا الدين الذي يقعد به ويثبطه، ويدفعه إلى الوراء، على حين كانت طبيعته المتحمسة المتطلعة الطموحة تندفع به إلى الأمام بقوة وحماسة.³

كما كان لسيرة رجال الدين الباذخة، المستغلة لنفوذها وجاهاها والمنافسة للأباطرة في الترف والنعيم وفساد الأخلاق، إسهام كبير في خلق جو مناهض للدين وأهله، ووقعت القطيعة الأبدية بين الدين والعلم، واعتبرا ضدان لا يجتمعان⁴، " فكان عاقبة هذا أن ولدت نهضة خرقاء، غطف هوجاء إذ كانت على غير هدى، وعلى غير أساس ديني خلقي، فوعدت أوروبا ومن تبعها من أمم العالم في هوة اللادينية وعبودية المادة".⁵

ويضيف الندوي رافدا آخر غدّي هذه الحضارة وهو الفكر اليهودي الشغوف بالتنافس على المادة والنهامة للثورة والكفاح للسيادة السلالية والكبرياء القومي، والتعلق اللامحدود بالدنيا "فقد ساهم اليهود بأكبر قسط في العلم والفن والاكتشاف والاختراع وفي السيطرة على هذه الحضارة وتملّك زمامها وتوجيهها في صالحهم والتأثير في الأدب والتربية، والسياسة والفلسفة، والتجارة والصحافة ووسائل الإعلام والتوجيه حتى أصبحوا العنصر الفعال الرئيسي في قيادة الحضارة الغربية".⁶

1- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 162-164.

2- المصدر نفسه، ص 165.

3- ينظر: الندوي، أحاديث صريحة في أمريكا، (مصدر سابق)، ص 57.

4- لتفصيل هذه القضية أكثر: ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 166-176.

5- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 96.

6- الندوي، الصراع بين الايمان والمادية، ط 1، دمشق: دار القلم، 1997، ص 15-16.

3- أسس الحضارة الغربية:

نستطيع القول أن الأساس الكلي والعمود الفقري الذي تقوم عليه الحضارة الغربية هو الأساس المادي، الذي لا يعترف إلا بالمحسوس وينكر إنكارا كلياً كل ما هو غيبي، ويتفرع عن هذا المبدأ العام ماديات جزئية تتكيف حسب المجال التي تعنى به.

ففيما يتعلق بالخالق يتنوع الفكر المادي بين الإنكار الكلي للإله واعتباره وهمًا صنعه الحاذقون لاستغلال الحمقى¹، فالسماء فارغة، وما الألوهية إلا هذا الإنسان، وقوانين الطبيعة، وبين إنكار جزئي ينفي عن الخالق فاعليته وقيوميته، ويجعله شأنًا خاصا عند من يعتقد به، ويتدرج الأمر إلى وجود من يتوقف في شأن الإله ويعلن لا أدريته حتى صارت اتجاهها واسعا، له أتباعه وأنصاره، وأخيرا - ولغلبة هذه النزعة الحسية - تصور الألوهية في أوثان متعددة الأشكال والصور حسب الثقافات المختلفة.

أما فيما يتعلق بمجال التفكير والعلم والبحث فتظهر المادية في صورة إنكار وجود كل ما هو غير محسوس، فالحقائق فقط هي ما يخضع للتجربة الحسية والمشاهدة العملية، والعقل هو الحاكم الأوحده ولا مجال لوحي أو نبوة، وتفسر كل الظواهر الكونية في المادة الحية أو الجامدة، وفي النفس الإنسانية والاجتماع البشري تفسيراً مادياً بحتاً، وتنكر كل دين وتوجيه سماوي، وتنظر المادية للوجود على أنه فقط هذه الحياة الدنيا وصدق الله إذ يقول كاشفاً عن مكونات نفوسهم ونتائج أفكارهم وعقولهم ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (الأنعام، الآية: 29)، فتتحول الحياة الدنيا: إلى هدف حقيقي، يبدل فيها الإنسان كل مواهبه وطاقاته، ويصرف فيها كل همّه ووقته، ويحدد له اللذة والمتعة هدفاً ومقصداً. وتتحول الوسائل إلى غايات وتصير بذلك جحيماً على أهلها بسبب التنافس المحموم والطمع والحرص.

هكذا تصبغ المادية بصبغتها كل شيء يقع عليه تفكير وبصر معتنقها، فالإنسان يحتزل في بعده المادي، والأخلاق يُتَعَبَّأ لها غايات مادية وحتى المطالب الروحية الخالصة يُتَقَصَّد لها غايات مادية، ويغيب كل مبدأ عدا المادة وتشكلاتها وفعلها.

1- ينظر على سبيل التمثيل لا الحصر: ريتشارد دوكنز، وهم الإله، تر: بسام البغدادي، ط1. (دون بيانات النشر)، 2009م.

4- خصائص الحضارة الغربية:

يسهل على الدارس بعد معرفته لروح هذه الحضارة ومعدنها أن يعرف مميزات وخصائصها، فلا تعدو أن تكون تفصيلا وتنوعا لتمثلات تلك الروح في مساقط متعددة.

يرى الندوي أن أولى خصائص الحضارة المادية الغربية المعاصرة التدجيل والتليس على الناس وتسمية الأشياء بغير أسمائها وتمويه الحقائق، وإطلاق الأسماء البراقة الخلابة للعقول على غير مسمياتها والخالية من كل مضمون كتعبيرات الجمهور والاشتراكية والحرية والأمن، الإنسانية، وحقوق الإنسان التي سحرت بها العقول، وجعلت النقاش في حقيقتها وصدقيتها علامة على الرجعية، ولبست على كبار الأذكىاء والمثقفين، فأصبحوا يتغنون بهذه الشعارات ويدعون إليها في حماس دون تمحيص لنية مدعيها، أو إمكانية نجاحها وإخفاقها في مجال العمل والتطبيق، "وهذا كله في قوة التدجيل وسحره الذي يفوق فيه الدجال الأكبر على جميع الدجالين والمدلسين... وقد سرت هذه الروح " الدجلية المدلسة " في هذه الحضارة لسيرها على خط معارض لخط النبوة"¹.

ومن وجوه دجلها النظرة الأحادية القاصرة المتطرفة في شتى المجالات، فالعقل والعلم التجريبي وحده الكاشف عن الحقيقة ولا حقيقة وراءه، فلا نبوة ولا دين. وأحادية في النظر إلى الحياة الدنيا واعتبارها الحقيقة الوحيدة وكل حديث عن دار آخرة خرافة ووهم، والإيمان بالمحسوس واعتباره الحقيقة الموضوعية الوحيدة ونفي ما عداها من الحقائق التي فوق طور العقل، كل ذلك مظاهر متعددة لنظرة أحادية دجالية. وقد سرت هذه الروح في النظريات السياسية كالديمقراطية والدكتاتورية والمذاهب الاقتصادية كالرأسمالية والشيوعية²، وحتى في المدارس الأدبية والمناهج النقدية، والخاصية الثانية للحضارة الغربية في رؤية الندوي، هي شغفها الزائد بهذه الحياة الدنيا الفانية والحرص على إطالتها وتزيينها والمبالغة في إجلال شأنها، ونفي ما وراءها، إن هذه النظرة نتيجة حتمية للنظرة الأحادية الدجالية وهي كثيرا ما تؤدي إلى الإسراف والإجحاف ولازمة من لوازمها. فالنظرة للحياة الدنيا باعتبارها الحياة الحقيقية الوحيدة تؤدي إلى الإسراف في التكسب والإنتاج، والإسراف في الإنفاق والبذل، والتلهي والتسلية، ولا يخفى ما يستلزمه ذلك من الشراهة المنفلتة والتنافس والأثرة سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات والدول.³

1- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص3.

2- ينظر الندوي، الصراع بين الإيمان والمادية، (مصدر سابق)، ص69-71.

3- ينظر تفصيل هذا المعنى في: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص106 وما بعدها.

أما الخاصية الثالثة للحضارة الغربية فهي الاعتداد الزائد بالقوة وتمييزها على حساب المبادئ والقيم والأخلاق، وهي ميراثها من الحضارة الرومانية، وتعزّز بما حولته العلوم الطبيعية من اكتشاف القوى الهائلة المودعة في هذا الكون، فأدّى ذلك إلى وجود إنسان يملك "قوة الآلهة وعقل الأطفال" حسب تعبير الندوي.¹

كل ذلك أدى إلى همجية سبعية تدمر البلاد والعباد وتهلك الحرث والنسل في قسوة لا نظير لها في التاريخ.²

وما حركات الاستعمار الغربي الحديث التي عمت أرجاء المعمورة، والفتك والقتل والتدمير والتخريب الذي شهدته هذه البلدان مما يفوق الوصف، إلا شاهد على هذه النفسية، وما دخول العالم في حربين كونيتين عبثيتين أزهدت أرواح ملايين الأبرياء دون ذنب - ولا تزال آثار هذا العدوان بادية للعيان في مواطن عدة من المعمورة- إلا شاهداً ثان على هذه الخاصية.

والخاصية الرابعة أنها حضارة عنصرية تعتقد تفوق العنصر الأبيض، والقومية الأوروبية وتدعى أنّها مركز الإنسانية وقطب رحاها، وعلى العالمين الطواف حولها، لذلك لا مانع من التطاول والاعتداء والسخرية والازدراء.³

فنظرية التفوق التي يؤمن بها الغرب تجعل له فضلاً على كل الشعوب، واعتقاداً بأنه لا يمكن أن يكون إلا سيّداً، وعلى الأمم الأخرى أن تخضع لسيطرته وتقبل هيمنته، وهنا ينقل الندوي عن "محمد أسد" وهو ناقد لهذه الحضارة خبير بها في سياق التعليل الأوروبي للتاريخ وتقسيم العالم إلى رومانين وبرابرة وهو موقف قديم كما مرّ سابقاً بقوله: "ثم إن مثل هذا العرض في التاريخ هدفاً خافياً، ذلك أنه يدل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيء جاء، أو يمكن أن يجيء إلى هذا العالم، وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبي لسعي الأوروبيين إلى السيطرة وإلى القوة المادية".⁴

وظهرت هذه الروح في ميدان الفكر والتأليف، كما هو باد على سبيل المثال في كتابات المستشرقين⁵ وظهرت في ميدان السياسة والحربية بتصنيع الأسلحة الفتاكة الكيميائية والبيولوجية، وأسلحة الدمار الشامل، والتي تهدد سلامة البشرية كلها⁶، كما ظهرت في الاقتصاد والمال والأعمال باستباحة

1- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص218.

2- ينظر: الندوي، الصراع بين الإيمان والمادية، (مصدر سابق)، ص115.

3- المصدر السابق، 202.

4- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، (مصدر سابق)، 76.

5- ينظر: الندوي، محاضرات في الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج3، ص539-540.

6- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص223-225.

ثروات الشعوب ومقدّراتها عن طريق الشركات العالمية العابرة للقارات، والبنوك والصناديق العالمية المربية التي تلغ في دماء الشعوب الفقيرة والمقهورة¹. وافتعال الأزمات من أجل تحقيق عوائد مالية ومكاسب سياسية.

والخاصية الخامسة للحضارة الغربية كما يراها الندوي هي الإفساد فنشوؤها في مناخ ينكر الخالق ويثور على الأديان والأخلاق ولا يؤمن إلا بالمادة والقوة، سيؤدي حتما إلى كل أنواع التخريب والإفساد المعنوي والمادي، في الفكر والعمل، وهذه صفة الدجال الذي حذر النبي ﷺ منه أمته، ويستشهد الندوي بحديثين يلخصان الإفساد الدجالي بشقيه، (الشبهات والشهوات). أما الأول فقولته ﷺ: "إن الرجل ليأْتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه، مما يبعث به الشبهات"².

أما الحديث الثاني فيصف بعض ما يكون عند خروج الدجال، يقول النبي ﷺ: "ينزل الدجال بهذه السبخة بمَرَّ قَنَاءَ فيكون آخر من يخرج إليه النساء، حتى أن الرجل ليرجع إلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطا مخافة أن تخرج إليه"³.

ويعلق الندوي على الحديثين بقوله "ويستمر فساد المجتمع والتحلل الخلقي" فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا"⁴ ولا أبلغ من هذا التعبير ولا أصدق من هذا التصوير للحضارة الكافرة المادية في أوج تقدمها وازدهارها وفي أعظم مراكزها وأمصارها وهي معجزة من معجزات النبوة الخالدة... فقد جمعت هذه الحضارة بين خفة الطير التي تطير بها في الفضاء... وبين الهمجية السبعية التي تدمر بها البلاد والعباد وتهلك بها الحرث والنسل"⁵.

وليس من العسير على كل ذي لب مطالعة صنوف الفساد والإفساد الذي جاءت به هذه الحضارة، ومسّ الفرد والمجتمع والبيئة.

1- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 207 - 212.

2- رواه أبوداود، وهذا الحديث صحيح من حديث عمران بن حصين، كتاب الفتن، باب العلامات بين يدي الساعة وذكر الدجال، صححه الشيخ الألباني، رقم الحديث 5488. ينظر: الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تح: محمد ناصر الدين الألباني، ط2، بيروت: المكتب الإسلامي، 1979م، ج 3، ص 1515.

3- رواه أحمد في المسند عن عبدالله ابن عمر رقم الحديث 5353، وقال أحمد شاكر عنه: إسناده صحيح ينظر: أحمد بن حنبل، المسند، تح: أحمد شاكر، ط2، القاهرة: دار المعارف 1971م، ج 7، ص 190.

4- رواه مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما رقم الحديث: 2940، كتاب الفتن وأشراف الساعة.

5- الندوي، الصراع بين الإيمان والمادية، (مصدر سابق)، ص 114 - 115.

5- وسائل انتشارها وتغلغلها في العالم الإسلامي:

ذكرنا سابقا أن اهتمام أبي الحسن بالحضارة الغربية كان ناشئا من ملاحظة عمق تأثيرها على المجتمع المسلم واتساعه وخطورته، لذلك من الطبيعي جدا أن يعنى بالبحث عن أسباب تغلغلها، ونفوذ روحها المادية في الأمة، خاصة وهي أمة غنية في عقيدتها ومبادئها وقيمها، ولها ذاتيتها، وخصائصها، كما أنه من الطبيعي أن يعنى أيضا بالبحث عن وسائل هذا التغلغل والانتشار.

لقد فصلّ الندوي القول حول القضية الأولى، وردّ سبب هذا التغلغل إلى عاملين أساسين هما: تهيؤ الأمة وضعفها الداخلي: الروحي والعلمي والعسكري، وهو ما اصطلاح عليه المفكر الجزائري مالك بن نبي ب " القابلية للاستعمار " .

والعامل الثاني هو شدة نفوذ الحضارة الغربية الفتية، وفتوحها العلمية والصناعية وقوتها العسكرية، ما أدّى إلى الشعور بالدهشة الحضارية والانهار بالوفاد الأجنبي والشعور بمركب النقص.¹ أما عن وسائل التغريب وجنوده فيحدددها الندوي في الآتي: التعليم الغربي، والآداب العصرية المتشعبة بالروح المادية، والاستشراق، وسنحاول تقديم لمحة عن العنصرين، الأول والثاني أما الاستشراق فقد خصصنا له مبحثا مستقلا يأتي لاحقا بإذن الله.

5-1: نظام التعليم الغربي:

يتفق الندوي مع محمد إقبال² في اعتبار نمط التعليم الغربي الذي كرسه الغربيون في البلاد المستعمرة والذي يحمل روح وضمير واضعيه ويعكس عقائدهم، ووجهة نظرهم إلى الحياة والإنسان، وتسري فيه أخلاقهم وأذواقهم - اعتبره أحد المنافذ الأساسية التي تسلل منها الفكر المادي إلى نخبة من أبناء العالم الإسلامي ثم توسع وانتشر من خلالها إلى عموم الأمة.³

1- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين،، (مصدر سابق)، ص 129-155.

2- محمد إقبال آراء طريفة في التعليم الغربي وخطورته، فقد خبر هذا النظام التعليمي عن كتب، وعيّر عن آرائه في عدد من دواوينه الشعرية، ومن أبرز ملاحظاته: أن هذا التعليم قد أخفق في أداء رسالته وأخفق في إنتاج جيل جديد يحسن استعمال معارفه العلمية وثروته الثقافية، ووضع كل شيء في محله، والعيش عيشة سعيدة مطمئنة. وأفرز جيلا يعرف الشيء الكثير من العلوم كالجغرافيا وعلوم الحيوان والنبات ولكنه يجهل نفسه، ويملك كل قوى الطبيعة ولا يملك نفسه، ناعم مصقول الوجه ولكنه فارغ الأكواب. من أجياله البدئية: " إياك أن تكون آمنا من العلم الذي تدرسه، فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها ". ويقول أيضا: " إن نظام التعليم الغربي، إنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة ". ينظر: الندوي، روائع إقبال، (مصدر سابق)، ص 51-62. وأيضا: الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة، (مصدر سابق)، ص 43 وما بعدها.

3- ينظر: الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 173 وما بعده.

وتسبب في زعزعة العقيدة والردة الفكرية الحاصلة فيها، والتي تنوعت مظاهرها، كالفكر العلماني الذي يعتبر الدين شأنًا شخصيًا لا علاقة له بالدولة والحكم، والاعتقاد بأنه عائق في سبيل النهضة والاكتشاف العلمي، والمناداة بتحرر المرأة على النمط الغربي، واعتبار الحجاب الشرعي علامة على الرجعية والتخلف، والاعتقاد بأن أحكام التوارث والزواج والطلاق اجتهاد فقهاء المسلمين، وضرورة إدخال التغيير والإصلاح عليها مواكبة للقوانين الغربية، وصرف النظر عن الربا والخمر والقمار والعلاقات الجنسية الحرة، والإيمان بالفكر القومي وإحياء الحضارات القديمة واللغات العتيقة وغير ذلك مما اعتبره الجيل المثقف الجديد حقائق ثابتة، وأمارات على التنور والنهضة والتقدم " وكل ذلك نتيجة نظام التعليم الغربي وبيئته الفكرية، وجوه العلمي والعقلي التغريبي وتراثه التاريخي ليس إلا " ¹.

لقد أعرب الندوي عن أسفه للدور التغريبي الطليعي الذي قام به المبتعثون للدراسة في الغرب بقوله: "ورجع أكثر هؤلاء الشباب المسلمين طليعة الفكر التغريبي، ودعاة متحمسين إلى تقليد الحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها وتصوراتها" ²

ويبين الندوي أن قادة العالم الإسلامي وحكامه، وأصحاب القرار فيه هم نتاج هذا النظام التعليمي التغريبي وهو ما أدى إلى بقاء العالم الإسلامي يتأرجح بين عقليتين وفلسفتين، ووجهتين مختلفتين تتصارعان دائمًا ³، وهو ما بدد طاقة الأمة وجهودها، وقد دعا الندوي إلى ضرورة ملء هذه الهوة بين الاتجاهين وإعادة الثقة لهذه الطبقة بصلاحية الإسلام لقيادة الحياة وركب البشرية. واعتبر إعادة النظر في هذه المناهج الموروثة من الاستعمار وصياغتها صيانة جديدة، يتغلغل في أحشائها الإيمان بالله ورسوله، واليوم الآخر، ونظرة الإسلام للإنسان والعالم والحياة، والانفتاح على العالم والاستفادة من كل مفيد ونافع مما لا يتعارض مع ديننا. واتخاذ شعار " خذ ما صفا ودع ما كدر " نبراسا في هذه العملية، واعتبر هذا العمل واجب الوقت وضرورة المرحلة. يقول الندوي: " أما بعد فإني لا أعرف أمانة أكبر مسؤولية وأشد خطرا، وأعمق أثرا في مستقبل الأمة وحياتها من التربية والتعليم، فزلة من زلاتها قد تردي أمة بأسرها في هاوية وقد تؤدي بها إلى الاضمحلال والتفسيخ والفوضى في الأخلاق والاجتماع، والسياسة والتعليم، واللا دينية والإلحاد، كذلك يمكنها وحدها أن توجه العقول والنفوس توجيهها صالحا، وتنشئ الأمة نشأة جديدة، وتبني لها مستقبلا باهرا، وليس من الشرف والرجولة

1- الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة، ط4- قسنطينة: مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع، 1982، ص 36.

2- الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 102.

3- ينظر الندوي، المصدر السابق، ص 36-37، والندوي، أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين، ط2: بيروت: مؤسسة الرسالة، 1987، ص 86.

الفرار من هذه المسؤولية المشرفة، بل الشرف وعلو الهمة الاضطلاع بهذا العبء¹ وأشاد الندوي بعمق نظر المهتمدي محمد أسد، وحصافة رأيه حينما وجه ملاحظاته الدقيقة على نظام التعليم الغربي وحذر المسلمين من قبوله دون وعي بما يوقعه من تأثير مميته².

وليسست أهمية هذا النظام التعليمي عند الندوي مقتصرة على الوظيفة الإحيائية الداخلية، بل هو كفيل، بتخريج جيل جديد مؤمن، مثقف يجمع بين العقيدة والعلم والعمل يحمل رسالة الإسلام ومبادئه إلى العالم وينقذه من المستنقع الذي يتزدى فيه والنهية الأليمة التي ترتقبه³.

وخلاصة القول: إن هذه القضية كانت محل عناية كبيرة من الندوي خصها بالكتابة والتأليف⁴، وراسل في شأنها الملوك والأمراء⁵، وعرض عليهم المشاركة والمساعدة الشخصية في هذا العمل رغم كثرة انشغالاته وأعماله، كما كانت حاضرة بقوة في محاضراته وخطبه في البلاد الإسلامية التي يزورها، مما يدل دلالة صريحة على وعيه بخطورة هذا النظام التعليمي، وقدرته على خلخلة العقيدة وإذابة الشخصية المسلمة وتغيير طبيعتها، وكثيرا ما كان يردد بيتا شعريا بليغا للشاعر الهندي المسلم "السيد أكبر حسين الإله أبادي" معناه "يا حسرتا على فرعون ذهب! كان عليه أن ينشئ كلية في مصر فلا يذكر بفضيحة قتل الأولاد" أي أن فرعون الغابر لم يكن بدهاء الفراعنة المعاصرين يقصد الإنجليز الذين تخلصوا من أعدائهم بتغيير طبيعتهم وإسلاس قيادهم عن طريق المدارس والكلليات دون أن يصموا جباههم بوصمات سوداء أو يُتَّهَموا بسفك الدماء، بل العكس هو الحاصل فقد نالوا الشرف "دعاة العلم" و"حماة المعارف"⁶.

1- ينظر الندوي: نحو التربية الإسلامية الحرة، (مصدر سابق)، ص23.

2- لمعرفة آراء محمد أسد في التربية وخطورة التعليم الغربي ينظر: محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، تر: عمر فروخ، بيروت دار العلم للملايين، ص 69، ما بعدها.

3- المصدر نفسه، ص40-41.

4- خصص الندوي لهذا الموضوع كتاب: نحو التربية الإسلامية الحرة، كما تناوله جزئيا في: الطريق إلى السعادة والقيادة، ط4، الجزائر: مؤسسة الإسراء (د.ت)، ص 123-222؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق) ص 241 وما بعدها، وعاصفة يواجهها العالم الإسلامي، نشر وتوزيع المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ، الهند، 1978، ص44 وما بعدها.

5- راسل الندوي بهذا الشأن، الأمير سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية، وأخاه الملك فيصل، والملك فهد، وأمير دولة الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير. ينظر نصوص هذه الرسائل في: الندوي، كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب، ط2، دار الاعتصام، 1979.

6- الندوي، محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة، (مصدر سابق) ج1، ص144.

5-2: الآداب الغربية:

أدرك الندوي خطورة الأدب وآثاره في الأفراد والأمم، من كونه وسيلة لتوجيه الميول والنزعات وتكوين القناعات، وكان ولا يزال أقوى عامل للهدم والبناء وغرس الفكرة واقتلاعها من النفوس¹، وتاريخ الدعوة الإسلامية وسير كبار الدعاة كالحسن البصري والغزالي وابن الجوزي شاهد على أنهم كانوا من الطبقة الأولى في البلاغة والتعبير وحسن الأداء وقوة التأثير، وقد كانت المقدرة البيانية أحد أقوى جنود الدعوة وأسباب الانتصار والانتشار لأفكارهم².

ولا يزال الأدب عند جميع الأمم وسيلة التأثير والتوجيه، وأداة غرس الأفكار والقناعات " وقد أصبح اليوم أشد تأثيراً في العقول والاتجاهات من الفلسفة وعلوم الطبيعة"³. ومن هذا المنفذ تسلل الفكر المادي وتشكلاته المختلفة إلى البلاد الإسلامية، فكان أداة تغريب وتخريب دفع إلى غرس الشك والإلحاد والنفاق في النفوس وإهدار للقيم الخلقية وتزيين الفحشاء والمنكر.

وقد نبه الندوي عن هذا الدور الخطير للآداب الغربية وآثارها المختلفة، ولفت النظر إلى الاحتراز منها في مواطن عدة من كتبه⁴ نختار منها النص التالي وهو كاف جداً لبيان هذه القضية. يقول الندوي:

ثم هناك الطابور الخامس، وهو ذلك الأدب المسلول المسموم، الذي ولدته الثورة الفرنسية، وأرضعته الفوضى الخلقية في أوروبا، وغذته الشيوعية، ذلك الأدب الخليع المستهتر الذي ينبت في القلوب النفاق ويسقي غرس الشهوات، ويقوّض دعائم العمران، ويفسد نظام الأسرة، ويسخر من كل فضيلة، ويستهيئ بكل أدب ونظام، ويزين للقارئ مذهب اللذة والانتفاع، وانتهاز الفرص، يلخص التاريخ ويوجز الفلسفة والعلم في حب المال، والميل الجنسي، ويصور العالم كله، كأنه ليس إلا ظهور هاتين العاطفتين، وليس وراء ذلك حقيقة علمية، ومبدأ سام أو غرض شريف.

1- الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة، (مصدر سابق)، ص 94.

2- المصدر نفسه، 94.

3- الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة، (مصدر سابق)، 95.

4- ينظر: الندوي، ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، 243 وما بعدها؛ الندوي، روائع إقبال، (مصدر سابق)، ص 57؛ الندوي، إلى الإسلام من جديد (مصدر سابق)، ص 153 وما بعدها.

وقد انتشر هذا الطابور في أنحاء العالم عن طريق الأدب والروايات والمجلات "والراديو" و"السينما" وتأثر به الحاضر والباد وتحدثت به العواتق في خدورها، وصار ينخر الحضارة الدينية والأدب الإسلامي حتى تسرب العطب اليوم إلى لبابه.

وهكذا أصبح العالم كله شعوبا وحكومات وأفرادا تحت سلطان المادية، والقوة والجاه والشهوات، قد شغلت منه كل موضع ومنفذ، وملكت عليه جميع مشاعره، واستهلكت في سبيلها جميع مواهبه وقواه وتفكيره وذكائه، وخلقت في الإنسان نفسية لا تؤمن إلا بالمحسوس، ولا تفكر إلا في اللذة والهناء والسعادة الدنيوية، ولا تهتم إلا بهذه الحياة ومطالبها الكاذبة التي ما أنزل الله بها من سلطان والتي إنما فرضتها على الإنسان الحياة المزورة، والمجتمع الفاسد، والتجارة الجشعة¹.

ولم يكن الندوي الوحيد في هذا الموقف فقد سبقه المفكر النمساوي المهتمدي "محمد أسد" الذي حذر من الإغراق في تقدير قيمة هذا الأدب لما يبذره في نفوس الناشئة من تشرب للحضارة الغربية بثقة عمياء واندفاع كبير يساعد على التقليد العملي لتلك المدنية الغربية التي لا يمكن أن تتفق مع روح الإسلام، ويدعو أسد إلى ضرورة تبديل هذه الآداب بالأدب الإسلامي الذي يشبع روح الطالب بسعة الثقافة الإسلامية وغناها، وهكذا يشيع في نفسه الأمل من جديد بحسن مستقبلها.² ويقول في موطن آخر: " إن تعليم الأدب الأوروبي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود إلى جعل الإسلام غريبا في عيون الناشئة المسلمة."³

وقد عبر عن هذه الحقيقة مفكر إسلامي آخر خبير الآداب الأوربية، كما كانت له مشاركة نوعية في الأدب الإسلامي، وهو الشاعر والفيلسوف "محمد إقبال" الذي اعتبر الأدب موهبة عظيمة يستطيع به صاحبه إحداث انقلاب في المجتمع، وثورة فكرية عظيمة يستطيع أن يضرب بها الأوضاع الفاسدة الضربة القاضية ويشعل البلاد نارا وثورة، ولقلم الأديب الموهوب تأثير كعصا موسى، يبطل كيد الساحرين، ويحذّر إقبال من أن يُستغل الأدب لجمع المادة أو لإرضاء الأثرياء والوجهاء أو إثارة الشهوات أو يتحول إلى أداة لهو وتسلية، فإنه ما وُهب لأجل ذلك - لقد ثار إقبال على الأدب في الشرق الإسلامي وسخر منه لأنه ركز اهتمامه على المرأة، فلا يتحدث إلا عنها، ولا يتغنى إلا بها ولا يبحث إلا فيها ولا يصوّر إلا إياها ولا يرى في الوجود إلا ظلها وجمالها وهذه عقيدة جديدة يمكن

1- الندوي، إلى الإسلام من جديد، ط6، دمشق، دار القلم، 1988، ص 153-154.

2- نظر: محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، (مرجع سابق)، ص75.

3- المرجع نفسه، ص76.

تسميتها "الوجودية الأدبية" وكأن الأدب العصري ينادي "لا موجود إلا المرأة" حسب تعبير الندوي¹ ولا شك أن ذلك أثر بارز من آثار الآداب الأجنبية، وثمره من ثمارها. ولم يكتف الندوي بهذا الموقف السلبي من الأدب الغربي، وإنما دعا إلى إنتاج أدب إسلامي قوي مؤثر يلائم الفئات المختلفة، حتى أنه عدّ أحد الرواد الأوائل في هذا العصر الذين اهتموا بالأدب الإسلامي كتابةً وتنظيراً وتوجيهاً ونقداً، وقد توجت جهوده أخيراً بإقامة رابطة عالمية للأدب الإسلامي². وعُيّن أميناً عاماً لها وكان ذلك بإحدى قاعات ندوة العلماء بمدينة لكهنؤ عام 1985³.

6- موقفه من الحضارة الغربية:

تنوعت مواقف قادة الفكر والرأي وأصحاب القرار في العالم الإسلامي من الحضارة الغربية الوافدة وقد قسّمها الندوي إلى ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: هو الموقف السلبي الرافض لهذه الحضارة ولكل منتجاتها، ويقف منها موقف المعارض الثائر أو موقف المحايد الذي لا يستفيد منها بشيء، ولو كان مما تفوق فيه الأوروبيون في المجالات الجديدة المحايدة. وقد انتقد الندوي هذا الموقف السلبي الذي لا ينتج إلا التخلف الشديد عن ركب الحياة ويقطع أصحاب هذا الخيار عن باقي العالم، ولا يدل إلا على ضيق العقل، وتعطيل القوى الفطرية، وجناية على الإسلام، وسوء فهم للدين الذي يحث على التفكير في الكون واقتباس الصالح النافع أينما كان مصدره، ويأمر بإعداد القوة للدفاع عن الدين، وينظر للإنسان على أنه خليفة قد سخر له الكون وما فيه. وإن مغبة هذا الخيار لن تكون سوى التمرد والثورة الداخلية، لأنه خيار يعارض الفطرة الإنسانية الطموحة الوثابة، المتطلعة للجديد والمفيد، وهو كذلك معارض لسنن

1- للتوسع في معرفة آراء إقبال في العلوم والآداب، ينظر: الندوي، روائع إقبال، (مصدر سابق)، ص 51 وما بعدها.
2- عبد القادر بن عيسى باطاهر، ملامح الأدب الإسلامي في كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي، مقال منشور ضمن عدد خاص أصدرته رابطة الأدب الإسلامي العالمية بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة للرابطة سنة 1996 باسطنبول، ط 1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2002، ص 488.
3- للتوسع في معرفة آراء وإسهامات الندوي في الأدب الإسلامي. ينظر: الندوي، نظرات في الأدب، وينظر أيضاً: عبد الله بن صالح الوشمي، جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي، ومجموعة المقالات التي كتبها كل من سعد أبو الرضا، سمير عبد الحميد إبراهيم، عبد القادر بن عيسى باطاهر، مضر عبد الله سلامة العتوم وعبد الباسط بدر ضمن العدد الخاص، الذي أصدرته رابطة الأدب الإسلامي العالمية سابق الذكر.

الله وطبائع الأشياء. لذلك فشلت محاولات هذه البلاد في البقاء معزولة عن العالم واستسلمت أخيراً للهجمة الغربية دون إعداد وتخطيط، وقد مثل الندوي لهذا الاتجاه بأفغانستان واليمن¹.

أما الموقف الثاني: فهو موقف الاستسلام والخضوع الكامل، موقف المقلد المتحمس، الذي يقبل هذه الحضارة بحذافيرها، بمنهجها الفكرية، وفلسفتها المادية، ونظمها السياسية والاقتصادية التي اختمرت في بيئة غير بيئتها وظروف غير ظروفها، يقبل كل ذلك ويطبقه في بلاده دون تمحيص، ويدفع في سبيلها أعظم ثمن.

استعرض الندوي نماذج عديدة لهذا الاتجاه²، اختار منها النموذج التركي الذي تزعمه "ضياء كولب ألب" و"كمال أتاتورك"، والنموذج الهندي الذي مثله "سيد أحمد خان". أما النموذج التركي فقد بين الندوي كيف ساق أصحاب هذا الخيار تركيا إلى الانسلاخ عن كل ما يربطها بالإسلام ودفعها باتجاه الغرب بكل قوة وحماسة، وإن وجدَ هذا الاتجاه مقاومة، إلا أن كفته رجحت أخيراً بوصول أتاتورك للحكم.

أما النموذج الهندي والذي مثله "سيد أحمد خان" فقد تميّز بانبهار شديد بالحضارة الغربية في عنفوانها، ودعوة متحمسة إلى تقليدها، وإصلاح المجتمع الإسلامي الهندي على أساسها، وقد نشأ بفعل جهود "سيد أحمد خان" جيل مثقف، إسلامي الاسم، غربي التفكير، انجليزي الطراز، مضطرب العقيدة أحياناً، ولا ينسجم مع المجتمع الإسلامي.

وقد قدر الندوي لهذه الجهود قدرها، واعترف بثمرتها وملئها الفراغ الثقافي في المجتمع الإسلامي الهندي، وتخرجها جماعة من كبار المثقفين، والزعماء السياسيين، ولكنه مع ذلك يرى أن هذه الحركة لم تحقق الغرض المطلوب من الاستفادة بتجارب الغرب وتكييفها لصالح المجتمع الإسلامي وظروفه³.

الموقف الثالث: هو الموقف الوسط المعتدل الذي لا يتطرف إلى الرفض الكلي أو الذوبان والتقليد الأعمى دون بصيرة، فالمطلوب هو الانفتاح على هذه الحضارة بوعي تام، وإيمان قوي وشخصية قوية، يصطفي من محاسنها ومزاياها ما هو محتاج إليه في بناء حضارته، من قوة العلم والبحث والإنتاج والاختراع والتطوير، ويترفع عن التقليد والخضوع واستيراد الفكر المادي وما تفرع عنه من مذاهب فكرية ونظريات سياسية واقتصادية. ويعتبر الندوي أن هذا النوع من الاستفادة حق

1- ينظر: تفصيل هذا الموقف في: الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 12-36.

2- ينظر: تفصيل الدول والشخصيات التي سلكت هذا النهج في: الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (المصدر نفسه)، ص 37-61.

3- ينظر: تفصيل جهود أحمد خان التغريبية في: المصدر نفسه، ص 69-76.

مشروع وأن هذه المعرفة مشاعة للجميع وهي إرث إنساني، ويرى أن الحضارة الغربية ليست حضارة إقليمية محلية، بل هي تراكم جهود العلماء وأصحاب الاختصاص من جميع الأمم وهي ثروة إنسانية عامة ومن حقنا أن نقتبس منها العلوم التطبيقية والتجريبية وكل ما يزيدنا قوة، وأن نعاملها كمواد خام نختار منها ما يطابق قامتنا وقيمنا، "نأخذ الحضارة الغربية فنصهرها صهرا جديدا في بوتقتنا ونبعد عنها عناصر المادية، وعناصر اللادينية، وعناصر الشهوانية، وعناصر الأنانية، ونخضعها لأغراضنا ومدنياتنا ولرسالتنا، وهذا هو الاقتباس الكريم، وهذا هو الذي فعله الصحابة رضي الله عنهم في القليل الذي اقتبسوه من الحضارة الرومية والحضارة الإيرانية.¹

ويؤصل الندوي لهذا الموقف، بما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو من أشد الناس غيرة على الدين وأكثرهم احتفاظا بروحه - من اقتباس فكرة التقويم الهجري، واتخاذ بيت مال للمسلمين، واتخاذ نظام الدواوين، ومسح لأراضي السواد وفارس، ونظام الخراج والحباية، كما تحدث عما فعله معاوية بن أبي سفيان من اتخاذ البريد، وما فعله عبد الملك بن مروان من صك الدنانير والدراهم، إن كل هذه الاقتباسات الحكيمة سهلت الحياة الإسلامية ونظمتها دون أن تمس بجوهر الإسلام وذاتيته، وكانت مقبولة عند علماء المسلمين وفقهائهم ولم يستنكروها منهم أحد². وعلى نفس النهج لابد أن نسير.

كما حدد الندوي لهذا الانفتاح والاقتباس شروطا، يراها ضرورية كي لا يتحول إلى تقليد خانع لا اختيار فيه ولا ابتكار؛ **أولها:** الاعتزاز بالدين والرسالة التي يحملها هذا الفرد المقتبس **وثانيها:** الاعتداد بالشخصية والثقة بها والبعد عما يسميه علماء النفس "بمركب النقص" **وثالثها:** "التبصر في هذا الاقتباس والأصالة فيه فلا يأخذ منها إلا ما هو مفيد مما لا يوصف بأنه شرقي أو غربي ويكون نبراسه الحكمة النبوية " الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها"³، وشعاره **خذ ما صفا ودع ما كدر.**

1- الندوي، المسلمون تجاه الحضارة الغربية، (مصدر سابق)، ص14.

2- المصدر نفسه ص 11-12.

3- هذا الحديث رواه الترمذي في سننه كتاب العلم باب فضل الفقه على العبادة، تح: إبراهيم عطوة عوض، رقم الحديث 2687، ط2. القاهرة: مطبعة الحلبي، 1975م، ج5، ص51. وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هَذَا الْوَجْهِ؛ وحكم الشيخ الألباني على الحديث بأنه ضعيف جدا، ينظر: الترمذي في سننه كتاب العلم باب فضل الفقه على العبادة، تح: الألباني، ط1. الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1417هـ، ص605.

إن هذا الموقف المعتدل الذي يتماشى مع روح الإسلام والفطرة السوية، والمنطق السليم الذي اختاره الندوي ودافع عنه وأصّل له قد سبقه إليه المفكر المهتمدي " محمد أسد " الذي يرى أن أسس الحضارة الغربية تقف على الضد من الحضارة الإسلامية، لكن هذا لا يمنع من استفادة المسلمين من علومها المجردة والتجريبية وأن يتعدوا كل البعد عن فكرها المادي وقيمها النفعية وعن أسلوب حياتها وتنظيمها الاجتماعي، وإلا فإننا نوجه بذلك ضربة قاضية للإسلام باعتباره دولة إلهية ودينًا عمليًا¹.

إن هذا الموقف الوسط هو ما اختاره الندوي ودعا إليه، كما اختاره جمهرة من المفكرين والمصلحين والموجهين، وهو ما استقر عليه الفكر الإسلامي المعاصر، وتغلغل في أديباته وبنات من المسلمات الفكرية في الأوساط الثقافية، ونهجاً مقررًا في الدراسات الإسلامية. وانطلاقاً من هذا الموقف الوسط ندلف إلى رأي الشيخ أبي الحسن الخاص في الحضارة الغربية ونقده لها.

7- نقد الحضارة الغربية من خلال مكتوبات أبي الحسن الندوي:

نرى لزاماً علينا قبل الإشارة إلى أهم وجوه النقد التي أبدتها الندوي على الحضارة الغربية، ومراعاةً لروح الإنصاف والموضوعية أن نشير إلى النظرة الإيجابية التي اتسم بها موقف الندوي من هذه الحضارة، فهو لم يرها شراً محضاً لا خير فيه، ولم يتعامل مع أهلها على أنهم العدو اللدود الذي ينبغي القضاء عليه، وإنما أقرّ بالمزايا التي تتصف بها، والخدمات الجليلة التي قدمتها للبشرية، ونظر إلى أهلها نظرة الداعية الذي يحمل رسالة الهداية والإيمان التي لو طُعمت بهذه الوسائل والعلوم فإنها تستطيع أن تفيض على الجنس البشري سعادة حقيقية.

1-7: إيجابيات الحضارة الغربية كما يراها الندوي:

رغم معارضة الندوي الشديدة للأسس والمنطلقات التي قامت عليها الحضارة الغربية وما أفرزته من نتائج إلا أن ذلك لم يمنعه من إنصافها والإقرار بما أجادت فيه، وما قدّمته للبشرية من خدمات.

يرى الندوي أن ميزة هذه الحضارة إكمالها تنمية الجهود الفكرية المتعلقة بالبحث والنظر في الكون واكتشاف قوانينه، فزادت المعلومات البشرية المتعلقة بالطبيعة وقواها، واكتشاف كنوزها، وهو ما مكّن من استغلالها وتسخيرها لخدمة الإنسان وراحته. وإنكار هذه الثورة العلمية وما نتج عنها من ثورة صناعية سهلت حياة الناس وزادت في رفاههم، مكابرة لا يقبلها العقل. ولا يقرها الدين، ويرى الشيخ أن حكمة الله تعالى اقتضت إمداد كل متوجه صادق - مهما كان اتجاهه - بما يسعى إليه ويجدّ في طلبه، قال تعالى: ﴿ كَلَّا نُمِدُّ هُنُوْلًا يَّ وَهَنُوْلًا يَّ مِنْ عَطَا يَّ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَا يَّ رَبِّكَ

1- ينظر: محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، (مرجع سابق)، ص 52-53.

مَحْظُورًا ﴿ (الإسراء الآية: 20). لقد فتح الله على الغرب أبواب عطائه "فصار يقطع أشواطاً واسعة في علوم الكون والطبيعة والفنون الرياضية والهندسية ويكتشف سحراً بعد سحر، ويصل إلى فتح بعد فتح، حتى وصل إلى ما وصل إليه في العصر الحديث مما لم يكن الإنسان - مهما أوتى من الذكاء - يحلم به أو يتخيل، ومما لا يحتاج إلى الشرح وضرب الأمثال¹.

وقد كان الندوي صريحاً وصادقاً في تقييم عطاء الحضارة الإسلامية في هذا المجال، مقارنة بالحضارة الغربية، فهو يرى أن ما وصل إليه المسلمون في العلوم الطبيعية والتطبيقية - على فضله وأهميته - إلا أنه لا يتناسب مع عطاءاتهم العلمية الأخرى، ولا يتناسب مع المدة الطويلة التي ترعى فيها المسلمون على عرش الحضارة العالمية، واعتبر الشيخ أن ما ورثه المسلمون في الطبيعيات والكونيات والتجارب العلمية - وإن كان مهماً - واستفادت منه أوروبا واعترف المنصفون منهم بفضله - إلا أنه يعتبر ضئيلاً أمام هذه الثروة الهائلة التي أنتجتها أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقط، فمهما افتخر المسلمون بآثار علماء الأندلس وحكام الشرق فإنها لا تعد شيئاً إلى ما أنتجه الغرب، لا في الكم ولا في الكيف، لا في الإبداع ولا في الاختراع، ولا في التدقيق العلمي ولا في الابتكار الفني². إن هذا التفوق العلمي والتكنولوجي، والتعامل مع الحياة وظواهرها بعقلانية، والتخطيط في إدارتها وتسيير شؤونها أدى إلى تنظيم الحياة تنظيمًا دقيقًا وسهّل الجانب المادي منها تسهلاً كبيراً، "وكانت لغاية واحدة مائة وسيلة وآلة، وكان فيها الغناء الكبير، والقوة الهائلة والسرعة المدهشة"³، ذلك ما جعل الإنسان يعيش رفاهية كبيرة، وهياً له وسائل الراحة في مأكله ومسكنه وعلاجه وتنقله ومواصلاته واتصالاته، وسائر شؤونه.

إلا أن هذا الموقف المعترف بمزايا هذه الحضارة وإيجابياتها، والمجمل في عبارته، سيسفر عن موقف آخر أكثر تفصيلاً، وأوضح بياناً، فُتِّح فيه الندوي العيون، على مساوئها ومواقع ضعفها، وفضح جوانب إخفاؤها وفشلها، ووجه سهام النقد إلى منطلقاتها ومخرجاتها وهو ما سنحاول بيانه بحول الله وقوته.

1- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 26، وينظر أيضاً: الندوي، أحاديث صريحة في أمريكا، (مصدر سابق) ص 51.

2- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 135.

3- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق) ص 27.

7-2: سلبات الحضارة الغربية كما يراها الندوي:

عني الندوي منذ بواكير حياته بنقد الحضارة الغربية¹، والكشف عن عوارها وإبراز عيوبها، لما رأى من سعة انتشارها، وعمق تأثيرها، وخطورة ثمارها، ولم يكن يصدر في هذا الموقف عن مشاهدة آثارها السياسية والاقتصادية فقط - شأن السياسيين - بل كان ملاحظا لما هو أخطر من ذلك، وهو تلك الروح المادية العاتية السارية في كل تفاصيلها والمتغلغلة في أحشائها، سواء على مستوى التصور والاعتقاد، أو على مستوى الممارسة والعمل، في الحياة الفردية والجماعية، وهي بهذه الروح تناقض الرسائل السماوية جملة وتفصيلا.

كما لا يفوتنا التنويه بأن هذه الملاحظات لم يكن الدافع لها الهدم للهدم فتكون جهد سلبيا محضا، وإنما كان هدفه البناء، فهو ينقد - بقوة ووضوح - ليبنى تصورا صحيحا مستمدا من هدايات الوحي، كما أنه لا يكتفي بعرض الأفكار والتصورات ونتائجها، وإنما يقارن ويوازن بينها وبين الحقائق الإسلامية ونتائجها عبر النماذج التي يسوقها ليدلل بها على فكرته، ويسوق من شهادات المفكرين والعلماء ما يعزز به رأيه، كما أن المخاطبين بهذه الملاحظات والتوجيهات لم يكونوا فقط من أبناء العالم الإسلامي الذين تسربت الأفكار الغربية ومناهجها إلى عقولهم - وإن كان ذلك مطلوباً ومقصوداً - ولكنه مع ذلك كان يوجه رسالة الإسلام الرحيمة للإنسانية المعذبة في سجن المادة، الشقية في الروح بالبعد عن الله وهداياته، في البلاد الغربية والشرقية على السواء.

يرى الندوي أن أسَّ الشر وجزر البلاء في الحضارة الغربية المعاصرة استمداها من الجانب المادي لفكر الحضارتين اليونانية والرومانية، وتزامن نشوئها للثورة على الكنيسة والقطيعة مع الفكر الديني²، ذلك ما أكسبها خاصيتها الأساسية، وميزتها الفارقة عن الحضارات السابقة وهي صفة "المادية" والتي تعني قصر الوجود على ما هو محسوس وادعاء أولية المادة، ووجودها المستقل عن الوعي الإنساني، والذي ما هو في حقيقته إلا انعكاس لها - عندهم - واستقلالها بالتأثير في تكوين الأشياء والظواهر، وهو ما يستلزم إنكار الخالق، ونفي وجود كل حقيقة ميتافيزيقية كالبعث والجزاء ومن ثمَّ السقوط في هوة اللادينية كليا أو جزئيا.

1- كتب الندوي كتابه الشهير "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ولم يتجاوز عمره 30 عاما وهو في جوهره بيان لخسارة العالم للروح والمعنى بتخلي المسلمين عن قيادة العالم، وتولي الحضارة المادية المعاصرة ذلك، ثم توالى كتبه النقدية بعد ذلك، من أبرزها: الصراع بين الإيمان والمادية، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، حديث مع الغرب وأحاديث صريحة في أمريكا.

2- أكدَّ الندوي مرارا على أن من سوء حظ الغربيين - ومن سار في فلكهم - تأطير المسيحية للحياة الدينية في أوروبا وأمريكا بما تعتقده من قصور الفطرة الإنسانية ونظرتها المتشائمة للحياة، وسوء تمثيل رجال الدين المسيحي، كما أن من سوء الطالع إغضاء طلائع الباحثين الأوربيين عن الجانب الروحي للحضارة الإسلامية والاكتفاء بالاستفادة من الجوانب المادية التي وصلت إليها.

وقد اتسعت دائرة تطبيقات هذه النزعة في الفكر الغربي لتشمل علوم المادة والأحياء والعلوم الإنسانية وعمت آثارها المثة الفكر والسلوك في الحياة الفردية والاجتماعية، وذلك ما حتم كشف زيوفها والتحذير من فتنها. وفيما يلي محاولة لبيان آراء الشيخ أبي الحسن حول هذا الموضوع. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية: يتعلق الأول منها بالنظرة الغربية للخالق والموقف من الدين، أما الثاني فمتعلقه بالرؤية الغربية للإنسان والكون والحياة، أما الثالث فموضوعه الرؤية للأخلاق والقيم.

7-2-1: الله والدين في الرؤية الغربية المعاصرة ونتيجته:

يرى الندوي أن تأطير المسيحية للحياة الدينية في أوروبا وأمريكا وما تحمله من رؤية للإنسان من كونه مجرماً بالفطرة، وأثماً مذنباً، محتاجاً للعداء، تنشئ فيه عدم الثقة بنفسه ومواهبه وإرادته، إضافة إلى كونها ديانة تحب الرهبانية وتزهد في حياة الكفاح والنضال والمنافسة والمسابقة التي هي من دواعي رقي الإنسان وتقدمه، إضافة إلى ما كان من تمسك الكنيسة بتأويلات الأخبار والرهبان وتفسيراتهم لنصوص الكتاب المقدس وأقوالهم المتضاربة بشأنه والتي لا يؤيدها العلم ولا يوافق عليها العقل، ومعاقبتها من اعتمد عقله وتجربته، وجهر بمشاهدته واقتناعه بعقوبات لم يعرف تاريخ الأديان أفضع منها، كل ذلك أفقد أوروبا الاتزان والاعتدال وفرض عليها التطرف والمادية وكون خندقاً بينها وبين الدين.¹

يرى الشيخ أن من المآسي التي لا ينساها التاريخ أن أوروبا ضلت بعيدة عن الإسلام ولم تتشرف بالانتساب إليه. وهو كفيل بتوجيهها وقيادتها، ويرجع الندوي أسباب ذلك إلى:

- تقصير الفاتحين المسلمين في التبشير بالإسلام وشرحه والدعوة إليه حتى يتغلغل في أحشاء المجتمع الأوروبي، وشغلوا بالعمران المادي والعلمي على حساب التمكين لعقائد الإسلام وقيمه وأحكامه، ما أبقى وحشة في نفوس الغربيين منه وانتظار سnoch الفرصة للانتقام منه والانقضاض عليه. - ما تعوّد عليه الأوروبيون من النظر إلى الإسلام من خلال العثمانيين الأتراك، الذين كانوا الممثل الرسمي للإسلام في أوروبا، وكانوا يغزونها بين الحين والآخر، ويستولون على كثير من بلادها، وتصدر عنهم أخطاء أحياناً، فكان ذلك عائقاً عن فهم الإسلام الفهم الصافي المؤسس على الدراسة والتفكير الحر.²

- الحروب الصليبية التي أجاج أوارها الملوك ورجال الدين، وملئوا نفوس الأوروبيين كراهية للإسلام ورسالته، وما قام به المبشرون والمؤلفون في أوروبا والذين سيطرت عليهم العاطفة الدينية أكثر من

1- ينظر: الندوي، أحاديث صريحة في أمريكا، (مصدر سابق) ص33-34. وحديث مع الغرب، (مصدر سابق) ص38.

2- ينظر: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص40.

النزعة العلمية، فساهمت كتاباتهم في إبعاد أوروبا عن الإسلام وصاحب رسالته. وصوروا هذا الرسول العظيم أبشع صورة وشاعت عنه ﷺ أوهام وأساطير، حالت دون فهمه فضلا عن حبه وتقديره، ولا تزال نماذجها تُردّد وتُعرض عرضا جديدا حتى وقتنا الحاضر.¹

- تسرع رواد النهضة في أوروبا، والذين اهترت ثقتهم في المسيحية فلم يكونوا أكثر حكمة وتبصرا للتعرف على الإسلام الذي كان قريبا منهم وتميّز عن ديانتهم بنظرته العالية للإنسان والحياة وتقديره للعلم وأهله ودعمه للطموح المشروع بترقية الحياة وتطويرها، ولكن استعجالهم في الحكم على الدين مطلقا من خلال المسيحية، لم يجن على أوروبا وحدها ولكن على البشرية جمعاء.²

فكانت محصلة هذا المخاض نشوء حضارة لا دينية مادية، تطورت في اتجاه مادي بحت وهو ما لم يعرفه التاريخ بهذه الصورة أبدا³، فصار الاهتمام والتركيز على المحسوس والعمل من أجل المنفعة واللذة، وحدثت القطيعة مع كل ما هو غيبي حتى قال أحد نقاد الحضارة الغربية: "إن المدنية الغربية لا تجحد الله البتة، ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة "الله" في نظامها الفكري الحالي... ويميل الأوربي الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التي ينتظر منها على الأقل أن تؤثر في صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة، وبما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذلك، فإن العقل الأوربي يميل بداءة إلى إسقاط "الله" من دائرة الاعتبارات العملية".⁴

فنشأ مجتمع على غير أساس الإيمان وتعاليم الأديان "وكان هتافه لا إله، ولا دين، ولا غيب، ولا إيمان، ولا روح، ولا أخلاق، وإنما هو حس وتجربة أو لذة ومنفعة".⁵

يرى الندوي أن أوروبا وأمريكا تخلت عن الإيمان وصارت تعيش فراغا في العقائد، وأضحى الدين والإيمان من أخبار الماضي وحكايا التاريخ "إنما هو آثار تاريخية قد حفظت ودونت في كتب التاريخ والفلسفة، وليس هناك عقيدة حية قوية، تملك عليهم المشاعر وتضبط الحركات والسكنات وتحكم عليهم، قد أفلت الزمام، قد فقدت هذه العقائد كل قوة وكل ضبط، فالعقائد هي عقائد تقليدية فقط، عقائد مرددة باللسان، ليس لها نفوذ ولا تأثير في الأخلاق ولا في الأعمال"⁶ وإن انتمى الغرب

1- ينظر: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص39.

2- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق) ص177.

3- ينظر: عبد الواحد يحيى، شرق وغرب، ترجمة: عبد الباقي مفتاح، ط1، إريد: عالم الكتب الحديث، 2016، ص55.

4- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، (مرجع السابق)، ص41.

5- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص57.

6- المصدر نفسه.

إلى المسيحية جغرافياً ولم يعلن "لا دينيته" صراحة، ويتجه الناس يوم الأحد إلى الكنيسة ويحتفلون بالأعياد والمهرجانات المسيحية والتقاليد الدينية في حماس واهتمام بالغ، ويرى الإنسان كثيراً من المظاهر الدينية في المجتمع الأوربي، ولكن الحقيقة التي لا شك فيها أن دين أوربا هو المادية فقط¹ وليس المسيحية.

وهذا ناقد آخر يعزز هذا الرأي بقوة وينفي عن الغرب الحديث نسبه إلى المسيحية الحقيقية ويسمه بضدية الدين ويجعلها طابعا مميزا له بين الأمم وفي هذا المعنى يقول: " يُقال أن الغرب الحديث مسيحي، لكن يوجد هنا خطأ: إنّ العقل الحديث مُعادٍ للمسيحيّ، (antichrétien) لأنّه جوهرياً، مُعادٍ للدين (antireligieux)؛ وهو مُعادٍ للدين لأنّه، وبشكل أكثر عموماً أيضاً، مُعادٍ للتقليد (antitraditionnel)؛ إنّ هذا بالذات ما يُمثّل طابَعه المميّز، وما يجعل منه ما هو عليه فعلاً." ²

إن هذا الوضع الشاذ للحضارة المادية المعاصرة ولّد نتائج طريفة لا يزال المجتمع الإنساني يعاني آثارها الخطيرة، والتي من أبرزها حسب الشيخ أبي الحسن:

أ - الفصل بين الوسائل والغايات: لما حرم الغربيون أنفسهم الدين ولم يبق لهم مرشد من علم إلهي يرشدهم إلى الجادة، نسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم، وقالوا بلسان الحال، أو المقال ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (الأنعام، الآية: 29)، فظنوا أن ليس للإنسان من مقصد وغاية سوى الانتفاع والتمتع المادي والعلو في الأرض والسيطرة عليها فسخروا ما حباهم الله من قوة مادية ومعارف كونية في الحصول على اللذات والتغلب على الناس وقهر المنافسين وافتتنوا بالمخترعات والمكتشفات كغاية في نفسها لا لغيرها وعكفوا عليها، تشاغلوا بها كتشاغل الصبيان باللعب والدمى³.

إن العلوم الطبيعية حولت الإنسان الغربي قوة قاهرة مكنته من التحكم في الكثير من قوى الكون ولكنه لا يحسن استعمالها، كطفل صغير، أو سفيه، أو مجنون يملك جواهر غالية ولكنه يعبت بها ويعيث في الأرض فسادا، ويسوق الندوي شهادات لعدد من الغربيين كالأستاذ " جود " الذي يقول: "إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش"⁴،

1- الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق) ص64؛ الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق) ص181.

2- عبد الواحد يحي، أزمة العالم الحديث، تر: عدنان نجيب الله، مع جمال عمار، ط1. بيروت: المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية 2016م، ص127

3- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 216-217.

4- المصدر نفسه، ص218.

وكمثال على ذلك يورد الندوي من كلامه مقاصد استخدام الطائفة فيقول: "ولكن انظر الآن إلى المقاصد التي استعملت لها الطيارة وتستعمل لها في المستقبل، إنما هي قذف القنابل وتمزيق الجثث وخنق الأحياء وإحراق الأجساد وإلقاء الغازات السامة، وهذه إما مقاصد الحمقى أو الشياطين".¹

ب- انعدام الحاسة الدينية: ويقصد بها الندوي الحاسة الإنسانية التي تتطلع إلى معرفة الغاية من وجود هذا العالم والمصير الذي يؤول إليه وهل هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة، وما الطرق التي إذا سلكها الإنسان كانت أخراه مرضية؟، وما مصدر هذه الطرق؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي شغلت الإنسان الشرقي منذ قرون، وما بحوث ما وراء الطبيعية والفلسفة والإلهية والإشراق والرياضات الروحية إلا محاولات في هذا الطريق.²

حيث يرى الندوي أن أكثر البشر يملكون هذه الحاسة (الحاسة الدينية) ويدركوا بها المحسوسات الخاصة بها حتى ظهر الغربيون وجحدوا الغيب وأنكروا المعاني الدينية وخفت الصوت الذي كان ينبع من أعماق القلب وقرارة الضمير وفقدت تلك الأسئلة سلطاتها على القلوب والأفكار، وأصبحت تلك الاستفسارات لا تحيك في صدر الإنسان ولا تشغله كما كانت تشغل آباءه من قبل، وفقدت هذه الأسئلة أهميتها، وأخلت مكانها لأسئلة مادية أهم في أعين أبناء القرنين التاسع عشر والعشرين.³ وينقل الندوي عن الكاتب الإنجليزي "جود" السالف الذكر قوله: ثارت في قديم الزمان شكوك واعتراضات وأسئلة واستفسارات حول الدين لم يطمئن أصحابها، ولم يرتاحوا إلى جواب مقنع، ولكن مما يمتاز به هذا الجيل أنه لا تزعجه الأسئلة رأساً، ولا تحيك في صدره ولا تنشأ في هذا العصر أصلاً".⁴

ومعنى هذا أن الإنسان الغربي اليوم فقد الحاسة التي توجه سلوكه وتصرفاته وفقد البوصلة التي تحدد له الاتجاه الصحيح، وصار يخضع لغايات ومقاصد مصطنعة، وشغله البحث في الآفاق والكائنات عن خالق الأرض والسماوات فلم يصل من الخلق إلى الخالق ومن الكثرة إلى الوحدة".⁵

1- ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (المصدر نفسه)، ص 220.

2- المصدر نفسه، ص 230.

3- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (المصدر نفسه)، ص 232-233.

4- المصدر نفسه، ص 234.

5- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 98.

ج- ظهور الفكرة القومية والوطنية: وهي من الأفكار التي قضت على الوحدة الدينية والثقافية وقسمت العالم إلى دويلات وشعوب مختلفة متنازعة متنافسة تهدد أمن العالم وسلامته يقول الندوي: "والذي عرف طبيعة الإسلام، بل عرف طبيعة الأديان، عرف أنها لا تسيع هذه العصبية، ومن درس التاريخ متجردا عن الميول والمذاهب السياسية، عرف أنها لم تزل ولا تزال من أقوى عوامل الهدم والتخريب والإفساد والتفريق بين الإنسان والإنسان"¹.

د- النزعة العلمانية: وهي تلك النزعة التي تفصل بين الدين والحياة، فبعد أن أنزل الأوروبيون الدين عن عرشه واعتبروه شأنًا خاصًا وقرروا مبدأ التحرر الكامل في التفكير والاعتقاد وبعيدا عن هدايات الوحي؛ كانت النتيجة الحتمية لهذا هي الفوضى الفكرية والعقدية، وانجر عنها التعدد اللا محدود للفرق الدينية والنحل الدينية الزائفة، وللمذاهب الفلسفية الطامحة قبل كل شيء إلى ابتداع الجديد، وللنظريات العلمية بدعاؤها العريضة التي سرعان ما تزول²، ونهض الكتاب والمؤلفون والأدباء والمعلمون والاجتماعيون والسياسيون في كل ناحية من نواحي أوربا ينفخون صور المادية وينفثون في عقل الجمهور وقلبه، فيفسرون الأخلاق تفسيرا ماديا، والسياسيون أمثال ماكيافيلي (1469-1527م) دعوا إلى فصل الدين عن السياسة وقرروا أن الدين شأن شخصي لا دخل له في أمور الدولة، وثار الأدباء والمؤلفون، وخاصة بعد الثورة الفرنسية على الأخلاق القديمة والنظم الاجتماعية وزينوا للناس الإثم والإباحة وأطلقوا الطبايع من كل قيد، والفرد من كل مسؤولية، ودعوا إلى التهام الحياة البهيمية، وغلوا وأسرفوا في تقدير قيمة هذه الحياة، وجحدوا كل شيء سوى اللذة العاجلة، والنفع المادي المحسوس.³

وخلاصة القول أن الأوروبيين لما قطعوا صلتهم بالدين واعتبروا الحياة الدنيا هي الحيوان والعالم المحسوس هو الحقيقة الوحيدة، والفكر الإنساني هو السبيل الوحيد للمعرفة، حرموا أنفسهم الغايات الصحيحة التي لا يدل عليها إلا الدين، وحرموا أنفسهم الرابطة الدينية التي تجمع كل الأجناس والأعراق وتعمل على توحيد الإنسانية والإحسان إليها وتنزع كل فتيل لنزاع وتهدب النوازع الإنسانية فيعتدل سلوك الأفراد والمجتمعات، لذلك من الطبيعي ألا تنتج هذه المقدمات إلا التيه والشقاء

1- الندوي، ردة ولا أبا بكر لها، ط1. تونس: مطبعة الشحمي، 1997 م، ص 14. للتوسع أكثر في موقف الندوي من الفكرة القومية، ينظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 196 - 202؛ الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 44 - 63؛ الندوي، إلى الإسلام من جديد، ص 182 وما بعدها.

2- عبد الواحد يحيى، شرق وغرب، (مرجع سابق)، ص 74.

3- ينظر الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 179-180.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ (طه - الآيات: 124-126).

7-2-2: النظرة الغربية للكون والحياة والإنسان:

انتقد الندوي النظرة الغربية المادية للكون، والتي تقصر الوجود على المحسوس وما في حدود عالم الشهادة وتنكر ما وراءه من حقائق غيبية جاءت بها الأديان، كما انتقد ما تفرع عن هذه النظرة من تصور للإنسان والحياة، "إن العقلية الغربية الفجة المختلة تقول: إن كل ما هو غير مشهود: هو غير موجود. إن حصر الموجودات في المشهودات، لَمَن عثرت العلم الإنساني والعقل البشري الكبيرة الهائلة، وقد صبغتها العقلية الغربية صبغة علمية فلسفية، وإن ذلك لمن سوء حظ البشرية وعدوان ضد الإنسانية، وإن هذا هو الفرق الأساسي الكبير بين العلم المحروم من الفيض الإلهي السماوي وبين العلم المستنير بنور الرسالة السماوية"¹.

ويرى الشيخ أن هذا التوجه المادي اللاديني قد بدأ بطيئا، وبشكل تدريجي ولكنه واثق وبكل عزم فقد "قام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون في الكون نظرا مؤسسا على أن لا خالق، ولا مدبر ولا أمر، وليس هناك قوة وراء الطبيعة، والمادة تتصرف في هذا العالم، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكي بحت وسموا هذا نظرا علميا مجردا، وسموا كل بحث وفكر يعتقد بوجود إله ويؤمن به طريقا تقليديا، لا يقوم على أساس العلم والحكمة واستهزأوا به واتخذوه سخريا"².

وانجرت عن هذه النظرة الإمعان في التعلق بالأسباب الظاهرة والتمسك بها والتعلل بها والاستغناء عن الله يقول الندوي: وفي الناس من اقتصر نظره على هذه الظواهر والأسباب الطبيعية، واقتصر نظره على هذه الحياة، وعلى هذا العالم المادي المحسوس، ورأى أن المسببات والنتائج تابعة دائما لأسبابها وعللها، مرافقة لها لازمة ليس في الوجود من يحول بين هذه الأسباب وهذه المسببات، ويتصرف فيها بإرادته المطلقة، ويستطيع أن يوجد المسببات من غير أسباب، ويبدعها إبداعا، وتعلق بهذه الأسباب، وعبدها كالآرباب، وكفر بكل قوة وراء هذه الأسباب والخواص، وبكل قوة تسيطر على هذا العالم وتحكمه حكما مطلقا كليا³.

1- الندوي، تأملات في القرآن الكريم، (مصدر سابق) ص 68.

2- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 178.

3- الندوي، الصراع بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 22.

كما أدت أيضا إلى ادعاء إحاطة الإنسان علما بالكون وإنكار كل ما لا يتراءى للعيون وهي نظرة قاصرة سفهها الندوي وبيّن محدودية المعلومات البشرية، وكشف عن مجهولات كثيرة، لم يستطع الإنسان على ذكائه وحرصه أن يحلها، وعقد وغوامض في هذا الكون لم يستطع العلم البشري مهما اتسع وارتفع أن يكشفها، فضلا عن أن يحيط بها علما.¹ يقول الندوي: ألقى العلم الحديث أضواء لم تكن تخطر بالبال على سعة الكون وعالم الوجود، والأبعاد الهائلة بين النجوم والكوكب، وبينها وبين الأرض، وعدد النجوم المقدّرة بمليارات في مجرة واحدة، وكثرة عالم السدم وعدد السدم فيها... وهذا كله غير الموجودات المجهولات للإنسان التي تربو على معلوماته بنسبة بعيدة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف، الآية: 109).²

وكان من آثار هذه النظرة أن فقد الغرب الخيط الناظم والوحدة التي تربط الوحدات المبعثرة في هذا الكون وحلّ التناقض والتناكر والتنافس محلها.³

ويقابل الندوي بين هذه النظرة للكون، والنظرة الدينية الإسلامية التي ترى أن هذا الكون وما فيه من نظام واتساق هو مظهر الحكمة الإلهية والقدرة الربانية، وأن كل ما يبدو من مظاهر الزيادة أو النقص أو التجاوز إنما هو من قصور نظرنا وقلة علمنا⁴، ويشيد الندوي بكلام مولانا جلال الدين الرومي الذي يدعو فيه إلى التعرف على الله من خلال هذا الكون الجميل والمنظم والمطرز بمظاهر الحكمة والإتقان "فهو في غاية النظام والانتظام كل شيء في محله اللائق وكل شيء خلق بقدر ولكل شيء نظام مرسوم لا يتجاوزه ولا يخالفه، فالكواكب لها نظام... وليس الهواء والسحاب كالفيال الهائج والناقة العشواء لا نظام لهما ولا قيد، بل كل خاضع لنظام، خاضع لأحكام فلا تمرد ولا عصيان ولا فوضى ولا طغيان".⁵

كما رفض الندوي النظرة الغربية القائلة بالصراع مع الطبيعة والتحدي لها، وبين أن علاقة المسلم بالكون هي علاقة حب وغرام⁶ وتسخير وخدمة.⁷

1- الندوي، الصراع بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 93-94.

2- المصدر نفسه، ص 119.

3- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق) ص 21.

4- الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق) ص 147.

5- الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 1، ص 279.

6- ينظر: الندوي، تأملات في القرآن الكريم، (مصدر سابق)، ص 63.

7- ينظر: الندوي، رجال الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج 1، ص 299.

أما عن النظرة الغربية للحياة فهي نظرة مادية أيضا تعتبر الحياة الدنيا هي الحياة الحقيقية الوحيدة "وهي كل شيء وهي المنتهى"¹، ولا تؤمن بحياة أخرى وراءها وهي نتيجة طبيعية لإنكار الدين ولازم من لوازمه، لذلك اتسمت الرؤية الغربية "بالشغف الزائد بهذه الحياة المحدودة، والحرص على تمديدتها وتزيينها والمبالغة في إجلالها وتفخيم شأنها، والاتجاه إلى نفي كل ما وراءها من مثل وقيم"²، كما أنه من الطبيعي أن يكون الاعتبار والاحترام والإجلال لرجال المال والأعمال، وقد لهجت الفلسفات والآداب الأوربية "باطراء أصحاب رؤوس الأموال وأصحاب الملايين وأصحاب النفوذ المادي والسيطرة السياسية والاقتصادية، وذهبت إلى تأليههم وحثت على تقليدهم والتمثيل بهم"³.

ويرى الشيخ الندوي أن هذا الموقف الغالي والمتطرف للحياة الدنيا صار سمة لهذه الحضارة وشعارا تعرف ويعرف به صاحبها، وأدى إلى الإسراف في التكسب والإنتاج، والإسراف في التلهي والتسلية⁴ والتسلية⁴ وبذلت المواهب والطاقات كلها باتجاه تطوير هذه الحياة وتجميلها، وانتهاب خيراتها وامتعتها وامتعتها بعيدا عن كل اعتدال وتوسط يقول الندوي: "وخلق بمن لا يعتد إلا بحياته الدنيا، ولا يرى وراءها عالما آخر، وحياة ثانية أن تكون هذه الحياة بضاعته ورأس ماله، وأكبر همه وغاية رغبته ومبلغ علمه، وأن لا يؤخر من حظوظها وطيباتها ولذائذها شيئا، وأن لا يضئع فرصة من فرصها، ولأبي عالم يدخر وهو لا يؤمن بعالم وراء هذا العالم وبحياة بعد هذه الحياة"⁵.

وقد أدت هذه الفلسفة إلى تضخم المعدة والشه في النفوس الإنسانية، وصار لا يشبعها مقدار من المال، وتولد في الناس غليل لا يروى، وأصبح كل واحد يحمل في قلبه جهنم، لا تزال تبتلع وتستزيد وتقول هل من مزيد، وتسلبت على الناس أفرادا وأما شيطان الجشع والحرص، وأصبح الإنسان نهما يلتهم الدنيا التهاما دون أن يشعر أنه قد روى غلته وأشبع جوعته⁶.

ويرى الندوي أن هذه الحالة - وقد سماها الجوع الكاذب - هي علة شقاء الإنسان الذي لم يعد يعشق المال لأنه قنطرة إلى حاجاته وشهواته بل كغاية في نفسه، ولأنه حرم الحاسة الخلقية والضمير،

1- الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 206.

2- الندوي، الصراع بين الإيمان والمادية، (مصدر سابق)، ص 17.

3- المصدر نفسه، ص 69.

4- المصدر نفسه، ص 70.

5- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 243.

6- المصدر نفسه، ص 242.

فقد صار يرتكب كل محذور ومنكر من أجل الاستزادة -ومن أحقر صورها- السوق السوداء والارتشاء الرخيص، وابتزاز الأموال من كل وسيلة وطريق.¹

ويؤكد الندوي أن من نتيجة هذه الفلسفة افتعال كثير من الأزمات والمشكلات كالحروب والحملات الاستعمارية والفتن التي ظهرت على مسرح التاريخ واکتوت بناها شعوب عدة.²

ولا يكفي الندوي بسرد ملاحظاته السلبية، بل يعتمد إلى مقابلة تلك الرؤية بالرؤية الإسلامية ويبين أثرها على المجتمع الإنساني ويسوق نماذج ومواقف إنسانية تشبعت بالروح الإسلامية ويبين عطاءها وفضلها.

يؤكد الندوي أن الحياة التي تنبثق من تعاليم النبوة هي وحدها التي توصف بالاعتدال والسداد والتوسط³ بين رؤيتين متطرفتين: الأولى هي الرؤية المادية، والثانية هي الرؤية المسيحية والإشراقية عموماً.⁴

وتتميز الرؤية الإسلامية للحياة بأنها دار ذات هدف ورسالة وغايات كريمة، وكل نشاط علمي أو ثقافي أو إنتاجي خاضع لعقيدها وغاياتها ورسالتها فلا قيمة عندها لفلسفة تقول "العلم للعلم" و"القوة للقوة" و"الاكتشاف للاكتشاف"⁵، ويحث الإسلام على الكفاح في سبيل الحياة والعلم لصالح البشرية، ويقارن الندوي هذه الميزة بما هي عليه الحياة في الغرب بقوله: "ثم ما هو الهدف من الحياة لا يعرفون الهدف... حضارة بلا هدف وحكومات بلا هدف، وقوانين بلا هدف، حياة من غير لذة، وألفاظ من غير معنى وخطوط من غير وضوح".⁶

كما أن ميزات الرؤية الإسلامية للحياة أنها وسيلة وليست غاية يقول: "أما موقفها من هذه الحياة فهو موقف من لا يراها الغاية الأسمى، والمثل الأعلى، وسدرة المنتهى في السعادة والتقدم، إنما ينظر إليها كمرحلة عابرة لا بد من اجتيازها، وكوسيلة للوصول إلى الفوز الأكبر والحياة الدائمة والعيشة الراضية"⁷.

1- ينظر: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص110.

2- للتوسع في آثار النظرة المادية للحياة الدنيا، ينظر: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق) من 106 إلى 123.

3- الندوي، الصراع بين الإيمان والمادية، (مصدر سابق)، ص71.

4- ينظر: الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص70 - 71.

5- ينظر: الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص202.

6- الندوي، أحاديث صريحة في أمريكا، (مصدر سابق) ص25.

7- الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص203.

وهو ما أكسبها أهمية خاصة لأنها السهم الوحيد الذي يملكه، فإذا أصاب غرضه فياله من سهم مصيب وإذا طاش وأخطأ رميته فيا رزية رام ضيع سهمه الوحيد - إن حياته لوسيلة كل سعادة في الدنيا والآخرة وأنها رأس بضاعته فأخلق به أن يكون ضنيها بهذه الحياة شديد الاحتفاظ بها وألا يضيّعها في تجربة واختبار وفي مخاطرة وقمار¹، ولذلك يسعى المسلم إلى استثمار هذه الحياة فيما يرضي الله ويملاها بالقيمة ويخضعها لمهمته التي بعث من أجلها، فإذا زاحمتها في سبيل مهمته زهد فيها ورغب عنها ورفضها.²

والحياة في نظر المسلم كما يفهمها من القرآن قصيرة تافهة وضئيلة في جنب الآخرة قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (سورة التوبة، الآية: 38) ويقول: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، الآية: 64). ويقرر القرآن أن الآخرة خير وأبقى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (سورة القصص، الآية: 60). وقد ذم القرآن وشنع على من يؤثر الحياة الدنيا الفانية الناقصة على الآخرة الخالدة، الصافية من الأكدار يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة يونس، الآيتان: 7-8).

وميزة الإسلام الفارقة في تصوره للحياة أنه يزيل التناقض والتدابير بين الحياتين، الأولى والآخرة، ويؤلف بينهما دون إقصاء لإحدهما، والقرآن يمدح من يجمع بينهما بقوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ﴿٥٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة، الآيتان: 200-201) يقول الندوي في المسلم: " فالمسلم يجمع بين الانتفاع بمرافق الحياة وأسباب الدنيا واستخدامها كشيء خلق لأجله وسخر له، وبين السعي للآخرة والكفاح لها كغاية خلق لأجلها، فهو ينظر إلى الدنيا وقواتها ووسائلها كمطية ومركب لا كراكب ومتصرف، وكمملوك ورفيق لا كمالك وسيد،

1- الندوي، الطريق إلى المدينة، (مصدر سابق)، ص 72-73.

2- الندوي، إلى الإسلام من جديد، (مصدر سابق)، ص 17.

ووسيلة لا كغاية، وينظر إلى الآخرة كغاية ينتهي إليها ووطن يلجأ إليه فيجمع عليه همته ويرهق له قواه ويحث إليها مطيته"¹.

ويبين الندوي آثار هذه الرؤية، ويعرض نماذج من حياة الصحابة الكرام وزهدهم في الدنيا وحرصهم على نفع العباد ابتغاء وجه الله، وعدلهم في رعاياهم، وكيف سعدت البشرية تحت حكمهم².

7-2-2: رؤية الحضارة الغربية للإنسان ونتائجها:

بات واضحاً أن المنطلقات المادية للرؤية الغربية صبغت كل تصور بصبغتها، ونظرت للإنسان نفس نظرتها للكون والحياة، وقد ركز الندوي رحمه الله كثيراً على بيان هذه النظرة المناقضة للدين جملة وتفصيلاً وحذر من نتائجها الخطيرة.

لقد اختزلت الفلسفة المادية الإنسان في بعده المادي، وأهملت روحه وقلبه، وتعاملت مع حاجياته على أنها حاجيات مادية فقط، ووضعت من المناهج والتنظيمات ما يتماشى مع هذه الرؤية. واعتبرت كل ذلك قائماً على العلم والبحث المجرد، يقول الندوي: "إن الفكرة الإجمالية عن كون الإنسان "حيواناً راقياً" التي قامت عليها المدنية الحسية والعلم الحسي أصبحت حقيقة مشروعة واضحة مدعومة بالدلائل العلمية في الفترة الأخيرة التي اتسمت بالبحث والدراسة والنهضة العلمية، والتي قادتها أوروبا الحديثة، وسرت هذه النظرية في جسم الحياة كلها كالروح، وصار مقياس السعادة الإنسانية أن يكون الإنسان أقرب إلى طبيعته الأصلية، فكان بمقتضى هذه النظرية أن أصبحت اللذة والمتعة هي الغاية العليا والمقصد الرئيسي للحياة"³، وإذا كان صوفية الشرق يرون الإنسان ظلاً ربانياً فإن الماديين في الغرب لا يرونه إلا وجوداً بهيمياً حيوانياً⁴ ليس له من غاية "إلا إشباع الغرائز وإرضاء النهماء، وإنتاج الرائج النافع للسوق، وتجاهلت جميع الدوافع الخيرة المخلصة، والقيم الروحية، والآفاق الباطنية، وجعله مخلوقاً تافهاً خاضعاً للنواميس الطبيعية العمياء"⁵ وفي هذا عبث بالكرامة الإنسانية وإهداراً لقيمتها الرفيعة.

1- الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، (مصدر سابق)، ص 205. ينظر تفصيل هذه النماذج في: الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 107-115.

2- ينظر تفصيل هذه النماذج في: الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 107-115.

3- المصدر نفسه، ص 62.

4- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 191.

5- الندوي، روائع إقبال، (مصدر سابق)، ص 88.

ويرى الندوي أن لنظرية النشوء والارتقاء تأثيرا بعيدا في الأفكار والحضارة والأدب والسياسة والأخلاق، وفي الأزياء، وفي تعيين المثل الكامل للإنسان، وفي جميع الأعمال التي لا تصدر إلا على التسليم بأن الإنسان إنما هو حيوان راق¹.

ويؤكد الشيخ أن هذه النظرة بداية الانحراف في التعامل مع الإنسان ذلك أنها لا تعتبر "أغواره وخصائصه وإيمانه وعقيدته وأخلاقه، ولم تتناول المصدر الذي يقوده ويوجهه ويمنعه من الشر ويدفعه إلى الخير، وذلك هو القلب الذي إذا صلح صلح الإنسان وإذا فسد فسد الإنسان"².

ويلح الشيخ على أن سبب الداء ومصدر الشقاء، هو هذه النظرة الخاطئة للإنسان يقول: "نظروا للإنسان كأنه حيوان مثقف، وسعوا في قضاء شهواته بأقصى ما في الوسع، هذا هو رأس الفساد وأصل الداء، وما دام هذا الأساس الذي يقوم عليه صرح المدنية فستذهب كل جهود الإصلاح هباء وسدى ولن تصلح الإنسانية ولن يصلح المجتمع ولن تصلح قرية واحدة فضلا عن مدينة أو قطر"³.

ويؤكد الندوي أن أساس الأزمة المتكررة ليس في نقص الموارد وشح الإمكانيات، وإنما أساسها الفرد الذي جهل نفسه وغايته وأصبح لا يؤمن إلا بالمادة والقوة ولا يعنى إلا بذاته وبشهواته، ويبالغ في تقدير هذه الحياة ويسرف في عبادة ذاته وإرضاء شهواته، وانقطعت الصلة بينه وبين ربه، ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة، "فكان هذا الفرد مصدر شقاء المدنية فإذا كان تاجرا فهو المحتكر، وإذا كان فقيرا فهو الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب، وإذا كان عاملا فهو العامل المطفف، وإذا كان غنيا فهو الشحيح القاسي، وإذا كان وزيرا أو رئيسا فهو المستأثر الذي لا يخدم إلا نفسه وجماعته، وإذا كان زعيما قوميا، عبد عنصره وداس على كرامة البلاد الأخرى، وإذا كان مخترعا اخترع المدمرات والناسفات، وإذا كان مكتشفا اكتشف الغازات المبيدة للشعوب، المخربة للبلاد والقنابل النووية التي تهلك الحرث والنسل، وبهذه الأفراد تكونت المجتمعات وتأسست الحكومات وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمات طريفة ومشاكل معقدة تشكو منها الإنسانية بثها وحزنها"⁴.

وينعى الندوي على الغرب إطلاقه الغرائز كالجمل الهائج، وإتاحة الفرص للتمتع بالشهوات واللذات الرخيصة، والحرية المنفلتة من كل القيود والضوابط، بل ويثجع عليها، ولما استشرى الفساد في المجتمع

1- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 193.

2- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 29.

3- المصدر نفسه، ص 75.

4- الندوي، الطريق إلى المدينة، (مصدر سابق)، ص 51-53.

وظهرت عواقبها الوخيمة، اشتكى منه الاجتماعيون وقاموا وقعدوا من غير جدوى، فقد أفلت الزمام وطمّ الوادي على القري.¹

ومن وجوه الخلل أيضا اعتبار الإنسان نفسه سيد هذا الكون، واعتبار أنه حر طليق من كل شريعة وتوجه سماوي، وليس خليفة يتقيد بتعاليم سيده وتوجيهاته، يقول الندوي: " كانت المأساة الكبرى لتاريخ العلم بل لتاريخ العالم أن نسي الإنسان أنه كان خليفة لله... ولم يبعث إلى هذه الأرض سيديا ومالكا يستخدم خزائن الأرض للمصلحة الذاتية والقومية والعنصرية والطبقية أو لإحراز التفوق السياسي، كان يوما مشئوما اختار فيه الإنسان هذا الطريق المؤدي إلى الدمار والهلاك"² ويقول: "إن الإنسان وقع في خطأ كبير عندما اعتبر نفسه مالكا أصيلا للعلم، ومستقلا وحرًا، لما نسي بداية أمره، نسي غاية حياته وهدفها الحقيقي "³.

ومن وجوه خلل المنهجية الغربية في التعامل مع الإنسان، أنها اتجهت - بدل الإنسان - إلى بيئة الإنسان ومحيطه، وبدل النفس والقلب إلى آفاق الطبيعة الغنية بالقوى والأسرار... فقطع الغرب أشواطاً بعيدة في علوم الكون والطبيعة، ووصل إلى ما لم يكن متخيلاً، ولكن الإنسان لم يتقدم، يقول الندوي: "اسمحوا لي أن أقول لكم: إن العلوم تقدمت على حساب الإنسان وعلى حساب الأخلاق، وإن الآلات والمؤسسات تقدمت على حساب الميول والاتجاهات وعلى حساب الروح والقلب، وذلك لأن الغرب مع الأسف الشديد حصر نشاطه وذكاءه وقوة إرادته في المجال الخارجي، وركز كل جهده وكرسه للعالم الخارجي، وانصرف عن الإنسان انصرافاً كلياً "⁴.

وإذا أقبل عليه بالبحث والدراسة أو العناية والرعاية أقبل عليه بفكر مادي محدود يعنى بتنمية قواه العقلية والجسدية مع الإهمال التام للروح والقلب، فتضخم العقل وضمرت الروح وشقي الإنسان بذلك.⁵

ولما قطع الإنسان الغربي صلته بالدين وحُرم هداياته، فُقدت الغايات الصحيحة والمقاصد الكريمة، فأدّاه فكره المادي إلى اصطناع غايات مادية وهمية، وركز جهده وبذل مواهبه في تحصيل أكبر قدر منها، مما جعل الحياة سجناً على أهلها في حالة تنافس دائم، وصراع محموم.

1- الندوي، الطريق إلى المدينة، (مصدر سابق)، ص72.

2- الندوي، محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة، (مصدر سابق)، ج3، ص 368-369.

3- المصدر نفسه، ص 369.

4- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص28.

5- المصدر نفسه، ص 29.

ويرى الندوي أن علة المدنية الحاضرة وداءها العضال أنها دست سموم الأثرة والشح وعبادة النفس في شرايين المجتمع وعروقه، فأصبح لا يؤمن إلا بالفائدة الشخصية والنفع العاجل، لذلك لا يتورع عن ارتكاب الجرائم وافتعال الفتن والحروب، كما أحدثت الأثرة طبيعة المطالبة بالحقوق والتهاون بالواجبات مما ألهب النزاعات والصراع مع الحكومات¹.

ويقف الندوي طويلا عند آثار هذه الرؤية على الإنسان، فردا وجماعة، ويعرب عن ألمه وأسفه، بل وشفقته على هذا المخلوق الذي كرمه الله وشرفه، كيف يمتهن ويتعامل معه على أنه سلعة أو متاع يتنافس التجار عليها، ويهيب بالدعاة كي يضطلعوا بدورهم في إغاثة الإنسانية الملهوفة، ومد يد المساعدة لها، ويبلغهم شكواها وأينها يقول: "أبلغكم رسالة الإنسانية المعذبة، أبلغكم رسالة الإنسانية التعسة، أبلغكم رسالة الإنسانية الشقية بنفسها وبعلمها وبعقلها وبمدنيتها"².

ويذكرهم بعطاء الإسلام الثمين في عهده الأول، الذي لم تنل البشرية مثله ولن تنال وذلك هو "الإيمان القوي، الثقة بالله، التوحيد الخالص النقي، ثم الإيمان بكرامة الإنسان، الإيمان بأن الإنسان هو أشرف خلق الله، وأفضل صنائع الله، وأجمل صنائع الله، هذه التحفة، هذه القوة الكامنة، القوة الدافقة التي استفادها العالم، فعاد كل شيء له معنى، وقد أصبح اليوم كل شيء ليس له معنى، ألفاظ وأسماء بلا مسميات، وألفاظ بلا معاني، وصور ودمى لا روح فيها ولا حياة"³.

يرى الندوي أن الحضارة الغربية أفقدت الإنسان إنسانيته، وغيبت معناه وأصبح أشبه بالآلة الخالية من القلب والروح، يقول أثناء زيارة للولايات المتحدة الأمريكية: "والشيء الوحيد المفقود الذي لا أجده هو الإنسان الحقيقي، الذي يحمل في صدره قلبا حيا نابضا متدفقا، لا ماكينة متحركة، فقد خضع الإنسان لحياة الماكينات خضوعا جعله لا يفكر إلا في الماكينة، وأصبحت خواطره ومشاعره تتسم بمزايا الجمادات والفولاذ، فلا رقة فيها ولا مرونة، ولا لين فيها ولا نعومة، وقد بُعد عهد العيون بالدموع وعهد القلوب بالخشوع، تلك الحقيقة التي لمستها في الولايات المتحدة الأمريكية"⁴، ويتمثل الندوي قصة مولانا جلال الدين وهو يطوف حول المدينة يبحث عن إنسان لأنه ملّ مخالطة السباع والشعالب ويتساءل عن المعاني المفقودة في الإنسان المعاصر بقوله، "أين هذا الإنسان الذي يعرف خالقه ويعبد ربه، ويعيش في حبه، وفي حب الإنسانية واحترامها، ويتملك نفسه الأمانة بالسوء "

1- ينظر: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق) ص 113-116.

2- الندوي، الإنسانية تنتظركم أيها العرب، ط، المجمع الإسلامي العلمي، لكهنؤ الهند، (د، ت)، ص 9.

3- المصدر نفسه، ص 7-8.

4- الندوي، أحاديث صريحة في أمريكا، (مصدر سابق)، ص 62.

ويذوب حدبا على الإنسانية الشقية، ويتأذى من تمزق الأمم واصطدام الأفراد والدول، ومن الأنانية والانتهازية. ويندفع إلى البذل والسخاء ولا يكتحل بنوم بكاء على بؤس الأمم والدول".¹

ويكشف الندوي عن خسارة الإنسان الغربي عالم الروح وسكينته وطمأنينته ولذته والسعادة الحقيقية التي لا تكون إلا في رحابه، ويشير إلى بعض من تتيقظ فيهم الفطرة أحيانا ويثوروا على واقعهم بعد أن أصيبوا بالتحمة من هذه المدنية، وسكروا بها إلى حد الغثيان، فيقصدون البوذية والبرهمية، ويؤمنون ابتغاءً للعلاج والشفاء أطباء لا يشفى عليهم ولا يروى غليلهم، يقول الندوي: "فحينما يتقزز الأمريكي من مدنيته ويسأم من مجتمعه يقصد الهند و"نيبال" بغية سكينه القلب وطمأنينة النفس ويرتاد قُلل همالايا ويصيب من المسكرات ويتناول المخدرات والحشيش، وما إلى ذلك من الأشربة الروحية، ويختار الخنفسة والهيبية"².

ويؤكد الندوي على أن هذه الحالة من الفراغ الروحي توشك أن تؤدي بهذه الحضارة وأهلها، يقول: "إن هذا الخواء الروحي الذي يعانیه الغرب، والذي تعانیه هذه الحضارة قد أصبحت منه على شفا حفرة من النار، أو على شيء منهار، حتى أصبحت في طريقها إلى الانتحار".³

ويجفل الندوي كثيرا بشعر محمد إقبال وفكره باعتباره ناقدا بصيرا بعيوب الحضارة الغربية فقد سير غورها وعجم عودها وعاش في قلبها ردحا من السنين، فعرف إفلاسها ومواطن إخفاقها، ونقل جملة من أقواله نختار منها بعضا مما يتعلق بموضوعنا.

يقول إقبال في ديوانه (ماذا ينبغي أن تعمل شعوب الشرق): "ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق، إن هذه الفتانة تجلب فتننا وتعيد اللات والعزى إلى الحرم، إن القلب يعمى بتأثير سحرها، وإن الروح تموت عطشا في سراجها، إنها تقضي على لوعة القلب، بل تنزع القلب من القالب، إنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له". ويقول في نفس الديوان: "إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم، الذي تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء، الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام ما لم يُعد هذا النظام رأسا على عقب"⁴.

1- الندوي، (المصدر نفسه)، ص52.

2- الندوي، (المصدر نفسه)، ص 65-66.

3- الندوي، (المصدر نفسه)، ص 40.

4- نقلا عن: الندوي، روائع إقبال، (مصدر سابق)، ص 65.

ومن جو الشعر إلى جو الكتابة الفلسفية الرصينة - والتي هي أشد عمقا وأكثر تركيزا - ينقل الندوي من كتابه "تجديد التفكير الديني" ما يعرّي به إقبال طبيعة هذه الحضارة، والإنسان المعاصر الذي يمثلها والمشكلات التي يعانها، يقول: "الرجل العصري بما له من فلسفات نقدية، وتخصص علمي، يجد نفسه في ورطة فمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق إليه، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو". ويقول: "الإنسان العصري وقد أعشاه نشاطه العقلي وكف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة، أي إلى حياة روحية تغلغل في أعماق النفس، وهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه، وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره، وهو غير قادر على كبح أثرته الجارفة، وحبه للمال حبا طاغيا يقتل كل نضال سام شيئا فشيئا، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة، وقد استغرق في "الواقع" أي في مصدر الحس الظاهر للعيان، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده، تلك الأعماق التي لم يسبر غورها بعد"¹.

ولا يكفي الندوي بإبراز الاختلالات على مستوى الأفراد، بل بين أيضا آثار تلك الرؤية في الحياة الاجتماعية والسياسية، ومن أهمهما في نظر الندوي، الفكرة القومية التي مزقت الإنسانية بقطع رحمها الروحي والاستعاضة عنه برابطة مادية هي رابطة الدم والوطنية والعصبية القومية، التي لا يتقيد فيها الإنسان إلا بمصلحة وطنه وجنسه ولا يلقي بالا إلى الإنسانية عامة، هذا إذا لم تدعو المصالح الوطنية والقومية إلى الاحتلال والاستعمار والقسوة والهمجية، فيرى من واجبه الوطني والقومي المقدس، ومن وفائه لأمته وتفانيه في سبيلها، أن يؤسس دولة على أنقاض دولة أمة أخرى وعلى أشلائها، وهذه هي المدنية التي حدت بأوروبا المتمدنة إلى استعمال كل قسوة ووحشية في توسيع ممتلكاتها وإخضاع الأمم والشعوب لدولها وسياستها، حتى انتهى بها ذلك إلى استعمال المدمرات والغازات السامة، وإلقاء القنابل الذرية في الأخير، واختراع القنبلة الهيدروجينية وأشد منها أيضا"².

ونلخص معالم إخفاق الحضارة الغربية ومظاهره أخيرا - بعبارة موجزة لكنها مستوعبة أجمل فيها الندوي ما فصله في كتبه العديدة. يقول الندوي رحمه الله: "أخفقت هذه المسرحية - التي كانت حصيلة أذكي عقول بشرية وأغنى قرائح إنسانية - في أهدافها ومراميها إخفاقا لم يعرف في التاريخ، عداء داخلي وخارجي، وصراع بين الأفراد والطبقات والشعوب، غيوم الحرب الكثيفة التي تغشى العالم كله وبركان متهيب للانفجار لأدنى مناسبة، ونذر صارخة لنهاية البشر الأليمة وفقدان الثقة والهدوء والأمن العاطفي، وتسلط الذعر والفرع على الأعصاب، وقلق دائم، وتفسخ خلقي كبير

1- الندوي، روائع إقبال، (مصدر سابق)، ص 67.

2- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 118.

يتخطى القياس، وفراغ روحي هائل لا يملؤه شيء، وسامة لا نهاية لها ولا علاج، وتشاؤم ويأس وحيرة¹.

وجدير بالذكر أن الندوي لا يكتفي بإبراز قصور التصور المادي للإنسان وبشاعة نتائجه، وإنما يطرح تصورا بديلا قوامه الرؤية القرآنية للإنسان والتجربة العملية النبوية والخبرة الإسلامية عموما. ويمكن اعتبار هذا العمل شقا بنائيا يضاف إلى الشق الهدمي السابق ذكره وبهما تتم دائرة جهده النقدي، وفيما كتب في مبحث " تأصيله لرؤية في الإنسان " غنية عن الإعادة والتكرار.

7-2-3: النظرة الغربية للأخلاق:

من المقرر أن الحضارة الغربية المعاصرة لما قطعت صلتها بالدين أسندت شأن تنظيم الحياة وتوجيهها إلى الفلاسفة والمفكرين، ويمت وجهها نحو تراث الحضارة اليونانية والرومانية تلتمس منهما قيما، لذلك ابتعدت عن فلسفة الأخلاق والقيم كما جاءت بها الرسالات السماوية واتخذت لها نظرة خاصة تنسجم مع نظرتها للوجود والحياة تختلف جذريا عن الأولى.

وتقوم هذه الرؤية على الأساس المادي ذاته الذي قامت عليه رؤيتها للكون والحياة والإنسان، فالأخلاق المعتبرة هي التي تحقق منفعة "وكل الأخلاق التي لا تظهر فائدتها، لا تصلح للقبول والاعتراف"²، وبذلك ينقلب سلم الأولويات فتقدم المنافع على المبادئ والمصالح على الأخلاق والقيم.

يعزو الندوي هذه الفلسفة إلى الميراث الأبيقوري الذي ينص على أن مناط الحكم على الأعمال "المنفعة"، وأن المنفعة لا قيمة لها إلا إذا اجتلبت لذة واغتيابا، ولما نزع الروح الغربية والفكر الغربي إلى المادة " فقد أصبح عاجزين عن الاهتداء إلى منفعة غير محسوسة لا تجلب لذة واغتيابا وأصبح العقل الأوربي محاميا عن المادية، لا يحكم على الأخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع المادية، وبحسب ما يكتسب المجتمع بواسطتها من اللذة والهناء، والأفراد من الاغتياب والرخاء، فأصبح الربح المادي هو الميزان للأخلاق، والفارق بين الخير والشر، وأصبحت الأخلاق التي لا وزن لها في ميزان المادة، ليس لها قيمة... كحنان الأبوين وحبهما للأولاد، ووفاء الأزواج وحفظهن للغيب... ولا يهم المجتمع الآن كيف يعامل الولد والده، أو الزوجة زوجها مادام لا يحدث عملهم

1- الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 58-59.

2- الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 60.

اضطراباً في المجتمع، وثورة على النظام، ولا يعرقل سير المدنية فلا بأس إذا كان هناك عقوق من ولد أو فرك من قرينة، أو جفاء من زوج أو دعاة من امرأة أو فسق من رجل، أو خيانة من زوجة"¹. ويرى الندوي أن حملة هذا الفكر يضحون في سبيل المنافع والمصالح بالمبادئ الكبرى والتعاليم الخلقية العليا، وهم على استعداد دائم للتعامل مع كل نظام والانصهار في كل بوتقة ويقاثلون تحت كل راية ويضحون بأنفسهم لكل غاية إذا كان لهم فيها نفع شخصي، وقد تجاوزت هذه الفلسفة حدود الفرد إلى حدود الأمم والشعوب، إذ نشأت الفكرة القومية التي تؤمن بفائدة الشعب بصرف النظر عن المبادئ والقيم، والحق والباطل والعدل والظلم، ولا فرق بين الفلسفتين إلا أن الأولى تقوم على تمجيد الذات ومصالحها الخاصة والثانية تقوم على تمجيد الشعب والبلاد ودائرة مصالحها الواسعة².

ويناقش الندوي الأساس الذي تقوم عليه هذه الفلسفة وهو اعتبار العقل مقياساً لقبول الأعمال وردّها وحكمها على المثل والقيم، ويثبت خطأ المسلك ليمهد الطريق أمام ضرورة النبوة وحاجة البشرية إليها.

يقدم الندوي شواهد على مرونة العقل وصلابته لمسيرة الموجود المقبول، وإبطال الحق وإحقاق الباطل بمقدرة عجيبة، حتى يتخيل كثير من الناس أن ما يقوله هو اليقين الذي لا شك فيه، ويظنّ الشيخ بنا عبر أحقاب بعيدة وأمم عديدة يقول: "فكم دافع العقل اليوناني عن البغاء الرسمي وحرفة المومسات، والشذوذ الجنسي، والذي ظهر في المجتمع الإغريقي عند ما بلغ أوجه في المدنية والفلسفة والرياضيات، وكان من المدافعين عن كل ذلك الذين فلسفوه وشقوا الشعرة في فوائده ومصالحه كبار فلاسفة اليونان الذين لم يكن يرجى منهم الدفاع عن مثل هذه الرذائل"³، ثم ينتقل الندوي إلى الحضارة الرومية وينقل منها مشهد مصارعة الإنسان للأسود والنمور حتى الموت، في وحشية وقسوة منقطعة النظير، "ولكن العقل الروماني قد ذهب كل مذهب في تعليقه وإقامة الدلائل والبراهين على أنّها نزهة بريئة وتسلية مباحة لأشراف روما وهواة المتعة واللهو"⁴.

1- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص 256-257، بتصرف.

2- ينظر: الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 42-44.

3- المصدر نفسه، ص 58.

4- المصدر نفسه.

ثم يعرج الشيخ على بلده الهند وعلى جزيرة العرب أيام جاهليتها، ويذكر بعملية إحراق النساء الهنديات لأنفسهن مع أزواجهن بعد وفاتهم، وتقليد وأد البنات عند العرب يقول: "فقد كان كل ذلك مؤيدا بالدلائل العلمية والعقلية في العصر الجاهلي العربي، وفي الحضارة الهندية القديمة والأعراف الارستقراطية المقدسة في الهند قبل إلغاء هذا التقليد رسمياً.¹

ويرى الشيخ أن في مطالعة ما كتب في الأدب القديم عند الأمتين - العربية والهندية - عن هذين التقليديين الوحشيين، وكيف كان يُدافع عنهما، دليل على مرونة العقل وقابليته لمسيرة الأعراف والتقاليد وقبولها والدفاع عنها، وهو ما يجعل استقلاله بالحكم غير مأمون.

ويبين الندوي أن هذا هو ما وقعت فيه الحضارة الغربية المعاصرة يوم أنكرت الدين واعتمدت التجربة أساس الأخلاق والاجتماع، واعتبار الفائدة والمنفعة مقياساً لقبولها والاعتراف بها.²

ويعزز الندوي رأيه بشهادة مسلم أوربي عرف هذه الحضارة عن كثب وهو "محمد أسد" الذي يقول: "إننا نجد التطور الأساسي الذي تخضع له الحياة الاجتماعية في الغرب الآن، تلك الفلسفة الأخلاقية الجديدة المبنية على الانتفاع تبرز للعيان شيئاً فشيئاً، وكل الفضائل التي تتعلق مباشرة برفاهية المجتمع المادية - كالمقدرة الفنية (العلمية التقنية) والوطنية والشعور القومي - هي اليوم موضع المديح ورفع قيمتها فوق ما هو معقول، بينما الفضائل التي ظلت تعتبر إلى اليوم المثل العليا من جهة قيمتها الخلقية الخالصة، كالحب الأبوي والعفاف، فهي تخسر قيمتها بسرعة لأنها لا تمنح المجتمع فائدة مادية محسوسة.³

ثم يتحدث الندوي عن آثار أخلاق الإنسان الغربي الذي فقد التربية الدينية، والإيمان بالله ومخافته وفقد الإيمان بالآخرة واحتكم إلى قيم مادية نفعية، كان تنتاجها ارتفاع معدلات الجريمة والتفسخ الخلقي، وتحلل الروابط الاجتماعية، وتفكك الأسر، وانتشار القلق والاضطرابات وتسلط الخوف والذعر⁴ في المجتمع الغربي نفسه، ويتحدث الندوي عن الحريين العالميتين الطاحنتين المدمرتين ونتائجهما وويلاتهما، ويتساءل بعد عرض هذه النتائج بقوله: "لماذا كانت هذه النتيجة أيها السادة؟... إن الجواب ليس سرا يكشف أو لغزا يحل... السبب أن الإنسان لم يتقدم بقدر ما تقدمت العلوم، وأن

1- ينظر: الندوي، بين الدين والمدنية، (مصدر سابق)، ص 58.

2- المصدر نفسه، ص 60.

3- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، (مرجع سابق)، ص

4- ينظر: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 28.

الأخلاق والميول والاتجاهات لم تتقدم بقدر ما تقدمت الآلات والمؤسسات، بل سمحوا لي أن أقول إن الآلات والمؤسسات تقدمت على حساب الميول والاتجاهات وعلى حساب الروح والقلب.¹ يقدم الندوي أيضا صورة كالحة لمنجزات الإنسان الغربي من أبرز معالمها الحركة الاستعمارية البغيضة² التي استباحت الشعوب والأوطان بصورة مباشرة، أو عن طريق وكلائهم المستبدين، ويقدم أيضا جملة من الوقائع التاريخية تقوم دليلا وحجة على عطاءات الإنسان الغربي منها: ما افتعله الإنجليز من مجاعة مزورة غير طبيعية في بنغلادش حين احتكروا الحبوب الوفيرة حتى فسدت ومات مئات الألوف من الناس جوعا³.

ومنها أيضا تصامم الحاكم الإنجليزي العام 1947 وتغافله عن المؤامرات التي دبرت ضد المسلمين الهنود، والتي كان على علم بها، وتسببت في المجزرة البشرية الهائلة التي عقرت القرون أن تلد مثلها⁴. ومنها أيضا تأييد ترومان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية للصهيونية ودولة إسرائيل في فلسطين وما كان من نتائجها المروعة. مقابل كسب ود اليهود ودعمهم المالي والسياسي والإعلامي ومنها أيضا جرائم وفضائح فرنسا في الجزائر وسكوت أمريكا عنها، بل ووقوفها مع الظالم الجائر. فكل هذه الوقائع وأمثالها كثير " تنبئ عن ضعف أخلاق العظماء في أوروبا وأمريكا ودوران الحياة السياسية على الفوائد لا المبادئ"⁵.

كما وقف الندوي طويلا عند صور أخرى من صور فقدان الإنسان الغربي الرغبة للخير والصلاح وتضييعه المبادئ الصحيحة والقيم الفاضلة والمقاصد الخيرة، وتحدث طويلا تحت عنوان "أوروبا في الانتحار" عن التسابق المحموم في صناعة أسلحة الدمار الشامل من القنبلة الذرية وفضائنها، إلى القنبلة الهيدروجينية، إلى القنبلة النيوترونية⁶، وكل ذلك مما يدل على أن الإنسان الغربي فقد رشده وعقله وكاد أن يودي بالإنسانية إلى الهاوية.

وكما ذكرنا في مناسبة سابقة فإن الندوي لا يكتفي بتوصيف التصور الغربي للأخلاق ونتائجه وإنما يقدم في تضاعيف كلامه التصور الإسلامي للأخلاق المؤسسة على الإيمان بالله وتوحيده

1- ينظر: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 28. الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 217.

2- ينظر: الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 109.

3- ينظر تفصيل الواقعة في: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 194.

4- المصدر نفسه، ص 194.

5- المصدر نفسه، ص 195.

6- المصدر نفسه، ص 225.

والتحلي بأسمائه الحسنى والتخلق بالأخلاق المحمدية والكمالات النبوية، ويقدم نماذج إنسانية تحققت بهذه الحقائق وتحملت بالخصال الحميدة من الصدق والأمانة والعفة والصبر والإيثار والزهد ونجدة الإنسانية والشفقة عليها.¹

ويلح رحمه الله على ضرورة الاعتناء بتنمية هذا الجانب في شخصية المسلم واعتباره مقصدا من مقاصد البعثة ومهمة من مهام النبوة² وأن بقاء الأمة ونصرتها مرهون بالإيمان والأخلاق: "وإن هناك أسبابا أخرى مؤثرة تعمل في هذا العالم، وفي مصير الأفراد والأمم، كالأسباب الطبيعية أو أشد، وتتبعها نتائج قد تكون أعظم، وأضخم من النتائج الطبيعية المادية التي تتبع أسبابها وهي الإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة. وأسباب تعمل عكسها كالكفر والبغي والفساد في الأرض والظلم والآثام"³.

ويؤكد الندوي على أن أزمة الأمة الإسلامية الحقيقية هي أزمة أخلاق، يقول: "يتحدثون عن أزمات اقتصادية وأزمات سياسية، ويتحدثون عن أزمات الحكم وأزمات الاجتماع، ولكنني أعتقد أن هناك أزمة واحدة لا ثانية لها هي أزمة الإيمان والأخلاق"⁴.

وفي سبيل المحافظة على المجتمع وقيمه يطالب الندوي الأمة المسلمة أن تقوم بدورها ورسالتها في الحسبة على الأخلاق فهي "التي يعزم عليها دينها أن تراقب سير الأمم وتحاسبها على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى وإلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة"⁵ وأن تمثل السيرة الإسلامية المثالية النموذجية أمام غير المسلمين، فإن ذلك أقوى أسباب احترام هذا الدين والإقبال على دراسته مصادره وتعاليمه⁶.

وأخيرا وكخاتمة لهذا المبحث نقول: إن العناية الكبيرة التي أولاها الندوي رحمه الله والجهد البياني الكبير الذي قام به، في فحص أسس ومنطلقات الحضارة الغربية وفلسفتها، وما أفرزته من نتائج مختلفة، والتحذير من الانخداع بمظاهرها الخلابة للعقول، وشعاراتها الخاوية من المضمون، إنما كان ناشئا من اعتقاده ضدّيتها للدين على طول الخط في رؤاه وقيمه وأهدافه، وقدرتها على منافسته وإخراجه من مسرح الحياة، وخلافته في إدارتها وتوجيهها.

1- ينظر نماذج من سير هؤلاء في: الندوي، النبوة والأنبياء، (مصدر سابق)، ص 97-109.

2- ينظر: الندوي، دور الإسلام الإصلاحي، (مصدر سابق)، ص 42.

3- الندوي، الصراع بين الإيمان والمادية، (مصدر سابق) ص 23-24.

4- الندوي، إلى الإسلام من جديد، (مصدر سابق) ص 157.

5- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (مصدر سابق)، ص 264.

6- ينظر: الندوي، ترشيد الصحوة الإسلامية، (مصدر سابق)، ص 33.

وإذا كان المتكلمون قديما قد عنوا بمسائل جزئية من العقيدة شرحا أو استدلالا أو دفعا لشغب يثار حولها، فإن مسألة الحضارة الغربية المعاصرة تختلف عن كل ذلك، إنها مسألة منافحة عن ذاتية الدين في كليته وروحه، وعن الإنسان في حقيقته والغاية من وجوده ومصيره، وهي بذلك جديرة أن تعتبر من قضايا علم الكلام الجديد الهامة التي تستحق الاهتمام وتوالي الجهود بحثا وتأليفا، وما هذا المبحث إلا مشاركة في هذا الجهد ومحاولة لإبراز جانب من فكر الندوي العقدي، فإن كنت قد وفقت فبفضل الله وحده ولا حول ولا قوة إلا به، وإن كانت الأخرى فأرجو عفو الله ومغفرته.



المبحث الثاني:

رؤية الندوي للاستشراق



تمهيد:

الاستشراق أحد وجوه العلاقة بين الشرق والغرب، وإن شئنا الدقة أكثر؛ قلنا هو الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، أثر ولا يزال يؤثر في الفكر الإسلامي، كما لعب دوراً بارزاً في تسميم العقل الغربي تجاه الإسلام، فقلَّ أن تجد مجالاً من المجالات التي يتسع لها البحث لم يتناوله هؤلاء المستشرقون بالبحث والتمحيص حتى أربت مؤلفاتهم عن أكثر من ستين ألف كتاب أو يزيد، وفي الجملة فقد كان للاستشراق أثر كبير في خلق أزمة المثقفين المحدثين في العالم الإسلامي، من خلال تطبيق مناهجه في مؤسساته العلمية، وعن طريق أعداد كبيرة من الطلبة تلقوا تعليمهم في الغرب.

لقد نذر نفر من المستشرقين حياتهم لدراسة الدين الإسلامي في جوانبه كافة، وأقيم لآرائهم وما انتهوا إليه وزن كبير، فقد أثاروا في قلب قادة العالم الإسلامي وجمهرة من مفكريه الذين درسوا الإسلام في مراكز الغرب وبلغته، شبهات حول الرسالة والرسول، وأحدثوا في نفوسهم يأساً من مستقبل الإسلام، ومقتناً من حاضره، وسوء ظنٍّ بماضيه¹.

انطلق هؤلاء - أو كثيرٌ منهم - من ثقافتهم الخاصة، بإسقاطات غير عادلة عند تناولهم الإسلام، ومن منطلقات الفكر الأوربي نفسه في أوج مراحل تفوقه.

ولم تكن العقيدة الإسلامية بمنأى عن هذا المناخ السائد فالمؤكد أن العقيدة الإسلامية لم تمر عليها تحديات جسام بهذا المستوى من القوة، كما هو الشأن مع الدراسات الاستشراقية، فالاستشراق جزء لا يتجزأ من هذه الحداثة الوضعية ذات العقلية المادية النفعية.

لكن هذا التحدي المفروض لم يفت في عضد المفكرين المسلمين على الرغم من أنه استنفذ أغراضهم، وأثر على فاعلية الفكر الإسلامي إلى حد بعيد، لكنه لم يتمكن من القضاء عليه، فما برحت هذه التحديات تستفز علماء العقيدة الإسلامية، وتستنفر جهودهم لمواجهة الوافد ومن هؤلاء شخصيتنا موضوع الدراسة.

لقد بحث الندوي هذه القضية استجابة لواقع لا يمكن إنكاره وهو أن للاستشراق تأثيراته القوية في الفكر الإسلامي الحديث أردنا أو لم نرد، ولهذا فلا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفي برفضه.

أدرك الندوي بثاقب فكره أنه لا مفر من مواجهة هاته القضية وطرحها واستخلاص العبر منها، وسأحاول جاهداً - في هذا المبحث - تسليط الضوء على رؤية الندوي لهذا الموضوع الحساس

1- أبو الحسن الندوي: بحوث ومقالات حول الاستشراق والمستشرقين، إعداد سيد الغوري، ط1. دمشق: دار ابن كثير، 2002م، ص15؛ وينظر أيضاً: أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986م، ص16.

الشائك، وذلك بإبراز جوانب من هذه الرؤية، ويتمثل ذلك بتعريف الاستشراق وتاريخ نشأته، كما يتعلق بعضها الآخر بدوافع الاستشراق وأهدافه عند الندوي، وأخرى بموقف الرجل من مناهج الاستشراق التي وظفها في دراسة حضارة الشرق سواء في آدابها، وعلومها، وأديانها، ولغتها، إلى غير ذلك مما يتسع له مجال الاستشراق.

1- مفهوم الاستشراق:

كلمة الاستشراق كلمة "مولدة" لم ترد في المعاجم العربية المختلفة، ويبدو أن المفهوم اللغوي لكلمة الاستشراق مشتق من مادة شرق التي لها أصل في اللغة حيث يقال: شرقت الشمس إشراقاً وشرقاً إذا طلعت، وشرق المكان شرقاً إذا أشرقت عليه الشمس، وشرقوا ذهبوا إلى المشرق أو أتوا الشرق¹. وانتسبوا إليه، وصاروا منه، واستشرق في المفهوم الاصطلاحي طلب علوم الشرق واتجاهاته للتخصص في معرفتها، والمستشرقون: "هم علماء الغرب الذين يتخصصون في دراسة حضارة الشرق وآدابه وعلومه وأديانه ولغته، وكل ما يمت إلى الشرق بصلة". وأطلقت كلمة مستشرق لأول مرة عام 1630م على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية.

ويرى "مالك بن نبي" ضرورة تحديد هذا المصطلح وفي هذا المعنى يقول: "إننا نعني بالمستشرقين: الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية، ثم علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى "طبقات" على صنفين:

أ- من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل جرير دوريباك، والقديس توما الأكويني²، وطبقة المحدثين مثل: كاردوفو وجولدزبير.

ب- من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين في كتابتهم: فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها³.

أما معنى الاستشراق فيذكر "إدوارد سعيد" أن للاستشراق ثلاثة معان: **المعنى الأول:** "هو كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه

1- ابن منظور الأفيقي، لسان العرب، مادة شرق، ط بيروت: دار صادر، (د، ت)، ص 173 وما بعده.

2- القديس توما الأكويني (ولد بين عام 1224 و1225 وتوفي عام 1274)، فيلسوف ولاهوتي إيطالي. من أهم مؤلفاته "الخلاصة اللاهوتية". ينظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، ص ص 241-2443.

3- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ط1. بيروت: دار الإرشاد، 1969م، ص5.

اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة¹. وهو تعريف يركز على الطابع الأكاديمي.

المعنى الثاني: وهو أشمل دائرة من التعريف السابق لأنه لا يحصر الاستشراق في المجال الأكاديمي، وإنما يتسع مجاله ليشمل كل ما يتصل بالشرق وفي هذا المعنى يقول إدوارد سعيد: "فالاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى الشرق، وبين ما يسمى في معظم الأحيان الغرب"². ومن مزايا هذا التعريف أنه يشير إلى النزعة العنصرية الواضحة في الاستشراق بكل أنواعه، سواء أكان الاستشراق في الأكاديميات العلمية أم في المؤسسات السياسية التي يتعامل الغرب من خلالها مع الشرق.

المعنى الثالث: وهو عند إدوارد ذو طابع إبديولوجي، يتحول فيه المستشرق من باحث خالص إلى أن يكون "أسلوباً غربياً للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه"³. والتعريف يكشف أن الغرب تحيّل الشرق ودرسه تخيلاً استعماريًا، عرقياً، استعلائياً، متجذراً في القوة واتحاد القوة بالمعرفة⁴ مقابل الدونية للشرق.

والواقع أن الاستشراق مرتبط كل الارتباط بالمرور التاريخي للشخصية الغربية في نظرتها للحضارة العربية والإسلامية وهو موروث مثقل بالتراكمات النفسية، ومشاعر ضاغطة مسيطرة على حركة الفكر مؤثرة على السلوكيات والمواقف.

وارتبطت حركة الاستشراق اليوم، بالمفهوم الحضاري الغربي الذي استطاع بذكاء أن يوجد تحالفاً بين الثقافة والسياسة، وأن يستخدم الثقافة كأداة لتحقيق أهداف سياسية فالغايات المعرفية ليست المرادة والمقصود في عمل المستشرقين، ولو كان المستشرق يريد أن يعرف الشرق كما هو في عقائده وقيمه، وفكره وتقاليدته، لأنصت إلى الثقافة الشرقية، لكي تحدثه عن ذاتها. ولكي يكتشف منها حقيقة الشرق وتراث الشرق.

وإذا كانت مهمة المستشرق "الاكتشاف"، فمن واجبه أن يتابع رسالته الثقافية في محاولة استكشاف الشرق، كما هو من غير وصاية عليه.

1- إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية، بيروت: 2006م، ص44.

2- المرجع نفسه، ص45.

3- المرجع نفسه، ص45-46.

4- إدوارد سعيد، الاستشراق- المعرفة - السلطة- الإنشاء - تر: كمال أبو أديب، ط7. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية،

2005م، ص 61.

2- الفكر الاستشراقي (النشأة والتطور) :

يختلف الباحثون في تحديد التاريخ الذي ظهرت فيه البواكير الأولى لحركة الاستشراق، فمنهم من أرجعها إلى الاحتكاكات الأولى التي جرت بين الدولة الإسلامية الفتية والإمبراطورية الرومانية في غزوتي مؤتة وتبوك، ومنهم من يعود بها إلى القرن الثامن الميلادي¹، ومنهم من أرجعها إلى القرن العاشر عهد "سلفستر الثاني"² (999-1003م) بابا روما³، ومنهم من يعود بنشأة الاستشراق إلى القرن الثاني عشر وما بعده⁴، حيث ظهرت شخصيات كانت السبب المباشر في بروزه، ومن خلال تتبع هذه الآراء، يمكن أن نقسم مراحل نشوء الاستشراق إلى أربعة أطوار هي:

الطور الأول: مرحلة النشوء: (711م - 1199م).

وذلك منذ أن احتك الإسلام بأوروبا سياسياً وعسكرياً، وأسس مراكز لحضارته في جنوب أوروبا وغربها الجنوبي، وتبدأ هاته المرحلة من بداية القرن الثامن الميلادي، وإن شئنا الدقة أكثر عام (711م)، أي منذ بداية الفتح الإسلامي لإسبانيا، وتأسيس دولة الأندلس، وتنتهي حتى القرن الثاني عشر، وكان موقف العرب والمسلمين موقف المعلم، يلقن الغرب جوانب من حضارته الفتية، وكان كثرة الإسبان تشارك في الاستمتاع بمميزات الحضارة الإسلامية ومنجزاتها.

وتتسم هاته المرحلة بانبهار الغرب بالحضارة العربية الإسلامية، وبخاصة في ميدان العلوم الطبيعية حيث ترجمت كتب ابن سينا إلى اللاتينية وبخاصة موسوعته الضخمة "الشفاء" في عام 1180م⁵. ويمكن أن ندلل على صحة ما ذهبنا إليه أيضاً بما ذكره "لويس شيخو"، من أن الكنيسة الكاثوليكية كانت أعظم ساعية إلى درس اللغة العربية، وأن ممن اعتنوا بهاته الدروس، وبنقل الآثار العربية إلى اللاتينية أو بنوا أبحاثهم على أحوال الشرقيين رئيس دير كلوني بطرس المكرّم، وكان رحل إلى الأندلس ورقب شؤون العرب فيها، فأعجب بأدبهم، فلما عاد إلى ديره عُني بانتقاد كتبهم⁶، وسيبقى الجهد

-
- 1- زكريا هاشم زكريا، المستشرقون والإسلام، ط1. القاهرة: نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1965م. ص167.
 - 2- هو جرير دي أورلياك (938-1003م)، Jerbert de Oraliac، قصد الأندلس، وتعلم على أساتذتها، انتخب حبراً أعظم باسم سلفستر الثاني، فكان أول بابا فرنسي، وقد أمر بإنشاء مدرستين عربيتين: الأولى في روما، والثانية في رابمس وطنه. ينظر: العقيلي، المستشرقون، ط4. القاهرة: دار المعارف 1980م، ج1، ص110.
 - 3- عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط1. بيروت: دار العلم للملايين، 1984م، ص107.
 - 4- انظر في ذلك: أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، ط2. لندن: المنتدى الإسلامي، 1411هـ ص26.
 - 5- مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، تر: إلياس مرقص، ط1. بيروت: دار التنوير 2005م، ص22-24.
 - 6- الأب لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين، (1800-1925)، (1925)، ط3. بيروت: دار المشرق، 1991م، ص11.

العظيم الذي قام به هذا الرجل من أجل ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية والذي عهد به إلى " روبرت كتون " (Robert ketton)، وانتهى منه عام (1143م)، معلماً تنويرياً في تاريخ العلاقة بين المسيحية والإسلام، حيث قدّمت ولقرون عدّة الركيزة الأساسية والمأمونة للبدء بدراسات حقيقية حول الإسلام بأوروبا الغربية والوسيط¹.

والمراقب لهاته الحقبة التاريخية يمكن أن يلمح أن صورة الإسلام في الغرب بدأت تتكون شيئاً فشيئاً، لكن ليس بوسعنا أن نتظر منهم موضوعية في المقارنة؛ ذلك لأن موقف المغلوب ليس هو الموقع المناسب ليكون حكماً هادئاً ومتسامحاً عن الغالب، وربما بسبب هاته الحالة سماها " رتشارد سودرن " حقبة الجهل².

الطور الثاني: مرحلة النضج: (1200م - 1798م).

وتبدأ المرحلة الثانية من الاستشراق من بداية القرن الثالث عشر وتستمر حتى بداية القرن التاسع عشر، حيث العناية والاهتمام بالتراث الإسلامي وتجميعه، وتمثل ذلك في تنامي الترجمات وإنشاء المعاهد والكراسي الخاصة بالدراسات الشرقية، وظهر شخصيات كان لها تأثيرها القوي في وجود الاستشراق، بل ويذهب بعض الباحثين أن هاته المرحلة هي البداية الفعلية للاستشراق مع هؤلاء.

أ- " روجر بيكون " (1214 - 1294م)³ الإنكليزي، وقد اغترف من معين الثقافة العربية الإسلامية، ودعا إلى الاستفادة منها، وبالذات في المجال الفلسفي، وفي هذا المعنى يقول: "إن الفلسفة هي خصيصة الكفار، فكل ما نعرفه فلسفياً -للأسف- آت من عندهم، فتفهم الكفار - وهو يعني هنا الاغريق ثم العرب- هدفه استمداد الفلسفة منهم لكي تدرك المسيحية نفسها، ثم لكي تواجه الآخرين، فعندما تتلقى المسيحية الفلسفة ستعيد صياغتها في ضوء الوحي ثم تتحدى الكفار بالمنظومة الجديدة المتكاملة"⁴.

1- ريتشارد سودرن، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، تر: رضوان السيد، ط1. بيروت: دار المدار الإسلامي، 2006م، ص80.

2- المرجع نفسه، ص35.

3- روجر بيكون (1214-1292)، راهب فرنسيسكاني وعالم طبيعة إنكليزي، كان يرى في العلم الجديد منهاجاً ملائماً للبحث، وتطبيق المناهج الرياضية والتجريبية في دراسة اللاهوت والفلسفة، كما طالب باستصلاح تدريس الفلسفة المسيحية. ينظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ط4، القاهرة، دار المعارف، 1980، ج1، ص120.

4- المرجع نفسه، ص102-103.

ب- ريموند لول (1235-1316م)¹ الإسباني، وقد كان من أكثر معاصريه حماسا في التبشير بالمسيحية، وكانت أمنيته الكبرى اجتذاب المسلمين إليها، وإقناعهم بلغتهم على بطلان الإسلام، وقد كان من أهم جهوده في الدرس الاستشراقي أنه حينما عقد مؤتمر (فيينا) الكنسي سنة (712هـ / 1312م)، قدم اقتراحا نادى فيه بإنشاء كراسي للغات: العربية، والعبرية، والسريانية في الجامعات الأربع في أوربا وهي: باريس وأكسفورد وبولونيا وسلامنكا، ثم في جامعة خامسة في البلاط البابوي، فحظي اقتراحه هذا بالقبول، ومن هذا التاريخ صار إسهام الكنيسة الغربية الكاثوليكية في دعم الاستشراق إسهاما رسميا منظما.

وقد حثَّ كل من "بيكون"، و"لول" الأوربيين بضرورة ترك الجهد العسكري لأنه غير ناجح، ولا مفيد، وعلى ضرورة قيام الجهد الإرسالي على دراسة اللغات، والتعمق في المذاهب. ويلاحظ على كتابات الاستشراق، الاهتمام بدراسة اللغات السامية والكتب المقدسة والدراسات الإسلامية، ثم بدأوا يوسعون اهتماماتهم ويمدونها بحيث شملت الدراسات الصينية، والأديان الهندية والاهتمام أكثر فأكثر بالدولة العثمانية، من جميع النواحي باعتبارها غدت خطرا شديدا على أوربا. ويلاحظ على هاته المرحلة غلبة الهدف الديني، -على الرغم من محاولة "رايسكة" الواعدة من ضرورة تحرير الاستشراق من اللاهوت - وهذا طبيعي مادامت المشروعات في هاته القرون للكنيسة ورجالها، كما يلحظ الدارس غلبة النزعة التاريخية على الدرس الاستشراقي، إذ كان الهدف جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الشعوب المستعمرة، ثم تفكيك هذا المنتج الثقافي من أجل إجادة فن التعامل مع تلك الشعوب لتسهيل إرادة الهيمنة عليها، كما ساد "المنهج الفيولوجي" بآلياته المشهورة وبخاصة الإرجاعية منه، وهذا طبيعي بفعل سيادة المركزية الأوربية، فكل ما يحدث من علوم في الأطراف فهو بتأثير منه، لأن عقلية تلك الشعوب أقل من أن تبدع أو تساهم في تطور الحضارة.

1- ريموند لول (1236 - 1316)، لاهوتي ومستشرق إسباني، قضى نحو تسع سنوات في تعلم العربية، وقد مال في الفترة الأخيرة من حياته إلى التصوف المسيحي وناصح عن العقيدة المسيحية بحيث أنه لا يمكن فصل فكره عن مشروع التنصير. من مؤلفاته: "الفن الأكبر والأصغر". ينظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، ص 602 وما بعدها.

الطور الثالث: مرحلة الازدهار: (1830م-1945م)

وما إن جاء منتصف القرن التاسع عشر حتى كانت المادة العلمية والمعلومات والتخصصات التي تدخل في مجال الاستشراق تُولف كنزا هائلا من المعرفة التي تفوق كل تصور.

فالاستشراق بهذا، اتخذ كذريعة للنفاذ إلى كشف البنية الفكرية، الثقافية والاجتماعية، ثم التغلغل التدريجي في عمق تلك المجتمعات، ومحاولة تفكيكها بحد ذاتها بعدما استطاع تفكيك المنتج الثقافي لتلك الدول والشعوب.

وعلى الرغم من الاتجاه الحقيقي والمنظم للاستشراق عموماً في هاته الحقبة التاريخية، وسيادة روح التنوير الفلسفي العالمي، ومحاولة إضفاء الصفة العلمية، إلا أن أبحاث المستشرقين لم تتغير من حيث الشكل، ولم تقو إلا نادراً جداً على مسح الصورة القائمة التي خلفتها العصور الوسطى.

وتستمر هاته المرحلة حتى نهاية الثلث الأخير من القرن العشرين، متسمة بانعقاد المؤتمرات المتخصصة والجامع العلمية، وتزايد إصدار المجلات العلمية مع المحافظة على مناهج الأقدمين في التشويه والمواربة. مع ارتباط أوثق بالدوائر الرسمية، ولذلك نرى قسماً كبيراً من المستشرقين كان يعمل في وزارة المستعمرات التابعة لتلك الدول. وصفوة القول: إن الاستشراق لم يتخلص بعد من آثار السياسة والاستعمار، وبهذا ما زال يفتقد الاتجاه العلمي الصرف.

ويغلب على أهداف المرحلة الأهداف الاستعمارية، وهذا طبيعي مادامت المشروعية للعقل الفلسفي النفعي، كما ساد في هاته الحقبة "منهج الإسقاط" تعبيرا عن العنصرية الأوربية، التي سادت أوروبا بفضل آراء "أرنست رينان"¹ و"تلمان"، و"غوتيه"² فكل ما يحدث خارج المركز الأوربي ينبغي أن يحدث وفقا لما حدث في الغرب وبالانتظام في تراثه. وتحول الاستشراق إلى محاولة تغريب الثقافة العربية والإسلامية والثقافات الإنسانية. حيث تمكن الاستعمار من تطبيع الثقافة المغرّبة وتبيئتها في البلاد المستعمرة، وتعميمها في جميع مناسط الحياة، ولعل آثارها لازالت تلمح إلى يومنا هذا، وما وظيفة الاستشراق في حقيقة الأمر إلا العمل على إلحاق الشرق بالغرب، ومحاولة إعادة إنتاج الشرق سياسيا وثقافيا وعلميا.

1- أرنست رينان (1823-1892)، مستشرق وفيلسوف فرنسي، من أهم أطروحاته تفوق الجنس الآري على الجنس السامي. من مؤلفاته: "ابن رشد والرشدية". ينظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3، بيروت، دار العلم للملايين 1993، ص 311 وما بعدها.

2- غوتيه، ليون (1862-1949)، مستشرق فرنسي ولد بمدينة سطيف في الجزائر، اهتم بالدراسة والتأريخ للفلسفة الإسلامية. من أهم مؤلفاته "نظرية ابن رشد بين الدين والفلسفة". أنظر عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 195.

الطور الرابع: مرحلة ما بعد الاستعمار: (1945م إلى الآن).

وهو الطور الأخير من أطوار الاستشراق ويبدأ من الثلث الأخير من القرن العشرين، ويستمر إلى الوقت الراهن وفي هذا الطور لم يعد تحقيق المخطوطات ولا الدراسات اللغوية هي الشغل الشاغل عند المستشرقين، ويمكن التماس الظواهر الدالة على ذلك في قلة ما يصدر من بحوث ودراسات استشراقية في هذا الجانب، وفي تساؤل عدد الذين يعرفون لغات الشرق من الغربيين، ثم في قلة الاهتمام بتطوير معاهد الاستشراق، وتناقص عدد كراسي الأستاذية فيها، فالاستشراق في حالة سبات فعلا، إذ لم يعد تحقيق النصوص أو تحليل التاريخ وسيلة للسيطرة والاستعمار، كما أن المواطن الغربي لم يعد يستمد تصوره عن الشرق من المستشرقين، بالإضافة إلى التحولات في ثقافة الغرب عجلت بدخول الاستشراق في أزمة.

3- دوافع وأهداف الاستشراق:

بدأت دوافع الاستشراق الأولى كمحاولة استكشاف للآخر وهو تطلع طبيعي، فكل ضفة يدفعها الفضول لمعرفة الضفة المقابلة.

ومحاولات الاستكشاف الأولى كانت طبيعية تلقائية: عالمان متقابلان - شرق وغرب كل منهما يتطلع إلى الآخر، يبحث عن ذاته من خلال ذلك الآخر، وكان يمكن للاستشراق أن يكون جسراً للتواصل الحضاري والحوار المثمر بين الشرق والغرب، ولو تم ذلك لحقق لحضارة الغرب تفوقاً وتميزاً، ولجعل منها حضارة للإنسان، تنمي قيم التعايش وتقر مبادئ التكافل بين الشعوب على أساس احترام خصوصيات كل أمة، وحقها في احتضان ثقافتها التي هي جزء من شخصيتها. ولعل من أهم الأسباب التي دفعت المستشرقين إلى دراسة الحضارة الإسلامية هي محاولة اكتشاف طبيعة هذه الحضارة وخصوصيتها، والحد من توسع الحضارة الإسلامية وبالتالي جرى تسميم العقل الغربي تجاه الإسلام.

3-1- الدافع الديني:

قد يكون هذا الدافع أهم الدوافع التي قام الاستشراق لتحقيقها ويتمثل في محاولة الدعوة إلى النصرانية ونشرها بين دول العالم عامة والإسلامي بخاصة. ويتأكد هذا الدافع بعاملين مهمين:

العامل الأول: فقه الواقع كما هو فالذي يقوم بمهمة الدعوة والإرشاد لا بد عليه من الفقه الدقيق بالواقع وبأحوال المدعوين، وأن يعرف مكونات العقول سواء من حيث المضمون الفكري أو الأساليب المنهجية وأن يجيد تقدير المواقف وأن يتصرف وفقاً لذلك.

العامل الثاني: إيجاد المعرفة الكفيلة بمحاصرة الأفكار والطروحات بما يتضمن نقضها أو على الأقل عدم انتشارها ومن ثم يسهل التعامل معها، أما لو جهلها فلن يتمكن من ذلك.

وهو ما دعا إليه بطرس الراهب الذي طلب سنة 1143م، من "روبرت كيتون" (Robrte ketton) ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية، وقد أوضح بطرس الراهب أن الغرض الحقيقي من وراء هذه الترجمة يتمثل في هداية المسلمين إلى محاسن الديانة المسيحية، ولقد اعتبر بطرس المبجل أن الإسلام في حقيقته ما هو إلا "هرطقة مسيحية" هي آخر الهرطقات وأشدّها ضرراً، واعتقد بطرس أن التحدي الإسلامي لم يجد إجابة مسيحية مناسبة حتى أيامه؛ ولهذا رأى أنه من الضروري مواجهة هذه الهرطقة التي شكلت - بزعمه - الأصل والمنبع لكل الهرطقات التي كانت تغزو المسيحية الأوروبية التقليدية آنذاك؛ فإذا كان الإسلام لا يشكل خطراً عسكرياً مباشراً فلا شك أنه شديد الخطورة فكرياً لذا لا بد من التعرف عليه لتمكين مكافحته: "إذا بدا أن العمل الذي أدعو إليه غير ضروري الآن، لأن العدو لن يتأثر بهذا السلاح، أجب أن بعض الأعمال... تتم من أجل ضرورات الدفاع... وهذا هو الشأن في العمل الذي أقوم به هنا، فإذا لم يمكن بهذه الطريقة إعادة المسلمين إلى المسيحية الصحيحة، فلا أقل من أن يستفيد العلماء المسيحيون من عملنا في مجال دعم إيمان المسيحيين السذج الذين يمكن أن تضير هذه الصغائر عقيدتهم"¹. لكن هاته الدعوة اختفت تحت وقع صليل السيوف، وسعي النصارى المتواصل إلى سحق ما أسموه بدعوة "المسيح الدجال".

ثم ظهرت الدعوة ثانية وكان بطلها هذه المرة الفيلسوف "روجر بيكون" (Roger Bacon) (1294 م) في مشروعه² الذي عرضه على بابا روما، وجاء فيه تصوير لحالة المسيحية من وجهة نظره، ومقترحات لإصلاح حالها.

وجاء في هذا المشروع أن عدد المسيحيين في العالم قليل، أما سائر المعمورة فيغص بالكفار الذين لا يجدون أحداً يهديهم إلى طريق الحق، ويرجع سبب ذلك إلى تقصير المسيحيين في التبشير بدينهم؛ إذ حالت شهوة أولي الأمر دون وصول محاولات الهداية إلى أغراضها الحقّة هذا من جهة، ومن جهة أخرى يرجع إلى البنية اللاهوتية القاصرة للمسيحية³.

1- ريتشارد سودرن، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، (مرجع سابق)، ص 81-82.

2- لم ير النور هذا المشروع الذي أرسله بيكون إلى البابا إلا حديثاً، حيث جرى نشر القسم الخاص بالفلسفة الأخلاقية عام 1953م. ينظر: ريتشارد سودرن، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى،، (مرجع سابق)، ص 99-100.

3- المرجع نفسه، ص 100.

كما انتقد "بيكون" الحروب الصليبية ورآها عديمة الجدوى، أما الطريقة المثلى - في نظره - لنشر المسيحية فتكمن في الدعوة بالموعظة الحسنة والتبشير السلمي، غير أن اللاهوت المسيحي عاجز عن القيام بعبء الدعوة والموعظة " لأسباب ثلاثة: فلا أحد يعرف لغات الشعوب التي يراد التبشير بينها، ولا أحد يعرف ماهية عقائد الكفار الذين يراد تبشيرهم، ولا أحد - في النهاية - يملك حججا مؤسسية على المعرفة لدعوة غير المسيحيين إلى الكاثوليكية"¹.

والحقيقة أن دعوة بيكون لتعلم اللغات غير اللاتينية كانت هي الموضوع الأثير عنده؛ أما رأيه في ضرورة التعرف على أشكال الكفر وتحليلها، والوصول إلى أصولها وعللها، وأسباب استمرارها، فقد قاده إلى القول بضرورة إنشاء علم جديد مختص بذلك، يعمل على مواجهة أعداء المسيحية، وبخاصة الإسلام الذي يعتبر مواجهته أصعب المواجهات، ويورد بيكون بنفسه - في مشروعه - فئات مختلفة من الحجج والبراهين والتشكيكات يراها كفييلة بنقض الإسلام وهدمه من أسسه².

وقد شارك بيكون في أفكاره "ريموند لول" (1236-1316) الإسباني الذي تعلم اللغة العربية، وكانت له جهود كبيرة في إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية في أماكن مختلفة، وكان الهدف من كل هذه الجهود في ذلك العصر وفي العصور التالية هو التنصير وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين النصراني³.

وقد صادق مجمع فيينا الكنسي عام (1312م) على أفكار بيكون ولول بشأن تعلم اللغات الإسلامية، وتمت الموافقة على تعليم اللغة العربية في خمس جامعات أوروبية هي: باريس أكسفورد بولونيا سلمنكا بالإضافة إلى جامعة المدينة البابوية "KURIE".

وقدر لريموند لول أن يعيش حتى يشهد تحقيق حلم طالما نادى به وكان يعتقد أن الوقت بذلك قد حان لإخضاع المسلمين عن طريق التنصير وبذلك تزول العقبة الكبيرة التي تقف في سبيل تحويل الإنسانية كلها إلى العقيدة الكاثوليكية⁴.

وليس هذا العلم الجديد الذي نادى كل من "بيكون"، و"لول" بضرورة تأسيسه إلا علم الاستشراق، الذي كان يحمل في جراثيمه الأولى هذه الغاية التبشيرية.

1- ريتشارد سودرن، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، (مرجع سابق)، ص101.

2- المرجع نفسه، ص101-103.

3- رودري بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، تر: مصطفى ماهر، ط1. القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967م، ص9.

4- يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، تر: عمر لطفي العالم، ط2. بيروت: دار المدى الإسلامي، 2001م، ص21-22.

وإلى هذا الدافع يشير الندوي بقوله: "أما العامل الديني فهو يهدف إلى نشر الديانة المسيحية وتبليغ دعوتها، وتصوير الإسلام تصويراً يثبت فضل المسيحية ورجحانها على الإسلام، ويبحث في الطبقة المثقفة إعجاباً بالمسيحية وحرصاً عليها، ولذلك نرى أن الاستشراق و"التبشير" يسيران معاً في أغلب الأحوال وأن عدد المستشرقين الأكبر أساقفة، وعدداً كبيراً منهم يهود ديانة و"جنساً"¹

كما اشتغل الكثير منهم على تسميم العقل الغربي تجاه الإسلام وفي هذا المعنى يذكر الندوي: "إن طائفة كبيرة من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف في الشريعة الإسلامية، والحضارة والتاريخ الإسلامي، وإبرازها من أجل غاية سياسية ودينية، فكان شأنهم في ذلك شأن من لا يرى في مدينة ذات بهجة ونضارة، ونظام وخلافة، إلا مزابيل ومراحيض ومستنقعات، كما هو مفتش الأوساخ والمياه المصرفة (Drain Inspector)، في البلديات وأمانات العواصم، فيرفع بذلك تقريراً إلى الجهات المختصة لا يجد فيه القارئ -بطبيعة الحال- إلا الحديث عن العفونات والأوساخ"². وهو معنى يزيد إيضاحاً بقوله: "إن كثيراً من المستشرقين يركزون كل جهودهم ومساعدتهم على تعريف مواضع الضعف في تاريخ الإسلام ومجتمعه ومدنيته، حتى في ديانته وشريعته، وتمثيلها في صورة مروعة مضحمة، إنهم ينظرون إليها عن طريق "المجهر (microscope)، ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلاً، والنقطة بحراً، وقد ظهرت حداقتهم وذكاؤهم في كثير من الكتابات في تشويه صورة الإسلام"³.

ولقد اعترف المستشرق الفرنسي "مكسيم رونسون"⁴ بهذا المسلك حيث يقول: "يبدأون بدراسة اللغات وجمع المواد تحت دافع إيديولوجي بالتمام، هكذا بدأت في إسبانيا، الدراسات العربية في خدمة العمل التبشيري منذ العصور الوسطى"⁵.

ومن هذا يتضح أنه قد كان هناك تجاوب متبادل بين الاستشراق والتنصير إن لم يكن تماثل في القصد بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الإنجيلي.

1- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، ط5. الكويت: دار القلم، 1985م، ص183.

2- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص15.

3- المصدر نفسه، ص16.

4- مكسيم رودينسون (1915-2004)، مستشرق فرنسي يهودي الأصل، من مؤلفاته: "جاذبية الإسلام". ينظر: نجيب العقيلي، المستشرقون، ج1، ص359.

5- مكسيم رودينسون، جاذبية الإسلام، تر: إلياس مرقص، ط1. بيروت: دار التنوير 2005م، ص41.

3-2 - الدافع العلمي المجرد:

ويتمثل في الجهود الكبيرة التي بذلها بعض المستشرقين من تحقيق ونشر كثير من الآثار الإسلامية، في وقت لم يكن بعض الباحثين في العالم الإسلامي ليعرفوا هذه الآثار غير الإشارة إلى أسمائها أو أسماء مؤلفيها فقط وهو معنى أكده الندوي بقوله: "إنني أعترف بكل وضوح وصراحة أن عدداً من المستشرقين كرسوا حياتهم وطاقتهم على دراسة العلوم الإسلامية، وتبنوا موضوع الشريكات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسية أو اقتصادية أو دينية، بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم وبذلوا فيه جهوداً ضخمة، ويكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها، وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعارف التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون، إلى النشر والإذاعة، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين، وعاهة الأرضة، وكم من مصادر علمية ووثائق تاريخية، لها مكانتها وقيمتها، صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وهمتهم وقرت بها عيون العلماء في الشرق"¹.

ويقتضينا الحال أن نقول مرة أخرى أن فريقاً من المستشرقين قد تجردوا للبحث العلمي النزيه ولم يسخروا بحثهم وعلومهم لخدمة الاستكبار والاستعلاء الغربي الممثل في قهر الشرق الإسلامي واستعمار سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وإعلامياً، لكن هؤلاء قلة، ويخص الندوي من بينهم: توماس أرنولد صاحب الكتاب القيم "الدعوة إلى الإسلام" واستانلي لين بول صاحب كتاب "صلاح الدين الأيوبي"، و"العرب والأندلس"، والدكتور اسبرنجر صاحب المقدمة الإنكليزية النفيسة لكتاب "الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني"، وونسك (wensink) صاحب المعجم المفهرس العام التفصيلي الذي وضع للكشف عن الأحاديث النبوية المدونة في كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة وكتب السيرة والمغازي المشهورة، كما أشرف المستشرق الراحل كذلك على ترتيب المعجم لألفاظ الحديث النبوي، ونشره عام 1936م، وجعل الاستفادة منه سهلة ميسورة، وقد جاء في سبعة مجلدات كبار، وإن دلت هاته المؤلفات على شيء فإنما تدل على عناء المؤلفين ودراساتهم المغنية المخلصة للموضوع، المتجردة - في أغلب الأحوال - عن العصبية الدينية ومجانبة الحق².

أما الغالبية العظمى منهم، فقد أوجدوا تحالفاً بينهم وبين الاستعمار، يخدمون أغراضه، ويحققون أهدافه، ويمكنون سلطانه في بلاد المسلمين، وهذا عمل يشعر إزاءه المستشرقون المنصفون بالحنج والمرارة وفي هذا المعنى يقول المستشرق الألماني ستيفن ويلد "Stephan wiled": "والأقبح من

1- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، ص 12-13.

2- المصدر نفسه، ص 13-15.

ذلك أنه يوجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سجل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة"¹.

3-3- الدافع السياسي والاستعماري:

وهذا الدافع ظهر إلى الوجود كنتيجة للصلات الاقتصادية وخطط التوسع الاقتصادي التي ظهرت في أوروبا، فقد جاء في المذكرة التي رفعها جمع من العلماء سنة 1639م، إلى المسؤولين في جامعة كامبريدج، والتي طلبوا فيها إنشاء كراسي للدراسات العربية الإسلامية ما يلي: "يضع المركز نصب عينيه خدمة مصالح الملك والدولة، وذلك بالعمل من أجل ازدهار تجارتنا مع الأقطار الشرقية وتوسيع حدود الكنيسة-إذا شاء الله- في الوقت المناسب، ونشر هدى الدين المسيحي بين أولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهالة"².

والحقيقة أن الاستعمار تبنى حركة الاستشراق واستعان بالمستشرقين واعتبرهم طلائعته التي يتعرفون بها على الأفكار ويقومون بالدعايات وإثارة المنازعات وإشعال الخلافات.

ولم تكن علاقة الاستشراق بالاستعمار - كما يظن - هي مجرد إضفاء طابع التبرير العقلي على المبدأ الاستعماري بل كان الأمر كما يقول أبو الحسن الندوي أبعد من ذلك وأعمق، فالتبرير الاستشراقي للسيادة الاستعمارية قد تم قبل حدوث السيطرة الاستعمارية على الشرق وليس بعد حدوثها، فقد كان التراث الاستشراقي بمثابة دليل الاستعمار في شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها.

وفي هذا المعنى يقول الندوي: "إن المستشرقين بصفة عامة كانوا رواد الدول الغربية في الشرق ومن واجبهم أن يمدوها بممداهم العلمي وكانوا مصادر وثيقة للغرب يطلع بها على تفاصيل ومعلومات وتقاليد الشعوب الشرقية وبلدان الشرق، وعن طبيعتها، ومعيشتها، ولغاتها، وآدابها حتى عواطفها ونفسياتها، وذلك ليتسنى للغرب أن يسط نفوذه وسلطته في الشرق"³.

وهكذا تم تحالف بين الاستشراق والاستعمار، وصارت العلاقة بين الشرق والغرب علاقة غير معرفية، بل إنها تتوسل بالمعرفة لأغراض الهيمنة، ومن ثم يغدو فعل الاستشراق سلطة، أو أن السلطة هي المعطى الأساسي فيه على الأقل، أما المعرفة فهي معطى ثانوي.

1- نقلا عن: محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الفكري، القاهرة: دار المعارف، 1997م، ص 47.

2- المرجع نفسه.

3- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، (مصدر سابق)، ص 183.

فالمعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين هي التي تجعل حكمهم سهلاً ومجدياً، فالمعرفة تمنح القوة أو مزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة، فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية¹.

وهكذا اتجه الاستشراق المتعاون مع الاستعمار بعد الاستيلاء العسكري، والسياسي على بلاد المسلمين إلى إضعاف المقاومة الروحية، والمعنوية في نفوس المسلمين، وتشكيك المسلمين في تراثهم ومعتقداتهم حتى يتم للاستعمار في النهاية إخضاع المسلمين إخضاعاً تاماً للحضارة والثقافة الغربية. ولعل أبرز مثال على ذلك حملة نابليون على مصر، حيث سعى إلى المزاوجة بين القوة العسكرية، والمعرفة البحثية، الشيء الذي عكسه حضور الكثير من المستشرقين ضمن هذه الحملة، حيث عكفوا على إعداد عمل جماعي ضخم بكل المقاييس هو "وصف مصر" الذي وصل إلى عشرة مجلدات كاملة، كانت الغاية من تأليفه اهتمامات وظيفية صرفة، وخدمة غايات مرسومة مسبقاً، والغريب حقاً أن تكون دوافع حملة نابليون على مصر مطالعته لكتاب المستشرق "فولني" (Volony)، (1757-1820م)، صاحب رحلة إلى سوريا ومصر (1787). وهي رحلة ممتعة ومدهشة في جانبها السياسي والاجتماعي وفي تصويرها للواقع الشرقي الحي².

والواقع التاريخي يؤكد أن حركة الاستشراق جملة، وُجِّهت في مراحلها إلى خدمة غرض آخر، لا يعنيه تراث الشرق إلا بقدر ما يكشف عن عقلية شعوبه وأمزجتهم وأسرار ذاتهم ومواضع القوة والضعف فيهم، توطئة لحمالات التبشير وموجات الاستعمار التي تدفقت على شرقنا الآسيوي الإفريقي، من القرن الثامن عشر³.

ويعبر المستشرق الهولندي "سنوك هرجرنية"⁴ (Snock-Hurgronje)، عن ضرورة الاستشراق للاستعمار فيقول: "إن الشريعة الإسلامية موضوع مهم للدراسات الاستشراقية، ليس فقط لأسباب تجريدية متعلقة بتاريخ القانون والحضارة والدين، ولكن لأهداف عملية: وذلك أنه كلما توثقت

1- إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، (مرجع سابق)، ص 68-70.

2- مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، تر: إلياس مرقص، ط1. بيروت: دار التنوير 2005م، ص 48.

3- بنت الشاطي، تراثنا بين ماضٍ وحاضر، ط1. القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 1967م ص 53.

4- مستشرق هولندي، (1857م- 1936م)، تمثل حياته نموذجاً للعلاقة بين الاستشراق والتنصير والاستعمار، تظاهر كذبا بالإسلام، وتسمى بعبد الغفار، وحج إلى مكة عام 1884م، واستمر يتظاهر بالإسلام في أندونيسيا، وخذع أحد الأمراء وتزوج بابنته وله منها أولاد، من أشهر مؤلفاته: الحج إلى مكة، والمهدي، ومكة وجغرافيتها في القرن التاسع عشر من جزئين، وقد وصفها وصفاً دقيقاً شاملاً. أنظر في ترجمته: يحي مراد، معجم أسماء المستشرقين، الكتب العربية، ص 694-695؛ وينظر أيضاً: أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، (مرجع سابق)، ص 59-61.

العلاقات بين أوروبا والشرق الإسلامي، وكلما زاد عدد البلاد الإسلامية التي تقع تحت السيادة الأوروبية، كلما زادت الأهمية بالنسبة لنا نحن الأوروبيين لتتعرف على الحياة الفكرية، وعلى الشريعة، وعلى خلفية المفاهيم الإسلامية".¹

وبالفعل فقد سبق الاحتلال الفرنسي والبريطاني للبلاد الإسلامية بدراسات استشراقية رصينة ومخططة. كان من ثمراتها العملية احتلال الجزائر ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية في أفريقيا وآسيا. وعندما حلت أمريكا محل بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط اعتمدت أيضا على الدراسات الاستشراقية وعلى مؤسساتها في الجامعات ووسائل الإعلام، ويتضح بوجه خاص في استعانة البنتاغون ومجلس الأمن القومي بخبرة المستشرقين "برنارد لويس" و"فؤاد عجمي"، اللذين قدما للصحف اختلاقات فكرية شنيعة لصناع القرار في أمريكا في حربها الأخيرة في الخليج. والحقيقة إن الاستشراق كانت له اليد الطولى في رسم تلك الصورة النمطية للإسلام والمسلمين في أذهان الأوروبيين، ومن ثم كان لهم الدور الحاسم في تحديد مواقف الغرب إزاء الإسلام، ولقد شعرت الدول الغربية بقيمة المستشرقين ومكانتهم شعورا كاملا وساعدهم زعماءها من كل طريق ممكن.²

ولم ينته هذا الدور الاستشراقي باستقلال أكثر دول العالم الإسلامي وإنما بقي إلى ما بعد الاستعمار حيث بقت تلك الدول الاستعمارية محتاجة إلى نصحتهم وإرشادهم في كل ما يتعلق بالعالم الإسلامي، ومن ثم فهي بحاجة ماسة إلى من يرصد لها باستمرار واقع تلك البلاد، وما يعمل فيها من تيارات مناوئة أو موالية لها ولمصالحها، ولا يتم لهم ذلك إلا بإيجاد متخصصين يقومون بهذه المهمة، حفاظا على مصالحهم في تلك الديار، وهو معنى أكده الندوي بقوله إن من مهام المستشرقين: "الرد على الأفكار والعقائد وقمع الحركات والأوضاع التي تسبب للدول الغربية صداعا وعرقلة، وتحدث لها مشكلات وعقبات، ويحاولون خلق جو لا تخطر فيه معارضة، بل تحدث هالة من التقديس والإجلال حول حضارتهم حتى يعترفوا بمآثرهم وجلائل أعمالهم، ينبعث فيه دافع الإقتداء والتقليد الذي يحملهم على الإقتداء بآثارهم في سبيل إصلاح البلاد وترقيتها، وتظل سلطة حضارتهم وعقليتهم مضمونة على النفوس، رغم ذهاب دولهم ونهاية حكمهم".³

ولاشك أن المعرفة بالشرق توظف في دوائر صنع القرار في رسم حاضر الشرق، بل ومستقبله أيضا.

1- يحي مراد، معجم أسماء المستشرقين (مرجع سابق)، ص 42.

2- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، (مصدر سابق)، ص 184.

3- المصدر نفسه.

وهكذا لم يعد الاستشراق مجرد تخصص علمي "أكاديمي" كما كان المرجو منه، بل صار أسلوباً غربياً للهيمنة على الشرق، وإعادة صياغته وتشكيله فكرياً وسياسياً، وممارسة السلطة عليه، كما نبّه على ذلك "إدوارد سعيد" بحق.

3-4- الدافع الاقتصادي التجاري:

ويتمثل في سعي الدول الأوروبية إلى تنشيط تجارتها مع الدول الإسلامية، والبحث عن أسواق لها خارج حدودها، وبخاصة بعد الثورة الصناعية التي شهدتها أوروبا، حيث بدأ للأوروبيين أن مواردهم من المادة الخام محدودة، ومن ثم سعوا للتعرف على الشرق الإسلامي بما يحقق الهدف التجاري، والحقيقة التي لا شك فيها " أن العالم الإسلامي كان ميداناً اقتصادياً، بل وذا أهمية أولية بالنسبة لعدد كبير من التجار الأوروبيين"¹.

وإذا كان الاستشراق مريحاً للدول والمجتمعات فإنه مريح أيضاً للأفراد وفي هذا المعنى يقول الندوي: " ويتخذ كثير من المثقفين كمهنة ناجحة، وكثير من أصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها، يشجعون نشر المؤلفات والكتب التي تدور حول الإسلاميات والشرقيات ويشرفون على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة في أوروبا وآسيا، وتنال هذه المؤلفات من القبول والإعجاب ما يجعلها عظيمة الانتشار كثيرة الذبوع، وهي ولاشك وسيلة لتجارة رابحة، وكسب أموال خطيرة"².

4- مناهج المستشرقين:

إن استيعاب منهج المستشرقين ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقداً صحيحاً وإثبات ما يتضمنه من تخافت أو زيف.

وهذه الحقيقة يؤكدها المستشرق الفرنسي "رودنسون" حينما يقول: "إن النقد الأوربي ربما يكون غير عادل في نقاط معينة، ولكن القيام بتنفيذ هذا النقد يقتضي بدوره دراسته أولاً، إذ لا يمكن نقده إلا على الأساس نفسه الذي قام عليه"³.

والندوي لا يكتفي بنقد المستشرقين جزئياً، وإنما يحاول نقدهم منهجياً، ويمكن أن نجمل هذا النقد في الآتي:

1- مكسيم رودنسون، جاذبية الإسلام، (مرجع سابق)، ص 41.

2- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، ط 5. الكويت: دار القلم، 1985م، ص 184.

3- M- Rodinson: Mohamed ,frank furt, ed, 1975. P.8.

- استخدامهم منهج الإسقاط، ومن مقتضيات هذا المنهج أن أصحابه كما يرى الشيخ: "أنهم يعينون لهم غاية ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومون لها بجمع المعلومات من كل رطب ويابس ليس لها أي علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ، أو الأدب والشعر، أو الرواية والقصص، أو المجون والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها، ويقدمونها بعد التمويه بكل جرأة، وينون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم"¹.

التحيز وعدم الموضوعية، ومن المآخذ التي لاحظها الندوي على المنهج الاستشراقي عدم التزامه بالموضوعية والتركيز في دراسة الموضوع على البحث عن مواطن الضعف والسلبيات، وهجر مواطن القوة والإيجابيات في المجال الإسلامي المدروس، ثم استغلال مواطن الضعف هذه لتحقيق أهداف سياسية أو دينية لا علاقة لها بالعلم. وفي هذا المعنى يذكر الندوي: "إن طائفة كبيرة من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف في الشريعة الإسلامية، والحضارة والتاريخ الإسلامي، وإبرازها من أجل غاية سياسية ودينية، فكان شأنهم في ذلك شأن من لا يرى في مدينة ذات بهجة ونضارة، ونظام وخلافة، إلا مزابل ومراحيض ومستنقعات، كما هو مفتش الأوساخ والمياه المصرفة (Drain Inspector)، في البلديات وأمانات العواصم، فيرفع بذلك تقريراً إلى الجهات المختصة لا يجد فيه القارئ بطبيعة الحال إلا الحديث عن العفونات والأوساخ"².

وهو معنى يزيد إيضاحاً بقوله: "إن كثيراً من المستشرقين يركزون كل جهودهم ومساعدتهم على تعريف مواضع الضعف في تاريخ الإسلام ومجتمعه ومدنيته، حتى في ديانته وشريعته، وتمثيلها في صورة مروعة مضحمة، إنهم ينظرون إليها عن طريق "المجهر (microscope)، ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلاً، والنقطة بحراً، وقد ظهرت حداقتهم ودكاؤهم في كثير من الكتابات في تشويه صورة الإسلام"³.

ومن المناهج التي وظفها هؤلاء المستشرقون المنهج التمجيدي أو "الأبولوجي" ويشرحه لنا الندوي ويكشف لنا عيوبه وأثره المدمر بقوله: "إنهم في أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً، ويجودون لتمكينه في النفوس بذكر عشرة محاسن، وذلك كي يخشع القارئ أمام سعة قلبهم وسماحتهم، ويسيع ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن، وإنهم يصورون بيئة دعوة أو شخصية، وتاريخها وعواملها الطبيعية بلباقة وبلاغة تصوران أن هذه الدعوة والشخصية لم تكن إلا نتاج هذه

1- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص16.

2- المصدر نفسه، ص15.

3- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص16.

البيئة أو العوامل ورد فعلها الطبيعي، فينكر القارئ أي اتصال بمصدر غير مادي ولا يعترف بقدر وعظمة¹.

ويرى الندوي أن من مميزات هذا المنهج التمجيدى أن أصحابه يدسون السم في الدسم، وهذا ما وضحه بقوله: "وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من "السم" ويحترسون في ذلك فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم حتى لا يتوحش القارئ ولا يشير ذلك فيه الحذر ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف"².

ويرى الشيخ أن: "هؤلاء أشد خطراً على القارئ من كتابات المؤلفين الذين يكشفون العدا، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها أو ينتهي من قراءتها دون الخضوع لها"³.

5- وسائل المستشرقين لتحقيق أغراضهم:

اهتم الندوي بالحديث عن وسائل المستشرقين في تحقيق أغراضهم، والوصول إلى الغايات التي رسموها بأيسر سبيل، ولم يكن هدفه في ذلك هدف الأكاديمي الذي يصف ويذكر ما يجد، ولكن بهدف سد الفراغ، والاستفادة من طرقهم في البحث والتحقيق والنشر وهذا ما عبر عنه بقوله: "ويصدر المستشرقون من مختلف أقطار الغرب عدة مجلات ورسائل حول العالم الإسلامي وينشرون فيها مقالات تحليلية ومواد مختلفة تبحث عن مشكلات العالم الإسلامي وميوله ونزعاته، ولا تزال تصدر مجلة "الشرق الوسط" (Journal Of Near East)، ومجلة "العالم الإسلامي" (The Muslim World) من أمريكا، ومجلة " (le Monde Misulmans) من فرنسا"⁴.

كما اشتغل فريق منهم بتأليف الكتب حتى غدت مصادر لا يستهان بها لمن أراد الكتابة في حضارة العالم الإسلامي، بل صار العالم العربي والإسلامي كليهما يعتمدان على مؤلفات المستشرقين في المواضيع الإسلامية الخالصة - وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على ضعف هذين العالمين وفقر وسائلهما العلمية - وهي مؤلفات تحتل مكانة "الكتاب المقدس" (Gospel) في موضوعها، أو هكذا يخيل إليهم فكتاب رينولد ألن نيكلسون في "تاريخ آداب العرب"، وكتاب الدكتور فليب حتى

1- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، (مصدر سابق)، ص185-186.

2- المصدر نفسه، ص186.

3- المصدر نفسه.

4- المصدر نفسه، ص184.

عن "تاريخ العرب والإسلام"، وكتاب كارل بروكلمان "في تاريخ الآداب العربية" باللغة الألمانية وقد ترجمت إلى الإنكليزية، وكتاب جولد زيهر "في العقيدة والشريعة في الإسلام"... صارت مصادر علمية لها أهميتها وقيمتها لجامعات الشرق في قسميها العربي والإسلامي، وعليها أكبر اعتماد المؤلفين في قسم الدراسات الإسلامية في الجامعات¹.

كما اهتم المستشرقون بإحياء الكتب الإسلامية المطمورة التي لم تر الشمس والنور من قرون، وعملوا على تصحيحها ومقابلتها بالأصول ثم نشرها، ولا يستطيع أحد رزق ذرة من الإنصاف وحب العلم أن ينكر روحهم العلمية، وتحملهم المشاق، وتفانيهم في مهتهم، ودقة نظرهم وأسلوبهم العلمي².

كما أنشأ المستشرقون المعاجم والموسوعات العلمية ودوائر المعارف إذ لم يكتف المستشرقون بدراسات وبحوث في مجال معين فقط، بل كانت جهودهم كبيرة في إنشاء المعاجم والموسوعات الضخمة والكبيرة التي تتطلب مثابرة ومالا، من ذلك صنيع المستشرق و"نسنك" (wensink) صاحب المعجم المفهرس العام التفصيلي الذي وضع للكشف عن الأحاديث النبوية المدونة في كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة، وكتب السيرة والمغازي المشهورة، ورتب كتابه على المعاني والمسائل العلمية والأعلام التاريخية ورتب عناوين الكتاب على حروف المعجم، وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي وسماه "مفتاح كنوز السنة"، وقدم له الأستاذ محمد رشيد رضا (1856-1935) والعلامة أحمد محمد شاكر، كما أشرف المستشرق الراحل كذلك على ترتيب المعجم لألفاظ الحديث النبوي، ونشره عام 1936م، وجعل الاستفادة منه سهلة ميسورة، وقد جاء في سبعة مجلدات كبار.

كما ألف المستشرقون "دائرة المعارف الإسلامية"، وحشدوا فيها كما هائلا من المعلومات - مع تحفظنا على منهجهم في التحليل والتعليل والاستنباط - يجعل الدارسين عاجزين عن إنجاز بحوثهم دون الرجوع إلى بياناتها ومعلوماتها من جهة، ويجعل المؤسسات العلمية والبحثية في العالم الإسلامي تشعر بالحرج الشديد إزاء عجزها وفشلها في إنجاز مثل هذا العمل الضخم، وإن دلت هاته المؤلفات على شيء فإنما تدل على عناء المؤلفين ودراساتهم المغنية المخلصة للموضوع، المتجردة - في أغلب الأحوال - عن العصبية الدينية ومجانبة الحق³.

1- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص 18-19.

2- أبو الحسن الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 19.

3- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص 14 وما بعده.

6- الآثار السلبية للاستشراق على المجتمعات الإسلامية عند أبي الحسن الندوي:

أولى الندوي حيزاً كبيراً في رؤيته للآثار السلبية التي خلفها الاستشراق في المجتمعات الإسلامية، وبما أحدثوه في نفوس أهلها من يأس من مستقبل الإسلام، ومقتناً من حاضره، وسوء ظنٍّ بماضيه¹. كما اهتم بالآثار التي خلفها الاستشراق في نظرة المجتمعات الغربية للأمة المسلمة بماضيها وحاضرها ومستقبلها، فقد خطا الاستشراق بالغرب خطوات واسعة في الهجوم على العالم الإسلامي، وحقق أهدافاً كثيرة للغرب منها الديني والسياسي والاقتصادي والاستعماري والثقافي. ولا تزال تلك التأثيرات السلبية حاضرة لليوم، ولهذا جاء اهتمام الندوي ليرصد تلك الآثار وخص بها الآثار السلبية في عدة مجالات من أهمها:

6-1- المجال الديني:

هو أهم المجالات التي عني بها المستشرقون للطعن في الإسلام عن طريق الطعن في العقيدة الإسلامية وفي مصدر الوحي وفي منصب النبوة وصفات النبي ﷺ وفي القرآن الكريم، ويرى الندوي بأن الاستشراق لم يستطع أن يحرف العقيدة في نفوس المسلمين ولا أن يشوه الدين الإسلامي ولكنه أفلح بالفعل في وضع كتابات مفكرينا المسلمين في موضع الكتابات الدفاعية الاعتدالية²، عن الحقائق الإسلامية كما يلاحظ ذلك في كتابات سيد قطب "العدالة الاجتماعية"، وسميه محمد قطب "شبهات حول الإسلام" في مرحلتها الأولى على الأقل، وصلاح الدين خدا بخش من الهند، ومع بعض الإيجابيات في هذا المسلك، إلا أن مساوئه كثيرة، إذ أنه يصرف جهود كثير من المفكرين المسلمين في الرد على شبهات هؤلاء المستشرقين بدلا من تسخير علمهم والاستفادة بجهودهم في الدراسة العلمية المتعمقة في دينهم والسعي إلى إيجاد نظريات جديدة لحل قضايا الإسلام والمسلمين المعاصرة والتي تحتاج بالفعل لجهود كثيرة من العلماء والمفكرين. ومن آثار الاستشراق في المجال الديني العمل على إثارة الشبهات حول الإسلام ومصادره، حتى تستسيغ العقول دعوتهم إلى "تطوير الدين"، و"إصلاح القانون الإسلامي" وبخاصة في أواسط الطبقة

1- أبو الحسن الندوي: بحوث ومقالات حول الاستشراق والمستشرقين، إعداد سيد الغوري، ط1. دمشق: دار ابن كثير، 2002م، ص15؛ وينظر أيضا: أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986م، ص16.

2- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص34.

التي تعلمت في الغرب أو تعاملوا معه فتأثروا به وبقيمه ونظرتهم للدين وحصره في قضايا وأماكن محددة ونظرتهم للدين بأنه لا بد وأن يحال بينه وبين الحياة¹.

وهي معاني حرص الدرس الاستشراقي على ترسيخها حيث يؤكد هؤلاء على: " أن المجتمع الإسلامي، في صلته بالإسلام لم يكن على نحو قوي إلا في فترة قصيرة، هي الفترة الأولى على عهد بدائية المجتمع الإسلامي، وبدائية هذا المجتمع هي التي أوجدت نوعاً من التلاؤم بينه وتعاليم الإسلام، ثم بعد مضي هذه الفترة القصيرة البدائية اتسعت الفجوة بين الطرفين: بين المجتمع والإسلام، كمصدر توجيه في الحياة، وكلما تطورت الحياة للمجتمع الإسلامي بفعل العوامل الخارجية، والثقافية والسياسية والاقتصادية، تخلف الإسلام عن أن يجري تطور الحياة لهذا المجتمع، ومازالت الفجوة تتسع حتى أعلنت تركيا الحديثة - مقر آخر خلافة إسلامية - إبعاد الإسلام عن مجال الحياة العامة، وتركه في ضمير الفرد مستورا، لا يعبر عنه الفرد إلا لنفسه فقط، وفي غير إعلان أو حماسة"².

ويرى المستشرقون: "أن التطور، وهو قانون الحياة العام الذي لا مفر من الخضوع له، يجب أن يستخدمه المسلمون في إسلامهم، ليسا يروا العالم الغربي الحديث، ولينجو من أسباب الضعف والفساد، ويجب لهذا أن يتطوروا بالإسلام نفسه كدين.

والجماعة الإسلامية - كي تتطور - يجب أن تسير وفق المثل الغربية وتتفاعل معها في بيئتها الشرقية، إذ أن اتجاهات الغربيين في الفكر، وفي الحياة، قامت على مجموعة من التجارب الإنسانية، واستخدموا في تكوينها الطريقة العملية وهي طريقة لا تتأثر بخرافة أو عقيدة خاصة، مستهدفة خير الإنسانية وحدها"³.

ويؤكد الندوي أنه ما لم تتحرر هذه الطبقة المثقفة - التي ترزح تحت تأثير أفكار الغرب وعلمائه - من سيطرتهم، فلا تزال الأقطار الإسلامية تواجه عاصفة الاضطرابات العقلية، والردة الفكرية، ويتبنى حملة التجديد والتغريب أفكارهم وآراءهم، حتى إذا تمت لهم سلطة سياسية، حاولوا تطبيق كل ما ينافي روح الإسلام على المجتمع، وتنفيذه في الحكم، ويشكلون بذلك مجتمعا يشبه المجتمع الإسلامي القديم إلا في الجنسية والقومية فحسب، ولكنه مجتمع أجنبي يتجه نحو الغرب والمادية في الحقيقة

1- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص 16.

2- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، (مصدر سابق)، ص 186-187.

3- المصدر نفسه، ص 187.

والواقع، ويصح عند ذلك أن يخاطب قادة العالم الإسلامي وعلماءه بالبيت الفارسي الذي معناه: مهلاً أيها الأعرابي! فإن الطريق الذي اخترته يذهب إلى تركستان، وأنت تريد الكعبة¹!. وثمة خطأ يقع فيه المستشرقون ومن تابعهم في أفكارهم من المسلمين وهو أن المستشرقين لم يفرقوا بين الإسلام كدين وبين تاريخ المسلمين، ومن ثم عمدوا إلى التركيز على مواطن الضعف في التاريخ الإسلامي. كما عمدوا إلى الروايات المغلوطة والمختلقة وجعلها مداراً للنقاش والحديث عن الإسلام². وبالجملة فقد استهدف المستشرقون تسميم العقل الغربي تجاه الإسلام، وإيجاد نظرة عدائية حاكمة ضده.

6-2- المجال السياسي والتمكين للاستعمار:

استخدم الاستشراق كسلاح فعال في ظل الصراع الغربي مع الإسلام كدين وحضارة ولهذا ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفكرة الاستعمارية فقدم لها بصورة قريبة من أعمال التجسس المعرفة الكاملة بالأوضاع السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات المسلمة، فسهل عليهم احتلال الدول ونهب البلدان الإسلامية وعرفوا - بهذه الدراسات المستفيضة - كيف يتعاملون مع الشعوب المسلمة ومع من يمكن التعامل، وفي هذا المعنى يقول الندوي: " إن المستشرقين بصفة عامة كانوا رواد الدول الغربية في الشرق، ومن واجبهم أن يمدوها بمقدمهم العلمي وكانوا مصادر وثيقة للغرب يطلع بها على تفاصيل ومعلومات وتقاليد الشعوب الشرقية وبلدان الشرق، وعن طبيعتها، ومعيشتها، ولغاتها، وآدابها، حتى عواطفها ونفسياتها، وذلك ليتسنى للغرب أن ييسط نفوذه وسلطته في الشرق"³.

ويذكر الندوي أن الدافع الأساسي وراء هاته الحركة العلمية النشطة للاستشراق " إنما هو إيجاد المستعمرات الغربية، والغزو السياسي والعسكري، الذي كان يقوم به الغرب على الشرق، وقد كان ذلك يحتاج إلى طليعة علمية من المؤلفين والكتاب، وكان المستشرقون هم طليعة هذا الغزو، الذين كانوا يستعرضون حضارة الشعوب المغزوة المفتوحة وثروتها العلمية، ويبرزون منها مواطن الضعف والنقص، وينشئون بذلك الشعور بمركب النقص والدهشة والإعجاب بالغرب... ولكن لما انتهى نظام المستعمرات الغربية، وولى دور الاستعمار السياسي والعسكري، فإني أحدثكم كطالب زار أوروبا عدة

1- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص22.

2- المصدر نفسه، ص15.

3- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، (مصدر سابق)، ص183.

مرات، بأن الحماس والاندفاع المعهود في الاستشراق، قد ضعف جدا، ووقع فرق هائل وتغيّر كبير في عواطفهم لبذل الجهد العلمي، وعلو همتهم وطموحهم"¹.

والحقيقة أن التراث الاستشراقي كان بمثابة دليل الاستعمار في شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها.

3-6- المجال الاجتماعي:

وكان للمجال الاجتماعي نصيب كبير من الاهتمام الاستشراقي لإحلال قيم جديدة محل القيم المستمدة من الإسلام، وتفضيل النموذج الغربي للحياة على النموذج الشرقي المسلم وربط تقدم الغرب بمدى انفلات أفراد الخلق ومروقه من ربة الدين وفي هذا المعنى يقول الندوي: "إن هؤلاء المستشرقين إنما أضعفوا مثل الإسلام وقيمه العليا في جانب، وأثبتوا تفوق المثل الغربية وعظمتها في جانب آخر، وإنهم فسروا تعاليم الإسلام تفسيرا يضعف قيمة القيم الإسلامية، ويضعف علاقة المسلم المثقف بالدين ويقع فريسة الارتياب والشك بالإسلام، أو يضطر إلى الاعتراف بأن الإسلام لا يتفق هو وطبيعة الحياة الحاضرة؛ وإنما هو عاجز عن مسايرة حاجات العصر ومقتضياته وبينما يقول هؤلاء المستشرقون: إن من التشبث بالتقاليد والعض عليها بالنواجذ والرجعية أن يعمل بالإسلام -الذي هو دين الله المختار الخالد- في هذا العصر الراقي المتقدم المتطور بسرعة وفي استمرار، إذا هم يدعون الناس إلى إحياء الحضارات العتيقة الغارقة في التاريخ القديم، وإحياء اللغات البالية التي فقدت كل صلاحياتها للبقاء، ودفنت تحت أنقاض الماضي السحيق منذ آلاف السنين، ولم يكن الغرض يمثل هذه البرامج إلا أن يضطرب حبل المجتمع الإسلامي وتمزق وحدة الإسلام، وتواجه الحضارة الإسلامية واللغة العربية ضرا، وتنال الجاهلية القديمة حياة من جديد، وقد نجحت كتاباتهم وجهودهم في إنشاء طائفة من تلاميذهم الذين قاموا بحركة إحياء الحضارة الفرعونية ولغتها في مصر، والحضارة الآشورية ولغتها في العراق والبربرية في أفريقيا الشمالية، والفينيقية في سواحل فلسطين ولبنان، ووجد لها دعاة وأتباع"².

وما سر اهتمام المستشرقين ببعث فكرة القومية في المجتمعات الإسلامية إلا لتفتيت وحدة الشعوب المسلمة إلى قوميات وعصبيات وجماعات وقبائل بعد أن صهرهم الإسلام في بوتقة واحدة، وينقل الندوي عن المستشرق "جب" في كتابه "وجهة الإسلام" قوله: "وقد كان من أهم مظاهر فرجة العالم

1- أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، ط1. دمشق: دار القلم، 1990م، ج2، ص170-171.

2- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، (مصدر سابق)، ص188-

الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا وفي مصر وفي اندونيسيا وفي العراق وفي إيران وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوروبا، ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دورا في تقوية الوطنية الشعبية وتدعيم مقوماتها¹.

وهكذا سعى المستشرقون إلى خلق جيل يتنكر لتراث هذه الأمة، لتصير إلى حيرة واضطراب فكري، فيسهل عنده غزو المجتمع الإسلامي بالفكر والمبادئ، والمفاهيم والتصورات الغربية على دين الأمة وعقيدتها.

6-4- المجال الاقتصادي:

رغم أن النظام الاقتصادي الإسلامي وبعتراف متخصصين نظام فريد يكفل تقدم المجتمعات اقتصاديا ويحقق التوازن بين حق الفرد وحق المجتمع إلا أن زعماء الأقطار الشرقية التي تحررت حديثا، وولاية أمورها قد صمموا على تطبيق الفلسفة الفكرية الغربية - بشعبها الاقتصادية والسياسية والثقافية - وفلسفة القومية المادية في بلدهم الإسلامي، فهم في حرب دائمة مع الطبيعة الإسلامية العميقة الجذور الممتدة العروق، وفي صراع مع الجهاز الاجتماعي والعلمي والخلقي².

وقد حاول هؤلاء القادة فرض النظرتين الرأسمالية والشيوعية في الاقتصاد على الشعوب المسلمة وذلك تحديدا بعد سقوط الخلافة، ولعب هؤلاء القادة المنبهرين بالمستشرقين الدور الرئيسي في ربط اقتصاديات الدول الإسلامية باقتصاديات العالم الغربي سواء الرأسمالي أو الاشتراكي كما تجلّى ذلك في تركيا وإيران بإتباع النظام الليبرالي، ومصر واليمن الجنوبي والجزائر وليبيا بإتباع المعسكر الاشتراكي. لذلك دعا الشيخ إلى ضرورة قلب النظام الاقتصادي الغربي المنتشر في العالم الإسلامي رأسا على عقب وصوغه صوغا إسلاميا جديدا، يتفق مع شخصية الشعوب المسلمة، وعقيدتها، ورسالتها وقامتها، وقيمها. لذلك ما فتئ الندوي يهيب بجهود "محمد باقر الصدر" الذي حاول تعريف الطبقة المثقفة بنظريات الاقتصاد الإسلامي مع اختلافه معه في كثير من التفكير وقليل من التعبير³.

وما لم تتحرر هاته الدول من التبعية إلى الغرب سواء المعسكر الشرقي أو الغربي، فإنه لا يمكنها أبدا أن تقوم بنهضة شاملة إذ تعتمد نهضة أي شعب بصفة أساسية على اقتصاد قوي ومتماسك،

1- نقلا عن: أبي الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، (مصدر سابق)، ص189.

2- المصدر نفسه، ص140.

3- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص73.

منبثق من نظرتة إلى الكون والحياة والإنسان، ولهذا تتركز الحرب ضد أي دولة إسلامية تريد أن تنهض على الجانب الاقتصادي أولاً حتى لا يستقر اقتصادها ومن ثم تطمع بالنهوض.

6-5- المجال الفكري والثقافي:

كما كانت الدول الغربية محتلة للأرض، مغتصبة للعرض ناهبة للأموال، كانت أيضاً محتلة للمعتقدات، غاصبة للإيمان، ناهبة للتراث الإسلامي، ودعوته العامة الخالدة، التي لا تنسجم مع الفكرة الغربية في الكون والحياة والإنسان.

فكانت النتيجة أن صدر المستشرقون أفكارهم وثقافتهم على اختلافها وصارت الدول الإسلامية ساحة لبث سمومه في الجيل الجديد، والشباب الجامعي المثقف، والبعثات الخارجية، ورجال الصحافة والأدب، من غير أن يدركوا خطره، ويفهموا حقيقة معركته ومكان رميته، ونوع سلاحه. وشمل تأثير الاستشراق جوانب متعددة من الحياة الثقافية ففي الأدب نشروا عدة اتجاهات أدبية يدعو معظمها إلى حرية المرأة والسفور، والعلاقات الجنسية المنطلقة باسم الأدب؛ أما في مجال التعليم فقد كان نظام التعليم الغربي مؤامرة دقيقة لإبادة العنصر الإسلامي حيث كان العمل على قدم وساق من أجل الإجهاز على دين الأمة وخلقها، ورجولتها، وغير فيها عقليتها، ومفاهيمها وقيمها، وأساليب التفكير فيها.

7- الموقف من الاستشراق:

درس بعض الباحثين الجهد الذي بذله المستشرقون وقيموه وذهبوا فيه مذاهب شتى بين مادح وقادح. لكن والحقيقة تقال أن الاستشراق ظاهرة حيّة يتوجب التعامل الموضوعي معها درساً وتقويماً.

7-1- المادحون:

وقد أفرط البعض بالإعجاب بهم، والاعتماد عليهم، والثناء المطلق على جهودهم ومن هؤلاء المعجبين نجد كلا من "أحمد أمين"، وطه حسين الذي يقول في مقدمة كتابه "الأدب الجاهلي": "وكيف تتصور أستاذاً للأدب العربي لا يلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج (المستشرقون) من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشرق وأدبه ولغاته المختلفة؛ وإنما يتلمس العلم الآن عند هؤلاء الناس، ولا بد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا"¹.

1- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ط3. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1933م، ص11.

كما دافع "نجيب العقيقي" بحماسة عن المستشرقين وفي هذا المعنى يقول: "فلو لم يقدر لتراثنا من مخطوطات وآثار تلك الأيدي، فجمعهم وتكشف عنه وتحل رموزه ثم ترتبه وتصونه وتيسر سبل الانتفاع به، لما قدر لجلّة آثارنا أن ترى ضوء الشمس، ولفقد قدر عظيم من مخطوطاتنا... ولو أن المستشرقين أرادوا بتراثنا شراً، كما زعم البعض منا، لما استنقذوا أحجاره وأوراقه، من الضياع، بل إلى طيه، إن لم يكن عن العالم فعنا"¹.

ويقارن العقيقي بين إمكاناتنا وإمكانات المستشرقين فيقول: "لقد شاهدنا وسائلهم فيه (أي في دراسة تراثنا) من إقامة معاهد ومكتبات ومتاحف ومطابع ودور نشر ومؤتمرات وبعثات وما خصت به من هبات الأفراد ومساعدات المؤسسات وميزانيات الحكومات.. ولو تركوا إلينا أمرها لاستنفذت منا ثروات طائلة... ولو لم ينفقوا (أي الغربيين) على بعثاتهم في الشرق لما كان من سبيل في الكشف عن معظم كنوزه... ولو سعينا إلى تحقيق تراثنا وترجمته والتصنيف فيه، ونشره بشتى اللغات، منذ ألف عام في كل مكان لاحتجنا إلى استئجار مواهب مئات العلماء ومناهجهم ومعارفهم ودقتهم وجلدهم طوال حياتهم وفي ذلك من العسير علينا ما فيه، ومن النفقات عليه ما يستنفذ طائل الثروات"².

7-2- القادحون:

على أن عددا كبيرا من الكتاب المسلمين يخالفون العقيقي فيما ذهب إليه بالنسبة لتقويم موقف المستشرقين من الإسلام وقضاياهم ومن هؤلاء الأستاذ الكبير "محمد الغزالي" الذي يقول عن المستشرقين: "ولا يعرف العقل ولا المنطق حدا لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الإسلامي وتشويه لمبادئ الإسلام وثقافته وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله وهم كذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذي أداه الإسلام في تاريخ الثقافة الإنسانية. إن المستشرقين جميعا فيهم قدر مشترك من هذا الخصام المتحني، والتفاوت إن وجد بينهم، إنما هو في الدرجة فقط فبعضهم أكثر تعصبا ضد الإسلام وعداوة له من البعض الآخر، ولكن يصدق عليهم جميعا أنهم أعداؤه. وإذا كان الاستشراق قد قام على أكتاف الرهبان والمبشرين في أول الأمر ثم اتصل من بعد ذلك بالمستعمرين - فإنه مازال حتى اليوم يعتمد على هؤلاء وأولئك. ولو أن أكثرهم يكرهون أن تنكشف حقيقتهم ويؤثرون أن يختفوا وراء مختلف العناوين والأسماء"³.

1- نجيب العقيقي، المستشرقون، القاهرة: منشأة دار المعارف، ج3، ص1127-1128.

2- المرجع نفسه، ج3، ص1150.

3- محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ط3. القاهرة: نضمة مصر 1999م، ص8.

وينحى أبو الأعلى المودودي باللائمة على الدول الإسلامية التي توجه الدعوة إلى بعض المستشرقين من غير المسلمين للتدريس أو إلقاء المحاضرات في بلادها لأن هؤلاء "طعنوا في الإسلام بدون أي مبرر فيما ألفوا من الكتب من وجهة نظرهم وجعلوا من شخصية الراشدين والصحابة العظام والأئمة الكرام - الذين يفتخر بهم الإسلام والمسلمون - مجالا لمطاعتهم قصداً أو جهلاً أو تعصبا في كلمات دنسة رعناء ضمنوها فيما كتبوا عن تاريخ الإسلام والمسلمين".¹

هذان هما الاتجاهان اللذان على طرفي نقيض فيما يتعلق بتقويم موقف المستشرقين من الإسلام والمسلمين وعلى الرغم مما يبدو لدى أصحاب الاتجاه الثاني من حدة في موقفهم من الاستشراق والمستشرقين إلا أن البحث العلمي المنصف لا يسعه في النهاية إلا أن يأخذ في الاعتبار الأسباب التي حملتهم على هذه الحدة.

7-3- موقف الندوي من الاستشراق والمستشرقين:

يعتبر موقف الندوي موقفاً معتدلاً متزنًا، حيث يقول: "إنني أعترف بكل وضوح وصراحة أن عدداً من المستشرقين كرسوا حياتهم وطاقاتهم على دراسة العلوم الإسلامية، وتبنوا موضوع الشريكات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسية أو اقتصادية أو دينية، بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم وبذلوا فيه جهوداً ضخمة، ويكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها، وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعارف التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون، إلى النشر والإذاعة، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين، وعاهة الأرضة، وكم من مصادر علمية ووثائق تاريخية، لها مكانتها وقيمتها، صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وهمتهم وقرت بها عيون العلماء في الشرق".²

ولا شك أن الشيخ في موقفه هذا سعى إلى ذكر بعض الآثار الفكرية الإيجابية للاستشراق من منطلق كون الإسلام يأمرنا دوماً بالعدل في القول والحكم حتى مع من يخالفنا أو يعادينا.³

من ذلك أن الاستشراق قد أثر بالفعل إيجابياً في عدد من الغربيين وخاصة بعد ترجمة كتب المسلمين للغرب، بل كان هناك تأثير واضح على عدد من المستشرقين أنفسهم لدرجة أن عدداً منهم قد ترك ديانته الأصلية ودخل الإسلام طواعية وكتب كتابات قوية في الدفاع عن الإسلام، مثل "

1- أبو الأعلى المودودي، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، تر: أحمد خليل الحامدي، ط2، الكويت: دار القلم الكويت، 1974م، ص270.

2- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص12-13.

3- المصدر نفسه، ص12.

محمد أسد "حيث ألف كتابين اعتبرهما الندوي من أحسن الكتب التي تبعث الإيمان، وتشحن الروح، وتغذي القلب، وتفيض بروح الثقة والاعتزاز وهما: "الإسلام على مفترق الطرق" و"الطريق إلى مكة"¹. ويذكر الندوي أنه لم يعلم كاتباً ولا كتاباً منذ عهد بعيد يدافع عن السنة النبوية، والحضارة الإسلامية، هذا الدفاع القوي الذي يقوم به هذا الكاتب، كما لا نجد كاتباً أوربياً تحدث عن نقط الافتراق والاختلاف فيما بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية في هذا الوضوح والتفصيل والدقة، وتناول الحضارة الغربية بهذا النقد اللاذع المر المدعم بالدلائل والوثائق، كما يهيب الشيخ أيضاً بالمهتدية "مریم جمیلة" ويرى الندوي أن كتاباتها تتأسس على دراسة عميقة لتاريخ الحضارة الغربية وانطلاقاً وتحرراً كامل منها، بل وثورة شاملة عليها، ويتجلى هذا في كتابيها "الإسلام إزاء الغرب"، و"الإسلام والتجدد"².

ومن المستشرقين من امتلك الشجاعة الأدبية ما جعله يحرص على نشر كتب ونصوص جدلية كلامية وفلسفية تنتقد دياناتهم ومذاهبهم، بل يترجمونها إلى بعض لغاتهم ويشيدون بها في بعض الأحيان، ومنها كذلك تلك البحوث التي كتبها بعض المستشرقين وتدخل في دائرة ما يمكن أن يطلق عليه "النقد الذاتي للاستشراق"، وهذه الكتب تكشف جوانب الصورة المشوهة السوداء الكالحة التي رسمها التبشير والاستشراق للإسلام والمسلمين في عقل المواطن الغربي ووجدانه في العصور الوسطى. بالإضافة إلى إيجابيات كثيرة أخرى مثل تحقيق وحفظ ونشر المخطوطات الإسلامية التي كادت تندثر بل ترميم وحفظ للمتهالك منها وتصويره وترجمته والإفادة منه في الوقت الذي كان أغلب أبناء المسلمين لا يقدرّون لهذه الثروات قيمتها الحقيقية.

هناك إذاً جوانب تستحق التقدير والاحترام من الإنجاز الكبير للمؤسسة الاستشراقية، لكن هذا لا ينبغي أن يحجب عنا "تقاصر الاستشراق على فضله الكبير ومآثره الكثيرة عن أن يملأ هذا الفراغ، ويقدم إلى الغرب - الذي كثر فيه الباحثون عن الحقيقة والمتبرمون من المدنية المادية الجافة في العصر الأخير - صورة صحيحة وضاءة مشرقة للأديان الشرقية عموماً، والدين الإسلامي بصفة خاصة الذي يعتبره المسلمون الرسالة السماوية الأخيرة الخالدة التي بلغت فيها تعاليم النبوة وتوجيهات السماء طورها الأخير النهائي"³.

1- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص 41.

2- المصدر نفسه، ص 41-42.

3- أبو الحسن الندوي، حديث مع الغرب، (مصدر سابق)، ص 19.

ولا شك أن هذا الموقف الذي يقفه الشيخ يقوم على البحث والغوص في إنتاج المستشرقين، والتعرف على مواطن الضعف فيها، مع معرفة تامة بمواطن القوة في الدرس الاستشراقي، ولذلك كان الندوي من أوائل الداعين إلى ضرورة إنشاء علم استغراب خاص بنا، مهمته الأساسية أن يكتنه الغرب ويطلع على دخائله وأسراره، وجوانب القوة والضعف فيه، ويفرق فيه بين ما يتفوق فيه علينا من علوم وصناعة وسلاح، وما يفتقر إليه من أهداف كريمة، وعقائد سليمة، ودوافع نبيلة، ورسالة نقية صافية¹.

لينتهي الندوي في ختام رؤيته للاستشراق بمحاولة رسم إستراتيجية واضحة يستطيع بها الفكر الإسلامي مواجهة الآثار السلبية للفكر الاستشراقي ويستفيد من إيجابياته حتى لو كانت قليلة.

8- إستراتيجية الندوي في مواجهة الاستشراق:

لم يكتف الندوي بالنقد الجزئي لأخطاء المستشرقين، أو كشف تحيز مناهجهم، وعدم اتصافها بالموضوعية أحيانا؛ وإنما حاول الرجل أن يقدم إستراتيجية شاملة لمواجهة هذا الخطر الداهم وفق منهج يقوم على التحلية ثم التحلية، وإن شئنا الدقة أكثر قلنا الهدم ثم البناء.

فالعامل الهدمي يقوم على استعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ومحاسبتها في ضوء الحقيقة والواقع حتى ينكشف الغطاء عن تلبساتهم، وأخطائهم في فهم النصوص وبيان المعنى، ويبدو للناس ضعف مصادرهم التي يعتمدون عليها، وأخطاء النتائج التي يستنبطونها منها، ويطلعوا على ما يضمن كثير منهم في نفوسهم من عداة للإسلام وما يكونونه من أغراض سياسية ودينية في خفايا دعوتهم وتربيتهم، وكل ذلك مؤامرة على الإسلام والأمة الإسلامية يجب إحباطها².

أما الخطوة الثانية من هذا المنهج الهدمي فتتمثل في المحاسبة العلمية الدقيقة لإنتاج المستشرقين في أسلوب علمي نزيه وكلام وقور رزين ولفظ موزون، بعيد عن التهكم والتكيت، والتجني والافتراض، فان كل ذلك يفقد النقد قيمته العلمية ووقعه النفسي³.

1- أبو الحسن الندوي، حديث مع الغرب، ص 16 وما بعده. وينظر أيضا: أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص 23.

2- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص 20-21.

3- المصدر نفسه، ص 21.

والعمل الثالث الذي ينبغي أن يضطلع به المفكرون المسلمون هو نقد الحضارة الغربية، وإبانة مواضع الضعف فيها، وعرض محاسن الإسلام، وأن يستخدم هؤلاء المفكرون الملكات الخطائية والكتابية التي تفتح القلوب وتفتح العقول¹.

أما **العمل البنائي** فيتمثل في تأليف كتب تحليلية وأبحاث عميقة حول المواضيع الإسلامية مع الإحالة إلى المصادر بضبط وإتقان، والفهارس المفصلة المفيدة المتنوعة (وذلك كله مما يعتبر من خصائص المستشرقين) والإفادة من مواد لم تستخدم بعد، وكتب ومظان لا يتبادر إليها الذهن، وليست في صميم الموضوع، ولا من التاريخ "الرسمي" الذي يدور حول البلاط والأسر الحاكمة والحروب والحوادث الجسيمة، وكل ذلك مع تحر للدقة والوجازة والبعد عن التعميق والاستطراد².

أما **الخطوة الثانية** فتتمثل في تأليف عن الإسلام في عقائده وأصوله، وفي ثقافته وحضارته، وفلسفة الإسلام الأخلاقية، بأرقى اللغات الأوروبية تصلح لمخاطبة العقل الأوربي وترغمه على الدراسة الجادة للإسلام - إن لم تستطع أن تبعثهم على الدخول في حظيرة الإسلام - وتحدث سيلا جارفا من الأبحاث الإسلامية، والإنتاج الأدبي واللغوي، تصطدم أمامه القوة بجدران الجامعات الشهيرة في العالم في أوروبا وأمريكا وكندا³.

وأخيرا نستطيع القول أن الشيخ أبا الحسن تفاعل إيجابا مع الظاهرة الاستشراقية، فبحث دوافعها ومناهجها، وكشف عن الوجوه الكالحة فيها، وبيّن آثارها السيئة في زعزعة ثقة الأجيال في دينها، وتشويه تاريخها وبذر بذور اليأس في مستقبلها، وحاول وضع منهجية لمواجهة هذه التدايمات. ويمكن اعتبار هذا الجهد العلمي، إضافة حقيقية للجهود المتجددة في الدفاع عن الإسلام وحقائقه ورموزه. رحم الله أبا الحسن، وأجزل له المثوبة، وجعله في عليين.

1- أبو الحسن الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، (مصدر سابق)، ص23.

2- المصدر نفسه، ص21.

3- المصدر نفسه، ص23-24.

جامعة الأمير



الخلافة
العلمية الإسلامية

أما وقد انتهينا من دراسة جانب مهم من فكر الندوي وحاولنا إبراز إسهامه في التجديد الكلامي ويبدو ذلك فيما استعرضناه في فصول هاته الرسالة، وهو وإن أتى به مبددا في كتبه ومقالاته، فإن الباحث المتملي يعثر عليه بعد دأب ومثابرة.

والآن يحق أن نلم في هذه الخاتمة بأهم النتائج التي توصلنا إليها من بحثنا، وهذا ما سنتولى عرضه على النحو الآتي:

1- فيما يتعلق بعصره فقد عرضنا فيه لأهم الأحداث والتيارات التي سادت خلاله، وتركت أصداءها في شخصيته ومذهبه الكلامي، كما أشرت إلى أن الندوي لم يقف منها موقفا سلبيا، ولم يكن مرددا لها، بل إنه درس ثقافة عصره، وتمثل كل ما ساد فيه من آراء، مما ساعده على أن يكون صاحب مدرسة إصلاحية متميزة في سياق حركات التجديد والإصلاح في الهند خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة.

2- أما فيما يتعلق بحياة "الندوي" فقد تعرفنا فيها على ترجمته من خلال كتبه هو نفسه وبخاصة كتابه "في مسيرة الحياة"، ذلك لاعتقادنا بأنها أصدق وأدق، كما تعرضنا إلى نسبه وبيئته، وظروف حياته ومفاتيح شخصيته، كما صاحبناه في رحلاته العديدة داخل العالم الإسلامي وخارجه.

3- إن دراسته وتحصيله العلمي رافد ثر من روافد تكوينه الفكري والروحي، وأن لأساتذته وشيوخه الذين تلقى العلم عنهم، وترى بين أيديهم أثرا مهما في توسيع مداركه العقلية، وتكوين شخصيته وفي تحديد مساره الفكري.

4- أنه أثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفات رصينة، بلغت أكثر من مائة وخمسين بين كتاب ومقالة، في مسيرة حافلة بالعطاء، امتدت أكثر من نصف قرن من الزمان، أسدت خدمات جليلة للإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية بخاصة، والعالم الإسلامي عامة، وسدّت فراغا كانت تعاني منه المكتبة الإسلامية.

5- أما فيما يتعلق بمنهجه الفكري فقد كان منهجه يقوم على إعلاء النقل أكبر من أي مصدر آخر، لأنه كلام صادر عن الحق وعن المعصوم الذي لا يقر على الخطأ، ولكي يمنع الندوي تحريف الشريعة تصدى للباطنية والقاديانية واعتبرهما ثورة على النبوة المحمدية، كما رفض إخضاع حقائق الدين ومفاهيمه للتصورات العصرية الغربية، ولقد حاولت في هاته الرسالة إبراز منهجه، وبينت أنه منهج تكاملي لا يرفض الحواس، ولا يتنكب إلى العقل، ولا يتنكر إلى النصوص ولا الذوق، بل يستخدم كلا في مجاله المحدد.

- 6- أما في مجال الألوهية فقد عني الندوي بقضية التوحيد بما هي فاعلية نفسية واجتماعية مما يسمح له أن يعيد صياغة الإنسان في مجمل جوانب شخصيته.
- 7- وبالنسبة للإنسان بينت الدراسة مركزه في الوجود، وأنه يعد أسمى مخلوقات الله، وهو المعبر عنه بلسان الشرع "الخلق على الصورة"، ومن ميزات الخلق على الصورة سجود الملائكة لآدم، وتسخير العالم بكل ما فيه من عرشه إلى فرشه، ومن سمائه إلى أرضه للإنسان، وإذا كان الله قد كرم الإنسان هذا التكريم فلا أقل من أن يكرم الإنسان نفسه، وما أحوج أمتنا الإسلامية إلى إدراك ذاتيتها التي توشك أن تفقدها بفعل هذه الحضارة الفاتنة الخلابة. والإنسان عند الندوي حر ومسؤول، والمؤمن القوي هو الذي يعترف بالقدر ويؤمن به، لكن الإيمان بالقدر لا يعني السلبية ولا الخنوع والاستسلام.
- 8- في مجال النبوة أكد الندوي على ختامية الرسالة المحمدية التي آمن بها إيماناً لا نظير له، ورد على مزاعم القاديانية التي اعتبرها الشيخ ثورة على النبوة المحمدية، ولذلك أولى الندوي عقيدة ختم النبوة أهمية خاصة باعتبارها تشي بأن الإنسانية بلغت مرحلة الرشد، وأن البشرية وصلت في الأخير إلى الدين الكامل الذي يضع القواعد والأصول ويوكل التفصيلات للعقل البشري ليستنبط من تلك القواعد ما يساعد على تطور الإنسانية، وهي آخراً تغلق الباب على المتنبئين، فتسد بذلك باب التحريف والدعاوي الكاذبة على الله تعالى، ولا تعرض وحدة الأمة الفكرية والدينية للتصدع والانشقاق.
- 9- يؤكد الندوي على ضرورة صيانة الحقائق الدينية، والمفاهيم الإسلامية من التحريف، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية أو المصطلحات السياسية والاقتصادية والبحث عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً، والمغالاة في تنظير الإسلام، ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية، والنظم الإنسانية، لأن هذه الحقائق الدينية هي أساس الإسلام الدائم، والأصل الذي منه البداية وإليه النهاية.
- 10- اتخذ الندوي موقفاً نقدياً من الحضارة الغربية وعارض دعاة التقليد الأعمى لها بين المسلمين، ويكاد هذا المحور يمثل محور الارتكاز في فكره كله، منه يصدر وإليه ينتهي، ورؤية الندوي لروح الحضارة الغربية المتمثل في المادية والاستعلاء والعدوانية واضحة كل الوضوح، كما حذر الشيخ من استحلاب أفكارها المتعارضة مع جوهر الثقافة الإسلامية كالشيوعية المادية أو القومية العنصرية أو الرأسمالية المستغلة، ودعا للإفادة من جوانبها الإيجابية وخاصة نزعتها العملية وأسلوبها التجريبي، كما بين مضارها في مجال التربية والتعليم والثقافة والقيم والتقاليد.

11- خصص الندوي جزءاً كبيراً من مشروعه الفكري للكشف عن ماهية الاستشراق هاته الحركة التي تتزيا بزى العلم، وتلبس مسوحه، وأهدافها واضحة، ونواياها التي تبيتها تجاه العالم الإسلامي لا تخفى على ذي بصر ألا وهي قهر الشرق الإسلامي، واستعماره سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وإعلامياً، من هنا كشف الندوي هذه الأهداف الخبيثة للاستشراق وآثاره السيئة على المسلمين.

12- يرى الندوي أن الاستشراق وصل إلى أهدافه عبر وسائل تتمثل في التحقيق والنشر وعقد المؤتمرات ونحو ذلك، وأنه نجح في إيجاد طائفة من المنبهرين به والمفتونين بتياره وأكد أن هذا الفراغ ينبغي أن يُسدَّ. كذلك رسم استراتيجية تمكن من مواجهته، لكن هذا لم يحمله على عدم إنصاف نفر منهم، تجردوا للبحث العلمي النزيه، ولم يسخرُوا بحتوهم وعلومهم لخدمة الاستكبار والاستعلاء الغربي.

هذا وفي الأخير أود أن إلى أشير أن هذه الرسالة قد فتحت لي آفاقاً رحبة في البحث حول أزمة الحضارة الغربية عند الندوي وكذلك مذهبه الأخلاقي، وكل هذه مواضيع بكر تستحق التعميق والإثراء.

ولا أزعم أنني وفيت على الغاية أو بلغت الكمال، أو قلت الكلمة الفاصلة في التحديد الكلامي عند الندوي، وإنما هي وجهة نظر معروضة لا مفروضة.

وما العمل الذي أقدمه إلا خطوة على الطريق تتبعها خطوات أخرى - إن شاء الله - نحو المساهمة في إنشاء مدونة لعلم كلام جديد تكون في حجم التحدي المطروح والغاية المنشودة. ونحن نرجو أن نكون بهذه الدراسة التي قدمناها عن حياة الندوي، ومساهمته في بناء علم كلام جديد، قد قمنا ببعض ما يجب علينا من اهتمام بترائنا الإسلامي، ودراسة بعض الشخصيات التي كان لها أثر بالغ على مجرى الحياة الروحية والفكرية المعاصرة، ولعل دراسة شخصية حظيت بالقبول في جميع الأوساط المسلمة يساهم في تراكم هذه المدونة.

هذا مبلغ جهدي وكدي، ومنتهى علمي، فإن أك قد وفقت فذاك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن

كانت الأخرى فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ولا حول ولا قوة إلا بالله

ولله الحمد والمّنة على ما وفق وهدى، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وسلام على عباده الذين اصطفى

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



جامعة الأمير

الإسلامية

القول للعلم

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

أ- القرآن الكريم برواية حفص.

ب- مؤلفات أبي الحسن التّدوي، (ت.1999م)

- 1- أحاديث صريحة في أمريكا، ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة 1984 م.
- 2- أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1987 م.
- 3- إذا هبت ربح الإيمان، ط11. بيروت: مؤسسة الرسالة 1999م.
- 4- إذا هبت ربح الإيمان، ط9. بيروت: مؤسسة الرسالة 1985م.
- 5- أسوة حسنة، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2005م.
- 6- الأركان الأربعة، ط4. الكويت: دار القلم 1398هـ.
- 7- أريد أن أتحدث إلى الإخوان، ط3. رائي بريلي: دار عرفات للتربية والتعليم، الهند، 1989م.
- 8- أسبوعان في المغرب الأقصى، ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983م.
- 9- الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية. ط1. دمشق: دار ابن كثير 1999م.
- 10- الإسلام والحضارة الإنسانية وواقع العالم الإسلامي، ط2. الكويت: دار القلم 1994م.
- 11- الإسلام والغرب، ط3. بيروت: مؤسسة الرسالة 1994 م.
- 12- الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986 م
- 13- إسمعيات، ط1. بيروت: دار ابن كثير 2002م.
- 14- أضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية، لكهنؤ: منشورات الجمع الإسلامي الهند، (1316هـ).
- 15- إلى الإسلام من جديد، ط 6. دمشق: دارالقلم 1988.
- 16- الإمام الذي لم يأخذ حقه من الإنصاف والاعتراف، ط2. القاهرة: دار الاعتصام، 1978م.
- 17- الإنسانية تنتظركم أيها العرب !!! ط1. لكانؤ: منشورات الجمع الإسلامي العلمي الهند، 1999م.
- 18- بحوث ومقالات حول الاستشراق والمستشرقين، إعداد سيد الغوري، ط1. دمشق: دار ابن كثير، 2002م.
- 19- بين الجباية والهداية، ط. لكانؤ: مكتبة الإسلام، الهند، (د.ت).

- 20- بين الدين والمدنية، ط5. بيروت: مؤسسة الرسالة 1987 م.
- 21- تأملات في القرآن الكريم، ط2، دمشق: دار القلم 1999.
- 22- التربية الإسلامية الحرة، ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة 1397 هـ.
- 23- ترشيد الصحوة الإسلامية، ط3، القاهرة: دار السلام، 1993.
- 24- التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب، ط2. القاهرة: دار آفاق الغد، 1980 م.
- 25- حاجة البشرية إلى معرفة صحيحة ومجتمع إسلامي، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2002 م.
- 26- حديث مع الغرب. ط1. بيروت: دار الإرشاد 1967 م.
- 27- الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف، ط1. القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1985 م.
- 28- خطابات صريحة إلى الأمراء والرؤساء، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2002 م.
- 29- دراسات قرآنية، ط1. بيروت: دار ابن كثير 2002 م.
- 30- دور الإسلام الإصلاحي الجذري في مجال العلوم الانسانية. ط1. القاهرة: دار الصحوة، 1408 هـ.
- 31- ربانية لا رهبانية. ط3. القاهرة: دار الشروق 1983 م.
- 32- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج 1، ط11. الكويت: دار القلم 1999 م.
- 33- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج2، الإمام ابن تيمية، دمشق: دار القلم، 1997 م.
- 34- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، ط 1. دمشق: دار القلم، 2002 م.
- 35- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ح4، الإمام الدهلوي، ط2. دمشق: دار القلم 1996 م.
- 36- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج3، الإمام السرهندي، حياته وأعماله، ط1. الكويت: دار القلم 1980 م.
- 37- ردة ولا أبا بكر لها، ط1. تونس: مطبعة الشحمي، 1997 م.
- 38- رسائل الأعلام بين الشيخ الندوي ودعاة الإسلام، ط1، القاهرة: دار الصحوة 1985 م.
- 39- روائع إقبال، ط1، بيروت: الدار الشامية 1999.
- 40- روائع إقبال، ط1، باتنة: دار الشهاب 1986 م.
- 41- روائع من أدب الدعوة ط2. دمشق: دار ابن كثير 2002 م.

- 42- السيرة النبوية، ط2. دمشق: دار القلم، 2004 م.
- 43- السيرة النبوية، ط3. دمشق: دار ابن كثير 2004 م.
- 44- شخصيات وكتب أثرت في حياتي، ط1. القاهرة: دار الصحوة 1985م.
- 45- شخصيات وكتب، ط1. دمشق: دار القلم 1990م.
- 46- الصراع بين الإيمان والمادية- تأملات في سورة الكهف- ط3. الكويت: دار القلم، 1397 هـ.
- 47- الصراع بين الإيمان والمادية، ط1، دمشق: دار القلم، 1997م.
- 48- الصراع بين الإيمان والمادية، تأملات في سورة الكهف، ط1. الكويت: دار القلم، 1971 م.
- م.
- 49- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، الكويت ط5. دار القلم: 1985م.
- 50- صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية، ط1. القاهرة: دار الصحوة 1985م.
- 51- صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية، ط3، الدوحة: مطبعة الأهلية، 1978م.
- 52- الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة، ط4. الجزائر: مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع، (د.ت).
- 53- الطريق إلى المدينة، ط1، دمشق: الدار الشامية، 1999م.
- 54- عاصفة يواجهها العالم الإسلامي، ط2. لكهنؤ: منشورات المجمع الإسلامي الهندي، 1997م.
- 55- العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة، ط3. الكويت: دار القلم 1986م.
- 56- العقيدة والعبادة والسلوك، ط2. الكويت: دار القلم 1983.
- 57- في مسيرة الحياة، ج1. ط1، دمشق: دار القلم 1987م.
- 58- في مسيرة الحياة، ج2. ط1، دمشق: دار القلم 1990م.
- 59- في مسيرة الحياة، ج3. ط1، دمشق: دار القلم 1999م.
- 60- القادياني والقاديانية، ط5. الرياض: الدار السعودية 1983م.
- 61- قصص من التاريخ الإسلامي، ط1. دمشق: دار ابن كثير 1999م.
- 62- قصص النبيين للأطفال، ط13، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985.
- 63- قصة دراستي القرآنية تر: محمد نعمان الدين الندوي، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2005م.
- 64- كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب ط1. دمشق: دار ابن كثير 2002م.
- 65- كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب، ط2، القاهرة: دار الاعتصام، 1979م.
- 66- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط2.. دمشق: دار القلم 1999 م.
- 67- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط. المنصورة: مكتبة الإيمان، (د.ت).

- 68- محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة، جمع وتحقيق: السيد عبد الماجد الغوري، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2001م. ثلاثة أجزاء
- 69- المدخل إلى الحديث النبوي الشريف، القاهرة: دار الكلمة 1997م.
- 70- المدخل إلى دراسة الحديث النبوي الشريف، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2002م.
- 71- المدخل إلى الدراسات القرآنية، ط2. دمشق: دار ابن كثير، 2010م.
- 72- المدخل إلى الدراسات القرآنية، ط2. لکناؤ: الجمع الإسلامي العلمي 1994م.
- 73- المرتضى - سيرة أمير المؤمنين سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه-، ط2. دمشق: دار القلم، 1998م.
- 74- المسلمون في الهند، ط1. دمشق: دار ابن كثير، 1999م.
- 75- المسلمون وقضية فلسطين، الكويت ط2. دار القلم: (د.ت).
- 76- مقالات حول السيرة النبوية، إعداد: سيّد عبدالمجد الغوري، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2002م.
- 77- ملّة إبراهيم وحضارة الإسلام، ط2. لکناؤ: الجمع الإسلامي العلمي، 1992م.
- 78- من أعلام ومشاهيرهم، إعداد عبد الماجد الغوري، ط1. دمشق: دار ابن كثير 2002م.
- 79- منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء، ط1. لکناؤ: الجمع الإسلامي العلمي، الهند، (د.ت).
- 80- من نهر كابل إلى نهر اليرموك، طبعة أنقرة: دار الهلال، 1974م.
- 81- مواسة أم مساواة؟، لكهنؤ: منشورات الجمع الإسلامي الهند، (د.ت).
- 82- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ط5، دمشق: دار القلم 1980م.
- 83- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ط4. جدة: الدار السعودية للنشر، (د.ت).
- 84- النبي الخاتم والدين الكامل، ط لكهنؤ: منشورات: الجمع الإسلامي 1399هـ.
- 85- نحو التربية الإسلامية الحرة، ط4- قسنطينة: مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع، 1982م.
- 86- نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية، ط1. بيروت: دار الإرشاد، 1969م
- 87- ندوة العلماء مدرسة فكرية شاملة، لكهنؤ: منشورات ندوة العلماء، الهند (د.ت).
- 88- نصائح وتوجيهات، ط1. دمشق: دار ابن كثير 1999م.
- 89- نظرات في الأدب، ط1. عمان: دار البشير 1990م.
- 90- نظرات في الحديث، ط1. دمشق: دار ابن كثير 1999م.
- 91- نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة 1987م.

ج- مقالات أبي الحسن الندوي.

92- لقاء مع العلامة أبي الحسن الندوي، مجلة الرائد الهندية، العددان 01 و02 السنة الرابعة والعشرين الموافق 01-16 جويلية 1982م.

د- مقدمات أبي الحسن الندوي.

- 93- مقدمة تهذيب الأخلاق لعبد الحي الحسني، ط1، بيروت: المكتبة العصرية (د-ت).
 94- مقدمة رسالة التوحيد، تعريب أبي الحسن الندوي، ط1، دمشق: دار وحي القلم 2003م.
 95- مقدمة منتورات من أدب العرب، ط1. لكهنؤ: ندوة العلماء شعبة الطباعة والنشر، (0د، ت).

ثانيا: المراجع العربية:

أ - الكتب:

آبادي، (محمد شمس الحق، ت 1329هـ).
 96- عون المعبود في شرح سنن أبي داوود، تح: عبد الرحمان محمد عثمان، المدينة المنورة: المطبعة السلفية 1969م.

إبراهيم أنيس، (ت 1977م).

97- دلالة الألفاظ، ط2. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1963م.

أحمد أمين، (إبراهيم الطباخ، ت 1954م)

98- زعماء الإصلاح، ط1. الجزائر: موفم للنشر 1999م.

99- ضحى الاسلام. ط10. بيروت: دار الكتاب اللبناني، (د.ت)، ج3/1.

أحمد أبو صالح (د. محب الدين).

100- التربية الإسلامية ط1. دمشق: دار ابن كثير 2002م.

أحمد مختار عمر

101- علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط: 6، 2006م.

إدوارد (سعيد، ت 2003م).

102- الاستشراق - المعرفة - السلطة - الإنشاء - تر: كمال أبو أديب، ط7. بيروت: مؤسسة

الأبحاث العربية، 2005م.

103- الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية، بيروت: 2006م.

أركون، (محمد، ت 2010م).

104- الفكر الإسلامي قراءة علمية، تر: هاشم صالح، ط2. الدار البيضاء: المركز الثقافي في

العربي.

- 105- القرآن من تفسير الموروث إلى التحليل الخطاب الديني، تر: هاشم صالح، ط2. بيروت: دار الطليعة، 2005م.
الأزهرى، (السيد أسامة).
- 106- الرد المبين على من تلاعب بالدين، ط2. أبو ظبي: دار الفقيه، 2015م.
أسد، (محمد، ت1992م).
- 107- الإسلام في مفترق الطرق، تر: عمر فروخ، ط بيروت: دار العلم للملايين.
إقبال (د. محمد، ت1938م).
- 108- تجديد التفكير الديني في الإسلام، تر: عباس محمود القاهرة: دار آسيا 1985م.
- 109- ديوان الأسرار والرموز، تر: د. عبد الوهاب عزام، ط2. القاهرة: دار الأنصار 1981م.
- 110- ما وراء الطبيعة في إيران، تر: حسين مجيب المصري، ط1. المجلس القومي للترجمة 2005م.
الألباني، (محمد ناصر الدين، ت1999م).
- 111- سلسلة الأحاديث الضعيفة، ط1. الرياض: مكتبة المعارف، 1992م.
ابن الألوسي، (نعمان خيرالدين، ت1899م).
- 112- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، ط1، القاهرة: مطبعة المدني 1981م.
ابن أنس، (مالك، ت179هـ)
- 113- الموطأ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ط القاهرة: دار الكتاب المصري بالاشتراك.
الإيجي، (عضد الدين، ت758هـ).
- 114- المواقف في علم الكلام، ط بيروت: عالم الكتب، (د.ت).
بارت (رودي، ت1983م).
- 115- الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، تر: مصطفى ماهر، ط1. القاهرة: :
دار الكتاب العربي، 1967م.
البخاري، (محمد بن اسماعيل، ت256هـ)
- 116- الجامع الصحيح، طبعة الأستانة، دون تحديد تاريخ الطبع.
بدوي (عبد الرحمن، ت2002م).
- 117- موسوعة المستشرقين، ط1. بيروت: دار العلم للملايين، 1984م.
- 118- موسوعة الفلسفة، ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984م.
البهي، (محمد، ت1982م)

- 119- الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، ط6. بيروت: دار الفكر 1973م.
التبريزي، (الخطيب، ت 302هـ).
- 120- مشكاة المصابيح، تح: محمد ناصر الدين الألباني، ط2. بيروت: المكتب الإسلامي، 1979م.
الترايبي، (أليف الدين، 2014م).
- 121- أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته، ط1. الكويت: دار القلم، (د ت).
الترمذي، (أبو عيسى محمد بن عيسى، ت 279هـ)
- 122- الجامع الكبير، تح: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996م.
- 123- السنن، تح: إبراهيم عطوة عوض، ط2. القاهرة: مطبعة الحلبي، 1975م.
- 124- السنن تح: الألباني، ط1. الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1417هـ.
الفتازاني، (مسعود بن عمر، ت 793هـ).
- 125- شرح المقاصد، تح: عبد الرحمن عميرة، ط2، بيروت، عالم الكتب 1998م. 4/1 أجزاء.
التهانوي، (محمد بن علي، ت 1158هـ)
- 126- كشاف اصطلاحات الفنون تح: أحمد بسج، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية،
1998م. 4/1 أجزاء.
بن تومي، (اليامين).
- 127- مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبو زيد، ط1. الجزائر: منشورات الاختلاف
2011.
جدعان، (فهمي)
- 128- أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ط3. عمان: دار الشروق، 1988م.
جرار، (حسن أدهم)
- 129- محمد المبارك العالم والمفكر الداعية، عمان: دار البشير 1981م.
الجليند، (محمد السيد)
- 130- من قضايا الفكر الإسلامي، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، (د.ت).
الجمال (د. حمد بن صادق).
- 131- مصطلحات القرآن الأربعة في فكر المودودي، ط2. الرياض دار عالم الكتب 1993م.
الجندي، (أنور، ت 2002م)
- 132- الإسلام والفكر المعاصر، الموسوعة الإسلامية العربية ج1، ط1. بيروت: دار الكتاب
البناني، 1973م.

- الجوزية، (ابن قيم، ت 751هـ).
- 133- مفتاح دار السعادة، تح: عبدالرحمن قائد، ط1. جدة: منشورات المؤتمر الإسلامي، دار عالم الفوائد.
- جيدل (د. عمار).
- 134- ماهية الإنسان من خلال رسائل النور، ط1. شركة نسل للطبع والنشر 2001م.
- حرب، (علي).
- 135- نقد الحقيقة، ط2. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1995م.
- الحسني، (عبد الحي، ت 1923 م).
- 136- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمى "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"، ط1. بيروت: دار ابن حزم 1999م.
- 137- تهذيب الأخلاق، ط1، بيروت: المكتبة العصرية (د-ت).
- 138- الثقافة الإسلامية في الهند، المسمى ب" معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف"، ط2. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق 1983م.
- الحسيني (السيد قدرة الله).
- 139- العلامة عبد الحي الحسني، ط1. جدة: دار الشروق للنشر والتوزيع 1983 م.
- ابن حنبل (أحمد، ت 241 هـ)
- 140- المسند، ط1 بيروت: دار صادر 1969م.
- 141- المسند، تح: أحمد شاكر، ط2. القاهرة: دار المعارف 1971م.
- حنفي (د. حسن)
- 1- التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1992.
- 2- دراسات إسلامية، مؤسسة الأنجلو المصرية، 1981.
- 3- من العقيدة إلى الثورة، ج 5/1، القاهرة: مكتبة مدبولي 1988م.
- الخالدي، (صلاح عبد الفتاح).
- 4- في ظلال القرآن في الميزان، ط1، الجزائر: شركة الشهاب.
- خان (وحيد الدين)
- 5- تجديد علوم الدين، تر: ظفر الإسلام خان، ط1، القاهرة: دار الصحوة للنشر، 1986م.
- 6- خطأ في التفسير، (دون بيانات النشر).

- 7- قضية البعث الإسلامي المنهج والشروط، تر: محسن عثمان الندوي، ط 1، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1984م
- 8- الإسلام يتحدى، ترجمة ظفر الإسلام خان، ط 3، القاهرة: دار المختار الإسلامي، 1973م. ابن خلدون، (عبد الرحمن، ت 808 هـ).
- 9- المقدمة، ط بيروت: دار الكتاب اللبناني والاشترك مع مكتبة المدرسة 1982م.
- 10- المقدمة، بيروت: دار الجيل، (د، ت).
- 11- المقدمة، تح: عبدالله محمد الدرويش، ط 1 دمشق: دار البلخي، 2004م. الدارقطني، (أبو الحسن علي، ت 385 هـ).
- 12- السنن، تح: شعيب الأرنؤوط، ط 1. بيروت: دار الرسالة 2004م. الدارمي، (أبو محمد عبدالله، ت 255 هـ).
- 13- المسند. المعروف بسنن الدارمي، ط 1 بيروت: دار ابن حزم، 2002م. أبو داود، (سليمان بن الأشعث، ت 285 هـ).
- 14- السنن، تح: شعيب الأرنؤوط، ط. بيروت: دار الرسالة العالمية 2009م. الدهلوي (أحمد بن عبد الرحيم، ت 1176 هـ).
- 15- عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، تح: محمد علي الحلبي ط 1. الشارقة: دار الفتح 1995م.
- 16- حجة الله البالغة، ط. بيروت: دار المعرفة (د.ت).
- 17- حجة الله البالغة، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995 م.
- 18- الفوز الكبير في أصول التفسير، تر: سلمان الندوي، ط 4. الهند: دار السنة 2002م.
- 19- الفوز الكبير في أصول التفسير، تر: سلمان الحسيني الندوي، ط 2. القاهرة: دار الصحوة 1986م. الدهلوي، (إسماعيل بن عبد الغني، ت 1246 هـ).
- 20- رسالة التوحيد، تعريب أبي الحسن الندوي، ط 1، دمشق: دار وحي القلم 2003م. دوكنز، (ريتشارد).
- 21- وهم الإله، تر: بسام البغدادي، ط 1. (دون بيانات النشر)، 2009م.
- دوزي، (رينهت، ت 1883م).
- 22- المسلمون في الأندلس، تر: حسن حبشي، ط 1. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م.

- الذوادي، (زهير).
- 23- شاه ولي الله تجديد الدين وتجديد الدنيا، ط1. بيروت: دار الانتشار العربي 2012م.
ابن رشد، (أبو الوليد محمد، ت 595هـ)
- 24- الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، بإشراف: محمد عابد الجابري، ط1. بيروت:
مركز دراسات الوحدة العربية، 1998م.
الرفاعي (عبد الجبار).
- 25- تحديث الدرس الكلامي والفلسفي في الحوزة العلمية، ط:1، دمشق: دار المدى، 2010.
رودنسون، (مكسيم، ت 2004م).
- 26- جاذبية الإسلام، تر: الياس مرقص، ط1. بيروت: دار التنوير 2005م.
الزرقاني، (محمد عبدالعظيم، ت 1367هـ).
- 27- مناهل العرفان في علوم القرآن، ط بيروت: دار الفكر (د.ت).
الزقزوق، (محمود حمدي)
- 28- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الفكري، ط. القاهرة: دار المعارف، 1997م.
- 29- الموسوعة الإسلامية العامة، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 2003 م.
زكريا (هاشم زكريا)
المستشرقون والإسلام، ط1. القاهرة: نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1965م.
الزبيدي (عبد الرحمن)
- 30- مناهج البحث في العقيدة الإسلامية، ط1. الرياض: دار إشبيليا 1998م.
أبو زيد، (نصر حامد، ت 2010م).
- 31- مفهوم النص، ط5. المركز الثقافي العربي، 2000م.
- 32- النص والسلطة والحقيقة، ط4. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000م.
السباعي، (مصطفى، ت 1964م).
- 33- مقدمة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، لأبي الحسن الندوي، ج1. ط9، الكويت: دار
القلم 1993م.
السخاوي (شمس الدين محمد، ت 902هـ)
- 34- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تح: محمد عثمان
الخشنت، ط1. بيروت: دار الكتاب اللبناني 1985م.

- سوذرن (ريتشارد، ت 2001م).
- 35- صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، تر: رضا السيد، ط1. بيروت: دار المدار الإسلامي، 2006م.
- السرهندي، (أحمد، ت 1034هـ).
- 36- المكتوبات الربانية، تر: محمد المنزلي، ط1. دار الكتبي: اسطنبول، (د، ت).
- السلماني (تركي عبد مجيد)
- 37- الفكر والسلوك السياسي عند أبي الحسن التدوي، ط1. دمشق دارالقلم 2004م.
- بنت الشاطي، (عائشة عبد الرحمن، ت 1998م).
- 38- تراثنا بين ماض وحاضر، ط1. القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 1967م.
- الشافعي، (حسن محمود)
- 39- المدخل الى دراسة علم الكلام، ط2. القاهرة: مكتبة وهبة 1991م.
- الشعراني، (أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي ت 973هـ).
- 40- الطبقات الكبرى، ط. القاهرة: دار الفكر العربي، 1952م.
- شلي، (أحمد جاب الله، ت 2000م)
- 41- أديان الهند الكبرى، مقارنة الأديان ج4، ط3. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1972م.
- شيخو، (الأب لويس، ت 1928م).
- تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين، (1800- 1925)، ط3. بيروت: دار المشرق، 1991م.
- صبري، (مصطفى، ت 1954م).
- 42- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ط2. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1981م.
- صليبا، (جميل، ت 1976م).
- 43- المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982.
- الطبراني، (سليمان بن أحمد، ت 360هـ).
- 44- في المعجم الكبير، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، ط1. القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 1397هـ.
- الطنطاوي، (علي، ت 1999م).

- 45- مقدمة في مسيرة الحياة، ج1، ط1، دمشق: دار القلم 1987م.
- 46- مقدمة كتاب الندوي، الطريق إلى المدينة، ط4. دمشق: دار القلم، 1980م.
طه حسين، (ت 1973م).
- 47- في الأدب الجاهلي، ط3. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1933م.
طه عبد الرحمن.
- 48- تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، (د.ت)
- 49- حوارات من أجل المستقبل، ط1. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2011م.
- 50- سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائثة الغربية، ط5. الدار البيضاء: 2013م.
ابن عاشور، (محمد الطاهر، ت 1973م).
- تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنة، ط1. تونس: الشركة التونسية للنشر والتوزيع 1985م.
عبد (محمد، ت 1905م).
- 51- رسالة التوحيد، ط1. الجزائر: مؤفم، 1989م.
- 52- رسالة التوحيد، بيروت: دار احياء العلوم، 1985م.
عثمان أمين، (ت، 1979م).
- 53- محمد إقبال، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
ابن عربي، (محيي الدين، ت 638هـ)
- 54- الفتوحات المكية، ط، بيروت: دار صادر، (د.ت).
العشري، (جلال 1989م).
- 55- العقاد والعقادية، ط 1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1994.
العقاد (عباس محمود، ت 1964م)
- 56- أفيون الشعوب، بيروت: المكتبة العصرية 1947م.
- 57- الإنسان في القرآن، ط2، بيروت: دار الكتاب العربي، 1969م.
- 58- الإسلام في القرن العشرين، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.
عبد الحليم محمود، (ت، 1978م).
- 59- الإسلام والعقل، ط 1. القاهرة: دار الكتب الحديثة 1966م.
العقيقي، (نجيب، ت 1981م).
- 60- المستشرقون، ط4. القاهرة: دار المعارف 1980م.

- عواجي، (غالب، ت 1438هـ).
- 61- فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، ط4. جدة: المكتبة العصرية الذهبية، 2001م.
- غراب، (أحمد عبد الحميد).
- 62- رؤية إسلامية للاستشراق، ط2. لندن: المنتدى الإسلامي، 1411هـ.
- الغزالي، (أبو حامد محمد، ت 505هـ).
- 63- تحافت الفلاسفة، تح: سليمان دنيا، ط6، القاهرة: دار المعارف.
- 64- جواهر القرآن، ط3. البليدة: قصر الكتاب.
- 65- المنقذ من الضلال، تح: عبد الحلیم محمود، ط2. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1985م.
- 66- المنقذ من الضلال، تح: جميل صليبا، ط بيروت: دار الأندلس، 1996م.
- الغزالي، (محمد، ت 1996م).
- 67- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ط3. القاهرة: نخضة مصر 1999م.
- 68- الغوري (السيد عبد الماجد).
- 69- أبو الحسن علي الحسيني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب، ط2، دمشق: دار ابن كثير 1999م.
- 70- أبو الحسن علي الحسيني الندوي الإمام المفكر الداعية المرابي الأديب، ط3. دمشق: دار ابن كثير 2005م.
- 71- مقدمات أبي الحسن الندوي، ط1، دمشق: دار ابن كثير، 2010م.
- الفارابي، (أبو نصر محمد بن طرخان، ت 339هـ).
- 72- إحصاء العلوم، تح، عثمان أمين، ط3، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968 م.
- ابن فارس، (أحمد بن زكريا، ت 395هـ).
- 73- مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ط. دمشق: دار الفكر، 1979م.
- فرحات (عبد الوهاب)
- 74- علم العقيدة في ضوء التحديات الفكرية المعاصرة، ط1، قسنطينة: دار البعث، (د-ت).
- فرغل، (بجبي هاشم، ت 2011م).
- 75- عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، ط1. القاهرة: دار الآفاق العربية 2013م.
- فوك، (يوهان، 1974م).
- 76- تاريخ حركة الاستشراق، تر: عمر لطفي العالم، ط2. بيروت: دار المدى الإسلامي، 2001م.

- الفيروز آبادي، (مجد الدين، ت 817هـ).
- 77- القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث، ط3. دمشق: مؤسسة الرسالة، 2009م.
قاسم (عبده قاسم).
- 78- الحروب الصليبية -نصوص ووثائق- ط1. بيروت: الدار العربية للدراسات والنشر
1985م.
- قطب، (سيد، ت 1966م).
- 79- معالم في الطريق، ط10. القاهرة: دار الشروق، 1983م.
القرضاوي (يوسف).
- 80- الندوي كما عرفته، ط1، دمشق، دار القلم 2001م.
- 81- ابن القرية والكتاب، ط1، القاهرة: دار الشروق.
الكتاني، (عبد الحي، ت 1962م).
- 82- معجم المعاجم والمشيوخ والمسلسلات، تح: إحسان عباس، ط1. بيروت: دار الغرب
الإسلامي، 1982 م.
- 83- كيحل (مصطفى).
- 84- الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، ط1. الجزائر: منشورات الاختلاف 2011م.
لوثروب، (ستودارد، ت 1950م)
- 85- حاضر العالم الإسلامي، تر: عجاج نويهض، ط4. بيروت: دار الفكر 1973م.
ابن ماجه، (أبو عبد الله محمد بن يزيد، ت 273هـ).
- 86- السنن، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، ط. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، (د، ت).
- 87- سنن ابن ماجه، عناية الألباني، ط1. الرياض 1417هـ.
المبارك (محمد بن عبد القادر، ت 1981م)
- 88- الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، ط2. بيروت: دار الفكر 1970م.
- 89- نظام الاسلام العقيدة والعبادة، ط2 بيروت: دار الفكر 1981.
- 90- نحو وعي إسلامي جديد، ط1. بيروت: دار الفكر 1970م.
المجدوب، (محمد، ت 1999م).
- 91- علماء ومفكرون عرفتهم، ط4. القاهرة: دار الشواف 1992م.
- مجموعة من المؤلفين:

العقلانية الإسلامية والكلام الجديد، ط: 1، بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2008.

- مذكور، (إبراهيم، ت 1996م).
- 92- المعجم الفلسفي، ط. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية مصر، 1983 م. محمد عمارة.
- 93- أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية، ط1. القاهرة: دار الشروق 1987م. محمد يوسف موسى (ت 1963م).
- 94- الاسلام وحاجة الإنسانية إليه، ط. بيروت: دار الفكر العربي. مريم، (جميلة، ت 2012م).
- 95- الإسلام في النظرية والتطبيق. تر: س. حمد. ط 1. الكويت: مكتبة الفلاح 1978م. مسلم، (ابن الحجاج القشيري النيسابوري، ت 261هـ).
- 96- الجامع الصحيح ط1 بيروت: دار الفكر 1983 م. معوض (أحمد)
- 97- العلامة محمد إقبال حياته وآثاره، ط1: القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980م. ابن منظور (محمد بن مكرم الأفريقي، ت 711هـ).
- 98- لسان العرب، ط1، بولاق: المطبعة الأميرية بمصر 1300هـ.
- 99- لسان العرب، ط3. بيروت: دار صادر، 1414هـ. المودودي، (أبو الأعلى، ت 1979م).
- 100- الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، تر: احمد خليل الحامدي، ط2. الكويت: دار القلم الكويت، 1974م.
- 101- المصطلحات الأربعة في القرآن، ط5، الكويت: دار القلم، 1971م.
- 102- واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، ط. باتنة: دار الشهاب 1988م. الميداني، (عبد الرحمن حسن حنبكة، ت 2004م).
- 103- العقيدة الإسلامية وأسسها، ط 15. دمشق: دار القلم، 2010. ابن نبي (مالك، ت 1973 م)
- 104- وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر 1985م.
- 105- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ط1. بيروت: دار الإرشاد، 1969م.

- النجار، (عبد المجيد)
- 106- الإيمان بالله وأثره في الحياة، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي 1997م.
- 107- الإنسان في العقيدة الإسلامية: مبدأ الإنسان، ط1. الرباط: مطبعة الزيتونة، 1996
- 108- الإنسان في العقيدة الإسلامية: قيمة الإنسان، ط1. الرباط: مطبعة الزيتونة، 1996
- 109- مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي 1992م.
- الندوي، (محمد اجتباء)
- 110- أبو الحسن الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل، ط1، دمشق: دار القلم 2001م.
- الندوي، (محمد أكرم).
- 111- شبلي النعماني علامة الهند الأديب والمؤرخ الناقد الأريب، ط1، دمشق، دار القلم، م2001.
- 112- أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، ط1، دمشق، دار القلم، م2006.
- الندوي، (محمد الرابع).
- 113- منشورات من أدب العرب، ط1. لكهنؤ: ندوة العلماء شعبة الطباعة والنشر، (د، ت).
- الندوي، (مسعود، ت 1954م)
- 114- تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند وباكستان، الدار العربية للنشر والتوزيع (د.ت).
- الندوي (نذر الحفيظ الأزهرى).
- 115- أبو الحسن الندوي كاتباً ومفكراً، ط2. الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع 1986م.
- النعماني، (شبلي، ت 1914م).
- 116- علم الكلام الجديد، تر: جلال السعيد الحفناوي، ط1، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2012 النعيمي، (أحمد نوري).
- 117- الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا حاضرها ومستقبلها، ط1، عمان: دار البشير، 1993.
- النورسي (بديع الزمان سعيد، ت 1960م).
- 118- كليات رسائل النور، ج 9/1، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط2. شركة سوزلر 1992م.
- 119- النبوة وضرورتها للإنسانية، إعداد خديجة النبراي، ط2. شركة سوزلر 1992م.
- 120- الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط1، اسطنبول: سوزلر للنشر، 1409هـ.
- نومسوك، (عبدالله)
- 121- البوذية تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها، ط1. الرياض: أضواء السلف 1999م.
- الهضيبي (حسن، ت 1973م).

- 122- دعاة لا قضاة، ط1. الجزائر: دار الصديقية للنشر 1989م.
- الهيثمي، (نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، ت 807هـ).
- 123- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تح: حسن سليم الداراني، ط1 دمشق: دار المأمون للتراث.
- يحيي، (عبد الواحد، ت 1951م).
- 124- أزمة العالم الحديث، تر: عدنان نجيب الله، مع جمال عمار، ط1. بيروت: المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية 2016م.
- 125- شرق وغرب، ترجمة: عبد الباقي مفتاح، ط1، إريد: عالم الكتب الحديث، 2016 م.
- يحيي، (مراد).
- 126- معجم أسماء المستشرقين، ط. الكتب العربية. (ط. ت).
- ب: المقالات والدوريات:**
- 127- مجلة البعث الإسلامي العدد العاشر المجلد الرابع والثلاثون شهر فيفري 1990م.
- الأميني، (نور عالم خليل).
- 128- كبار الشخصيات الهندية تبدي أسفها على رحيل الشيخ، مجلة الداعي، ديونند الهند: العدد 11-12، عام 2000م.
- با طاهر، (عبد القادر بن عيسى).
- 129- ملامح الأدب الإسلامي في كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي، مقال منشور ضمن عدد خاص أصدرته رابطة الأدب الإسلامي العالمية بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة للرابطة سنة 1996 باسطنبول، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2002م.
- بدر، (عبدالباسط).
- 130- جهود أبي الحسن في خدمة الأدب الإسلامي، مجلة الأدب الإسلامي، الرياض: منشورات الأدب الإسلامي، العدد7، عام 1421هـ.
- الدريني، (فتحي، ت 2013م).
- 131- علاقة الدين بالفطرة وكيف قررها القرآن الكريم، مقال منشور بالأردن في مجلة هدي الإسلام، مجلد31، العدد04، السنة 1987م.
- الزير (محمد بن حسن).
- 132- السيرة النبوية في أدبيات الشيخ أبي الحسن الندوي، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق، مصر، العدد31، السنة 2001م.
- صلاح إسماعيل.

- 133- دراسة المفاهيم من زاوية فلسفية، مقال منشور في مجلة إسلامية المعرفة، ماليزيا، العدد: 8،
أفريل 1997.
منتران، (روبير).
- 134- الاستشراق الفرنسي أصوله، تطوره، آفاقه، تر: يوسف حبي، مقال منشور في مجلة الاستشراق
العراقية، العدد 02، شباط 1987م، منشورات: دار الشؤون الثقافية العامة.
الندوي، (أبو سحبان روح القدس)
- 135- العلامة الشريف عبد المحي بن فخر الدين الحسيني الرائي بريلوي، مجلة البعث الإسلامي
الهندية، الأعداد التالية: 1-2-3 المجلد 44، سنتي 1998 - 1999م على التوالي.
ج: الرسائل الجامعية:
العباس الطيب عبد الرؤوف، (عثمان).
- 136- الجهود الأدبية والنقدية لأبي الحسن الندوي - دراسة تحليلية نقدية - رسالة ماجستير غير
منشورة مقدمة في قسم اللغة جامعة أم درمان بالسودان، 2013م.
فرحات (عبد الوهاب).
- 137- أبو الحسن الشاذلي حياته ومدارسته في التصوف، رسالة ماجستير مقدمة في كلية أصول
الدين، قسم العقيدة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية 1995م.
فضل الله، (حنان محمد).
- 138- أبو الحسن الندوي وجهوده الدعوية رسالة ماجستير غير منشورة جامعة أم درمان
الإسلامية، كلية الدعوة الإسلامية، السودان، 2010م.
عاشور (رياض السيد السيد).
- 139- جهود الشيخ أبي الحسن الندوي في الدعوة الإسلامية، رسالة ماجستير غير منشورة كلية أصول
الدين، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، جامعة الأزهر الشريف، 1993م.
كتانة (مناف أحمد).
- 140- المنهاج التعليمي عند الشيخ أبي الحسن الندوي، رسالة ماجستير مقدمة في قسم الدراسات
الإسلامية غير منشورة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، 2004م، الأردن.
بغول (وجدة).
- 141- إسلامية المعرفة عند محمد المبارك، رسالة ماجستير مقدمة في قسم الدعوة والاتصال، كلية
أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 2003-2004م.
د- الشبكة العنكبوتية:

بوزيان، (عليان).

142- مقصد حفظ نظام الأمة - مقارنة مقاصدية - منشور على الشبكة العنكبوتية، ينظر:

<http://almuslimalmuaser.org/index.php?option=com-k2&view=item&id=129:maksad-hefz-el-2om>

ثالثا: المراجع الأجنبية:

(Arberry) A.J

143- The Cambridge School of Arabic (Cambridge،1948)

Hashim Raza

144- Quid-Iazam From Bakistan Pictorial - (may-june)، 2001 Islamabad.

Rodinson) M- (

145- Mohamed،frank furt، ed، 1977

فهرس الآيات القرآنية

| الصفحة | رقم الآية | الآية أو شرطها |
|----------------------|-----------|---|
| [البقرة: 2] | | |
| 209 | 3-1 | ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَرْجُونَ رَبَّهُمْ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ آيَاتٌ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْكُفْرَانُ أَكُفْرَانًا أَثَٰمًا ۚ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ |
| 172 | 29 | ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا.....﴾ |
| 185 | 30 | ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.....﴾ |
| 184 | 31 | ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ.....﴾ |
| 144 | 38 | ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى.....﴾ |
| 240 | 60 | ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ.....﴾ |
| 240 | 63 | ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ |
| 52 | 105 | ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ.....﴾ |
| 208 | 158 | ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ |
| 173 | 165 | ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا.....﴾ |
| 217-119 | 185 | ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ |
| 291 | 201-200 | ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا..... عَذَابَ النَّارِ﴾ |
| 209-119 | 286 | ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ |
| [آل عمران: 3] | | |
| 220-77 | 31 | ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ |
| 230 | 49 | ﴿إِنِّي أَخَلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ |
| 217 | 50 | ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ.....﴾ |
| 39 | 79 | ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّينِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ.....﴾ |
| 161 | 103 | ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً.....﴾ |
| 45 | 139 | ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ |

| | | |
|----------------------|---------|---|
| 119 | 179 | ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَدِرُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ ﴾ |
| [النساء: 04] | | |
| 223 | 80 | ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ |
| [المائدة: 05] | | |
| 216-198 | 03 | ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْخَنِزِيرِ..... ﴾ |
| 165 | 32 | ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ..... ﴾ |
| [الأنعام: 06] | | |
| 284-267 | 29 | ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ |
| 119 | 39 | ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبِكُمْ فِي الظُّلْمَاتِ..... ﴾ |
| 120 | 79-76 | ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا..... وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ |
| 143 | 82 | ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ..... ﴾ |
| 119 | 116 | ﴿ وَإِن نُّطِغَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ..... ﴾ |
| 153 | 163-162 | ﴿ قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي..... وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ |
| [الأعراف: 07] | | |
| 60 | 43 | ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ |
| 155 | 54 | ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ |
| 39 | 58 | ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ..... ﴾ |
| 186 | 129 | ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا..... ﴾ |
| 218 | 157 | ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ |
| 217 | 158 | ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ |
| [الأنفال: 08] | | |
| 46 | 73 | ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..... ﴾ |
| [التوبة: 09] | | |
| 291 | 38 | ﴿ فَمَا مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ |

| [يونس : 10] | | |
|------------------|-------|--|
| 291 | 8-7 | ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ |
| 139-133 | 101 | ﴿ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ |
| [هود : 11] | | |
| 250 | 01 | ﴿ أَلَمْ يَكْتُبْ أَهْلَكْتُمْ آيَاتَهُ ثُمَّ فَضَّلْتُمْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾ |
| 206 | 113 | ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ |
| [يوسف : 12] | | |
| 249 | 2-1 | ﴿ أَلَمْ تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ |
| [الرعد : 13] | | |
| 39 | 11 | ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ |
| [إبراهيم : 14] | | |
| 176 | 34-32 | ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَظُلُومٌ كَقَارٍ ﴾ |
| [الحجر : 15] | | |
| 249 | 01 | ﴿ أَلَمْ تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ |
| 250-219-74 | 09 | ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ |
| [النحل : 16] | | |
| 98 | 78 | ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ |
| 119 | 103 | ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ |
| 43 | 125 | ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ |
| [الإسراء : 17] | | |
| 280 | 20 | ﴿ كَلَّا نُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ ﴾ |
| 176 | 70 | ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ |
| 119 | 94 | ﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ |

| [الكهف: 18] | | |
|----------------|---------|---|
| 176-119 | 29 | ﴿ وَقِيلَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ..... ﴾ |
| 288 | 109 | ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي..... ﴾ |
| [طه: 20] | | |
| 57 | 50 | ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ |
| 287-145 | 126-124 | ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي..... وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴾ |
| [الأنبياء: 21] | | |
| 118 | 22-21 | ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ..... رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ |
| 223 | 107 | ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ |
| [الحج: 22] | | |
| 118 | 05 | ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ..... ﴾ |
| 256-245 | 41 | ﴿ الَّذِينَ إِن مَكَّتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ..... ﴾ |
| 217-208 | 78 | ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ |
| [المؤمنون: 23] | | |
| 118-91 | 91 | ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ..... ﴾ |
| [النور: 24] | | |
| 185 | 35 | ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ..... ﴾ |
| [الفرقان: 25] | | |
| 217 | 01 | ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ |
| [الشعراء: 26] | | |
| 250 | 195-192 | ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ..... بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ |
| 98 | 226 | ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ |
| [النمل: 27] | | |
| 192 | 66 | ﴿ بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا..... ﴾ |

| | | |
|-----------------------|-------|---|
| [القصص: 28] | | |
| 292 | 60 | ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ |
| [العنكبوت: 29] | | |
| 291 | 64 | ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ ﴾ |
| [الروم: 30] | | |
| 72 | 30 | ﴿ فَأَقْرِبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ |
| [السجدة: 32] | | |
| 119 | 13 | ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ﴾ |
| [الأحزاب: 33] | | |
| 223-77 | 21 | ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ |
| 70 | 36 | ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ |
| 198 | 40 | ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ |
| 223-70 | 46-45 | ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ |
| [سبأ: 34] | | |
| 217 | 28 | ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ |
| [فاطر: 35] | | |
| 98 | 28 | ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ |
| [يس: 36] | | |
| 119 | 79-78 | ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ |
| [الصفات: 37] | | |
| 45 | 172 | ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ |
| 45 | 173 | ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِبُونَ ﴾ |
| [ص: 38] | | |
| 186 | 26 | ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ |

| | | |
|----------------------|-------|--|
| 176 | 72-71 | ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ....فَقَعُوا لَهُ سٰجِدِينَ﴾ |
| 176 | 75 | ﴿قَالَ يَآٰإِبٰلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ اسْتَکْبَرْتَ.....﴾ |
| 71 | 87-86 | ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَیْهِ مِنۢ أَجْرٍ.....إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِیْنَ﴾ |
| [الزمر: 39] | | |
| 75 | 18-17 | ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧٧﴾.....وَأُولٰٓئِكَ هُمۡ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ |
| 152 | 29 | ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا.....أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ |
| [فصلت: 41] | | |
| 219 | 42-41 | ﴿إِنِّ الَّذِیْنَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ.....تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ |
| 139-133-55 | 53 | ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايٰتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِيٰٓ أَنفُسِهِمْ.....﴾ |
| [الشورى: 42] | | |
| 91 | 11 | ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا.....﴾ |
| 70 | 53-52 | ﴿وَإِنَّا لَنَهْدِيْكَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ.....أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ |
| [الزخرف: 43] | | |
| 70 | 43 | ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ |
| [الجاثية: 45] | | |
| 183 | 13 | ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ.....﴾ |
| [محمد: 47] | | |
| 174 | 12 | ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِیْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ جَنَّٰتٍ.....﴾ |
| [الفتح: 48] | | |
| 223 | 9-8 | ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا.....وَنَسِیْحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ |
| 223 | 10 | ﴿إِنِّ الَّذِیْنَ یُبٰیعُونَكَ إِنَّمَا یُبٰیعُونَ اللَّهَ﴾ |
| [الحجرات: 49] | | |
| 159 | 13 | ﴿یٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبٰٓئِلَ.....﴾ |

| | | |
|-----------------------|-------|--|
| [الذاريات: 51] | | |
| 139-133 | 21-20 | ﴿ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٥١﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ |
| [الطور: 52] | | |
| 118 | 35 | ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾ |
| [النجم: 53] | | |
| 177 | 41-38 | ﴿ أَلَا تَذَرُ وَازِرَةً وِزْرًا أُخْرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ |
| [القمر: 54] | | |
| 241 | 17 | ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ |
| [المجادلة: 58] | | |
| 45 | 21 | ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ |
| [الحشر: 59] | | |
| 42 | 10 | ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ﴾ |
| 91 | 24-22 | ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ |
| [الصف: 61] | | |
| 98 | 3-2 | ﴿ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ يَقُولُوا تَقُولُوا مَا لَا تَقْعَلُونَ ﴾ |
| [الجمعة: 62] | | |
| 99 | 05 | ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ |
| [نوح: 71] | | |
| 118 | 16-15 | ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ |
| [المزمل: 73] | | |
| 155 | 09 | ﴿ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ |
| [القيامة: 75] | | |
| 250 | 19 | ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ |

| | | |
|-----------------------|-----|--|
| [الإنسان: 76] | | |
| 179 | 03 | ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ |
| [الشرح: 94] | | |
| 176-76 | 04 | ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ |
| [التين: 95] | | |
| 189-177 | 6-4 | ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ فَالَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ |
| [الإخلاص: 112] | | |
| 91 | 4-3 | ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ |

فهرس الأحاديث النبوية

| الصفحة | طرف الحديث | الرقم |
|---------|--|-------|
| 78 | (ألا أني أوتيت القرآن ومثله معه.....) | 01 |
| 199 | (أنا محمد أنا احمد وأنا الماحي.....) | 02 |
| 71 | (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأحشاكم لله وأتقاكم له.....) | 03 |
| 182-158 | (يا أيها الناس إن ربكم واحد.....) | 04 |
| 70 | (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن أمر عليكم عبد حبشي.....) | 05 |
| 270 | (إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن.....) | 06 |
| 172 | (إن الله عزّ وجلّ يقول يوم القيامة.....) | 07 |
| 199 | (إن الرسال والنبوة قد إنقطعت.....) | 08 |
| 219-40 | (إن الله يبعث لهذه الأمة.....) | 09 |
| 199 | (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبل.....) | 10 |
| 70 | (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ.....) | 11 |
| 278 | (الحكمة ضالة المؤمن.....) | 12 |
| 164 | (الخلق عيال الله.....) | 13 |
| 88 | (شييتني هود وأخواتها) | 14 |
| 199 | (فضلت على الأنبياء بست.....) | 15 |
| 98 | (لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال.....) | 16 |
| 198 | (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء.....) | 17 |
| 78 | (كان خلقه القرآن) | 18 |
| 70 | (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل) | 19 |
| 59 | (ما من مولود إلا ويولد إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه) | 20 |
| 270 | (فيبقى شرار الناس.....) | 21 |
| 270 | (ينزل الدجال بهذه السبخة.....) | 22 |

فهرس الموضوعات

| الصفحة | المحتويات |
|--|--|
| | الإهداء |
| أ | مقدمة |
| الفصل الأول: عصر أبي الحسن علي الحسن النّدوي وحياته ومنهجه | |
| المبحث الأول: عصر أبي الحسن النّدوي | |
| 12 | تمهيد |
| 12 | أولاً: الأوضاع السياسية والاجتماعية في عصر النّدوي |
| 12 | 1- الوضع السياسي |
| 14 | 2- الوضع الاجتماعي |
| 18 | ثانياً: الأوضاع الدينية والعلمية في عصر النّدوي |
| 18 | 1- الوضع الديني |
| 23 | 2- الوضع العلمي |
| المبحث الثاني: حياة أبي الحسن النّدوي | |
| 31 | تمهيد |
| 32 | 1- ولادته ونشأته العلمية |
| 36 | 2- وظيفته وأشغاله |
| 37 | 3- الزواج |
| 37 | 4- صفته وأخلاقه |
| 39 | 5- جهوده الدعوية |
| 40 | 6- مرتكزات العمل الدعوي عند النّدوي |
| 44 | 7- آثاره العلمية |

| | |
|--|---|
| 48 | 8- محاضرات الشيخ الندوي |
| 48 | 9- أهم المناصب التي تولها الشيخ الندوي |
| 49 | 10- جوائز التكريم والشهادات التي نالها الشيخ الندوي |
| 50 | 11- لقاءات الشيخ الندوي ومقابلاته |
| 50 | 12- إشادة العلماء بالشيخ الندوي والثناء عليه |
| 53 | 13- دنو الأجل ووفاة الشيخ |
| المبحث الثالث: المعرفة والمنهج عند أبي الحسن التّدوي | |
| 55 | تمهيد: |
| 55 | 1- مذهبه في المعرفة ومصادرها |
| 70 | 2- منهج التأسّي والافتداء |
| 94 | 3- خصائص منهج التأسّي والافتداء عند الندوي |
| الفصل الثاني: آراء الندوي في مواجهة التحديات الداخلية | |
| المبحث الأول: علم الكلام النشأة والتطور | |
| 110 | تمهيد: |
| 110 | 1- تعريف علم الكلام |
| 112 | 2- أسماء علم الكلام |
| 112 | 3- فائدته |
| 115 | 4- موضوعه |
| 116 | 5- منهجه |
| 118 | 6- أسباب نشأة علم الكلام |
| 122 | 7- مراحل علم الكلام |
| 127 | 8- مفهوم تحديد علم الكلام |

| | |
|--|--|
| المبحث الثاني: | |
| أبعاد التوحيد ومضامينه عند أبي الحسن الندوي | |
| 141 | تمهيد: |
| 142 | 1- دواعي اهتمام الندوي بالتوحيد ومضامينه |
| 143 | 2- أبعاد التوحيد في رؤية الندوي |
| المبحث الثالث: | |
| الإنسان في رؤية أبي الحسن الندوي | |
| 167 | تمهيد: |
| 169 | 1- دواعي اهتمام الندوي بقضية الإنسان |
| 171 | 2- أهمية الإنسان |
| 173 | 3- طبيعة الإنسان |
| 176 | 4- تكريم الإنسان |
| 185 | 5- وظيفة الإنسان |
| 189 | 6- مصير الإنسان |
| المبحث الرابع: | |
| رؤية الندوي لعقيدة ختم النبوة | |
| 195 | تمهيد: |
| 196 | 1- مفهوم ختم النبوة |
| 197 | 2- أهمية عقيدة ختم النبوة عند الندوي |
| 197 | 3- أدلة الندوي على ختم النبوة |
| 201 | 4- جهود الندوي في الرد على القاديانية |
| 203 | 5- النقد العلمي للقادياني والقاديانية: |
| 213 | 6- جهود الندوي في الرد على الشيعة الإمامية |

| | |
|--|---|
| المبحث الخامس: | |
| صيانة المفاهيم الدينية من التحريف | |
| 228 | تمهيد: |
| 228 | 1- معنى المفهوم |
| 229 | 2- بنية المفاهيم |
| 229 | 3- توضيح المفاهيم ضرورة معرفية |
| 233 | 4- تحريف المفاهيم |
| 234 | 5- جهود الندوي في حفظ الدين من تأويلات المتحرفين |
| 243 | 6- التفسير السياسي للدين وموقف الندوي منه |
| 248 | 7- تفسير المودودي وسيد قطب في الميزان |
| الفصل الثالث: | |
| آراء الندوي في مواجهة التحديات الخارجية | |
| المبحث الأول: | |
| جهود الندوي في نقد الحضارة الغربية | |
| 263 | تمهيد: |
| 263 | 1- دواعي اهتمامه بقضية الحضارة الغربية |
| 265 | 2- جذور ومصادر الحضارة الغربية عند الندوي |
| 267 | 3- أسس الحضارة الغربية |
| 268 | 4- خصائص الحضارة الغربية |
| 271 | 5- وسائل انتشارها وتغلغلها في العالم الإسلامي |
| 276 | 6- موقفه من الحضارة الغربية |
| 279 | 7- نقد الحضارة الغربية من خلال مکتوبات أبي الحسن الندوي |
| المبحث الثاني: | |
| رؤية الندوي للاستشراق | |
| 305 | تمهيد: |
| 306 | 1- مفهوم الاستشراق |

| | |
|--------------------------------|--|
| 308 | 2- الفكر الاستشراقي (النشأة والتطور) |
| 312 | 3- دوافع وأهداف الاستشراق |
| 320 | 4- مناهج المستشرقين |
| 322 | 5- وسائل المستشرقين لتحقيق أغراضهم |
| 324 | 6- الآثار السلبية للاستشراق على المجتمعات الإسلامية عند أبي الحسن الندوي |
| 329 | 7- الموقف من الاستشراق |
| 333 | 8- إستراتيجية الندوي في مواجهة الاستشراق |
| 335 | الخاتمة |
| 339 | فهرس المصادر والمراجع |
| الفهارس | |
| 359 | فهرس الآيات |
| 368 | فهرس الأحاديث |
| 369 | فهرس الموضوعات |
| ملخص الدراسة باللغة العربية | |
| ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية | |
| ملخص الدراسة باللغة الفرنسية | |

ملخص الدراسة:

يتناول هذا البحث مسألة بناء علم الكلام الجديد عند العلامة أبي الحسن الندوي، باعتباره علما من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، فُدِّر له أن يقوم بأدوار مشكورة في مجال التأصيل الفكري وبخاصة في مجال علم الكلام موضوع هذه الدراسة.

لقد عاش الندوي (1914م-1999م) في عصر تميز بشدة الاستقطابات السياسية والاجتماعية والدينية، بلغت فيه غالبية الأقطار الإسلامية غاية التضعع والتدهور، لأسباب داخلية وخارجية مما أقعد الأمة الإسلامية عن أداء شهودها الحضاري، ولقد كان لهذا الضعف أبلغ الأثر في نفس الندوي فقد شاهد السرعة العجيبة التي ينحو فيها العالم الإسلامي نحو الغرب، سواء في عاداته وتقاليده، ومثله، أو طريقة تفكيره، ونظرته للكون والحياة والإنسان، فحاول الرجل بكل ما أوتي من جهد محاربة مركب النقص الذي سرى في نفسيات أبنائه، ومحاولة استحياء قدرة الأمة على استعادة مركزها الحضاري .

يقوم هذا البحث بحسب الهدف المرسوم له لاستخلاص جهود أبي الحسن الندوي من خلال الاعتماد على مؤلفات الندوي نفسه ذات الصلة بعلم الكلام الجديد، وأيضاً من خلال ما كتب عنه من طرف تلاميذه ومحبيه.

ويهدف هذا البحث إلى المساهمة في بناء مدونة عقدية تكون في حجم التحدي المطروح والغاية المنشودة.

أما المنهج الذي توخيته للوصول إلى هذا الهدف فهو المنهج التحليلي النقدي حيث عمدت إلى جمع المتناثر من كلام الندوي هنا وهناك من مؤلفاته، وكتابات، وأحاديثه، ورسائله، ثم جمعها وتحليلها من أجل التعرف على جهود الندوي في بناء علم الكلام الجديد، كما لم أغفل ما كتب عنه من مدونات وذلك ليتسنى لنا الحكم الموضوعي على ما خلفه من تراث بحيادية وأمانة.

أما التوصيات فكانت في مجملها موجهة للباحثين للاهتمام بسؤال الأخلاق عنده، أو بالانشغال بنقده للحضارة الغربية، عليهم يجدون فيها ما يسهم في حل بعض الأزمات التي تتخبط فيها الإنسانية في عصرنا الحالي .

Résumé:

Cette recherche aborde le sujet de la construction d'une nouvelle théologie islamique (nouveau Ilm Al-Kalâm) chez le savant Abi Al-Hassan Ennadoui qui représente une icône dans le domaine du raisonnement islamique contemporain. Il a joué un rôle important dans le domaine de l'origination intellectuelle (Ta'assilFikri) notamment en ce qui concerne le thème de cette étude (Ilm Al-Kalâm).

Abi Al-Hassan Ennadoui (1914-1999) vivait dans une époque caractérisée par plusieurs polarisations politiques, sociales et religieuses. Dans laquelle la plupart des pays musulmans ont connu une dégradation et un écroulement massifs dû à des raisons intérieures et extérieures ce qui a empêché par la suite la communauté musulmane d'accomplir son rôle dans la civilisation mondiale, cette faiblesse a profondément touché l'âme d'Ennadoui qui a constaté l'influence rapide de l'occident sur le monde musulman à travers ses traditions et ses coutumes, ses modèles, sa façon de penser, sa vision vers la planète, la vie et l'homme. Ce savant a fait de son mieux pour lutter contre le complexe d'infériorité qui s'est répandu dans l'esprit des jeunes musulmans, il a essayé aussi de faire revivre la possibilité de la communauté musulmane (Umma) à reprendre sa place dans la civilisation mondiale.

L'objectif de cette recherche est la contribution à produire un corpus doctrinal qui pourra être à la hauteur du défi à relever et à la visée attendue.

Pour atteindre ce but, j'ai adopté la méthode analytique critique, j'ai rassemblé les paroles d'Ennadoui à partir de ses œuvres, ses écrits, ses citations et ses lettres, après, j'ai passé à l'assemblage et l'analyse de tout cela afin de connaître les efforts consentis par Ennadoui dans la construction d'une nouvelle théologie (nouvel IlmKalâm). Je n'ai pas écarté aussi les corpus qui ont parlé de ce savant afin qu'on puisse être objectif et neutre à juger ses œuvres.

Concernant les préconisations, elles sont généralement destinées aux chercheurs pour s'intéresser de la question de la morale chez Ennadoui ou de s'occuper de sa critique à la civilisation occidentale, espérons qu'ils puissent trouver des solutions pour certaines crises humanitaires de notre époque.

Abstract:

This research dealt with the construction of the new science of speech at the mark of Abi Hassan al-Nadawi, as one of the flags of modern Islamic thought. He was able to play a role in the field of intellectualization, especially in the field of theology.

Al-Nadawi lived in an era characterized by strong political, social and religious polarization, in which the majority of the Islamic countries became very weak and weak, both internally and externally. The Islamic nation was excluded from the performance of its civilizational witnesses. The Muslim world imitated the West, both in its customs and traditions, and like him, or his way of thinking, and his view of the universe, life and man. Al-Nadawi tried with all his efforts to fight the complex of inferiority that was applicable there in the hearts of people and to try to motivate the ability of the nation to restore its civilizational status.

This research was based on the objective that assigned to him which was to draw the efforts of Abulhasanal-Nadawi by relying on the writings of al-Nadawi himself in sense to the new science of speech, and also through what was written about him by his followers and loved ones.

The research aimed at contribution to the construction of a code of ethics that will beat the level of the challenge and the Target situation.

The critical analytical method was the approach used, where the collection of the scattered from the words of Nadawi here and there from his writings, writings, conversations, and letters, and then it was collected and analyzed in order to recognize the effort of Nadawi in building the new science of speech, also did not neglect what was written about him from the blogs so that we can judge objectively on the legacy with neutrality and honesty.

The recommendations were addressed to researchers for the issue of the question of morality, or preoccupation with criticism of the Western civilization, in order to find what contributes to the solution of some of the crises in which humanity is floundering in our time.



Democratic People 's Republic of Algeria
Ministry of Higher Education and Scientific Research
Elemir Abdulkader University of Islamic Sciences
faculty of the fundamentals of religion
Department of faith and the comparative religions

***Abul Hassan Ali Al Hassani Al Nadawi
And building new argument science***

***Thesis submitted for requirements of PhD in Islamic Sciences
Specialization: theology***

Prepared by the student:
Djamel Lachraf

supervised by :
Dr. Abdelmalek Ben Abbes

| Full Name | Academic degree | Original university | Rate |
|--------------------------|-----------------|------------------------------|------------|
| Dr.Fateh Halimi | Professor | Emir Abdulkader -Constantine | President |
| Dr. Abdelmalek Ben Abbes | Lecturer A | Emir Abdulkader -Constantine | Supervisor |
| Dr. Brama Ahcen | Lecturer A | Emir Abdulkader -Constantine | Member |
| Dr. Tourki Abderahman | Professor | Hamma Lakhder - Eloued | Member |
| Dr Habassi khaled | Lecturer A | Hamma Lakhder - Eloued | Member |
| Dr.Elamri Merzoug | Professor | Elhadj Lakhdher Batna 1 | Member |

University Year: 1439-1440/2018-2019

جامعة الأميرة
عبد القادر للعالم الإسلامي



Democratic People 's Republic of Algeria
Ministry of Higher Education and Scientific Research
Elemir Abdulkader University of Islamic Sciences
faculty of the fundamentals of religion
Department of faith and the comparative religions

***Abul Hassan Ali Al Hassani Al Nadawi
And building new argument science***

***Thesis submitted for requirements of PhD in Islamic Sciences
Specialization: theology***

Prepared by the student:
Djamel Lachraf

supervised by :
Dr. Abdelmalek Ben Abbes

| Full Name | Academic degree | Original university | Rate |
|--------------------------|-----------------|------------------------------|------------|
| Dr.Fateh Halimi | Professor | Emir Abdulkader -Constantine | President |
| Dr. Abdelmalek Ben Abbes | Lecturer A | Emir Abdulkader -Constantine | Supervisor |
| Dr. Brama Ahcen | Lecturer A | Emir Abdulkader -Constantine | Member |
| Dr. Tourki Abderahman | Professor | Hamma Lakhder - Eloued | Member |
| Dr Habassi khaled | Lecturer A | Hamma Lakhder - Eloued | Member |
| Dr.Elamri Merzoug | Professor | Elhadj Lakhdher Batna 1 | Member |

University Year: 1439-1440/2018-2019